إحياء علوم الدين

الإمام أبو حامد الغزالي

المجلد الأول

مكتبة زهران
٢١ شارع الشيخ محمد عبده
عطفة الدوداري
خلف الأزهر . ت/ ٩١٥٣١٢

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى

مع مقدمة فى التصوف الإسلامى ودراسة تحليلية لشخصية الغزالى
وفلسفته فى الإحياء

بقلم

الدكتور بدوى طبانه
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الغزالي وإحياء علوم الدين

تمهيد فى التصوف الإسلامى :

— ١ —

جاء الإسلام على فترة من الديانات ، و بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه على فترة من الرسل ، ليعيد لعقيدة التوحيد صفاءها ونقاءها ، و يطهرّها من أدران الشرك والوثنية ، وليعدل زيغ البشرية فى عقائدها وعباداتها ومعاملاتها ؛ وليرسى القواعد الأساسية التى تقوم عليها صلة الإنسان بربّه ، وتنهض بهـا علاقته بأخيه الإنسان ؛ وليرسم للناس مقاييس السلوك ، ويتمم مكارم الأخلاق ؛ و يضع بكل ذلك دستوراً لمجتمع قوىّ سليم ، تصان فيه حقوق الإنسان وحرياته ، وتحدد فيه أعباؤه وتكاليفه فى المجتمع الذى يعيش فيه .

وكان فى تعاليم الإسلام ونصوص القرآن أكبر باعث على تنمية الضمير الإنسانى .

فقد جعلته تلك التعاليم يعتقد أن عليه رقيباً حسيباً : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » ، وهو يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، وهو الذى : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » .

و بذلك يعلم أنه لو خُلِّىَ بينه و بين المعصية لما اقترفها ، لأنه يرى بضميره ذلك الرقيب فى السّر ، كما يرى آياته ماثلة شاخصة ، ويراه فى جنح الظلام ، كما يرى الذين يخشاهم فى رائعة النهار وأنها : « إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

وخلاصة مبادئ الإسلام مبدآن : عملٌ للدنيا وعملٌ للآخرة . يتلخصان فى قوله تعالى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ » . وقول الرسولّ: أعمل لدُنياك كأنك تعيشُ أبداً ، وأعملْ لآخرتك كأنك تموت غداً .

ومقتضى العمل للدنيا أن يكون الإنسان فرداً فعالا يؤثر فيما حوله ، و يتأثر بمـا حوله . وليس للحىّ مناص من خوض معترك الحيـاة ، يضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، ساعياً فى رزق ، أو طالباً لمجد وكرامة ، وتلك سُنّة الحياة وطبيعة الأحياء ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا مادامت السموات والأرض .

و إذا وجدت فكرة التبتّل والانقطاع شيئاً من الدعوة إليها ، فإن فى النصوص الصريحة من الكتاب والسنة مايؤيد فكرة العمل ومايحث عليها و يطالب بها فى إصرار وتوكيد ، حتى لتصبح فكرة التبتل والانقطاع وسيلة لكبح جماح النفس ، والمبالغة فى طلب الحياة والحرص عليها ، واستسلام النفس للنزوات وحب الشهوات .

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق شاهد على ذلك ؛ وهو القدوة لكل مسلم ، وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ومنتهى القول فيه أنه إنسان كامل : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

وآثاره صلى الله عليه وسلم فى العمل والكسب كثيرة ، منها قوله: « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » . وروت عائشة رضى الله عنها أن النبى صنع شيئاً ترخص فيه ، وتنزه عنه قوم ، فبلغه ذلك . فحمد الله ، ثم قال : مابال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه ؟ فوالله إنى أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية !

هذا العمل نفسه ، و إن كان للدنيا ، و إن كان الفرد يتحرى به خيره أو خير غيره ، عملٌ للآخرة إذا ما اتبع فيه الحق ، وأنصف نفسه من غيره ، وأنصف الناس منه ، وابتغى بذلك الإنصاف وجه الله والدار الآخرة ، وراعى أصول العقائد والعبادات التى تكون بين العبد وربه ، لاتتجاوز تلك الدائرة إلاَّ قليلاً .

وهكذا كان القصد والاعتدال من سنن الإسلام ، الذى يمقت الغلو أشد المقت . فالإسراف فى النفقة رذيلة ، والمسرف من إخوان الشياطين ؛ مع أن بذل المال مطلوب ، وكنزه يوجب العقاب: « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » . ولكن الذى يضيع ماله على خلاف مقتضى العقل والشرع ، ولوفى الخير كبناء المساجد ؛ سفيهٌ ينبغى الحجر عليه ومنعه من التصرف فى ماله .

والذى يعنت نفسه فى ضروب العبادات ويبالغ فيها مسرفٌ ، كالمنبت الذى لايقطع أرضاً ، ولا يبقى ظهراً . ومثله سواء بسواء المقبل على الدنيا ، العاكف على لذتها ، المتهالك على عرضها الزائل ، الذى شغل بها عما عند الله ، وغفل عن حقّ ربه ، وحق دينه ، وحق غيره فيما عنده

— ٢ —

كذلك كان الإسلام ، وكذلك كانت سماحة الإسلام : فرض على المسلم صلاةً وزكاةً وصوماً وحجًّا ؛ وكتب عليه جهاداً لايقوى عليه إلا بحسن التدبير الذى يستلزم صحة الأبدان وصحة العقول ، وإعداد المال والرجال ، من غير طغيان حق على حق ، أو إيثار العاجلة على الآجلة .

وسار المسلمون هذه السيرة فى الصدر الأول ؛ حتى آل الأمر إلى مُلك عضوض ، أصبحت فيه السياسة فنًّا لايتحرج فيه عن الوسيلة فى التماس الغلبة ، وطغت المادية على رجال الحكم ، وقلدهم فى ذلك رعاياهم ، فأقبلوا على الدنيا وعكفوا على ضروب الخداع واللهو ، واتخذوا الجوارى والقيان ، وسكنوا القصور ، وعمروا الأرض ، واصطنعوا الملاذ التى كان يترفع عنها المسلمون فى الصدر الأول ، وحاموا حول الشبهات ، واستهتروا بها ، وتأولوا فى استباحتها آى القرآن وسنة النبى .

وقد كان لخلفاء بنى أمية سياستان اقتضاهما الحفاظ على الملك فى بيتهم يتوارثه أبناؤهم وخلفاؤهم ، فهم يتبعون سياسة القمع و يعملون السيف والعسف مع الخارجين عليهم من أهل العراق الذين كانوا شيعة لعلىّ وأهل بيته ؛ وهم يتبعونهم بالجفاة الغلاظ من الولاة والعمال ؛ على حين يصانعون أشراف الحجاز الذين كانت قلوب الساخطين الناقمين على سياسة بنى أمية تتطلع إليهم ، فترى الخلفاء يلينون لهم فى القول ويتجاوزون عن مسيئهم ، و يشجعون حياة اللهو والترف فيهم بما يغدقون عليهم من العطاء ، ليشغلوهم عن التطلع إلى الخلافة و إلى مناصب الدولة .

أما ذوو الجاه الذين مدّ لهم السلطان فى الأسباب فظلوا سادرين فى لهوهم وترفهم . على حين يئس الآخرون من عامة أهل الحجاز وسواد أهل العراق من كل سبب من أسباب الدنيا .

وكان هذا اليأس من المنصب والحرمان من البر والفرار من الفتنة التى حدثت فى صفوف المسلمين ، مدعاة لعكوفهم على العبادة والزهادة ؛ فانطووا على أنفسهم ، يتذاكرون كتاب الله وسنة نبيه ، و يشغلون أنفسهم بقصص الوعظ والزهد ، والتصبر بما وعد الله الصابرين من الأجر وجزيل الثواب .

عاد هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة النبوية يستخلصون منهما نصوص الترغيب فيما عند الله وابتغاء ثواب الآجلة ليجعلوه منهجهم فى الدار الفانية ؛ ورأوا الزهد والانصراف إلى العبادة مرقاة الصعود إلى الله وكسب رضاه ، والوصول إلى المعرفة الكاملة بملكوت الله ، وهم يوقنون أن أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب التى دنسها حبّ الدنيا التى استغرق أكثر همها طلب العاجلة ؛ بما فيها من رغد وزينة وجاه وسلطان: « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » .

والأصل هو معرفة الله تعالى ، ثم سلوك الطريق إليه ، فأما أمر الآخرة فيكفى فيه الإيمان المطلق ، فإن للعارف المطيع معاداً مسعداً ، وللجاحد العاصى معاداً مشقياً ، فأما معرفة تفصيل ذلك فليس بشرط فى السلوك ، لكنه زيادة تكميل للتشويق والتحذير (١) .

وذلك الأصل هو الذى أفنى فيه أولئك زهرة حياتهم ، وهو الذى أنفقوا فى التعرف عليه جل ما وهبوا من عقل وتفكير ، وهو الذى ساقهم إلى التدبر فى فهم آثار الصنعة ، حتى يتسنى لهم الوصول بهما إلى المعرفة الحقة بالصانع ، وتلك المعرفة غاية فى ذاتها ، إذ بها يصبح العبد ربانياً،وفى درك تلك الغاية السّعادة الحقة ، وكل مايصطنعه العبد من عمل ومجاهدة إنما هو للوصول إلى تلك الغاية ، غاية المعرفة .

ولا تكون تلك الغاية لمن نظر إلى غير الخالق ، لأن النظر إلى غيره عمًى عنه ، وغفلة عن طريقه ، ولا يجمل بالحر المريد أن يتذلل للعبيد ، كيف وهو يجد عند الله كل ما يريد (٢) ، و إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس .

---

(١) الغزالى : جواهر القرآن ١٢ (طبعة الرحمانية ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ)
(٢) راجع فوات الوفيات لابن شاكر ٣/١ (مطبعة بولاق ـ القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

والطريق إلى الله يستلزم أمرين : الملازمة والمخالفة · والملازمة ملازمة ذكر الله تعالى، والمخالفة لما يشغل عن الله ، وهذا هو السفر إلى الله . وليس فى هذا السفر حركة لا من جانب المسافر ولا من جانب المسافر إليه ، فإنهما معاً . أوَ ما سمعت قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ؟! .

بل مثل الطالب والمطلوب مثل صورة حاضرة مع مرآة ، ولكن ليست تتجلى فى المرآة لصدأ فى وجه المرآة ، فمتى صقلتها تجلت فيها الصورة ، لا بارتحال الصورة إلى المرآة ، ولا بحركة المرآة إلى الصورة ، ولكن بزوال الحجاب ، فإن الله تعالى متجل بذاته لا يختفى ، إذ يستحيل اختفاء النور ، بل بالنور يظهر كل خفاء ، والله نور السموات والأرض .

وإنما خفاء النور عن الحدقة لأحد أمرين : إما لكدورة فى الحدقة ، وإما لضعف فيها ، إذ لا تطيق احتمال النور العظيم الباهر ، كما لا يطيق نور الشمس أبصار الخفافيش . . . والنور يتجلى فى بعض المرايا أصح وأظهر وأقوم وأوضح ؛ وفى بعضها أخفى وأميل إلى الاعوجاج عن الاستقامة ، وذلك بحسب صفاء المرآة وصقالتها وصحة استدارتها، واستقامة بسط وجهها ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة [(1)] » .

ومن هذا الدليل المادى كان الاتجاه العملى إلى جلاء النفس وصقلها ، وسبيل ذلك مجاهدة النفس وإحكام مخالفتها بالانصراف عن الدنيا ، والعكوف على العبادة ، وترويضها بطول الخلوة والسياحة والصوم وقلة الطعام فى الفطر وكثرة الذكر ، وغير ذلك من وسائل حمل النفس على غير ما تشتهى .

ويبدو من هذا أن السلبية كانت الطابع العام ، ومحاربة النفس كانت الأصل عند أولئك الزاهدين فى الدنيا وزينتها .

— ٣ —

وكانت بعد ذلك حركات عقلية اقتحمت أودية التفكير الإسلامى ، وتنبهت المسلمين إلى ألوان من المعرفة لم يكن لهم من أكثرها حظ ؛ وضروب من التفكير لم يسبق لهم مزاولتها ، والأمة الإسلامية تتطلع إلى احتلال منزلتها ؛ وبناء مدنيتها على تلك الأسس الوطيدة التى أرسى دعائمها الإسلام، وهو دين البشرية الذى بعث صاحبه إلى الأسود والأحمر : « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » وهو رسول الله وخاتم النبيين .

ولذلك كان على حماة هذا الدين والقوامين عليه أن يطوفوا بكل جهات المعرفة ، ويقفوا على ما عند غيرهم من أبناء الأمم من ضروب المعرفة وألوان التفكير ، حتى لا تخفى عليهم زاوية من زوايا العقل ، ولذلك لم يقفوا عند حدود النصوص ليؤمنوا بها إيماناً مطلقاً ، ولم يعودوا يكتفون بالإيمان المجرد . بل أحسوا بضرورة البحث فى أسس هذا الإيمان وضرورة تطبيقه على العقل . وقد وجدوا فى نصوص الدين ما يحث على ذلك النظر وما يشجع على إعمال العقل والتفكير

وكانت هنالك أمم سبقتهم إلى البحث والتفكير فى الكون وخالقه ، والحياة وما وراءها ، والإنسان فى

(١) جواهر القرآن للغزالى ١٢

حياته وموته وبعثه . وكان لتلك الأمم تراث خلفه علماؤها، وورثته حكماؤها الإنسانية لتنظر فيه، وتنقص منه أو تزيد عليه، ما وسعتها الزيادة وما وسعها التهذيب والتصحيح .

وجدّ المسلمون في جمع ذلك التراث ونقله إلى لسانهم العربي، حتى إذا اجتمع لهم منه شيء كثير، أخذوا في تفهمه ومدارسته، وجدّوا في تمحيصه وتطبيقه على ما ورثوه من دين ومعرفة وعقيدة وعبادة ومعاملة وسلوك .

وقد بلغ هذا التيار مداه في القرنين الثالث والرابع الهجريين . ففي هذين القرنين كانت أودية العلم تموج بتلك التيارات الفكرية الطارئة التي حذقها كثير من المسلمين، وعظم بذلك سلطان العقل، وطغى الجدل بين العلماء طغياناً كاد يُنسى كثيرا منهم الأصل الذي ورثوه عن إسلامهم وعروبتهم .

فالحكمة الهندية وفلسفة فارس وفلسفة يونان ومنطقهم، كل ذلك أصبح يجرى على ألسنة العلماء والمتكلمين من المسلمين ويشغل بالهم، ويدعوهم إلى البحث في دينهم وأصول عقائدهم على ضوء هذه المعرفة التي جدّت على بيئتهم ووجد فيهم من يتعصب لتلك الثقافات الطارئة، ومن يؤثرها على ثقافته الأصيلة، إلى جانب الذين وصلوا هذه بتلك، وكوّنوا من هذا المزاج زاداً جديداً للعقل العربي الإسلامي .

وعاد الأمر إلى أولئك الزهاد الذين صدفوا عن الدنيا وزينتها، ولم تعد السلبيّة التي كانوا يؤثرونها تقبل منهم في هذا المجتمع المضطرب؛ فقد أصبح الفكر دعامة كل منهج من مناهج الحياة، سواء أكان ذلك المنهج منهجا نظريا، أم منهجا عمليا . ولذلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى فلسفة فكرتهم في الحياة حتى تنهض على أسس تماثل تلك الأسس التي أقام عليها غيرهم سلوكهم في الحياة .

الإمام الغزالي

وقد أنجب القرن الخامس الهجري علماً من أعلام الفكر الإسلامي، هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالي، ويجمل بنا أن نشير إلى شيء من تاريخ هذا الإمام، لنقف من هذا التاريخ على العوامل التي تظاهرت على تكوين هذه العقلية الفريدة، وألوان الثقافة التي احتشدت في ذهنه، وجعلته أهلاً لأن يحتل تلك المنزلة الجليلة بين زهاد المسلمين ومتصوفيهم وأنباه مفكريهم .

وفي مدينة طوس[1] وفي منتصف القرن الخامس الهجري (٤٥٠ هـ) ولد أبو حامد من أب عفّ النفس . ... يغزل الصوف ويبيعه، ويختلف في أوقات فراغه إلى العلماء في حلقاتهم والفقهاء في دروسهم، والوعاظ في مجالسهم، يستمع إليهم، ويتطلع إلى صنيعهم في التعليم والإفادة، ويلاطفهم بما يفضل من قوته وحاجته . وكان

---

(١) طوس : مدينة بخراسان . بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ، فتحها المسلمون في أيام عثمان بن عفان، وبها قبر على بن موسى الرضا، وقبر هارون الرشيد، وبها آثار إسلامية جليلة .

قال ياقوت : خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقه مالا يحصى، وحسبك بأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي وأبي الفتوح أخيه .. (معجم البلدان ٦/٧١)

تأثره بتلك المجالس وما يدور فيها من فنون العلم والوعظ عظيما ، جعله يضرع إلى الله أن يهب له ولداً من صلبه يجلس مجالس أولئك الفقهاء والوعاظ الذين يعلمون الناس أمور دينهم ، ويبصرونهم بخير الحياة الدنيا والآخرة .

واستجاب الله لدعائه فرزقه ولدين : أحدهما أبو حامد الذى نتحدث عنه ، والآخر أخوه أحمد الذى اشتغل بالوعظ وبرع فيه إلى درجة كبيرة [١] .

ولما حضرت الوفاة ذلك الأب الصالح وصّى بأبي حامد وأخيه صديقا له من أهل التصوف . وقال له : إنّ لي لتأسّفا عظيما على ما فاتني من التعلم ، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين ، فعلّمهما ، ولا عليك أن ينفد في سبيل ذلك جميع ما أخلفه لهما !

وأنفذ الصوفيُّ وصيته ، وأقبل على تعليمهما ، حتى فنى المال القليل الذى خلّفه أبوهما ، وتعذر عليه المضيُّ في تعليمهما أو تقديم الطعام الذى يقتاتان به . ولم يجد من السبل ما يحفظ به عليهما حياتهما إلا أن يلحقهما بمدرسة من تلك المدارس التى تقدم لطلاب العلم فيها الغذاء والكساء . وقد أحسن الرجل بذلك صنعاً إلى هذين اليتيمين اللذين لا عائل لهما ولا مال يعينهما على الحياة ، ولذلك كان الغزالى يقول وهو يذكر هذا الصنيع : « طلبْنا العلمَ لغير الله فأبىَ أن يكونَ إلا لله » . ومعنى ذلك أنهما طلباه ليكون وسيلة للعيش ، يُجْرى عليهما بسببه ما يُجْرى على طلبة العلم ، فكان أن أوصلهما إلى الغاية الحقيقية من طلب العلم ، وهى معرفة الله تعالى حق المعرفة !

هذا أبو حامد يقرأ فى صباه طرفا من الفقه ببلده (طوس) ثم يسافر إلى (جرجان)[٢] ويأخذ عن أبى نصر الإسماعيلى ، ثم يرجع الى طوس ، فيقيم بها إلى ماشاء الله حتى يرتحل إلى (نيسابور)[٣] فيلازم إمام الحرمين أبا المعالىَ الجوينِيّ ، ويجد فى طلب الفقه ، فيبرع فيه وفى الجدل والمنطق والفلسفة ويفقه كلام أهل تلك العلوم ، ويتصدى للرد عليهم ، وإبطال دعاواهم ، ثم يقصد (المعسكر) بعد وفاة إمام الحرمين ، ويلقى فيها الوزير نظام الملك ، ويناظر فى مجلسه الأئمة والعلماء ، ويقهر مناظريه ، حتى يعترف الجميع له بالفضل ، ويأمره نظام الملك بالتوجه إلى (بغداد) والتدريس فى المدرسة النظامية ، فيقدمها سنة ٤٨٤ ﻫ وفى تلك المدرسة يعظم مجده ، ويتألق نجمه ، ويذيع صيته ،

---

(١) هو أبو الفتوح أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى الغزالى الملقب مجد الدين . قال ابن خلكان : كان واعظا مليح الوعظ ، صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ ، فغلب عليه ، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبى حامد لما ترك التدريس زهادة فيه ، واختصر كتاب أخيه أبى حامد المسمى بإحياء علوم الدين فى مجلد واحد ، وسماه (لباب الإحياء) وله تصنيف آخر سماه (الذخيرة فى علم البصيرة) وطاف البلاد وخدم الصوفية بنفسه ، وكان مائلا الى الانقطاع والعزلة . . وتوفىّ أحمد بقزوين فى سنة عشرين وخمسمائة [انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٠٧ ــ مطبعة عيسى البابى الحلبى ــ القاهرة ١٣٠٠ﻫ]

(٢) جرجان : مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، فبعض أهلها من هذه وبعضهم من هذه . قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، وقد خرج منها صفوة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى . قال الإصطخرى : أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطرا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة من كبرائهم . وبجرجان مياه كثيرة وضياع عريضة ، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان (راجع معجم البلدان ٣ / ٧٥ طبعة السعادة ١٩٠٦ م)

(٣) نيسابور : بلد كثير الفواكه والخيرات ، كان المسلمون قد فتحوها فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والأمير عبد الله بن عامر ابن كريز فى سنة ٣١ منه ، وقيل إنها فتحت فى أيام عمر رضى الله عنه على يد الأحنف بن قيس ، وإنما انتقضت فى أيام عثمان ، فأرسل إليها عبد الله بن عامر فافتتحها ثانية

حتى ليقال إن مجلس الغزالى كان يحضره ثلثمائة عمامة من أكابر العلماء . وأصبح مضرب المثل فى التدريس والإفادة ؛ تشد إليه رحال طالبى العلم وأهل الورع . ولكن نفسه تصد عن المنصب والجاه ، ويرى أن العلم مع شرفه ، والتعليم الذى يقوم به ، غير خالصين لوجه الله تعالى ، بل باعثهما ومحركهما طلب الجاه و بعد الصيت ، فتيقن أنه على شفا جرف هار ، وأنه قد أشفى على الهلاك إن لم يسرع بتلافى ماهو فيه .

وحينئذ يظهر عزمه على الخروج إلى مكة ، وهو يدبر فى نفسه السفر إلى الشام ، ولكنه لايصرح بنيته حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمه المقام بالشام ، فيتلطف بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد وهو ينوى ألا يعاودها أبداً ؛ واستهدف بذلك لأئمة أهل العراق ، إذ لم يكن فيهم من يجوّز أن يكون الإعراض عما كان فيه سبباً دينيا ، فقد ظنوا أنه بلغ المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

وقد ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بَعُد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، و إما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق به والانكباب عليه و إعراضه عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوىّ ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت الإسلام وزُمرة أهل العلم !

وفارق بغداد ، بعد أن فرق ما كان معه من المال ، ولم يدّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخّصاً بأن مال العراق مُرْصَدٌ للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم ير فى العالَم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه . ودخل الشام ، وأقام به ما يقرب من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، فكان يعتكف فى مسجد دمشق ، يصعد منارته طول النهار ويغلق بابها على نفسه ، حتى رحل إلى بيت القدس ، يدخل كل يوم الصخرة ، و يغلق بابها على نفسه .

ثم تحركت فيه داعية الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسار إلى الحجاز ؛ حتى جذبته الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاوده بعد أن كان أبعد الخلق عن نية الرجوع إليه .

وفى تلك الرحلات صدفت نفسه عن الدنيا ، ولبس الخشن من الثياب ، وقلل طعامه وشرابه ، وصار يطوف المشاهد ويزور المقابر والمساجد للعظة والاعتبار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القُرَب والطاعات ، وفى هذه الأثناء ألف هذا الكتاب (إحياء علوم الدين) حتى رجع إلى بغداد فحدّث به .

عاد الغزالى بعد ذلك إلى خراسان ، وانقطع للعبادة ، وآثر العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، حتى طلب إليه فخر الملك بن نظام الملك أن يقوم بالتدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور ، ولكن الغزالى تأبّى وقال : أريد العبادة ! فقال له : لا يحلّ لك أن تمنع المسلمين الفائدة منك ! فدرس مدة يسيرة .

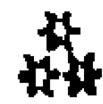
يقول الغزالى فى ذلك : ترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، تعللا بالعجز عن إظهار الحق

بالحجة ، فقدّر الله تعالى أن حرّك داعيـة سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى « نيسابور » لتدارك هـذه الفترة . و بلغ الإلزام حداً كان ينتهى — لو أصررت على الخلاف — إلى حد الوحشة . فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الـكسل والاستراحة . وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك بعسر معاناة الخلق، والله تعالى يقول : « أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . » الآية . ويقول عز وجلّ لرسوله ، وهو أعز خلقه : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ » . . . فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هـذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله تعالى على رأس هذه المائة ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسّر الله تعالى الحركة إلى (نيسابور) للقيام بهذا المهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . . .

قال : وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ؟ فإن الرجوع عود إلى ما كان ! وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيّتى . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبـة الجاه ، هذا هو الآن نيّتى وقصدى وأمنيّتى ، يعلم الله ذلك منى !

وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أُخترم دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأنى لم أتحرك ، لكنّه حرّكنى ، وأنى لم أعمل ، لكنه استعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولا ، ثم يصلح بى ، ويهدينى ، ثم يهدى بى (١) .

وأخيرا يعود الغزالى إلى طوس بعـد المدة التى قضاها فى نيسابور ، ويتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية ، ويوزّع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة الصوفية ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات ، حتى توفى فى رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ .



ذلك ما استطاعت صفحات التاريخ أن تعيه من حياة أبى حامد الرجل فى هذه الحياة الدنيا .

أما عقليته ، فقد رأينا أن هذه السطور لا تكاد تصورها الصورة الـكاملة ، ولن تجد فى هذه الترجمة إلا لمحات من فقره وورعه وعلمه وزهده ، وقد لا يجد القارىء فى هذه الصورة شيئا غريباً ، إنها صورة عادية تمثل رجلا نشأ فقيراً ، فزهد كرهاً أو طوعاً ، وتصوف راضيا أو مضطرا .

وتلك الملامح كثيرة الوجود فى البيئات الإسلامية فى عصر أبى حامد وفى غيره من العصور الإسلامية .

(١) المنقذ من الضلال للغزالى : ص ١٤٤ (الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٥٥ م) .

وإنك لواجدٌ العلم الديني يطلبه الغنيّ والفقير ، والعلم العربيّ يجرى فى المجالس والمدارس والمساجد ميسراً لطالبيه ، ولا يكاد يكلفهم نفقة ولا جهداً .

بل ربما كان طلب هذا العلم باباً من أبواب الرزق ، وسبيلا من السبل التى يسلكها الكثيرون من طالبى الحياة لأجل القوت ، حتى يقووا على السعى والكدّ فى طلبها ، أو حتى يفتح لهم هذا العلم نفسه باباً ، ويهيئ لهم بين العلماء منزلة تهيئ لهم منصباً وجاهاً ، ينالون به الحظوة والزلفى عند أصحاب الملك والسيادة والسلطان ، فتدر لهم أخلاف العطاء ، وينالون بالعلم ما يشتهون من زينة الدنيا وترفها . وهذاما تؤكده قصة الصوفىّ مع أبى حامد ، بعد استهلاك القليل الذى خلفه أبوه له ولأخيه ؛ واضطراره لأن يدخلهما مدرسة كأنهما من طلبة العلم . ويؤكده أيضاً كلمة الغزالى السابقة : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله ! »

ولا شك أن كثيراً من شباب المسلمين قد سلك تلك السبيل التى سلكها أبو حامد ، ولكنهم لم يتمتعوا بما متع به من العقلية الصافية والذكاء الخارق والإخلاص للعلم ، والتفانى فى طلب الحقيقة ، بسلوك سبيلها ، وهو سبيل شاق طويل ، لا يقوى على سلوكه إلا أولو العزم من الباحثين الصابرين ، الذين إذا التوى بهم طريق ، ووجدوه لا يوصل إلى الغاية ، جددوا العزم وشحذوا قوتهم وطلبوا غيره ، ووجدوا فى هذا العناء وفى تلك المصابرة والمثابرة متعة لنفوسهم وراحة لعقولهم الجادة فى طلب المعرفة .

الشك عند الغزالى :

عاش الغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى نضجت فيه العقول واستوت أودية التفكير وتعددت روافده ، بين أصيل ودخيل ، وآخذ من هذا وذاك . واختلفت أساليب المعرفة ، ومناهج البحث عن الحقيقة التى ينشدها كل مفكر . وكثر المتكلمون فى العقائد وفى أصول الدين ، وفى الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وفى المذاهب والديانات ، وفى أفعال العباد وغاياتهم .

وكثر المتكلمون فى كل مسألة من تلك المسائل ، واختلفوا فيما بينهم اختلافاً عظيما ، حتى ليكاد التوفيق بين تلك الآراء المتباينة ، والمذاهب المتباعدة يصبح ضرباً من المستحيل .

وتبدو الصعوبة فى أعظم صورها أمام كل باحث يريد أن يختط لنفسه خطة بين هذه الخطط الكثيرة والأكثرون يتخيرون لأنفسهم طريقة من الطرق المسلوكة يعكفون عليها ؛ ويفقهون نهجها ، ثم يغالون بها ما وسعتهم المغالاة . وربما كانت مقالتهم دون غيرها من المقالات ، وربما كانت أدلتهم دون أدلة غيرهم ، ولكنهم فى الواقع يؤثرون السلامة بالبحث فى دقائق إحدى النواحى ، على حين يغفلون غيرها أو يلمون بها إلماماً عامًّا ، ولم يتسع لهم الوقت للإمعان فى المناهج الكثيرة التى تباين منهجهم ومقالتهم .

وأمام هذا الغلو فى الاعتقاد والتعصب لرأى أو لمنهج أو طريق سلوك ، ورفض كل ما عدا أولئك ، يجد الباحث المجدد نفسه أمام تيار من التردد ، وسيل من الشك فى أى الطرق يختار لنفسه ، إن كان لا يرى التقليد فى إيثار هذا المذهب على ذاك .

وجد الغزالى نفسه بين هذه المذاهب التى لا تكاد تحصى ، وأمام تلك الاتجاهات التى يستحيل التوفيق بينها ، فبدأ حيث بدأ غيره يلم بأطراف من الثقافة السائدة ، ونفسه تتطلع للمزيد ، وإذا المزيد الذى يريده لليقين يسلمه إلى شك طويل ، وإذا هـذا الشك يبدو أمامه فى كل أثر ، ولـكنه لا يسرع إلى النفى، ولا يسرع إلى اليقين ؛ فإن قلبه وعقله لا يرضيان بما رضى به غيره من الاتباع . ولذلك اضطره الشك إلى المـكابدة فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفِرَق ، مع تباين المسالك والطرق ، وإلى الجرأة من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار .

إن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ـ كما يرى الغزالى ـ بحر غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منـه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجى ، و « كلّ حزبٍ بمـا لديهم فرحُون » ، وهو الذى وعد به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وهو الصادق الصدوق حيث قال : « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » فقد كان ما وعد أن يكون !

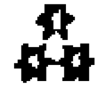
ورأى الغزالى أن أصحاب الأديان كان التقليد ، كما كانت الوراثة ، السبب فى نشأتهم على اليهودية أو النصرانية أو الإسلام ، فصبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهوُّد ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . والحديث المروىّ عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ويُنَصِّرانه ويمجّسانه ! » .

ويحكى الغزالى عن نفسه فى « المنقذ من الضلال » أنه لم يزل فى عنفوان شبابه ، منذ راهق البلوغ قبل العشرين إلى أن أناف سنّه على الخمسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته خوض الجسور، لا خوف الجبان الحذور ، ويتوغل فى كل مظلمة ، ويتهجم على كل مشكلة ويتقحم كل ورطة ، ويتفحص عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشف أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين مُحِقٍّ ومُبطل ، ومتسنّن ومبتدع ، لا يغادر باطنيا إلا أحب أن يطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا أراد أن يعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا قصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا اجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا حرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا ترصّدَ ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا تجسس وراءه للتنبّه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

ويقف الغزالى عند قول الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة . . . » ويتحرك باطنه إلى معرفة حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هـذه التقليدات التى أوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فيقول فى نفسه : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هى ؟ ويظهر له ان العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم . ويعلم أن كل ما لا يعلمه على هذا الوجه ، ولا يتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى !

فهو يتطلب المعرفة الحقة ، المعرفة التى ترادف اليقين ؛ وكان يوقن فى قرارة نفسه بتلك النظرية الثابتة « إن الحقيقة لاتتعدد » ولكنه يرى التعدّد فى الأفكار والمقالات والأديان والمذاهب ؛ إذن لا يكون الحق إلا ديناً واحداً ، ومذهباً واحداً ، ومقالة واحدة . أو بعبارة أخرى لا يكون المعتقد إلا واحداً ؛ والطريق الحق إليه لا يكون إلا واحداً ؛ والتفكير المستقيم هو الذى يسلم إلى هذه الغاية .

ولكن الأديان متعددة ، والمناهج شتى ؛ تفيض بها أودية التفكير ؛ إذن فلا بد أن تكون هنالك عوائق ، حالت بين العقول و بين النهج السوىّ ؛ لآفة أصابتها ، أو علة اعترتها ؛ فكان هذا التعصب للملل والنحل ؛ والناس عبيد لما عرفوا ، وأعداء لما جهلوا .



سبل المعرفة :

قلنا إن الغزالى ابتدأ طريق المعرفة بالشك فيما هو حاصل لدى بعض العقول ، وفيما هو مسلم به لدى بعضها دون البعض ، وهو يبحث عن طريق الأمان ، ولا أمان إلا بالعلم اليقينى الذى لا يقبل الشك ولا التردد ، وطبيعته تأبى التعدد ، فما الوسيلة إلى هذا العلم اليقينى اللازم للفطرة الصافية والعقل السليم ؟

نشد الغزالى هذه الوسيلة فى الجليات ، وهى الحسيات والضروريات ؛ لتكون الوسيلة فى فهم المشكلات ، ليتيقن أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط فى الضروريات ، من جنس أمانه الذى كان من قبل فى التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ، ولا غائلة له ؟

وأقبل بجد يبالغ فى تأمل المحسوسات والضروريات ، وأخذ ينظر هل يمكنه أن يشكك نفسه فيها ؟ وانتهى به طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسه بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات ؟ إنّ أقواها حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ؛ ويكذبه حاكم العقل ويخونه ؛ تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته . فقد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً !

لعلّ سبيل تلك الثقة هو العقليات التى هى من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً واجباً محالاً .

هنا لا يجد الغزالى سبباً واقعياً واحداً ينفى به الثقة بهذه الحقائق العقلية ، التى يلتقى عندها أصحاب العقول قاطبة ، مع اختلاف أجناسهم وأديانهم ؛ ولكنه رجل شك كما أسلفنا ؛ فلا بد أن يجرى مع مذهبه فى التشكك ، ولكنه لا يستطيع أن ينفى الثقة بالعقليات عن سبيل العقل ، ولا عن سبيل التجربة والحس والمشاهدة ، وإذ ذاك يلتمس الشك من سبيل الجدل والسفسطة ؛ ويخترع لذلك قياساً عجيباً ؛ فيزعم أن المحسوسات جادلته وناقشته وحاجّته قائلة : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقاً بى ، فجاء حاكم العقل فكذّبنى ؛ ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، ولعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلّى كذّب العقل

فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك لايدل على استحالته ؟

وتتوقف النفس فى جواب ذلك قليلاً ، وتؤيد إشكالها بالمنام ، وتقول : أما تراك تعتقد فى النوم أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ ، فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ماتعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها؟ . ولعل تلك الحالة ماتدعيه الصوفية أنها حالتهم إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا غاصوا فى أنفسهم، وغابوا عن حواسهم ، أحوالا لاتوافق هذه المعقولات ، ولعل تلك الحالة هى الموت ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف مايشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

خطرت له تلك الخواطر ، وهو فى غمرة الشك والارتياب ؛ إنه يبحث عن يقين يجعله محور البحث ، ونقطة يبدأ منها سبيل الأمان ؛ ليسير نحو الغاية المنشودة بخطا ثابتة ، لاتنتقل إلا إذا اطمأنت إلى سلامة ماقبلها ، وعرفت أنها تسير فوق أرض صلبة .

وحاول أن يخلص من هذا الظن ، وأن يقطع الشك باليقين فلم يتيسر له ، إذ لاوسيلة إلى القضاء على تلك الشكوك إلا بالدليل ، ولم يكن نصب الدليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن تلك العلوم الأولية مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل !

إن نفى الاعتماد على الحواس فى سبيل إدراك العلم اليقينى اعتماداً على بعض مايبدو من خداعها قد يكون له مايسوغه . ولكن هنالك من طرق الكشف مايمكن معه تصحيح تلك الأخطاء والأوهام ، وقد نبه الغزالى نفسه إلى شيء من هذا يمكن به تحقيق بعض الشبه المعارضة . ولكن ماذهب إليه من جواز تفنيد أحكام العقل لايجد مسوغاً إلا هذا القياس الذى رأيناه ، وفيه من الضعف مافيه ؛ إذ أن التفكير السليم إذا خضع للمنطق واعتمد على المقدمات الصادقة كانت أحكام العقل والنتائج التى تفضى إليها نتائج نهائية فى كل زمان وفى كل مكان .

أكبر الظن أن تلك الآراء ؛ كانت رد فعل لما أحدثه الطبيعيون والفلاسفة فى بيئات التفكير الإسلامى ، وهيام بعض المقلدين بآرائهم واعتناقهم إياها ودفاعهم عنها وعن أصحابها ، مباهاة للجمهور الذى قد يجهل كثيراً من تلك الأفكار الطارئة ، ولايعى إلا الأفكار التى أخذها عن الإسلام وتراث العروبة ، ورأى الغناء بها عن تحصيل هذا العلم الطارئ ، الذى لاصلة له بمعتقده ولاأثر له فيه ، ولاسيما أن هذا اللون من المعرفة منسوب إلى جماعة من القدماء ؛ يعرف عنهم قبل كل شيء أنهم من أهل الوثنية . وقد صرح بهذا الغزالى فى التهافت ، وأنه رأى طائفة يعتقدون فى أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ،

واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات والتوقى عن المحظورات ، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ؛ ولا مستند لكفرهم غيرُ تقليد سماعيّ إلفيّ ، كتقليد اليهود والنصارى إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم وأولادهم ؛ وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، وغيرُ بحث نظرى صادر عن التعثر بأذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السّراب ، كما اتفق لطوائف من النظار فى البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

و إنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط (١) و بقراط (٢) وأفلاطون (٣) وأرسطوطاليس (٤) وأمثالهم؛ و إطناب طوائف من متبعيهم ، وضلالهم فى وصف عقولهم وحسن أصولهم ورقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ، لفرط الذكاء والفطنة ، باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة. فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخراطا فى سلكهم ، وترفعا عن مسايرة الجماهير والدهماء ، واستنكافا من القناعة بأديان الآباء ، ظنا بأن إظهار التكايس فى النزوع عن تقليد الحق بالشروع فى تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد عن تقليد خرق وخبال ، فأية رتبة فى عالم الله أخسّ من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً، دون أن يقبله خُبراً وتحقيقاً (٥)؟ .

وقع الغزالى فى هذه الأمشاج من المقالات والدعاوى ، ووجد نفسه أمامها ؛ فأملت عليه تلك الآراء فيها ، وهو رجل يبرأ من الحول والطول ، ويسلم وجهه لله ، ويؤمن بأن الهدى هدى الله ؛ وكم من حسنٍ فتنَ صاحبه فأرداه؛ وكم من عقل أضل صاحبه فأغواه عن سبيل الرشاد .

فلما رجعت نفسه إلى الصحة والاعتدال ، رجعت الضروريات العقلية عنده مقبولة موثوقاً بها عن أمن ويقين ،

---

(١) هو الفيلسوف المشهور ولد بأثينا سنة ٤٧٠ ق . م وكان من تلاميذ فيثاغورس، واقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها ، وأعلن بمخالفة اليونانيين فى عبادتهم الأصنام وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلة ، فثوروا عليه العامة، واضطروا ملكهم إلى قتله .

(٢) عنى ببعض علوم الفلسفة، وهو سيد الطبيعيين فى عصره ، وكان قبل الاسكندر بنحو مائة سنة ، وله فى الطب تآليف مشهورة فى جميع العالم ، وفى صدور كتبه وصايا جليلة من التحنن والشفقة على النوع ، وتطهير الأخلاق من الكبر والعجب والحسد .

(٣) أحد أساطين الحكمة من يونان، أخذ عن فيثاغورس وشارك سقراط فى الأخذ عنه ، ولم يشتهر ذكره بين علماء اليونان إلا بعد موت سقراط ، وصنف كتبا مشهورة فى فنون الحكمة ، وذهب فيها إلى الرمز والإغلاق ، واشتهر جماعة من تلاميذه المتخرجين عليه ؛ وسمى الناس فرقته المشائين لأنه كان يعلم تلاميذه الفلسفة وهو ماش .

(٤) هو تلميذ أفلاطون لازمه عشرين سنة ، وكان أفلاطون يؤثره على سائر تلاميذه ويسميه العقل ، وإلى أرسطاطاليس انتهت فلسفة اليونانيين ، وهو خاتمة حكمائهم ، وهو أول من خلص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية وجعلها آلة للعلوم النظرية حتى لقب بصناعة المنطق ، وله فى جميع العلوم الفلسفية والأدبية كتب مشهورة، وهو صاحب المنطق ، وكان أرسطاطاليس معلم الأسكندر ابن فيلبس ملك مقدونية، وبآدابه عمل فى سياسة رعيته وسيرة ملكه ، وبسبب أرسطاطاليس كثرت الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة فى البلاد الإسلامية .

(٥) الغزالى : تهافت الفلاسفة : ص ٣ (المطبعة الخيرية — القاهرة ١٣١٩ هـ) .

ولم يكن السبيل إلى ذلك نظم الدليل وترتيب الكلام ، بل كان السبيل نوراً قذفه الله تعالى فى صدره ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

ومن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيّق رحمة الله الواسعة . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى « فمن يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ يشرحْ صدرَه للإسلامْ » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » ! فقيل : وما علامته ؟ فقال . « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » وهو الذى قال عليه السلام فيه : « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رشّ عليهم من نوره » . فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصّد له ، كما قال عليه السلام « إن لربكم فى أيام دهركم نفحاتٍ ، ألا فتعرضوا لها » .

ولم يرد الغزالى بذلك كفّ نفسه ، أو كفّ الناس ، عن الدرس والتأمّل والبحث ، اعتماداً على هذا النور الذى لا يأتى إلا نفحات ، وفى بعض الأحايين ، ولكنه أراد أن يعمل كال الجد فى الطلب حتى يَنْتَهِىَ إلى طلب مالا يطلب ، ومالا قدرة على إدراكه ، وهو الذى يحتاج إلى ذلك النور الذى يقذفه الله تعالى فى قلوب المصطفين الأخيار من عباده .

⁂

وإذا كان الغزالى معدوداً فى أئمة فلاسفة الإسلام ؛ فإن ذلك حق ، إذا أريد به أنه صاحب رأى وصاحب فكرة حرة ، لا تسير فى ركاب فِكَر أخرى ، مهما يكن حظها من الذيوع ؛ وحظ أصحابها من المجد فى دنيا التفكير .

وإذا كان الغزالى معدوداً فى رأس المتصوفة التقية الزاهدة الورعة ، فإن ذلك حقٌّ أيضا ، ولكن ينبغى أن يكون معروفاً أنها ليست صوفية البُلْه من العوام ، ولكنها صوفية الخاصة ، صوفية مستنيرة جادة مجاهدة فى طلب المعرفة ، وسبيل الوصول عندها إلى الحقيقة ذلك الجد الذى يقتحم كل واد من أودية المعرفة : المعرفة التى يرضاها ؛ والمعرفة التى ينكرها ، والمعرفة التى قد يسلّم بها ولكنه لا يأخذ بها .

وهى صوفية تقف فى وجه الابتداع ، وتقف أيضاً فى وجه التقليد ، صوفية تفند مزاعم الهواة من أهل العقل ، وهى فى الوقت نفسه تحترم أحكام العقل التى لا تقبل المنازعة ؛ حتى لو عدها بعض الجامدين خروجاً على الدين ومخالفة لنصوص سادت فى بيئاتهم ؛ إنه يؤول تلك النصوص تأويلًا يجارى به أحكام العقل وأحكام الطبيعة ؛ ويطعن فى صحة النص إذا عارض أحكام العقل المسلم بهـا وأحكام الطبيعة الراهنة الشاخصة ، ويذهب إلى أن الإصرار على تقبل تلك النصوص على ما فيها مضر بالإسلام ومشكك فى صحة العقيدة .

انظر إليه وهو يحصى أقسام الخلاف بين الفلاسفة وبين غيرهم من الفرق ، ويذكر قسما من هذا الخلاف ، لا يصدم مذهبُ الفلاسفة فيه أصلا من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه ، كقولهم : إن كسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس ، من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس ، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر فى ظل الأرض

انقطع عنه نور الشمس . وكقولهم : إن كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس ، وذلك عند اجتماعهما فى العقدتين على دقيقة واحدة .

إن هذا الفن لا يحاول الغزالى أن يخوض فى إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض من الدين ، ويصرح بأن من يظن أن المناظرة فى هذا من الدين ، فقد جنى على الدين وضعّف أمره ، لأن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا يبقى معها ريبة ، ومن اطلع عليها وتحقق أدلّتها ، حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما إلى الانجلاء ، إذا قيل له : إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وإنما يستريب فى الشرع . وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل ! .

فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لآيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة » فكيف يلائم هذا ما قالوه ؟ يقول الغزالى : ليس فى هذا ما يناقض ما قالوه ، إذ ليس فيه إلا نفى وقوع الكسوف لموت أحد أو لحياته ، والأمر بالصلاة عنده . والشرع الذى يأمر بالصلاة عند الزوال والغروب والطلوع ، من أين يبعد منه أن يأمر بها عند الكسوف استحبابا ؟ .

فإن قيل : فقد رُوى أنه قال فى آخر الحديث : « ولكن الله إذا تجلى لشىء خضع له » فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلي . قلنا : هذه الزيادة لم يصح نقلها ، فيجب تكذيب ناقلها ؛ وإنما المروىّ ما ذكرناه ، كيف ولو كان صحيحاً لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية ؟ ! فكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التى لا تنتهى فى الوضوح إلى هذا الحد .

وأعظم مايفرح به الملاحدة أن يصرّح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع ؛ فيسهل عليهم طريق إبطال الشرع ، إن كان شرطه أمثال ذلك !

وهذا لأن البحث فى العالم عن كونه حادثا أو قديما ، ثم إذا ثبت حدوثه ، فسواء أكان كرة أم بسيطاً ، أم مسدّساً ، أم مثمّناً ؛ وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة ، أم قلّ ، أم كثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهى ، كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها ، وعدد حبّ الرمان ، فالمقصود كونه من فعل الله تعالى فقط كيفما كان !

إنّ مثل هذه العقلية الواعية ، هى العقلية التى تخدم الدين ، وتبسط ساحته ، وتدعو إليه ، وترغّب فيه ، لا العقليات الجامدة التى تقف فى سبيل كل علم ، وتعترض على كل نظر واجتهاد وتعده من الأمور المحدثة ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة فى النار . حتى حار كثير من المسلمين فى تقبل ألوان المعارف التى لم يكن للسلف عهد بها ، خشية أن تكون من تلك البدع التى تقود صاحبها إلى غضب الله ، وإلقائه فى جهنم وبئس القرار . وبهذا التردد وقف الركب بدل أن يتقدّم ، وأحجم حيث يجب أن يُقدِم . وزعم بعض الغافلين أن الدين نصٌّ ينبغى الوقوف

عند حروفه ودلالات ألفاظه ؛ ومالبس في هذه النصوص فالإسلام منه براء ؛ وهو لغو يجمل بالمسلم أن يتحاشاه إن أراد الحفاظ على عقيدته . وغفلوا عن أن صاحب الدين هو صاحب الدنيا ، وأنه واهب العقول ، كما ألقى فى القلوب الهدى ، وهداها إلى الإيمان ؛ وأنه أمر بالسعي كما أمر بالنظر والبحث فى ملكوته، لتبين آياته للمتوسمين .

الباحثون عن الحقيقة :

وهم السالكون سبل طلب الحق ؛ وإن شذ الحق عنهم فلا يبقى فى درك الحقيقة مطمع ؛ إذ لا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته .

وقد بحث عنهم الغزالى فى عصره فألفاهم أربع فرق :

(١) المتكلمون : الذين يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

(٢) الباطنية : الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

(٣) الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

(٤) الصوفية : وهم الذين يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة .

وقد درس الغزالى مباحث هذه الفرق ، وأمعن فى درس مناهجها فى البحث .

الغزالى وعلم الكلام :

ابتدأ بعلم الكلام فحصّله وعقله ، وطالع كتب المحققين من المتكلمين ، وعرف أن غايتهم حفظ عقيدة أهل السنة عن تشويش المبتدعين . فقد أطلق الله ألسنتهم لنصرة السُّنَّة بكلام مرتّب ، يكشف عن تلبيس أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة . وقامت طائفة منهم بما ندبهم الله إليه ، فأحسنوا الذّبّ عن السُّنَّة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النُّبُوَّة ، والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة .

ويرى الغزالى بأنه صادف علم الكلام وافياً بالغاية التى كان لها ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يشف نفسه ولم يف بمقصوده ، لأنه لم ير الاستقلال كاملا فى بحوثه والتجرد فى طلبه ، بل ألفى المتكلمين اعتمدوا فى سبيل غايتهم على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى التسليم بها التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، ولأن أكثر خوضهم كان فى استخراج مناقضات الخصوم ، وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات بشيء أصلا . ثم إنه لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه ، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذّبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، فخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، ولم يكن من ذلك مايمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلافات الخلق .

ولذلك لم يجد الغزالى علم الكلام وافيا بمراده ، ولا شافيا لدائه . وإن كان لا ينكر أن هذا العلم قد شفى نفس غيره ووفى بمقصوده ، بل لا يشك فى حصول ذلك لطائفة ، ولكنه حصول مشوب بالتقليد فى بعض الأمور . والغزالى

يحكي بذلك حاله ولا ينكر على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ، ويستضرّ به آخر !

الغزالي والفلسفة :

وثنّى بعلم الفلسفة ، درسه في سنتين ، ثم لم يزل يواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، يعاوده ويردّده ، ويتفقد غوائله وأغواره ، ويطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل.

وقد رأى الفلاسفة أصنافاً ، ورأى علومهم أقساماً .

عرف منهم (الدُّهريين) الذين جحدوا الصانع المدبّر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع . ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة .

وعرف منهم (الطبيعيين) الذين أكثروا البحث عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، إلا أنهم يرون لاعتدال المزاج تأثيراً عظيماً في قوام قوى الحيوان به ، فظنوا القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ، وأنها تبطل ببطلانه ، وإذا انعدم فلا يعقل إعادته ؛ فالنفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب ، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

وعرف منهم (الإلهيين) من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطاليس الذي رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم ، وحرر ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجا من علومهم . وهؤلاء بجملتهم ردوا على الدُّهريين والطبيعيين وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، وكذلك ردّ بعضهم بعضا . ولهم شيعة من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي .

أما العلوم التي خاض فيها أولئك الفلاسفة فقد حصّل أقسامها ودرس مباحث كل منها ، وأعلن رأيه فيها ، وهي العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية والخلقية ، وتكلم عن آفاتها وعما يتعلق منها بالدين ، وما لا يتصل به أولا يؤثر في العقيدة الوقوف عليه . فالرياضيات التي تتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيا وإثباتا ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها . ولكن تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ؛ ويقول : لو كان الدين حقا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم

فى هذا العلم . فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيت من يضل عن الدين بهذا القدر ؛ ولا مستند له سواه ؛ مع أن الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً لكل صناعة .

والثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم وادّعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم فى الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك فى برهان ، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبا ، وللإسلام بغضا . ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى أو الإثبات .

وبهذا الأسلوب عالج الغزالى سائر أقسام علوم الفلاسفة ، وخلص من دراسته بأن علومهم غير وافية بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات .

الغزالى ومذهب التعليم :

وعرف ما عند أولئك الذين يسمون أنفسهم (التعليميين) الذين شاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، وبحث عن مقالاتهم ، واطلع على ما فى كتبهم ؛ وهنالك عامل خارجى أعانه على هذا البحث ضميمة للباعث الأصلى من الباطن فى طلب المعرفة ، وذلك هو ورود أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعه مدافعته .

وخلاصة رأى الغزالى أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة . ولكن شدة التعصب دعت الذابّين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم فى مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم فى كل ما نطقوا به ، فجاحدوهم فى دعواهم « الحاجة إلى التعليم والمعلم » ودعواهم أنه « لا يصلح كل معلم بل لا بد من إمام معصوم » وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين فى مقابلته ؛ فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لا بد أن يكون المعلم معصوماً . ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قالوا : هو ميت ! فنقول : فمعلمكم غائب .

فإذا قالوا : معلمنا قد علّم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول : ومعلمنا قد علّم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته !

ويورد بعد ذلك طائفة من مقالاتهم ، ويجتهد فى البرهان على إبطالها . ثم يقول : فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم فى إنكار الحاجة إلى التعليم بكلام قوىّ مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال هات علمه ،

وأفدنا من تعليمه ، وقف وقال : الآن سلّمت لى هذا فأطلبه ، فإنما غرضى هذا القدر فقط ! . إذ علم أنه لو زاد على ذلك لا فتضح ، ولعجز عن حلّ أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه .

فلما خبرهم نفض اليد عنهم ، إذ لم يجد معهم شيئاً من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء .

الغزالى والصوفية :

و بقى من طوائف الباحثين عن الحقيقة طائفة (الصوفية) ، وقد علم أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وحاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

يقول الغزالى : وكان العلم أيسر علىّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكىّ رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى ، قدس الله أرواحهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن خواص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدّل الصفات . . . وعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

ولقد أثنى الغزالى على الصوفية ثناء عظيما ، وامتدح سيرتهم ، بعد أن عكف على دراستهم علما وعملا وتجرداً ومجاهدة نفس ، حتى انتهى إلى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السّير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .

بل إنه ليذهب إلى أنه لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، و يبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم و باطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوّة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

و بالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة ، طهارتها — وهى أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ؟ !

وهو على مذهبه فى حرية البحث ، وفى حرب التقليد ؛ لا يقرهم على كل شىء إقراراً مطلقاً ، بل إنه ليصف بالخطأ ما تذهب إليه بعض طوائفهم مما يجرى على ألسنتهم ، ممن يقولون بالحلول ، ومن يقولون بالاتحاد ، ومن يدّعون الوصول ؛ وغير ذلك مما يعده أثراً من آثار عدم القدرة عن الإفصاح عما يرون وما يشاهدون من آثار عظمة الله ، إلى درجة يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبّر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح (١) .



(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٣١ — الطبعة الثانية .

آثار الغزالى :

تلك لمحات من الجهود المضنية التى بذلها الغزالى فى العلم وتحصيله ، وفى سبيل البحث عن الحقيقة ، بالبحث عن طالبيها ، والوقوف على ما عندهم من فنونها ؛ مع تمحيص مقالاتهم والفحص عن حقيقة مذاهبهم وعلومهم ؛

ولا نشك فى أن الذين أبلوا مثل هـذا البلاء أقل من القليل ، فقد جرت الغالبية العظمى من المفكرين على أن يتخذوا لأنفسهم منهجاً واحداً لا يكادون يتعدونه ، وتهديهم الملابسات إلى فكرة واحدة يحومون حولها ، أو يحصرون أنفسهم فى دائرتها ؛ ولا يكادون ينظرون إلى ما حولها من سائر الآراء والأفكار ، على ذلك النحو الذى ذكرنا طرفا منه .

وإنك لتعجب لتلك الآثار التى خلفها الغزالى ؛ فإنها على كثرتها المعجبة تفيض بصنوف من المعرفة المتخصصة وتجد فى كل أثر منها لوناً خاصًّا متميزاً مما عداه ، وتجد فيه ما تنشد من العمق والأصالة ، وإنك لتراه فى كثير من المواضع إذا قارب فكرة من الأفكار ، أو مشكلة من المشكلات ، يكون قد درسها فى كتاب آخر ، فإنه يشير إلى الكتاب الذى عرض فيه لتلك الفكرة ، أو درس فيه تلك المشكلة ، وتراه ينفر من تكرار نفسه ، وتلك دلالة القوة والتمكن .

ومن تلك الآثار التى خلفها :

(١) كتاب إحياء علوم الدين : وسنخصه بشىء من الدراسة .

(٢) كتاب تهافت الفلاسفة : درس فيه مقالات الفلاسفة ، وبين أغلاطهم ، التى حصرها فى عشرين أصلا، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .

(٣) كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد : فى مقدار مائة ورقة يحوى لباب علم المتكلمين .

(٤) كتاب المنقذ من الضلال : ذكر فيه غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وما قاساه فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق .

(٥) كتاب جواهر القرآن : أبان فيـه عن أسرار من آيات القرآن ، وأنه البحر المحيط المنطوى على أصناف النفائس .

(٦) كتاب ميزان العمل : وهو فلسفة دينية توضح ماجاء فى علوم الدين من الغايات والمقاصد .

(٧) كتاب المقصد الأسنى فى معانى أسماء الله الحسنى .

(٨) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : ذكر فيـه فساد رأى من يسارع إلى التكفير فى كل مايخالف مذهبه .

(٩) كتاب القسطاس المستقيم : ذكر فيه طريق رفع الخلاف بين الخلق ، وهو كتاب مستقل بنفسه مقصوده بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم .

(١٠) كتاب المستظهرى (١١) كتاب حجة الحق (١٢) كتاب مفصل الخلاف فى أصول الدين . وفى هذه

الكتب الثلاثة تعرض لمذهب التعليمية و بين فساد مذهبهم .

(١٣) كتاب كيمياء السعادة : حصر فيه الشبه التى توهمها أهل الإباحة وكشفها .

(١٤) كتاب البسيط (١٥) كتاب الوسيط (١٦) كتاب الوجيز (١٧) كتاب خلاصة المختصر . وهى كتب تبحث فى علم الحدود الموضوعة للاختصاص بالأموال والنساء والمعاملات ، وغيرها من المباحث الفقهية .

(١٨) كتاب ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل : فى أربعين مجلداً .

(١٩) كتاب المستصفى (٢٠) كتاب المنخول . وهما فى أصول الفقه .

(٢١) كتاب المنتحل فى علم الجدل (٢٢) كتاب معيار العلم (٢٣) كتاب المقاصد .

(٢٤) كتاب المضنون به على غير أهله (٢٥) كتاب مشكاة الأنوار (٢٦) كتاب محك النظر (٢٧) كتاب أسرار علم الدين (٢٨) كتاب منهاج العابدين (٢٩) كتاب الدرر الفاخرة فى كشف علوم الآخرة (٣٠) كتاب الأنيس فى الوحدة (٣١) كتاب القربة إلى الله عز وجل (٣٢) كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار (٣٣) كتاب بداية الهداية (٣٤) كتاب الأربعين فى أصول الدين (٣٥) كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣٦) كتاب المبادئ والغايات (٣٧) كتاب تلبيس إبليس (٣٨) كتاب نصيحة الملوك (٣٩) كتاب شفاء العليل فى القياس والتعليل (٤٠) كتاب إلجام العوام عن علم الكلام (٤١) كتاب الانتصار (٤٢) كتاب العلوم اللدنّيّة (٤٣) كتاب الرسالة القدسية (٤٤) كتاب إثبات النظر (٤٥) كتاب المأخذ (٤٦) كتاب القول الجميل فى الرد على من غير الإنجيل (٤٧) كتاب الأمالى .

ومن هذه الكتب ماهو ضخم رحب المادة ، ولكن بعض هذه الآثار صغير لا يرقى إلى درجة الكتاب ، ولكنه ربما كان أشبه بالمقالات التى تقضيها المجادلات فى موضوع من الموضوعات ؛ أو إزالة شبهة من الشبه العارضة .

وأيا ما كان الأمر ، فإن هذا الإنتاج الضخم يدل أصدق دلالة على أن صاحبه من الذين وقفوا حياتهم على العلم ؛ وتبتلوا فى محرابه ، كما يدل على إخلاص للدين، وتفان فى سبيل الذود عن حياضه ؛ إلى مايدل عليه من كثرة التحصيل وغزارة المعرفة ؛ والحياة المباركة التى هيأ الله سبيلها ووفق إليها .

كتاب إحياء علوم الدين

— ١ —

ذكر المؤرخون أن الغزالى حدّث بكتاب الإحياء ، بعد عودته إلى بغداد من رحلته إلى بلاد الشام ، أى بعد تلك الفترة التى عزفت فيها نفسه عن الدنيا، وزهدت فيها وقطع فيهـا ، العلائق بينه و بين الناس ، وذكروا أنه كان يحدّث بهذا الكتاب فى مجالس الوعظ ، وروى ابن النجار أن الغزالى « لم يكن له أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث» والذى يفهم من ظاهر هذا الكلام أن ماحدث به الغزالى فى بغداد من كتاب إحياء علوم الدين كان إلهاماً أو كان ثمرة من ثمرات المعرفة التى أفاضها الله عليه فى مرحلة نسكه وتصوّفه .

هذا ولا نستطيع أن نقرّ هذا المفهوم على إطلاقه ، فنقول مع القائلين: إن كل ما فى « إحياء علوم الدين » كان وحياً أو إلهاماً ، وأنه كان ثمرة لحياة العزلة والتأمل التى قضاها فى دمشق و بيت المقدس وفى البلد الحرام .

ونحن فى هذا لا ننكر أثر النسك والخلوة فى تطهير النفس وتصفيتها و إطلاقها من قيود المادة ، فإن فى قطع العلائق بالحياة والناس ، إبقاء على كثير من الجهود التى يستنفدها الاضطراب فى الحياة والاتصال بالناس ، وانشغال القلب بأقوالهم وأعمالهم وتزاحمهم فى طلب الحياة .

لا ننكر أثر التصفية والتخلية فى إرهاف الملكات وتنقية الروح من الشوائب التى تقعد بها عن بلوغ درجة التفكير المجرد فى هذا الملكوت ، وفى الخلق والخالق ، وفى البداية والنهاية ، وفى مذاهب السلوك وفلسفة الأخلاق . بل إننا لا نشك أن الخلوة وطول التأمل وكبح جماح النفس من أعظم أسباب تحرير الروح من قيود المادية ، وفيها أكبر عون على تنظيم التفكير ، ونقل ما فى الكون من الماديات ، وما ينطوى فيها من الآيات ، وما يختبئ وراءها من الأسرار التى أعيت على العقول

ولكننا ننكر كل الإنكار أن يكون ما فى « الإحياء » من الأصول الفقهية ، والمسائل الشرعية ، وقواعد العبادات ونحوها شيئاً جديداً ألهمه الغزالىّ فى رحلاته أو أوحى به إليه فى خلواته ، ونرى فى مثل هذه الدعوى سذاجة قد يشك فيها البُله من العوام ، بله غيرهم من طبقات المفكرين .

وننكر كل الإنكار أن يكون ما اشتمل عليه « الإحياء » من النصوص وما استشهد به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً عرفه الغزالىّ من غير معلّم ولا كتاب ، وقد ثبت أن تلك الأحاديث مرويّة معروفة خرّجها المخرجون من رواة الأحاديث والعالمين بإسنادها ورواياتها .

كل ذلك لا شك فى بطلانه بحكم العقل وبحكم الشرع أيضاً .

ولا شىء من هذه الدعاوى يرتفع به الغزالى بين الباحثين أو المفكرين أو رجال الصوفية ، إذا كان هناك من يريدون له تلك المنزلة بين الباحثين والمفكرين والمتصوفة عن مثل هذا الطريق التى لا يرضاها الغزالى لنفسه .

إن تلك الأصول وتلك النصوص ليست مجال وحي ولا مجال إلهام ، وكيف الإلهام بحاصل موجود يعرفه العامة و يعرفه الخاصة ، وليس فى تحصيله كبير عنت ولا مشقة لمن يريد المعرفة والتحصيل ؟!

وإنما الجهد أو الاجتهاد ، الذى لا ننكر فيه أثر الخلوة وتصفية النفس ، فهو ما علّل به لتلك الأحكام وما جمعه منها ، وما نظم به طرائق البحث فيها ، وما أرجع به الدين إلى فطرته ، ليكون عملًا واجتهاداً ، كما كان معتقداً و إيماناً ، وفى « الإحياء » من ذلك الشىء الكثير الذى يدل على طول الباع ، كما يدل على سعة الاطلاع ، ويدل على صفاء النفس وطهارة القلب ، كما يدل على الجهد والعناء فى الرواية والدراية ، وفيما تقدم الكثير من الأدلة على ذلك .

تنقل الغزالى بين خراسان والعراق والشام والحجاز ، فماذا وجد فى تلك البلاد التى تعد معاقل للإسلام ؟ وجد فيها خلفاء أبطرهم السلطان وفتنتهم الدنيا ، وحولهم من الرعية من يفتل لهم بين الذروة والغارب ، وفيهم

الصابر يأساً ، والمصعّر خدّه تيهاً ودلالاً ، وألفى رجال الدين فى شغل عن الدين ، يبتذلونه فى استرضاء السلطان ، و إشباع نهمه فى الاستعلاء والكبرياء ، والكل عن الدين لاهون ، إلا بالقدر الذى تدرّ به معايشهم ، و بين هؤلاء وأولئك طائفة تدعى المعرفة ؛ وتتخذ دين الله هزواً ، وترى الآخذين به جهلة من الطغام ، ومن عوام الدهماء ؛ والأخذ به غفلة وجموداً ، حتى زاد الخطب وعمت الرزية ، وأحوج الأمر إلى من يذكر بالله ، و يحث على التدبر فى آياته ، والرجوع إلى دينه الحق وصراطه المستقيم .

إلى هؤلاء وأولئك أشار الغزالىّ فى خطبة « الإحياء » إذ وجد فى الناس المثابر على ماهو عليه من العمى عن جلية الحق ، مع اللجاج فى نصرة الباطل وتحسين الجهل والتشغيب[1] على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ، ومال ميلا يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم ، طمعا فى نيل ماتعبده الله تعالى به من تزكية النفس و إصلاح القلب . . وأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ، ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً ، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيّلوا إلى الخلق ألاّ علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام ، أوجدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ! فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه فى كتابه فقهاً وحكمة وعلماً ، وضياء ، ونوراً وهداية ، ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار نسياً منسيا .

ورأى الغزالى ما آل إليه الأمر ثلماً ملماً ، وخطبا مدلهما فى الدين ، وأن الاشتغال بتحرير هذا الكتاب فيه إحياء لعلوم الدين ؛ وكشف عن مناهج الأئمة المتقدمين ، و إيضاح لمناهى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين[2] .

وقد ذكر أن أمثال هذه البحوث ليست جديدة مستحدثة ، فقد صنف الناس فى المعانى التى ألف فيها كتبا ، ولكن كتابته تتميز عن كتاباتهم بخمسة أمور :

الأول : حل ماعقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثانى : ترتيب ما بدّدوه ، ونظم مافرّقوه .

الثالث : إيجاز ماطولوه ، وضبط ماقرروه .

الرابع : حذف ما كرروه ، وإثبات ماحرروه .

الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا : إذ الكل و إن تواردوا

---

(١) التشغيب : تهييج الشر

(٢) إحياء علوم الدين : ص ٩ من هذه الطبعة .

على منهج واحد ، فلا مستنكرأن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه و يغفل عنه رفقاؤه . أولا يغفل عن التنبيه ، ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب . أولا يسهو ، ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف .

وما قرره صحيح ، يعترف له به كل باحث وكل دارس وكل مؤلف ، إذ لابد لصاحب الموضوع من الرجوع إلى الجهود السابقة فيه ، ليعرف مواضع النقص ومواطن الخلل ، ثم يحرر من تلك الجهود مايستحق التحرير ، ويضيف إليه ماعنده من المعرفة فيه ، والتحرير جهد يقتضى الإحاطة ، و الإضافة هى مايمتاز به جهد عن جهد ، ويفضل بها الكاتب سواه من الكاتبين .

أو بمعنى آخر لابد من العنصر الذاتى والأصالة فى كل عمل له وزن بين الأعمال ؛ ليحسب صاحبه بين رجال المعرفة بالموضوع ؛ وقد أشرنا إلى مجال الذاتية فى الكلمات السابقة .

ولقد ذكر الغزالى نفسه أن العلوم التى تحصل فى القلب فى بعض الأحوال تختلف الأحوال فى حصولها ، فتارة تهجم على القلب كأنها ألقيت فيه من حيث لايدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم .

فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى (الإلهام) .

والذى يحصل بالاستدلال يسمى (الاعتبار) و (الاستبصار) ويختص به العلماء .

ثم الواقع فى القلب بغير الحيلة والتعلم و الاجتهاد من العبد ينقسم إلى :

(١) مالا يدرى العبد كيف حصل له ، ومن أين حصل ، وهذا يختص به الأولياء والأصفياء .

(٢) مايطلع العبد معه على السبب الذى استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب ، وهذا يسمى (وحيا) وتختص به الأنبياء .

و يقرر الغزالى أن الأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور من غير طريق التعلم والدراسة والكتابة ، بل بالزهد فى الدنيا ، والتبرؤ من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . .

إلا أنه مع ذلك يصرح بأنه « إذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة، تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن تزول ، و ينقضى العمر قبل النجاح فيها ، وكم من صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض ».

لقد زعموا أن ذلك يضاهى مالو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق ، ثم يقول قائلهم : فأنا أيضا ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه ؟!

ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره ، ومثله مثل من يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء العثور على كنز من الكنوز . إن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً . فكذلك هذا !

لابد أولا من تحصيل ما حصله العلماء، وفهم ماقالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء ، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة [1] .

فليتدبر هذا الكلام جيداً أولئك الغافلون ؛ ليعرفوا أن طريق الآخرة معرفة وعمل ، كما أن طريق الحياة علم وجهاد ؛ وليعلموا أن الغزالى وهو من أقطابهم فى القمة لم يبلغ ماانتهى إليه إلا بالكفاح الطويل فى تحصيل المعرفة.

— ٢ —

قسم الغزالىّ « إحياء علوم الدين » أربعة أقسام ، أو أربعة أرباع كما سماها :

(١) ربع العبادات : ذكر فيه العلم ، وقواعد العقائد ، وأسرار الطهارة ،والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وآداب تلاوة القرآن ، والأذكار والدعوات ، والأوراد وأوقاتها . وقد ذكر فى هذا القسم من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها مايضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لايطلع عليه » .

(٢) ربع العادات : يشتمل على آداب الأكل ، وآداب النكاح ، وأحكام الكسب ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، والعزلة ، وآداب السفر ، والسماع والوجد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وآداب المعيشة ، وأخلاق النبوة .

وفيه ذكر أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها .

(٣) ربع المهلكات : وقد شرح فيه عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وآفات شهوتى البطن والفرج، وآفات اللسان ، وآفات الغضب والحقد والحسد ، وذم الدنيا ، وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والعُجب، وذم الغرور .

وقد درس فى هذا القسم كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته، وتزكية النفس عنه ،وتطهير القلب منه، وذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حدّه وحقيقته، ثم ذكر سببه الذى يتولد منه ، والآفات التى تترتب عليه، والعلامات التى يعرف بها ، وطرق المعالجة للتخلص منه .

(٤) ربع المنجِيات : وقد ذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقرّبين والصدّيقين التى بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وقد ذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها وثمرتها وعلامتها وفضيلتها .

وتلك المنجيات هى : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف والرجاء ، والفقر والزهد ، والتوحيد والتوكل ، والمحبة والشوق والأنس والرضا ، والنية والصدق والإخلاص ، والمراقبة والمحاسبة ، والتفكّر ، وذكر الموت .

وقد قدم الكتاب بالكلام فى فضل العلم والتعليم ، ليكشف عن العلم الذى يعبد الله تعالى به ، حتى تصح العبادة ؛ إذ كان من العلم ماهو نافع وما هو ضار ، وما هو محمود، وما هو مذموم ؛ وفى فنون العلم التى شغل بها معاصروه، وحكم كل علم منها .

(١) راجع الجزء الثانى من الإحياء (ص ١٧ — ١٩) من هذه الطبعة .

والذى ينظر فى هذه الموضوعات يتضح له أنها تعالج النفس الإنسانية على أوسع نطاق ، وتتناولها ، من أكثر جهاتها ، وتدرس شتى علائقها .

لقد درس فيها الغزالىّ الإنسان مع ربه ، والإنسان مع نفسه ، والإنسان مع غيره من الناس . وتهدف تلك الدراسات إلى استخلاص أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ؛ أو معرفة الأسباب التى تكون بها الحياة سبيلا إلى الآخرة ؛ أو تسخير مامنح العبد من إرادة وقوة واختيار ؛ لتكون حجته حين يسلب الحياة والإرادة والقوة والاختيار .

أغراض تتلاقى جميعاً ما دامت حياة الإنسان محدودة ، وما دامت إرادته وقوته واختياره موقوتة بهذه الحياة المحدودة ؛ ومادام العقل والاستدلال والمعرفة تُفضِى جميعاً إلى التسليم بالبعث والنشور والحساب والجنة أو النار .

وكان الذى حفز الغزالى إلى تلك البحوث المستفيضة ماراًى من فتور الاعتقادات فى أصل النبوة ، ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحته النبوة ، وتحقيق شيوع ذلك بين الخلق ، فنظر فى أسباب الفتور وضعف الإيمان ، فإذا هى أربعة :

١ — سبب من الخائضين فى علم الفلسفة .

٢ — وسبب من الخائضين فى طريق التصوف .

٣ — وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ — وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

وقد تتبع مدة آحاد الخلق ، يسأل من يقصّر منهم فى متابعة الشرع عن شبهته ، و يبحث عن عقيدته وسرّه ، ويقول له : مالك تقصر فيها ؟

فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعدلها ، وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالا نهاية له بأيام معدودة ؟

و إن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبّر نفسك فى طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفىّ الذى هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، و إن كنت لا تصرح به ، تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع !

فقائل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك ! وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة . . .

وقائل ثان يدّعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً يرقى عن الحاجة إلى العبادة .

وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة .

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ! وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال فى الشهوات ، فما أنا من العوام والجهال ، حتى أدخل فى حجر التكليف ؛ و إنما أنا من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغنٍ فيها عن التقليد[1] . . ! !

إنك تقرأ هذه الشبه العارضة التى جعلت الدين وقواعد العبادات مجالا للتردد والشك وانصراف هذه الطبقات عن العمل ، والأسباب التى ينتحلها المقصرون ، والأعذار التى يدلى بها الغافلون . وتقرأ فى (الإحياء) تفنيد كل دعوى من هذه الدعاوى ، ودحض كل شبهة من أمثال تلك الشبهات ؛ بطريق النص الثابت ، و بطريق العقل والمنطق الذى يسلم إلى اليقين .

— ٣ —

إنك تقرأ فى الإحياء بحوثا شهية عميقة فى علم النفس والفلسفة والاجتماع والتصوف إلى جانب ماتطالعه فيها من أصول الدين وحقائق التشريع .

و إنك لتقرأ من أصول التأديب وقواعد التربية ومراعاة حال النشء فى تلقى العلوم فى هذا الكتاب مايضارع آراء كبار فلاسفة التربية وعلم النفس ، ويكفى أن نشير إلى ما كتبه فى « وظائف المرشد المعلم »[2] وأنه مهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه التى تحتم عليه:

(١) الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه ...

(٢) الاقتداء بصاحب الشرع الشريف، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً . . فإن المال ومافى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً ، وذلك هو الانتكاس...

(٣) ألا يدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفىّ ، قبل الفراغ من الجلىّ ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى ، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى مايمكن . . .

(٤) ومن دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولايصرح، و بطريق الرحمة، لابطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، و يورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار .

(٥) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى ألا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه . . . فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب ، بل المتكفل

(١) المنقذ من الضلال ١٤٢ .
(٢) الإحياء ١/ ٦١ من هذه الطبعة

بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره ، وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله . فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها ، ولا ينبغى أن يفشى العالم كل علمه إلى كل أحـد ، ولذلك قيل : كِلْ لـكلٍّ عبد بمعيار عقله ، وزِنْ له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار .

(٧) أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلىّ اللائق به ، ولا يذكر له أن وراءه تدقيقا يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلىّ ، ويشوّش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه .

(٨) أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذّب قوله فعلُه ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العملُ العلم منع الرشد . وكل من تناول شيئا وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نُهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به .

وما يقوله الغزالى فى هـذه الآراء هو ما يقوله المربون المحدثون فى الانتقال بالمتعلمين من الجلىّ إلى الخفىّ ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، وما يقوله علماء النفس فى الإدراك وأثر الحواس .

وتجد هذا الـكتاب زاخراً بمثل هـذه الدراسات ، حتى إنك لتشعر حين تقرؤها بالحاجة الملحة إلى دراسة « الغزالى المربى » وسيجد الدارس مادة واسعة الأطراف ، لا تتسع تلك الصفحات لاستقصائها ، ولـكنا نجتزئ بهذه الإشارات إلى ما حوت تلك الأصداف من كنوز .

— ٤ —

ودراسة صلة الإنسان بخالقه دراسة لأصول العقائد والعبادات التى فرضها عليه ، والتى يلتمس بها الزلفى إليه . وقد أشرنا إلى الموضوعات التى درسها فى تلك الأصول . وبقى أن تذكر أن الغزالى لم يكتف فى تلك العبادات بذكر أحكام الشرع كما يفعل الفقهاء فى دروسهم وفى تصانيفهم ؛ ولـكنه أضاف إلى تلك كثيراً من البحوث الروحية والنفسية والعقلية ، وتعمق فى فهم أسرارها وحكمها وسبل إجادتها وتخليتها من الشوائب بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وفى استيعاب ليس له نظير .

فليست (الطهارة) عند الغزالى كما هى عند الفقهاء : طهارة من الحدث تختص بالبدن ، وطهارة من الخبث تـكون فى البدن والثوب والمـكان، فإن هذه مرتبة واحدة منها . والمرتبة الثانية عنده : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ، والثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة . والرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى [١] ، ثم يفيض بعد ذلك فى ألوان هـذه الطهارات وأسبابها ووسائلها وغاياتها ، مع ما يوافق الحقيقة التى

---

(١) الإحياء ١/١٣١ من هذه الطبعة .

يدعو إليها ، والشريعة التى فقهها وأجاد تحصيلها ، والعقل الذى عرف موارده ومصادره .

و(الصلاة) عنده مناجاة ، والمصلى مُناجٍ به عزّ وجلّ ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة — وإذا كان الفقهاء يفتون بصحة الصلاة مع الغفلة ، فإن الغزالى يتأدب فى الرد عليهم ، ولا يطمع فى مخالفتهم فيما أفتوا به ، ويعلل بأن ذلك من ضرورة الفتوى .

ولكن الذى يعرف سر الصلاة يعرف أن الغفلة تضادها ، ثم يفرق بين العلم الظاهر والعلم الباطن ، ويرى أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع [1] .

ورأيه فى (الزكاة) أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ؛ وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحِّد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق ، لأنها آلة تمتعهم بالدنيا ، وبسببها يأنسون بهذا العالم ، وينفرون عن الموت ، مع أن فيه لقاء المحبوب . فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب ، واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ وذلك بالجهاد . . . والذين صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ، نزلوا عن جميع أموالهم ، فلم يدّخروا ديناراً ولا درهماً ، فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم . حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوامّ بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع [2] .

وهكذا نجد أنفسنا دائما ونحن نجول فى (الإحياء) أننا أمام عالم كبير عرف الشرع وحفظه وفقهه وعمل به ، ورأى وراء هذا التشريع العام الذى ينتظم المسلمين جميعاً ؛ تشريعاً خاصًّا هو فى حقيقته أثر لذلك التشريع العام وتمكينٌ له ، وهذا الخاصّ فضل وزيادة ونافلة بعد أداء الفروض التى لم يغفل (الإحياء) ركنا من أركانها أو سنّة من سُنَنِها .

وهذا هو التصوف المستنير الذى أشرنا إليه ، تجد فيه الحجة البالغة ، وتجد فيه التقوى والورع وقطع العلائق بالناس وبالمال وبالجاه وبالولد وبالمنصب ، بل قطع علائق النفس بما تحبه وتحرص عليهم .

— ٥ —

فى تلك الدراسات يجد المتفقه رغبته ، ويجد المتصوّف طلبته ، ويجد صاحبُ العقل والباحثُ عن اليقين ما شاء من حجة بالغة وبرهانٍ مستبين ، وبهذه السّعة وبذلك الشمول أحيا الغزالى علوم الدين ، أحياها فى الحياة المضطربة الجادة العاملة ، والماجنة الهازلة ، وأحياها فى نفوس الزهاد ورجال الطريق ، ووصل بينهما وبين حكمة العقل والمنطق التى تفضى إلى الصحيح من النتائج ، وتلزم الشاك المتردد بالإذعان والتسليم وصدق الاعتقاد .

والناس عند الغزالى ثلاثة أصناف ، ولكل صنف منهم أسلوب خاص يعالج به ما عنده من الجهل أو الشك أو الغرور .

---

(١) الإحياء ١/١٦٧

(٢) الإحياء ١/٢٢٠

(١) أما الصنف الأول : فهم (العوام) ، ويصفهم بأنهم البُلْهُ ، وبأنهم أهل السلامة . وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق . وهم يُدعون إلى الله بالموعظة .

(٢) والصنف الثانى : (الخواص) ، وهم أهل الذكاء والبصيرة ، وفيهم ثلاث خصال : إحداها القريحة النافذة والفطنة القوية ، وهذه عطية فطرية وغريزة جبِلِّيَّة لا يمكن كسبها . الثانية : خلوّ باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث مسموع ، فإن المقلّد لا يصغى ، والبليد وإن أصغى لا يفهم . الثالثة : أنه يؤمن أن أستاذه (الغزالى) من أهل البصيرة بالميزان ، ومن لم يؤمن بأنك من أهل الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك . وهؤلاء يعالجهم الغزالى بأن يعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها ، فيرتفع الخلاف بينهم عن قرب ، ويدعوهم إلى الله بالحكمة ، كما دعا العوام بالموعظة الحسنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . فعلّم أن المدعوّ إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة الحسنة قوم ، وبالمجادلة قوم . فإن الحكمة إذا غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير . وكذلك المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها ، كما يشمئز طبع الرجل القوىّ من الارتضاع بلبن الأم .

(٣) والصنف الثالث : (أهل الجدل) ، وهم طائفة فيهم كياسة ترقّوا بها عن العوام ، ولكن كياستهم ناقصة إذا كانت الفطرة كاملة ولكن فى باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد ، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً . وهؤلاء يدعوهم بالتلطف إلى الحق ، من غير أن يتعصب عليهم أو يعنفهم ، ولكنه يرفق بهم ، ويجادلهم بالتى هى أحسن .

لقد نظر إلى كل طبقة من الطبقات التى يتكون منها المجتمع الإسلامى ، وعرف فلسفتها فى الحياة وما تعالجه من أسباب السعادة ، وما تعانيه من أسباب الشقاء فى الفكر والعمل ، ولا نعرف هذه السعة وذلك الشمول على هذا النحو مثل ما نجدها فى إحياء علوم الدين .

ويمكن أن يلحق بصدق الاعتقاد وأصول العبادات ــ وهما كما قدّمنا صلة بين الإنسان وربّه وقيام بطاعته وامتثال لأمره ونهيه وفيهما دلالة على المحبة ــ ما كتبه فى الربع الرابع من الإحياء ، وهو (ربع المنجيات) لأنه يختص بتصفية النفس من الشوائب وتطهيرها من الآثام ، والارتقاء بها إلى درجة المعرفة ، وفيه من أصول التصوف ومبادئه الشيء الكثير .

ومقدمة (التصوف) التوبة مما اقترفه العبد قبل أن يسلك طريق المعرفة ، ثم آداب السلوك وهى : الصبر ، والشكر والخوف ، والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والمحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا ، والتوحيد ، والتوكل ، والمراقبة ، والمحاسبة ، والتفكر ، والنية ، والإخلاص ، والصدق .

وقد تبدو هذه الصفات من قبائل الفضائل العامة ، التى ينبغى توافرها فى الإنسان الفاضل ؛ ويطالب الناس جميعا بالتزامها ، ماداموا يتطلعون إلى منزلة الفضل ؛ وهذا صحيح لاشك فيه . ولكن الفضلاء قد يحسبون كذلك ببعض تلك الصفات ، أو بتحصيل القليل من بعضها ، أما أهل الطريق المتطلعون إلى المعرفة فإنهم يجمعونها جميعاً

و يصلون بها إلى أقصى درجاتها ؛ وهم يجاهدون نفوسهم جهاداً عنيفا ، و يحملونها على ما تكره ، مما يعده غيرهم إسرافاً وعنتاً ، ولا يعترفون بالضرورات ، بل يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً ؛ ولا ينبغى لسالك الطريق أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وأنست بها نفسه، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . « بل ينبغى أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع ، و إذا نظر إلى غير محرّم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة ، فقد روى أن رجلا من العباد كلّم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست، و يحكى أن أحدهم تكشفت له جارية ، وهو فى بعض المغازى ، فنظر إليها ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت، وقال : إنك للحاظة إلى ما يضرك ! ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على عيشه »[1] .

فنى هذا الربع ، ربع المنجيات ، يظهر ما يتحلّى به القلب من الصفات المحمودة التى ذكرت ، وهو يقابل ما فى الربع الثالث ، ربع المهلكات ، الذى بسط فيه ما تجب تزكية النفس وتطهيرها منه ، وهى شرور وآثام مردية ، كالشّره والغضب والكبر والرياء والعُجْب والحسد وحب الجاه وحب المال وغيرها .

وقد قدم (المهلكات) على (المنجيات) لأن الأولى تطهير وتخلية ، والثانية تزكية وتحلية ، والأولى فى أصول التربية والتهذيب مقدمة على الثانية . ولأن العبد لا منجاة له من الوقوع فيما ذكره فى المهلكات ، ولكن فى استطاعته النهوض منها وجبرها بالمنجيات ، ولأن التجرّد للخير المحض دأب الملائكة المقربين ، والتجرد لمحض الشرّ دون العمل على تلافيه سجية الشياطين ، ولكن الرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين .

— ٦ —

و بعد فإن كتاب « إحياء علوم الدين » جماع عقليات ثلاث :

(١) : العقلية الشرعية : وتبدو آثارها فيما بسطه الغزالى من أحكام الفقه وأصوله ، وما اعتمد عليه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين ، ومذاهب الأئمة رضى الله عنهم ، وأقوال الفقهاء وعلماء الشرع والحديث والتأويل ، وهو يعد أصول العلوم الشرعية أربعة : كتاب الله عزّ وجلّ ، وسنّة رسوله عليه السلام ، و إجماع الأمة ، وآثار الصحابة . ويرى أن كتب الفقه تبحث فى الحياة

(١) الإحياء ٤/٣٩٣.

الأولى ، وأن الفقهاء هم علماء الدنيا ؛ وعلّل لذلك بأن الناس لو تناولوا الدنيا بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ، ولـكنهم تناولوها بالشهوات ، فتولدت منها الخصومات ، فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة ، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا ، وهو معلم السلطان ، ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمورهم الدنيوية . والملك والدين توأمان ، والدين أصل ، والسلطان حارس ، وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع [1] .

ولا يسلم له هذا الرأى كاملا ، لأنه إن استقام فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام .

والذى دعاه إلى هذا الوصف أنه جعل هذا العلم علمين : أحدهما يتصل بمصالح الدنيا ، والثانى يتعلق بمصالح الآخرة ، وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه ، وهو الذى خص به الـكتاب الثالث من الإحياء . والمحمود هنا غير فرض الطاعة ، والمذموم هنا أيضاً غير المعصية ، فإن الطاعة ثوابها ، والمعصية عقابها . ولـكن المرضىّ فى علم الآخرة هو ما يقرب إلى الله ، ثمرة المعرفة الـكاملة ، والفناء ، وقهر النفس وتزكيتها .

ومثال ذلك الصلاة ، فإن الفقيه يُفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلا فى جميع صلاته من أولها إلى آخرها ، مشغولا بالتفكر فى حساب معاملاته فى السوق إلا عند التكبير . ولـكن هذه الصلاة لا تنفع فى الآخرة ، كما أن القول باللسان فى الإسلام لا ينفع، ولـكن الفقيه يُفتى بالصحة ، أى أن ما فُعل حصل به امتثال صيغة الأمر ، وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع و إحضار القلب الذى هو عمل الآخرة ، وبه ينفع العمل الظاهر ، فلا يتعرض له الفقيه .

وعلى كل حال ، فإن الغزالىّ و إن عدّ الفقه علم الدنيا والفقهاء علماء الدنيا ، فقد درس فى الإحياء هذا العلم ، علم الفقه ، دراسة مستفيضة تدل على الفهم والاستيعاب ؛ إذ كانت الشريعة سُلّم الحقيقة، والعبادة سبيل المعرفة الحقة التى نشدها وعدّ من رجالها .

(٣) العقلية الفلسفية : ونعنى بها يقظة العقل ، والقدرة على التبصر ، وفهم الـكون بظواهره وشواهده ، ومحاولة الوصول إلى أعماقه ، و إلى سر الحياة والأحياء ؛ ودراسة النصوص دراسة تخضع لأحكام العقل والتفكير ؛ والتغلب على الأخطاء الشائعة ، والتقاليد التى تعارض المنطق السليم والتفكير الصحيح .

---

(١) الإحياء ١/ ٢٤

وقد أشرنا فيما سبق إلى نزوع الغزالى إلى التحرر ، ونفوره من التقليد الذى لا فضل فيه للمقلِّد ، وفى الإحياء كثير من الشواهد على ذلك .

فقد بحث الغزالى كثيرا من المسائل الفلسفية ، ومسائل علم الكلام ، التى تتصل بالله تعالى وذاته وصفاته ، كما بحث فى أعمال العبد ، ومبدأ الخلق وغايته .

ومن ذلك البحث الفلسفى الذى عقده فى « ربع المهلكات » فى شرح عجائب القلب ، وفى بيان معنى النفس والروح والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء .

فلفظ (القلب) له معنيان : أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود . . . الخ .

والمعنى الثانى للقلب : أنه لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب .. وتعلقه بالعقل الجسمانى يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالمكان . . .

و (الروح) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهى فيضان النور من السراج فى زوايا البيت ، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا استنار به . والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ (الروح) أرادوا به هذا المعنى ، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب . والروح معنى آخر ، وهو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهذا هو أحد معنيى القلب .

ولفظ (النفس) معان كثيرة ، ومن تلك المعانى ما يريده أهل التصوف فى استعمالاتهم ، وهى الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، وهى المعنى الجامع لقوة الشهوة والغضب فى الإنسان ، فإنك تراهم يقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله عليه السلام « أعْدَى أعدائِك نفسُك التى بين جنبيك » . ومن معانيها نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها .

ثم (العقل) وقد يطلق و يراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب . وقد يطلق و يراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب .

هذا شيء قليل نشير به إلى جهاد الغزالى فى تلك الدقائق التى حيرت المفكرين وشغلت الفلاسفة، وقد عرض لها من قديم فلاسفة اليونان، ولا تزال إحدى مشكلات الفلسفة المعاصرة . ولكلام الغزالى ودراسته مكان ملحوظ بين تلك الدراسات قديمها وحديثها .

ثم الفلسفة الأخلاقية ، وقد أفاض فيها فى المنجيات والمهلكات والعادات ، وقد عرض فيها للفضائل الإنسانية على نحو لم يسبق له مثيل فى القديم والحديث . وما بالك برجل يعالج الفضائل الكامنة والرذائل المستترة ، فضلا عن الأخلاق الظاهرة والسلوك الملحوظ . ولا نحب أن نستشهد على ذلك بشىء من النماذج ، فإن المطالع لأكثر أبواب الإحياء يجد فيها مصداق ما نقول .

(٣) العقلية الصوفية : ظهر للغزالى أنه لا مطمع له فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظ أحواله فإذا هو منغمس فى العلائق . ولاحظ أحواله — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا هو فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكر فى نيته فى التدريس فإذا هى غير خالصة لله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقن أنه على شفا جُرُف هار ، وأنه قد أشفى على النار ، إن لم يشتغل بتلافى الأحوال [1] .

وقد رأى العلوم التى حصلها لا تجدى فيما أراد ؛ إلا بنفحة من الله الذى يهب من يشاء من عباده الإيمان والمعرفة ، ورأى ذلك محتاجاً إلى جهد ومشقة ، وعلم وعمل .

وقد ساق الغزالى كثيراً من شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة ، لا من التعلم ، ولا من الطريق المعتاد [2] ، من ذلك قوله تعالى « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » أى مخرجاً من الإشكالات والشبه ، ومعنى يرزقه من حيث لا يحتسب : يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة . . وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » . . وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علمان فعلم باطن فى القلب ، فذلك هو العلم النافع . . » وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سرٌّ من أسرار الله تعالى يقذفه فى قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشراً . . وفى الحديث « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم ، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة . . » .

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ١٢٨

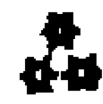
(٢) الإحياء ٣/ ٢١ .

وقد أورد كثيراً من الأدلة التى تؤيده فى إمكان الكشف والإلهام بغير الأسباب الظاهرة ، مما وقع للخلفاء الراشدين وأهل التقوى والورع والزهد والتصوف . وهذا هو العلم اللدنى ، وهو غير العلم الدنيوى الذى يكون بوسائط تعليم الخلق .

وسبيل هذا العلم مشقة وجهاد ، وحمل النفس على مالا تطيقه أكثر النفوس ، ولقد كتب الغزالى فى هذا الجهاد كثيراً حتى زخر « الإحياء » بالتصوف ، أكثر مما زخر به من أصول التشريع ، حتى هذا التشريع قد يكون درجات ومفاهيم عند المتصوفة تختلف عنها عند غيرهم .

ومابالك برجل يجعل الدرجة السفلى من الزهد أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر مابين يدى العبد من الأهوال ، ويسميه (زهد الخائفين) ؟ ويجعل الدرجة الثانية (زهد الراجين) لأنهم يزهدون رغبة فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته . أما الدرجة العليا عنده فهى (زهد المحبين) وهم العارفون ، لأنه لايحب الله تعالى إلا من عرفه ، وزهدهم ليس من رغبة إلا فى الله وفى لقائه فلا تلتفت قلوبهم إلى الآلام ليقصدوا والخلاص منها ، ولا إلى اللذات ليقصدوا نيلها والظفر بها .. وهذا هو الزهد الحقيقى والتوحيد الحقيقى الذى لايطلب فيه غير الله ، لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفى .

وما أكثر مازخر به الإحياء من آثار التصوف ، مما يدل على تشبع الغزالى بفكرته وإيمانه بأنه الطريق الموصل إلى المعرفة بالله والقرب من رحمته ، وتجد أثر هذا التشبع والفهم العميق لفلسفة التصوف فى أبواب كثيرة نخص بالذكر منها الجزء الرابع من هذه الطبعة فى (ربع المنجيات) فى أبواب الخوف والرجاء والصبر والشكر والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا . . . الخ .



وأخيرا . . .

تلك بعض إشارات إلى الينابيع الطاهرة والمناهل الصافية ، التى يفيض بها هذا الأثر الخالد ، يقصد إليها المصلحون والمفكرون من طلاب الشريعة وطلاب الحقيقة ، والباحثون فى أسرار الاعتقاد وحقائق الإيمان والأعمال وقواعد السلوك ، ليجدوا فيها غذاء لعقولهم ، وريا لظمئهم ، وشفاء لأدواء قلوبهم ، وتبديداً لظلمات الحيرة فى نفوسهم وأمنا فى سلوكهم ، ونجاة من موبقات هذا السراب الأخاذ فى دنيا الباطل والضلال ، وسبيلا إلى السعادة بالمعرفة النافعة والحكمة البالغة .

وقد كتبت هذه الكلمات استجابة للرغبة الكريمة التى أبدتها (دار إحياء الكتب العربية) فى تقديم هذه الطبعة من (إحياء علوم الدين) الذى عظم نفعه ، وعمت بركته ، منذ كتبه حجة الإسلام الغزالى ، الذى نعتز به عالماً بدين الله ، ومؤمناً بالله ، وداعيا إلى الله ، ونعتز به مسلماً من أولى البصيرة واليقين ، وعلما من أعلام الصوفية وفلاسفة الإسلام .

وأقدمت على هذا العمل مستعينا بالله ، حتى وفق إلى هذه الكلمات ، التى أرجو أن تكون مفتاحاً للكشف عن شخصية الغزالى وعقليته ومعارفه ، وما بث فى (الإحياء) من آيات الهدى والحكمة .

والحمد لله على ما هدى إليه ، وأعان عليه ، له الحمد فى الأولى والآخرة . نعم المولى ونعم النصير ؟

مصر الجديدة { ٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ
٢٥ من نوفبر سنة ١٩٥٧ م

بدوى أحمد طبانة



مواد المقدمة

صفحة

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالي

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى وفق لنشر المحاسن وطيها فى أحسن كتاب وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب وذخيرة ليوم المآب والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحيا باحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ما أشرقت شمس الاحياء للقلوب وتوجهت همة روحانية مصنفه الولى الموهوب الى إسعاف ملازمى مطالعته ومحبيه بالمطلوب . وبعد : فان الكتاب العظيم الشأن المسمى بإحياء علوم الدين المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين وأهل طريق الله السالكين المشايخ العارفين المنسوب إلى الامام الغزالى رضى الله عنه عالم العلماء وارث الأنبياء حجة

« إنَّ فِى ذٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله أولا ، حمدا كثيرا متواليا ، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين ، وأصلى وأسلم على رسله ثانيا صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين ، وأستخيره تعالى ثالثا فيما انبعث له عزمى من تحرير كتاب فى إحياء علوم الدين ، وأنتدب لقطع تعجبك رابعا ، أيها العاذل المتغالى فى العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف فى التقريع والانكار من بين طبقات المنكرين الغافلين ، فلقد حل عن لسانى عقدة الصمت وطوقنى عهدة الكلام وقلادة النطق ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق مع اللجاج فى نصرة الباطل وتحسين الجهل والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ومال ميلا يسيرا عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعا فى نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب وتداركا لبعض ما فرط من إضاعة العمر يأسا من تمام التلافى والجبر وانحيازا عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملحدين عن دركها فرجعت بكلالها ، أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ، وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ، واقية من حاول الدركات وأهوالها ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أطلع به فجر الايمان من ظلمة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصقالها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها .

وبعد : فلما وفق الله تعالى لاكمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين فى سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف على بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عزب عنى علمه ثم شرعت فى تبييضه فى مصنف متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطىء فى إكماله غير متعرض لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه وتكرر السؤال من جماعة فى إكماله فأجبت وبادرت إليه ولكنى اختصرته فى غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله فى الأسفار فاقتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أوحسنه أوضعف مخرجه فان ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ما ليس له أصل فى كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول .

فان كان الحديث فى الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته الى من خرجه من بقية الستة وحيث كان فى أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون فى كتاب

« أشد

« أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه [1] » ولعمرى إنه لاسبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذى عم الجم الغفير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إد والخطب جد والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سد وماسوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا فصار يرى المعروف منكرا والمنكر معروفا حتى ظل علم الدين مندرسا ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمسا ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام أوسجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه فى كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا فقد أصبح من بين الخلق مطويا وصار نسيا منسيا . ولما كان هذا ثلما فى الدين ملما وخطبا مدلهما رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما إحياء لعلوم الدين وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين وإيضاحا لمناهى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين .

وقد أسسته على أربعة أرباع وهى : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لأكشف أولا عن العلم الذى تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم [2] » وأميز فيه العلم النافع من الضار إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع [3] » وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب ، وانخداعهم بلامع السراب ، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب .

التزم مخرجه الصحة أو يكون أقرب إلى لفظه فى الإحياء ، وحيث كرر المصنف ذكر الحديث فإن كان فى باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة وربما ذكرته فيه ثانيا وثالثا لغرض أو لذهول عن كونه تقدم وإن كرره فى باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يغنى عنه غالبا وربما لم أذكره . وسميته :

المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج مافى الاحياء من الأخبار

جعله الله خالصا لوجهه الكريم ووسيلة إلى النعيم المقيم .

أحاديث الخطبة

(١) حديث : أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . الطبرانى فى الصغير والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف (٢) حديث : طلب العلم فريضة على كل مسلم . ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقى وغيرهما (٣) حديث : نعوذ بالله من علم لا ينفع . ابن ماجه من حديث جابر باسناد حسن .

الاسلام حسنة الدهور والأعوام تاج المجتهدين سراج المتهجدين مقتدى الأئمة مبين الحل والحرمة زين الملة والدين الذى باهى به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ورضى عن الغزالى وعن سائر العلماء المجتهدين لما كان عظيم الوقع كثير النفع جليل المقدار ليس له نظير فى بابه ولم ينسج على منواله ولا سمحت قريحة بمثاله مشتملا على الشريعة والطريقة والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية مبينا للأسرار الدقيقة رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة على صبابة من فضله وشرفه ورشحة من فضل جامعه ومصنفه (ورتبته على مقدمة . ومقصد . وخاتمة) فالمقدمة فى عنوان الكتاب . والمقصد فى فضائله وبعض المدائح والثناء من

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب

كتاب التوبة وكتاب الصبر والشكر وكتاب الخوف والرجاء وكتاب الفقر والزهد وكتاب التوحيد والتوكل وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا وكتاب النية والصدق والاخلاص وكتاب المراقبة والمحاسبة وكتاب التفكر وكتاب ذكر الموت . فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات . وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغنى عنها متدين. وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذى منه يتولد ثم الآفات التي عليها تترتب ، ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص . كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار . وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذى به تجتلب وثمرتها التي منها تستفاد وعلامتها التي بها تتعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتبا ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور : الأول : حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه . الثاني : ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه . الثالث : إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه . الرابع : حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه . الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده في الكتب أولا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاويا لمجامع هذه العلوم . وإنما حملني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما وهو الباعث الأصلي : أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضروري لأن العلم الذى يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط وأعني بعلم المعاملة ما يطلب منه مع

الكشف

الأكابر عليه والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه والخاتمة في ترجمة المصنف رضي الله عنه وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

(المقدمة في عنوان الكتاب)

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان معاملة بين العبد وبين الله تعالى ومعاملة بين العبد وبين الخلق . والباطنة أيضا قسمان مايجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة وقد بنى الامام الغزالي رحمه الله كتابه إحياء علوم الدين على هذه الأربعة الأقسام فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب كتاب

الكشف العمل به والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمح نظر الصديقين وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال والعلماء ورثة الأنبياء فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسي والاقتداء . ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر أعني العلم بأعمال الجوارح وإلى علم باطن أعني العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثاني : أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى التدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات وهو مرتب على أربعة أرباع والمتزيي بزي المحبوب محبوب فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفا في استدراج القلوب ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعا في الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذبا لهم إلى المطالعة والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد إنه كريم جواد .

كتاب العلم وفيه سبعة أبواب

الباب الأول : في فضل العلم والتعليم والتعلم . الباب الثاني : في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا . الباب الثالث : فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منها وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره . الباب الرابع : في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل . الباب الخامس : في آداب المعلم والمتعلم . الباب السادس : في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة . الباب السابع : في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

الباب الأول في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرآن قوله عز وجل ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ـ فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا وقال الله تعالى ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام وقال عز وجل ـ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ـ وقال تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ وقال تعالى ـ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ـ وقال تعالى ـ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به ـ تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم وقال عز وجل ـ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ـ بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم وقال تعالى ـ وتلك الأمثال

العلم كتاب قواعد العقائد كتاب أسرار الطهارة كتاب أسرار الصلاة كتاب أسرار الزكاة كتاب أسرار الصيام كتاب أسرار الحج كتاب تلاوة القرآن كتاب الأذكار والدعوات كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات . وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب كتاب آداب الأكل كتاب آداب النكاح كتاب آداب الكسب كتاب الحلال والحرام كتاب آداب الصحبة كتاب العزلة كتاب آداب السفر كتاب آداب السماع والوجد كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتاب أخلاق النبوة . وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب كتاب شرح عجائب القلب كتاب رياضة النفس كتاب آفة الشهوتين : البطن والفرج كتاب آفة اللسان كتاب آفة

نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ـ وقال تعالى ـ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ـ رد حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله . وقيل فى قوله تعالى ـ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ـ يعنى العلم ـ وريشا ـ يعنى اليقين ـ ولباس التقوى ـ يعنى الحياء وقال عزّ وجل ـ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ـ وقال تعالى ـ فلنقصنّ عليهم بعلم ـ وقال عزوجل ـ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ـ وقال تعالى ـ خلق الانسان علمه البيان ـ وإنما ذكر ذلك فى معرض الامتنان . وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده[١]» وقال صلى الله عليه وسلم «العلماء ورثة الأنبياء[٢]» ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوّة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة وقال صلى الله عليه وسلم «يستغفر للعالم مافى السموات والأرض[٣]» وأى منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له وقال صلى الله عليه وسلم «إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك[٤]» وقد نبه بهذا على ثمراته فى الدنيا ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى . وقال صلى الله عليه وسلم «خصلتان لا يكونان فى منافق حسن سمت وفقه فى الدين[٥]» ولا تشكن فى الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان فانه ما أراد به الفقه الذى ظننته وسيأتى معنى الفقه وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله علية وسلم «أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه[٦]» وقال صلى الله عليه وسلّم «الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم[٧]» وقال صلى الله علية وسلم «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل[٨]» . وقال صلى الله عليه وسلم «لموت قبيلة أيسر من موت عالم[٩]» وقال عليه الصلاة والسلام «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا[١٠]» وقال صلى الله عليه وسلم «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء[١١]»

كتاب العلم . الباب الأول

(١) حديث من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده متفق عليه من حديث معاوية دون قوله ويلهمه رشده وهذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير (٢) حديث العلماء ورثة الأنبياء . أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء (٣) حديث يستغفر للعالم مافى السموات والأرض هو بعض حديث أبى الدرداء المتقدم (٤) حديث الحكمة تزيد الشريف شرفا الحديث أبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى بيان العلم وعبد الغنى الأزدى فى آداب المحدث من حديث أنس باسناد ضعيف (٥) حديث خصلتان لا تجتمعان فى منافق الحديث الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حديث غريب (٦) حديث أفضل الناس المؤمن العالم الحديث البيهقى فى شعب الايمان موقوفا على أبى الدرداء باسناد ضعيف ولم أره مرفوعا (٧) حديث الايمان عريان الحديث الحاكم فى تاريخ نيسابور من حديث أبى الدرداء باسناد ضعيف (٨) حديث أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد الحديث أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٩) حديث لموت قبيلة أيسر من موت عالم الطبرانى وابن عبد البر من حديث أبى الدرداء وأصل الحديث عند أبى الدرداء (١٠) حديث الناس معادن الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (١١) حديث يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف

الغضب والحقد والحسد كتاب ذمّ الدنيا كتاب ذم المال والبخل كتاب ذم الجاه والرياء كتاب الكبر والعجب كتاب الغرور . وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب كتاب التوبة كتاب الصبر والشكر كتاب الخوف والرجاء كتاب الفقر والزهد كتاب التوحيد والتوكل كتاب المحبة والشوق والرضا كتاب النية والصدق والاخلاص كتاب المراقبة والمحاسبة كتاب التفكر كتاب ذكر الموت . ثم قال رحمه الله : فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليها بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها وأكثر ذلك مما أهمل فى الفقهيات . وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سننها

وقال صلى الله عليه وسلم « من حفظ على أمتى أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حمل من أمتى أربعين حديثا لقى الله عز وجل يوم القيامة فقيها عالما(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تفقه فى دين الله عزوجل كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « العالم أمين الله سبحانه فى الأرض(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس الأمراء والفقهاء(٦) » وقال عليه السلام « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم فى تفضيل العلم على العبادة والشهادة « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى(٨) » فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة . وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء(١٠) » فأعظم بمرتبة هى تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد فى فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عبد الله تعالى بشىء أفضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شىء عماد وعماد هذا الدين الفقه(١١) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه(١٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة(١٣) » وقال

وخفايا الورع فى مجاريها وهى مما لا يستغنى المتدين عنها . وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه وأذكر فى كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ثم سببه الذى منه يتولد ثم الآفات التى عليها يترتب ثم العلامات التى بها يتعرف ثم طرق المعالجة التى منها يتخلص كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار . وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التى يتقرب بها العبد من رب العالمين وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذى به تجتلب وثمرتها التى منها تستفاد وعلامتها التى بها تعرف وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع

(١) حديث من حفظ على أمتى أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة . ابن عبد البر فى العلم من حديث ابن عمر وضعفه (٢) حديث من حمل من أمتى أربعين حديثا لقى الله يوم القيامة فقيها عالما ابن عبد البر من حديث أنس وضعفه (٣) حديث من تفقه فى دين الله كفاه الله همه الحديث الخطيب فى التاريخ من حديث عبدالله بن جزء الزبيدى باسناد ضعيف (٤) حديث أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم ذكره ابن عبد البر تعليقا ولم أظفر له باسناد (٥) حديث العالم أمين الله فى الأرض ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس الحديث ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٧) حديث إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى الحديث الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم من حديث عائشة باسناد ضعيف (٨) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن صحيح (٩) حديث فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان وهو قطعة من حديث أبى الدرداء المتقدم (١٠) حديث يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان باسناد ضعيف (١١) حديث ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين الحديث الطبرانى فى الأوسط وأبو بكر الآجرى فى كتاب فضل العلم وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف وعند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف: فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد (١٢) حديث خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع باسناد جيد والشطر الثانى عند الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١٣) حديث فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة

صلى الله عليه وسلم « إنكم أصبحتم فى زمن كثير فقهاؤه قليل قراؤه وخطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه العمل فيه خير من العلم وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه العلم فيه خير من العمل[(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة[(٢)] » وقيل يارسول الله : أى الأعمال أفضل فقال «العلم بالله عز وجل» فقيل أى العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم «العلم بالله سبحانه» فقيل له نسأل عن العمل وتجيب عن العلم فقال صلى الله عليه وسلم « إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله وإن كثير العمل لاينفع مع الجهل بالله[(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول يامعشر العلماء إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم[(٤)] » نسأل الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل يا كميل العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق . وقال على أيضا رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد وإذا مات العالم ثلم فى الاسلام ثلمة لايسدها إلا خلف منه وقال رضى الله تعالى عنه نظما:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم … على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه … والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا … الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود ليس شىء أعز من العلم الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه ، وسئل ابن المبارك من الناس فقال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم فالانسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل أقوى منه ولا بعظمه فان الفيل أعظم منه ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه ولا بأكله فان الثور أوسع بطنا منه ولا ليجامع فان أخس العصافير أقوى على السفاد منه بل لم يخلق إلا للعلم وقال بعض العلماء ليت شعرى أى شىء أدرك من فاته العلم وأى شىء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام « من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى خيرا منه فقد حقر ماعظم الله تعالى » وقال فتح الموصلى رحمه الله أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قال كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت ولقد صدق فان غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته كما أن غذاء الجسد الطعام ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لايشعر به إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح فى الحال وإن كان واقعا فاذا حط

ابن عدى من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف ولأبى يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف
(١) حديث إنكم أصبحتم فى زمان كثير فقهاؤه الطبرانى من حديث حزام بن حكيم عن عمه وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف (٢) حديث بين العالم والعابد مائة درجة الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال سبعون درجة بسند ضعيف وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبى هريرة (٣) حديث قيل له يارسول الله أى الأعمال أفضل فقال العلم بالله الحديث ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء الحديث الطبرانى من حديث أبى موسى بسند ضعيف

والعقل
(المقصد فى فضل الكتاب المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه)
اعلم أن فضائل الاحياء لاتحصى بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لاتستقصى جمع الناس ... اقبه فقصروا وما قصروا وغاب عنهم أكثر مما أبصروا وعز من أفردها فيما علمت بتأليف وهى جديرة بالتصنيف غاص مؤلفه رضى الله عنه فى بحار الحقائق واستخرج جواهر المعانى ثم لم يرض إلا بكبارها وجال فى بساتين العلوم فاجتنى ثمارها بعد أن اقتطف من أزهارها وسما إلى سماء المعانى فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة وجليت عليه عرائس أسرار المعانى فلم ترق فى عينه منهن إلا البادية النضارة جمع رضى الله عنه فأوعى وسعى فى إحياء علوم الدين

الموت عنه أغباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسرا عظيما ثم لا ينفعه وذلك كاحساس الآمن من خوفه والمفيق من سكره بما أصابه من الجراحات فى حالة السكر أوالخوف فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فان الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وقال الحسن رحمه الله يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء وقال ابن مسعود رضى الله عنه عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه موت رواته فوالذى نفسى بيده ليودن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم فان أحدا لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها وكذلك عن أبى هريرة رضى الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله وقال الحسن فى قوله تعالى ـ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ـ إن الحسنة فى الدنيا هى العلم والعبادة وفى الآخرة هى الجنة وقيل لبعض الحكماء أى الأشياء تقتنى قال الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك يعنى العلم وقيل أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت وقال بعضهم من اتخذ الحكمة لجاما اتخذه الناس إماما ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعى رحمة الله عليه من شرف العلم أن كل من نسب اليه ولو فى شىء حقير فرح ومن رفع عنه حزن وقال عمر رضى الله عنه يا أيها الناس عليكم بالعلم فان لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه فان أذنب ذنبا استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك وان تطاول به ذلك الذنب حتى يموت وقال الأحنف رحمه الله كاد العلماء أن يكونوا أربابا وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل مصيره وقال سالم بن أبى الجعد اشترانى مولاى بثلثمائة درهم وأعتقنى فقلت بأى شىء أحترف فاحترفت بالعلم فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائرا فلم آذن له وقال الزبير بن أبى بكر كتب إلى أبى بالعراق عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكى ذلك فى وصايا لقمان لابنه قال يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء وقال بعض الحكماء إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهرى رحمه الله العلم ذكر ولا يحبه إلا ذكران الرجال .

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى ـ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ـ وقوله عز وجل ـ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ـ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم »

(١) حديث من سلك طريقا يطلب فيه علما الحديث مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال (٣) حديث لأن تغدو فتتعلم بابا من الخير خير من أن تصلى مائة ركعة ابن عبد البر من حديث أبى ذر وليس إسناده بذاك والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا ابن حبان فى روضة العقلاء وابن عبد البر موقوفا على الحسن البصرى ولم أره مرفوعا إلا بلفظ خير له من مائة ركعة رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف من حديث أبى ذر (٥) حديث اطلبوا العلم ولو بالصين ابن عدى والبيهقى فى المدخل والشعب من حديث أنس وقال البيهقى متنه مشهور وأسانيده ضعيفة .

فشكر الله له ذلك السعى فلله دره من عالم محقق مجيد وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد لقد أبدع فيما أودع كتابه من الفوائد الشوارد وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد وقد أجاد فيما أفاد فيه وأملى بيد أنه فى العلوم صاحب القدح المعلى إذ كان رضى الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك وأين مثله وأصله أصله وفضله فضله: هيهات لا يأتى الزمان بمثله

إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ونظم أشتات الفضائل وأخذ برقاب المحامد واستولى على غايات المناقب فشجرته فى فوارة العلم والعمل والعلا والفهم والذكاء أصلها ثابت وفرعها فى السماء مع كونه رضى الله عنه ذا الصدر الرحيب والقريحة الثاقبة والدراية الصائبة

وقال عليه الصلاة والسلام « العلم خزائن مفاتيحها السؤال ألا فاسألوا فانه يؤجر فيه أربعة السائل والعالم والمستمع والمحب لهم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم «لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه (٢) » وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه «حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة ، فقيل يارسول الله ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم وهل ينفع القرآن إلا بالعلم (٣) » . وقال عليه الصلاة والسلام « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة(٤) » . وأما الآثار فقال ابن عباس رضي الله عنهما ذللت طالبا فعززت مطلوبا وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله ما رأيت مثل ابن عباس إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا وإذا أفتى فأكثر الناس علما وقال ابن المبارك رحمه الله عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة . وقال بعض الحكماء إني لا أرحم رجالا كرحمتي لأحد رجلين رجل يطلب العلم ولا يفهم ورجل يفهم العلم ولا يطلبه وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لأن أتعلم مسئلة أحب إلى من قيام ليلة وقال أيضا العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم وقال أيضا كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك . وقال عطاء مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو وقال عمر رضي الله عنه موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه وقال الشافعي رضي الله عنه طلب العلم أفضل من النافلة وقال ابن عبد الحكم رحمه الله كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلي فقال ياهذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية وقال أبو الدرداء رضي الله عنه من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل ـ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ـ والمراد هو التعليم والارشاد وقوله تعالى ـ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ـ وهو إيجاب للتعليم وقوله تعالى ـ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ـ وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة ـ ومن يكتمها فانه آثم قلبه ـ وقال صلى الله عليه وسلم « ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه (٥) » وقال تعالى ـ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ـ وقال تعالى ـ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وقال تعالى ـ ويعلمهم الكتاب والحكمة ـ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا رضي الله عنه إلى اليمن «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها (٦) »

(١) حديث العلم خزائن مفاتيحها السؤال الحديث رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعا باسناد ضعيف (٢) حديث لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف (٣) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر (٤) حديث من جاءه الموت وهو يطلب العلم الحديث الدارمي وابن السني في رياضة المتعلمين من حديث الحسن فقيل هو ابن علي وقيل هو ابن يسار البصري فيكون مرسلا (٥) حديث ما آتى الله عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين الحديث أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة (٦) حديث قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم

والنفس السامية والهمة العالية ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه أن الفقيه العلامة قطب اليمن اسماعيل بن محمد الحضرمي ثم اليمني سئل عن تصانيف الغزالي فقال من جملة جوابه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ومحمد بن ادريس الشافعي سيد الأئمة ومحمد ابن محمد بن محمد الغزالي سيد المصنفين وذكر اليافعي أيضا أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الانكار على كتاب إحياء علوم الدين وكان مطاعا مسموع الكلمة فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الاحياء وهم باحراقها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فاذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وقال صلى الله عليه وسلم « من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صدّيقا[1] » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا فيقول الله عز وجلّ أنتم عندى كبعض ملائكتى اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة[2] » وهذا إنما يكون بالعلم المتعدّى بالتعليم لا العلم اللازم الذى لا يتعدّى به . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجلّ لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون[3] » وقال صلى الله عليه وسلم «من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو معلما أو متعلما[6] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير[7] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه[8] » وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعلمها ويعمل بها خير له من عبادة سنة[9] » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجلّ ويرغبون إليه والثانى يعلمون الناس فقال « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما » ثم عدل إليهم وجلس معهم[10]

فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالى هذا خصمى يا رسول الله فان كان الأمر كما زعم تبت إلى الله وإن كان شيئا حصل لى من بركتك واتباع سنتك فخذلى حقى من خصمى ثم ناول النبى صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء فتصفحه النبى صلى الله عليه وسلم ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال والله إن هذا لشىء حسن ثم ناوله الصديق رضى الله عنه فنظر فيه فاستجاده ثم قال نعم والذى بعثك بالحق إنه لشىء حسن ثم ناوله الفاروق عمر رضى الله عنه فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه على ابن حرزهم عن القميص وأن يضرب ويحد حد المفترى فجرد وضرب فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضى الله عنه وقال يا رسول الله لعله ظنّ خلاف سنتك

أحمد من حديث معاذ وفى الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلىّ (١) حديث من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صدّيقا رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة الحديث أبو العباس الذهبى فى العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس الحديث متفق عليه من حديث عبد الله ابن عمرو (٤) حديث من علم علما فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة قال الترمذى حديث حسن (٥) حديث نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها الحديث الطبرانى من حديث ابن عباس نحوه باسناد ضعيف (٦) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الحديث الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة قال الترمذى حسن غريب (٧) حديث إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير الترمذى من حديث أبى أمامة وقال غريب وفى نسخة حسن صحيح (٨) حديث ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن الحديث ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلا نحوه ولأبى نعيم من حديث عبد الله بن عمرو ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى (٩) حديث كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها الحديث ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلا نحوه وفى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة (١٠) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله الحديث ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ[(١)] » اهـ فالأول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه والثانى ذكره مثلا للنافع والثالث للمحروم منهما . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به[(٢)] » الحديث : وقال صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله[(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا حسد إلا فى اثنين رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير[(٤)] » . وقال صلى الله عليه وسلم « على خلفائى رحمة الله قيل ومن خلفاؤك ؟ قال الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله[(٥)] » . وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : من حدث حديثا فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل وقال ابن عباس رضى الله عنهما : معلم الناس الخير يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى البحر وقال بعض العلماء العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثورى رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان فقال اكروا لى لأخرج من هذا البلد هذا بلد يموت فيه العلم وإنما قال ذلك حرصا على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به . وقال عطاء رضى الله عنه دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى فقلت ما يبكيك قال ليس أحد يسألنى عن شىء . وقال بعضهم العلماء سرج الأزمنة كل واحد مصباح زمانه يستضىء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة إن لهذا العلم ثمنا قيل وما هو قال أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم قيل وكيف ذلك قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره . وقيل علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ما تجهل فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت . وقال معاذ بن جبل فى التعليم والتعلم ورأيته أيضا مرفوعا « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والضراء والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها[(٦)] . لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم وقوة

(١) حديث مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى الحديث متفق عليه من حديث أبى موسى (٢) حديث إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث الدال على الخير كفاعله الترمذى من حديث أنس وقال غريب ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى مسعود البدرى بلفظ من دل على خير فله مثل أجر فاعله (٤) حديث لا حسد إلا فى اثنتين الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٥) حديث على خلفائى رحمة الله الحديث ابن عبد البر فى العلم والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن فقيل هو ابن على وقيل ابن يسار البصرى فيكون مرسلا ولابن السنى وأبى نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث على نحوه (٦) حديث معاذ تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة الحديث بطوله أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب وابن عبد البر وقال ليس له إسناد قوى .

فأخطأ فى ظنه فرضى الامام الغزالى وقبل شفاعة الصديق ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط فى ظهره وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الامام الغزالى واستغفر ولكنه بقى مدة طويلة متألما من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن رأى النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فعوفى وشفى باذن الله تعالى ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه فيه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى . قال اليافعى روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة فأخبرنى بذلك ولى الله عن ولى الله عن ولى الله عن ولى الله الشيخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بن الميلق

الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام به يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوعد وبه يوحد وبه يمجد وبه يتورّع وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء نسأل الله تعالى حسن التوفيق .

في الشواهد العقلية

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ومالم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال فلقد ضلّ عن الطريق من طمع أن يعرف ان زيدا حكيم أم لا وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها . والفضيلة مأخوذة من الفضل وهى الزيادة فاذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء كما يقال الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوّة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدّة العدو وحسن الصورة فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل لأن تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى وليست من الكمال في شيء والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه فاذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الأوصاف كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الحيوانات بل شدّة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الاطلاق والعلم فضيلة في ذاته وعلى الاطلاق من غير إضافة فانه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء بل الكيس من الخيل خير من البليد فهى فضيلة على الاطلاق من غير إضافة . واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره وإلى ما يطلب لذاته وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير فانهما حجران لا منفعة لهما ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة والذى يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى والذى يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن فان سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمشى بها والتوصل إلى المآرب والحاجات وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ماهو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضا بشرف ثمرته وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الانسان لشعورها بتمييز الانسان بكمال مجاوز لدرجتها . هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كما سيأتى بيانه وتتفاوت لامحالة فضائلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه فان العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا فان الدنيا مزرعة للآخرة وهى الآلة الموصلة إلى الله عزّ وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لا لمن يتخذها مستقرا ووطنا وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام : أحدها أصول لا قوام للعالم دونها وهى أربعة الزراعة وهى للمطعم والحياكة وهى للملبس والبناء

الشاذلى عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلى عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبى العباس المرسى عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبى الحسن الشاذلى قدّس الله أرواحهم وكان معاصرا لابن حرزهم قال وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات وأثر السياط ظاهر على ظهره وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله وكان أدرك الامام الغزالى واجتمع به قال سمعت الامام الفقيه الصوفى سعد بن على بن أبى هريرة الاسفرايني يقول سمعت الشيخ الامام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوى بمكة المشرفة يقول دخلت المسجد الحرام يوما فطرأ علىّ حال وأخذنى عن نفسى فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدّ ةمابى

وهو للمسكن والسياسة وهى للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها الثانى ماهى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة فانها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد آلاتها كالحلاجة والغزل فانها تخدم الحياكة باعداد عملها . الثالث ماهى متممة للأصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة وكالقصارة والخياطة للحياكة وذلك بالاضافة إلى قوام أمر العالم الأرضى مثل أجزاء الشخص بالاضافة إلى جملته فانها ثلاثة أضرب أيضا إما أصول كالقلب والكبد والدماغ وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين وأشرف هذه الصناعات أصولها وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات ولذلك يستخدم لامحالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى وهى العليا سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا فى ظاهرهم وباطنهم . والثانية الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا ولكن على ظاهرهم لاعلى باطنهم . والثالثة العلماء بالله عزوجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء وحكمهم على باطن الخاصة فقط ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولاتنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالالزام والمنع والشرع . والرابعة الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى الغريزة التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية إذ تدرك الحكمة بالعقل واللغة بالسمع والعقل أشرف من السمع إما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء والعقل أشرف صفات الانسان كما سيأتى بيانه إذ به تقبل أمانة الله وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فان نفعه وثمرته سعادة الآخرة وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم وأشرف موجود على الأرض جنس الانس وأشرف جزء من جواهر الانسان قلبه والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل فتعليم العلم من وجه عبادة لله تعالى ومن وجه خلافة لله تعالى وهو من أجل خلافة لله فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته فهو كالخازن لأنفس خزائنه ثم هو مأذون له فى الانفاق منه على كل محتاج إليه فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه فى تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى جعلنا الله منهم بكرمه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

﴿الباب الثانى . فى العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ماهو فرض عين وماهو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة﴾

بيان العلم الذى هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين » واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ولا نطيل بنقل التفصيل ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده فقال المتكلمون هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله

سبحانه

فوقعت على جنبي الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة وكنت أطرد عن نفسى النوم فأخذتنى سنة بين النوم واليقظة فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى أكمل صورة وأحسن زى من القميص والعمامة ورأيت الأئمة الشافعى ومالكا وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يعرضون عليه مذاهبهم واحدا بعد واحد وهو صلى الله عليه وسلم يقررهم عليها ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بطرده وإهانته فتقدمت أنا وقلت يا رسول الله هذا الكتاب أعنى إحياء علوم الدين معتقدى ومعتقد أهل السنة والجماعة فلو أذنت لى حق أقرأه عليك فأذن لى فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانه وصفاته وقال الفقهاء هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها وقال المتصوفة المراد به هذا العلم فقال بعضهم هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل وقال بعضهم هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان وقال بعضهم هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه . وقال أبو طالب المكي هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الاسلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم « بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله[1] » إلى آخر الحديث لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب . والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره وهو أن العلم كما قدمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد وفعل وترك فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان « إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل[2] » فاذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله عز وجل غير عاص له وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضروريا في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك عنها وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد . أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة فان كان صحيحا وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال وهكذا في بقية الصلوات فان عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم وهو أن يعلم أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين فان تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام فان لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل وكذلك في سائر الأصناف فاذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور ولكن ينبغي لعلماء الاسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكا حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله فان فعل ذلك نفل فعلمه أيضا نفل فلا يكون تعلمه فرض عين

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة حتى انتهيت إلى قول الغزالي وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمدا صلى الله عليه وسلم إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فرأيت البشاشة في وجهه صلى الله عليه وسلم ثم التفت وقال أين الغزالي وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال ها أنا ذا يارسول الله وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشد سرورا بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه الاحياء ثم انتبهت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات وكان تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة

(١) حديث بني الإسلام على خمس متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل ، مشهور في كتب السير والحديث فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة .

وفى تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج فى الحال نظر يليق بالفقه وهكذا التدريج فى علم سائر الأفعال التى هى فرض عين . وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب مايتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم مايحرم من الكلام ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ولا على البدوى تعلم مايحرم الجلوس فيه من المساكن فذلك أيضا واجب بحسب مايقتضيه الحال فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وماهو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الاسلام لابسا للحرير أو جالسا فى الغصب أو ناظرا إلى غير ذى محرم فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابسا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه حتى إذا كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر فان خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم مايتوصل به إلى إزالة الشك فان لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئى وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر فى المعتقدات فقد مات على الاسلام إجماعا ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد فان كان فى بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغى أن يصان فى أول بلوغه عنها بتلقين الحق فانه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع فى البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا وهذا هو الحق فى العلم الذى هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضا ولكن فى حق من يتصدى له فاذا كان الغالب أن الانسان لاينفك عن دواعى الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات ما يرى نفسه محتاجا إليه وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه[1] » ولاينفك عنها بشر وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات وإزالتها فرض عين ولايمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها فان من لايعرف الشر يقع فيه والعلاج هو مقابلة السبب بضده وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب وأكثر ماذكرناه فى ربع المهلكات من فروض الأعيان وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لايعنى . ومما ينبغى أن يبادر فى إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى الايمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق وهو من تتمة كلمتى الشهادة فانه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا ينبغى أن يفهم الرسالة التى هو مبلغها وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما فله النار فاذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا وتحققت أن كل عبد هو فى مجارى أحواله فى يومه وليلته لايخلو من وقائع فى عباداته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر ويلزمه المبادرة إلى تعلم مايتوقع وقوعه على القرب غالبا فاذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرّف بالألف واللام فى قوله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » علم العمل الذى هو مشهور الوجوب على المسلمين لاغير فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه والله أعلم .

(١) حديث ثلاث مهلكات شح مطاع الحديث البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف .

السنة واستبشاره بعقيدة الغزالى وتقريرها نعمة من الله عظيمة ومنة جسيمة نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين .

(فصل) أثنى على الاحياء عالم من علماء الإسلام وغير واحد من عارفى الأنام بل جمع أقطاب وأفراد فقال فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقى فى تخريجه إنه من أجل كتب الإسلام فى معرفة الحلال والحرام جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل بل مزج فيه على الظاهر والباطن ومزج معانيها فى أحسن المواطن وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه وسلك فيه من النمط أوسطه مقتديا بقول على كرم الله وجهه

بيان العلم الذى هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لايتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالاضافة إلى الفرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعيـة وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صـلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل اللغة فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ماهو محمود وإلى ماهو مذموم وإلى ماهو مباح فالمحمود مايرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ماهو فرض كفاية وإلى ماهو فضيلة وليس بفريضة . أما فرض الـكفاية فهو كل علم لايستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فانه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الـكفايات فان أصول الصناعات أيضا من فروض الـكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك فان الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعـد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله . وأما مايعـد فضيلة لا فريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغـير ذلك ممـا يستغنى عنـه ولـكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التى لاسخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه . وأما العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان : فهى محمودة كلها ولـكن قد يلتبس بها مايظن أنها شرعية وتـكون مذمومة فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة . أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهى أربعة أضرب : الضرب الأول الأصول : وهى أربعة : كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة ، والاجمـاع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل فى الدرجة الثالثة وكذا الأثر فانه أيضا يدل على السنة لأن الصحابة رضى الله عنهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ماغاب عن غـيرهم عيانه وربما لاتحيط العبارات بما أدرك بالقرائن فمن هـذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفن . الضرب الثانى الفروع : وهو مافهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام «لايقضى القاضى وهو غضبان[1]» أنه لايقضى إذا كان حاقنا أو جائعا أو متألما بمرض وهـذا على ضربين : أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتـكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثانى ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه وهو الذى يحويه الشطر الأخـير من هذا الـكتاب أعنى جملة كتاب إحياء علوم الدين ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح فى عباداتها وعاداتها وهو الذى يحويه الشطر الأول من هـذا الـكتاب . والضرب الثالث المقـدمات : وهى التى تجرى منـه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فانهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صـلى الله عليـه وسلم وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعيـة فى أنفسهما ولـكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هـذه الشريعـة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضروريا

(١) حديث لايقضى القاضى وهو غضبان متفق عليه من حديث أبى بكرة

خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى إلى آخر ماذكره مما الأولى بنا فى هذا المحل طيه ثم الانتقال إلى نشر محاسن الاحياء ليظهر المحب والمبغض رشده وغيه . وقال عبد الغافر الفارسى فى مثال الاحياء إنه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق إليها . وقال فيـه النووى كاد الاحياء أن يكون قرآنا . وقال الشيخ أبو محمد الـكازرونى لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الاحياء . وقال بعض علماء المالـكية الناس فى فضل علوم الغزالى أى والاحياء جماعها كما سيأتى أنه البحر المحيط . وكان السيد الجليـل كبير الشان تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبدالله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه نقلا وروى عنه أنه قال مكثت سنين أطالع

« إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميا [1] » ولو تصور استقلال الحفظ بجميع مايسمع لاستغنى عن الكتابة ولكنه صار بحكم العجز فى الغالب ضروريا . الضرب الرابع التتمات : وذلك فى علم القرآن فانه ينقسم إلى مايتعلق باللفظ كتعلم القراآت ومخارج الحروف وإلى مايتعلق بالمعنى كالتفسير فان اعتماده أيضا على النقل إذ اللغة بمجردها لاتستقل به وإلى مايتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضا . وأما التتمات فى الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم والعلم بالعدالة فى الرواة والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوى والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك مايتعلق به فهذه هى العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات . فان قلت لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زادا للمعاد ليتناول ما يصلح للتزود فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا ولعمرى إنه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا فان الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الأولى بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس من العرب فى الطريق ولكن الحج شىء وسلوك الطريق إلى الحج شىء ثان والقيام بالحراسة التى لا يتم إلا بها شىء ثالث ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شىء رابع وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة ويدل على ذلك ما روى مسندا « لا يفتى الناس إلا ثلاثة أمير أو مأمور أو متكلف [2] » فالأمير هو الامام وقد كانوا هم المفتون والمأمور نائبه والمتكلف غيرهما وهو الذى يتقلد تلك العهدة من غير حاجة وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحترزون عن الفتوى حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة وفى بعض الروايات بدل المتكلف المرائى فان من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال . فان قلت هذا إن استقام لك فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التى هى أعمال الآخرة ثلاثة الاسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميا : أى لا يحسن الكتابة ابن مردويه فى التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا أنا محمد النبى الأمى وفيه ابن لهيعة ولابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى وصححه من حديث ابن مسعود قولوا اللهم صل على محمد النبى الأمى وللبخارى من حديث البراء وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب (٢) حديث لا يفتى الناس إلا ثلاثة الحديث ابن ماجه من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ لا يقص على الناس وإسناده حسن .

كتاب الاحياء كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التى قبلها ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد أثنى على كتاب الاحياء بما أثنى عليه ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ومن كلامه رضى الله عنه : عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية خصوصا كتاب ذكر الموت وكتاب الفقر والزهد وكتاب التوبة وكتاب رياضة النفس ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وفكرا واعتبارا واعتقادا وشرح الكتاب والسنة مستوفى فى كتاب إحياء علوم الدين للامام حجة الاسلام الغزالى رحمه الله ونفعنا به ومن كلامه وبعد فليس لنا طريق ومنهاج

فيما علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر . أما الاسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال « هلا شققت عن قلبه(١) » للذي قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف بل يحكم الفقيه بصحة الاسلام تحت ظلال السيوف مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ولكنه مشير على صاحب السيف فان السيف ممتد إلى رقبته واليد ممتدة إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله ما دام له رقبة ومال وذلك في الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم(٢) » جعل أثر ذلك في الدم والمال وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها وليس ذلك من فن الفقه وإن خاض الفقيه فيه كان كالو خاض في الكلام والطب وكان خارجا عن فنه . وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا في جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولا بالتفكر في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة كما أن القول باللسان في الاسلام لا ينفع ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه . وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهرا حكم بأنه برئت ذمته . وحكي أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطا للزكاة فحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه وصدق فان ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية ومثل هذا هو العلم الضار . وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ولكن الورع له أربع مراتب : الأولى الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة وهو الذي يخرج بتركه الانسان عن أهلية الشهادة والقضايا والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر . الثانية ورع الصالحين وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات قال صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « الاثم حزاز القلوب(٤) » . الثالثة ورع المتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس(٥) » وذلك مثل التورع من التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات . الرابعة ورع الصديقين وهو الاعراض عما سوى الله تعالى خوفا من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى وهو ورع الشهود والقضاة وما يقدح في العدالة والقيام بذلك لا ينفي الاثم

(١) حديث هلا شققت عن قلبه مسلم من حديث أسامة بن زيد (٢) حديث أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وعمرو بن عمر (٣) حديث دع ما يريبك إلى ما لا يريبك الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي (٤) حديث الاثم حزاز القلوب البيهقي في شعب الايمان من حديث ابن مسعود ورواه العدني في مسنده موقوفا عليه (٥) حديث لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي .

سوى الكتاب والسنة وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين وبقية المجتهدين حجة الإسلام الغزالي في كتابه العظيم الشان اللقب أعجوبة الزمان إحياء علوم الدين الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة ومن كلامه عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة وصار عالما في الملك والملكوت . ومن كلامه الوجيز العزيز لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء . ومن كلامه اعلموا أن مطالعة الاحياء تحضر القلب الغافل في لحظة كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج في العفص والماء وتأثير

فى الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة « استفت قلبك وإن أفتوك وان أفتوك وإن أفتوك[1] » والفقيه لا يتكلم فى حزازات القلوب وكيفية العمل بها بل فيما يقدح فى العدالة فقط فإذن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التى بها صلاح طريق الآخرة فان تكلم فى شىء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل فى كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل فى كلامه شىء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام وكما تدخل الحكمة فى النحو والشعر . وكان سفيان الثورى وهو إمام فى علم الظاهر يقول إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة كيف وقد اتفقوا على أن الشرف فى العلم العمل به فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والاجارة والصرف ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون وإنما العمل بالقلب والجوارح فى الطاعات والشرف هو تلك الأعمال . فان قلت لم سويت[2] بين الفقه والطب إذ الطب أيضا يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضا صلاح الدين وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين . فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه : أحدها أنه علم شرعى إذ هو مستفاد من النبوة بخلاف الطب فانه ليس من علم الشرع . والثانى أنه لا يستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون . والثالث : أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر فى أعمال الجوارح ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية فى الآخرة والمذموم يصدر من المذموم وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء فى المزاج والأخلاط وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضا شرف علم طريق الآخرة . فان قلت فصل لى علم طريق الآخرة تفصيلا يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة . فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم فقد قال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشىء من هذا العلم بدعة أو كبر . وقيل من كان محبا للدنيا أو مصرا على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئا وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته   فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين أعنى علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبى ومعنى الوحى ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للانسان وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحى إليهم والمعرفة بملكوت السموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ومعنى قوله تعالى ــ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ــ ومعنى قوله تعالى ــ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان

(١) حديث استفت قلبك وإن أفتوك أحمد من حديث وابصة .
(٢) هكذا بالنسخ ولعل الصواب لم لا سويت بدليل باقى كلامه فتأمل .

كتب الغزالى واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن ومن كلامه أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شىء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الاسلام الغزالى ومحبة كتبه فان كتب الإمام الغزالى لباب الكتاب والسنة ولباب المعقول والمنقول والله وكيل على ما أقول . ومن كلامه أنا أشهد سرا وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين ، ومن كلامه من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن فعليه بمطالعة كتب الغزالى خصوصا إحياء علوم الدين فهو البحر المحيط . ومن كلامه اشهدوا على أن من وقع على كتاب الغزالى فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه

لو كانوا يعلمون ـ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله إذ للناس فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته وبعضهم يدعى أمورا عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم فنعنى بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه وهذا ممكن فى جواهر الانسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا وإنما نعنى بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التى هى الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى جميع أحوالهم فبقدر ما ينجلى من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التى يأتى تفصيلها فى موضعها وبالعلم والتعليم وهذه هى العلوم التى لا تسطر فى الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشىء منها إلا مع أهله وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار وهذا هو العلم الخفى الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى فاذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه فان الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه (١)» . وأما القسم الثانى : وهو علم المعاملة فهو علم أحوال القلب . أما ما يحمد منها فكالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاء ومعرفة المنة لله تعالى فى جميع الأحوال والاحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والاخلاص ، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التى بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة . وأما ما يذم فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء فى الدنيا للتمتع والكبر والرياء والغضب والأنفة والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والرغبة والبذخ والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والخيلاء والتنافس والمباهاة والاستكبار عن الحق والخوض فيما لا يعنى وحب كثرة الكلام والصلف والتزين للخلق والمداهنة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل وضعف الانتصار للحق واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر والأمن من مكر الله سبحانه فى سلب ما أعطى والاتكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والقسوة والفظاظة والفرح بالدنيا والأسف على فواتها والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم والجفاء والطيش والعجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة ، فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة . وأضدادها وهى الأخلاق المحمودة منبع

(١) حديث إن من العلم كهيئة المكنون الحديث أبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين له فى التصوف من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف .

بمطالعة كتب الغزالى وخصوصا البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان ومن كلامه نطق معانى معنوى القرآن ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء بل جميع أرواح الملائكة بل جميع فرق الصوفية مثل العارفين واللامتية بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات وما يناسب رضا الذات والصفات أجمع هؤلاء المذكورون أن لا شىء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب كتابة الغزالى ومحبة كتبه وكتب الغزالى قلب الكتاب والسنة بل قلب المعقول والمنقول وأنفع يوم ينفخ إسرافيل فى الصور وفى يوم نقر الناقور والله وكيل على ما أقول وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ومن كلامه كتاب إحياء علوم الدين فيه

الطاعات والقربات فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة وهو فرض عين فى فتوى علماء الآخرة فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك فى الآخرة كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا فنظر الفقهاء فى فروض العين بالاضافة إلى صلاح الدنيا وهذا بالاضافة إلى صلاح الآخرة ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعانى حتى عن الاخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذى فى إهماله هلاكه فى الآخرة ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شىء منها وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا وفى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه فى الدين وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا ترى أحدا يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال مالا قائم به هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدّم به على الأقران والتسلط به على الأعداء هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب . كان الامام الشافعى رضى الله عنه يجلس بين يدى شيبان الراعى كما يقعد الصبى فى المكتب ويسأله كيف يفعل فى كذا وكذا فيقال له مثلك يسأل هذا البدوى فيقول إن هذا وفق لما أغفلناه . وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه ويحى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخى ولم يكن فى علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما قيل له كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب ولا سنة فقال صلى الله عليه وسلم سلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم (1) » ولذلك قيل علماء الظاهر زينة الأرض والملك وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت . وقال الجنيد رحمه الله قال لى السرى شيخى يوما إذا قمت من عندى فمن تجالس قلت المحاسبى فقال نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ثم لما وليت سمعته يقول جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوّف أفلح ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه . فان قلت فلم لم تورد فى أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو محمودان . فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التى ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترّهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شىء منه مألوفا فى العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبغت جماعة لفقوا لها شبها ورتبوا فيها

(1) حديث قيل له كيف نفعل إذا جاء أمر لم نجده فى كتاب الله ولا سنة رسوله الحديث الطبرانى من حديث ابن عباس فيه عبد الله بن كيسان ضعفه الجمهور .

جميع الأسرار وكتاب بداية الهداية فيه التقوى وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح الصراط المستقيم وكتاب منهاج العابدين فيه الطريق إلى الله وكتاب الخلاصة فى الفقه فيه النور . ومن كلامه السرّ كله فى اتباع الكتاب والسنة وهو اتباع الشريعة والشريعة مشروحة فى كتاب إحياء علوم الدين المسمى أعجوبة الزمان . ومن كلامه بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين أو كتبه أو سمعه ، وكلامه رضى الله عنه فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالى وكتبه والحثّ على العمل بها خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدى ووالدى الشيخ العارف بالله تعالى شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول إن أهل الزمان جمعت كلام الشيخ

كلاما مؤلفا فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذى يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة وذلك إلى حد محدود سنذكره فى الباب الذى يلى هذا إن شاء الله تعالى . وأما الفلسفة فليست علما برأسها بل هى أربعة أجزاء : أحدها الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة فإن أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع فيصان الضعيف عنهما لا لعينهما كما يصان الصبى عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع فى النهر وكما يصان حديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم . الثانى المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ووجه الحد وشروطه وهما داخلان فى علم الكلام . والثالث الالهيات وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وهو داخل فى الكلام أيضا والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة وكما أن الاعتزال ليس علما برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين ، وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة فكذلك الفلاسفة . والرابع الطبيعيات وبعضها مخالف للشرع والدين الحق فهو جهل وليس بعلم حتى يورد فى أقسام العلوم وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وهو شبيه بنظر الأطباء إلا أن الطبيب ينظر فى بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح وهم ينظرون فى جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه وأما علومهم فى الطبيعيات فلا حاجة إليها فاذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الانسان إلى استئجار البذرقة فى طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد فى عصر الصحابة رضى الله عنهم فليعلم المتكلم حده من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس فى طريق الحج فاذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التى يشاركه فيها سائر العوام وهى من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان وإنما يتميز عن العامى بصنعة المجادلة والحراسة فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه فى علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه ومانعا عنه وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التى جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى ــ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ــ فان قلت فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة كما أن حد البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذى به يكف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض وهاتان رتبتان نازلتان بالاضافة إلى علم الدين وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ، فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار فى متاهات الضلال فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك فى الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضى الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى

عبد الله فى الغزالى وصيته [الجوهر التلالى] خصوصا من كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى فلم يتيسر له وأرجو أن يوفقنى الله لذلك تحقيقا لرجائه ورجاء أن يتناولنى دعاء الشيخ عبد الله رضى الله عنه فانه قال غفر الله لمن يكتب كلامى فى الغزالى وناهيك ببشارة فى هذه العبارة التى برزت من ولىّ عارف وقطب مكاشف لا يجازف فى مقال ولا ينطق إلا عن حال وفى هذا من الشرف للغزالى وكتبه مالا يحتاج معه إلى مزيد ـ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ فان العظيم لا يعظم فى عينه إلا عظيم ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف

ولا كلام ولكن بشيء وقر في صدره(١) كما شهد له سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فليكن حرصك في طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلا ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل اذهب إلى فلان الأمير الذي تقلد أمور الناس وضعها في عنقه إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود مات تسعة أعشار العلم فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره وهو الذي سد باب الكلام والجدل وضرب صبيغا بالدرة لما أورد عليه سؤالا في تعارض آيتين في كتاب الله وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذي وقر في قلبه وكان شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته وبقصده التقرب إلى الله عز وجل في ولايته وعدله وشفقته على خلقه وهو أمر باطن في سره فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب في الشهرة فتكون الشهرة فيما هو المهلك والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء وقد انقسموا فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبه عن سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب وليس كل عمل علما والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه. وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة: علم مجرد وهو علم المكاشفة وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلا وضبطه للناس ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعا فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله أو عمال الله تعالى أو في حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل:

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم وأنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى وقد شوهد من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كما سيأتي بيانه في باب علامات علماء الآخرة فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى والصوارف والدواعي متيقنة ولا حاجة إلى

(١) حديث: ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام الحديث: الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعا.

وحصل من الاحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة حتى إن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه وألزم أخاه الشيخ عليا قراءته فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ثم إن الشيخ عليا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته فختمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة وكان والده سيدي الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول لا أترك تحصيل الإحياء أبدا ما عشت حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ. قلت وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله

ذكرها . ونحن الآن نذكر من أقوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعنا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة : الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة وفقيها في مصالح الخلق في الدنيا ومريدا بفقهه وجه الله تعالى فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدادين فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة . أما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا ما روي أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للعلم وثلثا للعبادة وثلثا للنوم . قال الربيع كان الشافعي رحمه الله يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطي أحد أصحابه يختم القرآن في رمضان في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرابيسي بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحوا من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة آية وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها وقال الشافعي رحمه الله ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع ثم في جده في العبادة إذ طرح الشبع لأجلها ورأس التعبد تقليل الطعام . وقال الشافعي رحمه الله ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا قط فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت فقيل له ألا تجيب رحمك الله فقال حتى أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت الشافعي إلينا وقال نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فإن المستمع شريك القائل وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنه كتب حكيم إلى حكيم قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم .

وأما زهده رضي الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وقال الحميدي خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه فما برح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامي مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه انسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء لأن من أحب شيئا أمسكه ولم يفارقه فلا يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد . ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة

عنه مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع وأمر بقراءته عليه غير مرة وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة فلازمته ميراث عيدروسي وتوفيق قدوسي فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا وحاز شرف الآخرة والدنيا وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير علي بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس قلت وهو صحيح فإني مع خسيس قصدي وقساوة قلبي أجد عند مطالعتي له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه ثم يفتر برجوعي إلى ما أنا فيه ومخالطة أهل الكثافات ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه

ماروى أنه روى سفيان بن عيينة حديثا فى الرقائق فغشى على الشافعى فقيل له قد مات فقال إن مات قد مات أفضل زمانه وما روى عبد الله بن محمد البلوى قال كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتذاكر العباد والزهاد فقال لى عمر ما رأيت أورع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه خرجت أنا وهو والحرث بن لبيد إلى الصفا وكان الحرث تلميذا لصالح المرى فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت فقرأ هذه الآية عليه ـ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ـ فرأيت الشافعى رحمه الله وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه فلما أفاق جعل يقول أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين . اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين إلهى هب لى جودك وجللنى بسترك واعف عن تقصيرى بكرم وجهك قال ثم مشى وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مر بى رجل فقال لى ياغلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة فالتفت فاذا أنا برجل يتبعه جماعة فأسرعت فى وضوئى وجعلت أقفو أثره فالتفت إلى فقال هل لك من حاجة فقلت نعم تعلمنى مما علمك الله شيئا فقال لى اعلم أن من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد فى الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا أفلا أزيدك قلت نعم قال من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الايمان من أمر بالمعروف وائتمر ونهى عن المنكر وانتهى وحافظ على حدود الله تعالى ألا أزيدك قلت بلى فقال كن فى الدنيا زاهدا وفى الآخرة راغبا واصدق الله تعالى فى جميع أمورك تنج مع الناجين ثم مضى فسألت من هذا فقالوا هو الشافعى فانظر إلى سقوطه مغشيا عليه ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فانه ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ ولم يستفد الشافعى رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما . وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه . روى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعى رحمه الله تعالى إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب وفى أى ثواب ترغب ومن أى عقاب ترهب وأى عافية تشكر وأى بلاء تذكر فانك إذا تفكرت فى واحدة من هذه الخصال صغر فى عينك عملك فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب . وقال الشافعى رضى الله عنه من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقال رحمه الله من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال مامن أحد إلا له محب ومبغض فاذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عز وجل . وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا وكان يسأل الشافعى رضى الله عنه عن مسائل فى الورع والشافعى رحمه الله يقبل عليه لورعه وقال للشافعى يوما أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين فقال الشافعى رحمه الله التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة فاذا امتحن صبر وإذا صبر مكن ألا ترى أن الله عز وجل امتحن ابراهيم عليه السلام ثم مكنه وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا والتمكين أفضل الدرجات قال الله عز وجل ـ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ـ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن قال الله تعالى ـ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ـ الآية فهذا الكلام من الشافعى رحمه الله يدل على تبحره فى أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء وكل ذلك من علوم الآخرة . وقيل للشافعى رحمه الله متى يكون الرجل عالما قال إذا تحقق فى علم فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالما فانه قيل

وسر نفس مصنفه وحسن قصده والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل بعيوب النفس المحجوب عن إدراك الحق أى فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره وينور قلبه وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه وكأن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رتبة فوق غيرهم كذلك جعل لما يبرز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة وأنوار قلوبهم عظيمة وهممهم علية وإشاراتهم سنية حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم وللمواعظ منهم تأثير فى القلوب ظاهر ولعلومهم وفهمهم أنوار وتقع متظاهر حتى تجد الرجل له العلم القليل وبعد ذلك ينتفع به كثير لحسن نيته ووجود بركته

لجالينوس

لجالينوس إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة فقال إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الافراد قاتل فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة . وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى فيدل عليه ماروى عنه أنه قال وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم ومانسب إلى شيء منه فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان منزه القلب عن الالتفات إليه بجرد النية فيه لوجه الله تعالى . وقال الشافعي رضي الله عنه ماناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطىء . وقال ماكلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ وما كلمت أحدا قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه . وقال ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ثم كيف خالفوه فيها أيضا ولهذا قال أبو ثور رحمه الله ما رأيت ولا رأى الراءون مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجة المدعو له وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ولكثرة دعائه له قال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء فقال أحمد يابني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فانظر هل لهذين من خلف وكان أحمد رحمه الله يقول ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة . وقال يحيى بن سعيد القطان ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد فيه ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله فان ذلك خارج عن الحصر وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين . وأما الامام مالك رضي الله عنه فانه كان أيضا متحليا بهذه الخصال الخمس فانه قيل له ماتقول يامالك في طلب العلم فقال حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغا حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث فقيل له في ذلك فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالك العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى . وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدال في الدين ليس بشيء . ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله إني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لايدري ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد أمن على من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملأ من الناس ليس على مستكره طلاق فضربه بالسياط ولم يترك رواية الحديث .
وقال مالك رحمه الله ما كان رجل صادقا في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف .
وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ماروى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له هل لك من دار فقال لا ولكن أحدثك سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول نسب المرء داره وسأله الرشيد هل لك دار فقال لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها دارا فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله

وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله لأنه دونه في منزلته ومن تأمل ذلك وجده أمرا ظاهرا معهودا وشيئا مجربا موجودا فانظر إلى نفع الناس بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى والتنبيه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى والجمل العربية والارشاد في علم الكلام وانتشارها مع أن ماحوت من العلم في فنونها قليل وقد جمع غير هؤلاء في هذه الفنون في مثل أجرام هذه الكتب أضعاف مافيها مع تحقيق تحرير العبارة وتشقيق المعاني وتلخيص الحدود وبعد هذا فالنفع بهذا أكثر وهي أظهر وأشهر لأن العلم بمزيد التقوى وقوة سر الايمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضعه الله في القلب. قلت ومما أنشده الشيخ على بن أبي بكر رضي الله عنه لنفسه فيه قوله :

ينبغي أن تخرج معنا فاني عزمت على أن أحمل الناس على الوطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن فقال له أما حمل الناس على الوطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتي رحمة (١) » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد (٣) » وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إلى فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهكذا كان زهد مالك في الدنيا ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد ويدل على احتقاره للدنيا ماروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان وبغال مصر مارأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله ما أحسنه فقال هو هدية مني إليك ياأبا عبد الله فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها فقال إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى توقيره لتربة المدينة ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا ماروى أنه قال دخلت على هرون الرشيد فقال لي ياأبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ قال فقلت أعز الله مولانا الأمير إن هذا العلم منكم خرج فان أنتم عززتموه عز وإن أنتم أذللتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي فقال صدقت اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس . وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أيضا عابدا زاهدا عارفا بالله تعالى خائفا منه مريدا وجه الله تعالى بعلمه فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وروى أنه كان يحيي نصف الليل فمر يوما في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشي فقال لآخر هذا هو الذي يحيي الليل كله فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله وقال أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع ابن عاصم قال أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى فضربه عشرين سوطا فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب . قال الحكم بن هشام الثقفي حدثت بالشام حديثا في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها . وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم قال فما رضي أبو حنيفة قال فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه فقال بعض من حضر مايكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة أي هذه عادته فقال ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت

(١) حديث اختلاف أمتي رحمة ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ اختلاف أصحابي لكم رحمة وإسناده ضعيف (٢) حديث المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير (٣) حديث المدينة تنفي خبثها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

أخي انتبه والزم سلوك الطرائق
وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة
وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج الحقيقة مشرق
وشرب حيا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعاني ضواحكا
ياهيج حسن جاذب الخلائق
عليك بإحياء العلوم ولبها
وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذي اللب منهل
وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله
ولا بعده مثل له في الطرائق
فكم من بديع اللفظ يجلى عرائسا
وكم من شموس في سماء شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعا

ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه إذا مت ودفنتمونى فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له خذ وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة قال ابنه ففعلت ذلك فقال الحسن رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال أنا لا أصلح لهذا فقيل له لم فقال إن كنت صادقا فما أصلح لها وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده فى الدنيا وقد قال ابن جريج قد بلغنى عن كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعى كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطنى والاشتغال بمهمات الدين فمن أوتى الصمت والزهد فقد أوتى العلم كله فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة . وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثورى رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء وسفيان أقل أتباعا من أحمد ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن فانظر الآن فى سير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال فى الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والاجارة والظهار والايلاء واللعان أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا فى دعواهم أم لا .

الباب الثالث : فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذى قد يكون به بعض العلوم مذموما وبيان تبديل أسامى العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها (بيان علة ذم العلم المذموم) لعلك تقول العلم هو معرفة الشىء على ماهو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشىء علما ويكون مع كونه علما مذموما فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم فى حق العباد لأحد أسباب ثلاثة : الأول أن يكون مؤديا إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد سحر[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر فى قعر بئر وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية فى مطالع النجوم فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة فى الشخص المسحور ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للاضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر فكان ذلك هو السبب فى كونه علما مذموما بل من اتبع وليا من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه فى موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه بل وجب الكذب فيه وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشىء على ماهو عليه ولكنه مذموم لأدائه إلى الضر . الثانى أن يكون مضرا بصاحبه فى غالب الأمر كعلم النجوم فانه فى نفسه غير مذموم لذاته إذ هو قسمان : قسم حسابى وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب إذ قال عز وجل ـ الشمس والقمر بحسبان ـ وقال عز وجل ـ والقمر قدرناه منازل حتى

على درّ لفظ المعانى مطابق
وكم من عزيزات زهت فى قبابها
عجيبة عن غير كفء مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة
حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان وروض لطائف
وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارا لماق جنانها
يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذاكى جناها فواكها
بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى حتى علا فوق من علا
بشامخ مجد مشرق بالحقائق
فان لم بهذا القول تؤمن فجربن
وأقبل على تلك المعانى وعانق
وراجع طرفا فى بديع جمالها
وطف جماها منشدا كل سابق

(الباب الثالث)

(١) حديث سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه من حديث عائشة .

عاد كالعرجون القديم . والثاني الأحكام وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه ولكن قد ذمه الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا(١) » . وقال صلى الله عليه وسلم « أخاف على أمتي بعدي ثلاثا حيف الأئمة والإيمان بالنجوم والتكذيب بالقدر(٢) » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : أحدها أنه مضر بأكثر الخلق فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتا إليها ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها إلى مشاهدة الأصابع ثم منها إلى اليد ثم منها إلى الارادة المحركة لليد ثم منها إلى الكاتب القادر المريد ثم منها إلى خالق اليد والقدرة والارادة فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب فهذا أحد أسباب النهي عن النجوم . وثانيها أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا فالحكم به حكم بجهل فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم فلقد كان ذلك معجزة لادريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها فان اتفق أن قدر الله تعالى الأسباب وقعت الاصابة وإن لم يقدر أخطأ ويكون ذلك كتخمين الانسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم وربما يكون بخلافه ومجرد الغيم ليس كافيا في مجيء المطر وبقية الأسباب لا تدرى وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتمادا على ما ألفه من العادة في الرياح ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطئ ولهذه العلة يمنع القوي عن النجوم أيضا . وثالثها أنه لا فائدة فيه فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الانسان في غير فائدة وذلك غاية الخسران « فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال ما هذا فقالوا رجل علامة فقال بماذا قالوا بالشعر وأنساب العرب فقال علم لا ينفع وجهل لا يضر(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » فاذن الخوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة فان ما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن بخلاف الطب فان الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطلع عليه وبخلاف التعبير وإن كان تخمينا لأنه جزء من ستة وأربعين جزءا من

---

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث رواه الطبراني من حديث ابن مسعود باسناد حسن (٢) حديث أخاف على أمتي بعدي ثلاثا حيف الأئمة الحديث ابن عبد البر من حديث أبي محجن باسناد ضعيف (٣) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال ما هذا فقالوا رجل علامة الحديث ابن عبد البر من حديث أبي هريرة وضعفه وفي آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة » إلى آخره وهذه القطعة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو .

ترى في بدور الحي أقمار قد بدت
بعالي جمال مدهش لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم قشعت عمى
وكم قدحت في غربها والمشارق
فيضحى براح الحب سكران مغرما
أصم عن العذال غير موافق
ويمسي يناديها طريحا ببابها
منعم عيش في الربوع الفوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا
محمد المختار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا
وعترته وراث علم الحقائق

[فصل] وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفي التحقيق لا إشكال أو أخبار وآثار تكلم في سندها فأما من جهة تلك المواضع فممن أجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمى (بالأجوبة) وأسوق لك نبذة من

النبوة ولا خطر فيه . السبب الثالث الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم فهو مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها وخفيها قبل جليها وكالبحث عن الأسرار الإلهية إذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء فيجب كفّ الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع ففي ذلك مقنع للموفق فكم من شخص خاض في العلوم واستضرّ بها ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين مما صار إليه ولا ينكر كون العلم ضارا لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور فلقد حكى أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لا تلد فجس الطبيب نبضها . وقال لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوما وقد دل النبض عليه فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها وأخرجت أموالها وفرقتها وأوصت وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت فجاء زوجها إلى الطبيب . وقال له لم تمت فقال الطبيب قد علمت ذلك فجامعها الآن فإنها تلد فقال كيف ذاك . قال رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع (١) » فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بحاثا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ولازم الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم واقتصر على اتباع السنة فالسلامة في الاتباع والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه فأي ضرر في التفكر في العلم فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر وكم من شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضررا يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته .

واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعدها من لا يعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية فلا تتحكم على سننهم بمعقولك فتهلك فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضي عقله أن يطليه حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطلي الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن فهكذا الأمر في طريق الآخرة وفي دقائق سنن الشرع وآدابه وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوّته الإحاطة بها كما أن في خواص الأحجار أمورا عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة إليها وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى وعن الأعمال المبعدة عنه وكذا عن العقائد وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث نعوذ بالله من علم لا ينفع ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن وهو عند ابن ماجه بلفظ تعوّذوا وقد تقدم .

ذلك هنا قال رحمه الله سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها وقرب لك مقامات الأولياء تحل معالمها عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام وأمثال الأنعام وأتباع العوام وسفهاء الأحلام وعار أهل الإسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته وأفتوا بالهوى مجردا على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال إلى أن قال ستكتب شهادتهم ويسألون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . ثم ذكر آيات أخرى في المعنى ثم وصف الدهر وأهله وذهاب العلم وفضله ثم ذكر عذر المعترضين

« إن من العلم جهلا وإن من القول عيا (١) » ومعلوم أن العلم لايكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل في الاضرار . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم (٢) » وقال عيسى عليه السلام ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع .

بيان مابدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول وهي خمسة ألفاظ الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة فهذه أسام محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع اطلاق هذه الأسامي عليهم . اللفظ الأول الفقه فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله عز وجل ـ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ـ وما يحصل به الانذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له وقال تعالى ـ لهم قلوب لايفقهون بها ـ وأراد به معاني الايمان دون الفتاوى ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا قال تعالى ـ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ـ الآية فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه فانظر ان كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ماذكرناه من العلوم . وقال صلى الله عليه وسلم « علماء حكماء فقهاء (٣) » للذين وفدوا عليه ، وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله أي أهل المدينة أفقه فقال أتقاهم لله تعالى فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ماسواه (٤) » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب (٥) » قال فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد

(١) حديث إن من العلم جهلا الحديث أبو داود من حديث بريدة وفي اسناده من يجهل (٢) حديث قليل من التوفيق خير من كثير من العلم لم أجد له أصلا وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء . وقال العقل بدل العلم ولم يخرجه ولده في مسنده (٣) حديث علماء حكماء فقهاء أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحرث باسناد ضعيف (٤) حديث ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق وأبو بكر بن السني وابن عبد البر من حديث علي . وقال ابن عبد البر أكثرهم يوقفونه عن علي (٥) حديث أنس لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس الحديث أبو داود باسناد حسن .

عما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال حجبوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل والاصرار ومحبة الدنيا واظهار الدعوى ثم بين ماورثوه عن الأربعة المذكورة قال فالجهل أورثهم السخف إلى آخر ماذكره وأما ما اعترض به من تضمينه أخبارا وآثارا موضوعة أو ضعيفة واكثاره من الأخبار والآثار والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع في الموضوع . وحاصل ما أجيب به عن الغزالي ومن المجيبين الحافظ العراقي أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج وغير الأكثر وهو في غاية القلة رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئا صيغة روى منه بنحو وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة فهو اعتراض ساقط لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل

النميرى وقال لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه فى الدين ونعد نعم الله علينا تفقها فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقها قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة(١) » وروى أيضا موقوفا على أبى الدرداء رضى الله عنه مع قوله ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتا وقد سأل فرقد السبخى الحسن عن الشىء فأجابه فقال إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن رحمه الله ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ولم يقل فى جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى فى الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والاعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ووجدوا على ذلك معينا من الطبع فان علم الباطن غامض والعمل به عسير والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك فى القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذى هو اسم محمود فى الشرع . اللفظ الثانى العلم وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله فى عباده وخلقه حتى إنه لما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله لقد مات تسعة أعشار العلم فعرفه بالألف واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص حتى شهروه فى الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم فى المسائل الفقهية وغيرها فيقال هو العالم على الحقيقة وهو الفحل فى العلم ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يعدونه فى زمرة أهل العلم وهذا أيضا تصرف بالتخصيص ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره فى العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته وقد صار الآن مطلقا على من لا يحيط من علوم الشرع بشىء سوى رسوم جدلية فى مسائل خلافية فيعد بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره وصار ذلك سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم . اللفظ الثالث التوحيد وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والاحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الالزامات حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شىء فى العصر الأول بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التى تسبق الأذهان إلى قبولها فى أول السماع فلقد كان ذلك معلوما للكل وكان العلم بالقرآن هو العلم كله وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين وان فهموه لم يتصفوا به وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتى بيانه فى كتاب التوكل ومن ثمراته أيضا ترك شكاية الخلق وترك الغضب عليهم والرضا والتسليم لحكم الله تعالى وكانت إحدى ثمراته قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما قيل له فى مرضه أنطلب لك طبيبا فقال الطبيب أمرضنى وقول آخر لما مرض فقيل له ماذا قال لك الطبيب فى مرضك فقال قال لى إنى فعال لما أريد

(١) حديث لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله الحديث ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال لا يصح مرفوعا .

وكتابه فى الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الحفاظ فى اشتماله كتبهم على الضعيف بكثرة التنبه على ضعفه تارة والسكوت عنه أخرى وهذه كتب الفقه للمتقدمين وهى كتب الأحكام لا الفضائل يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها حتى جاء النووى رحمه الله فى المتأخرين ونبه على ضعف الحديث وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقى قال عبد الغافر الفارسى سبط القشيرى ظهرت تصانيف الغزالى وفشت ولم يبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لما آثره إلى آخر ما ذكره ومما يدلك على جلالة كتب الغزالى ما نقل ابن السمعانى من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها مع تعبير ثقات المعبرين بدعة تحدث فحدثث فى جميع الغرب بدعة الأمر باحراق كتبه ومن أنه لما دخلت

وسيأتى فى كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك والتوحيد جوهر نفيس وله قشران أحدهما أبعد عن اللب من الآخر فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية فالقشر الأول هو أن تقول بلسانك لا إله إلا الله وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذى صرح به النصارى ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره . والقشر الثانى أن لا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث وهو اللباب أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده قال الله تعالى ـ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ـ وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد فى الأرض عند الله تعالى هو الهوى(١) » وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم فان من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه وكيف اتخذوا هذا معتصما فى التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الافلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجها إلى الله تعالى على الخصوص فانه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها متوجها إليه ، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب التعبد به فكيف يصدق فى قوله وقلبه متردد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية ومتصرف فى طلب الحيل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ومتوجه بالكلية إليها فمتى وجه وجهه للذى فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد فالموحد هو الذى لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه وهو امتثال قوله تعالى ـ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ـ وليس المراد به القول باللسان فانما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب وهو معدن التوحيد ومنبعه . **اللفظ الرابع** الذكر والتذكير فقد قال الله تعالى ـ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ـ وقد ورد فى الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة قال مجالس الذكر(٢) » وفى الحديث « إن لله تعالى ملائكة سياحين فى الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضا ألا هلموا الى بغيتكم فيأتونهم ويحفون بهم ويستمعون ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم(٣) » فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهى بدعة وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا

(١) حديث أبغض إله عبد عند الله تعالى فى الأرض هو الهوى الطبرانى من حديث أبى أمامة باسناد ضعيف (٢) حديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا الحديث الترمذى من حديث أنس وحسنه (٣) حديث إن لله ملائكة سياحين فى الهواء سوى ملائكة الخلق الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله فى الهواء والترمذى سياحين فى الأرض وقال مسلم سيارة.

مصنفاته إلى المغرب أمر سلطانه على بن يوسف باحراقها لتوهمه اشتمالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك فظهر بسبب أمره فى مملكته مناكير ووثب عليه الجند ولم يزل من وقت الأمر والتوعد فى عكس ونكد بعد أن كان عادلا .

[خاتمة فى الاشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه وعنا به ونفعنا بعلومه وأسراره وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم]

أما ترجمته رضى الله عنه فهو الإمام زين الدين حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الشافعى الأشعرى الذى انتشر فضله فى الآفاق وفاق ورزق الحظ الأوفر فى حسن التصانيف وجودتها والتصيب الأكبر فى جزالة العبارة وسهولتها

لم يكن ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ولا فى زمن أبى بكر ولا عمر رضى الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص . وروى أن ابن عمر رضى الله عنهما خرج من المسجد فقال ما أخرجنى إلا القاص ولولاه لما خرجت وقال ضمرة قلت لسفيان الثورى نستقبل القاص بوجوهنا فقال ولوا البدع ظهوركم وقال ابن عون دخلت على ابن سيرين فقال ما كان اليوم من خبر فقلت نهى الأمير القصاص أن يقصوا فقال وفق للصواب ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصا يقص ويقول حدثنا الأعمش فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه فقال القاص ياشيخ ألا تستحى فقال لم أنا فى سنة وأنت فى كذب أنا الأعمش وما حدثتك وقال أحمد أكثر الناس كذبا القصاص والسؤال ، وأخرج على رضى الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة فلما سمع كلام الحسن البصرى لم يخرجه إذ كان يتكلم فى علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد فى شكره ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذى روى الحث عليه فى حديث أبى ذر رضى الله عنه حيث قال « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة فقيل يارسول الله ومن قراءة القرآن قال وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم (٢) » وقال عطاء رحمه الله مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم وذهلوا عن طريق الذكر المحمود واشتغلوا بالقصص التى تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة فى القرآن وتزيد عليها فان من القصص ماينفع سماعه ومنها مايضر وإن كان صدقا ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار فمن هذا نهى عنه ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله ماأحوج الناس إلى قاص صادق فان كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى به بأسا ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطى عليها فان العامى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ويمهد لنفسه عذرا فيه ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر فكلنا بصدد المعاصى فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لايدرى فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن ويصح فى الكتب الصحيحة من الأخبار ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق فهذه من نزغات الشيطان فان فى الصدق مندوحة عن الكذب وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع فى الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع . قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع هذا الذى يبغضك إلى لاقضيت حاجتك أبدا حتى تتوب وقد كان جاءه فى حاجة ، وقد قال

(١) حديث لم تكن القصص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ماجه من حديث عمر باسناد حسن (٢) حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة تقدم فى الباب الأول .

وحسن الاشارة وكشف المعضلات والتبحر فى أصناف العلوم فروعها وأصولها ورسوخ القدم فى منقولها ومعقولها والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها مع ما خصه الله به من الكرامة وحسن السيرة والاستقامة والزهد والعزوف عن زهرة الدنيا والاعراض عن الجهات الفانية واطراح الحشمة والتكلف قال الحافظ العلامة ابن عساكر والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الأسنوى رحمهم الله تعالى ولد الامام الغزالى بطوس سنة خمسين وأربعمائه وابتدأ بها فى صباه بطرف من الفقه ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين وجد واجتهد حتى تخرج فى مدة قريبة وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه وجلس للاقراء وإرشاد الطلبة فى أيام إمامه

صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة فى سجع من ثلاث كلمات « إياك والسجع يا ابن رواحة (١) » فكأن السجع المحذور المتكلف مازاد على كلمتين ولذلك لما قال الرجل فى دية الجنين « كيف ندى من لاشرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يطل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الأعراب (٢) » وأما الأشعار فتكثيرها فى المواعظ مذموم قال الله تعالى ـ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ـ وقال تعالى ـ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ـ وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار مايتعلق بالتواصف فى العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق والمجلس لايحوى إلا أجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ماهو مستكن فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات فيزعقون ويتواجدون وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد فلا ينبغى أن يستعمل من الشعر إلا مافيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة (٣) » ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم فان أولئك لايضر معهم الشعر الذى يشير ظاهره إلى الخلق فان المستمع ينزل كل مايسمعه على ما يستولى على قلبه كما سيأتى تحقيق ذلك فى كتاب السماع ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا فان كثروا لم يتكلم وما تم أهل مجلسه قط عشرين وحضر جماعة بباب دار ابن سالم فقيل له تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال لا ما هؤلاء أصحابى إنما هم أصحاب المجلس إن أصحابى هم الخواص . وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية . أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون بقوله أنا الحق . وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال سبحانى سبحانى وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فان هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا إنكار مصدره العلم والجدل والعلم حجاب والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لايلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره حتى من نطق بشئ منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه كما لو سمع وهو يقول إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى فانه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية . الصنف الثانى من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن

(١) حديث إياك والسجع يا ابن رواحة لم أجده هكذا ولأحمد وأبى يعلى وابن السنى وأبى نعيم فى كتاب الرياضة من حديث عائشة باسناد صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ولابن حبان واجتنب السجع ، وفى البخارى نحوه من قول ابن عباس (٢) حديث أسجع كسجع الأعراب مسلم من حديث المغيرة (٣) حديث إن من الشعر لحكمة البخارى من حديث أبى بن كعب .

وصنف وكان الامام يتبجح به ويعتد بمكانه منه ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيما لعلو درجته وحسن مناظرته وكانت حضرة نظام الملك محطا لرحال العلماء ومقصد الأئمة والفضلاء ووقع للامام الغزالى فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول فظهر اسمه وطار صيته فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية فسار إليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان وارتفعت درجته فى بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة مشتغلا بأسباب التقوى وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق

خبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لايقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ماحدث أحدكم قوما بحديث لايفقهونه إلا كان فتنة عليهم(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله(٢) » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع فكيف فيما لايفهمه قائله فان كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره وقال عيسى عليه السلام لاتضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولاتمنعوها أهلها فتظلموهم كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء وفى لفظ آخر من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ومن منعها أهلها فقد ظلم إن للحكمة حقا وإن لها أهلا فأعط كل ذى حق حقه وأما الطامات فيدخلها ماذكرناه فى الشطح وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لايسبق منها إلى الأفهام فائدة كدأب الباطنية فى التأويلات فهذا أيضا حرام وضرره عظيم فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فان ما يسبق منه إلى الفهم لايوثق به والباطن لاضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر وإنما قصد أصحابها الأغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى المصنف فى الرد على الباطنية ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى ـ اذهب إلى فرعون إنه طغى ـ أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان وفى قوله تعالى ـ وأن ألق عصاك ـ أى كل مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغى أن يلقيه وفى قوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فان فى السحور بركة(٣) » أراد به الاستغفار فى الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا كتنزيل فرعون على القلب فان فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه وكذا حمل السحور على الاستغفار فانه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : «تسحروا(٤) وهلموا إلى الغذاء المبارك(٥)» فهذه أمور تدرك

(١) حديث ماحدث أحدكم قوما بحديث لايفقهونه إلا كان فتنة عليهم العقيلى فى الضعفاء وابن السنى وأبو نعيم فى الرياء من حديث ابن عباس باسناد ضعيف ولمسلم فى مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود (٢) حديث كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ماينكرون الحديث البخارى موقوفا على علىّ ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم (٣) حديث تسحروا فان فى السحور بركة متفق عليه من حديث أنس (٤) حديث تناول الطعام فى السحور رواه البخارى من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا (٥) حديث هلموا إلى الغذاء المبارك أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية وضعفه ابن القطان .

إليها مثل إحياء علوم الدين وغيره التى من تأملها عرف محل مصنفها من العلم قيل إن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس ثم صار إلى القدس مقبلا على مجاهدة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين الشمائل حتى مرن على ذلك ثم عاد إلى وطنه طوس لازما بيته مقبلا على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله تعالى والاستعداد للدار الآخرة يرشد الضالين ويفيد الطالبين دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة وكان معظم تدريسه فى التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة خصه الله تعالى بأنواع الكرامة فى أخراه كما خصه بها فى دنياه قيل وكانت مدة القطبية للغزالى ثلاثة أيام على ما حكى فى كرامات

بالتواتر والحس بطلانها نقلا وبعضها يعلم بغالب الظن وذلك فى أمور لايتعلق بها الاحساس. فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم فلايظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[1] » معنى إلا هذا النمط وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه فيستجر شهادة القرآن إليه ويحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أونقلية ولاينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لايفسر القرآن بالاستنباط والفكر فان من الآيات مانقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلى الله عليه وسلم فانها قد تكون متنافية لاتقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل[2] » ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع كمن يضع فى كل مسئلة يراها حقا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[3] » بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم لأنها مبطلة للثقة بالألفاظ وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى فان اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ماعرف فى العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ . اللفظ الخامس : وهو الحكمة فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم حتى على الذى يدحرج القرعة على أكف السوادية فى شوارع الطرق والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى ـ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ـ وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خيرله من الدنيا ومافيها[4] » فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه وإلى ماذا نقل وقس به بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء فان شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين إذ الشيطان بواسطتهم يتدرّج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق ولهذا « لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال اللهم اغفر حتى كرروا عليه فقال هم علماء السوء[5] » فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس

(١) حديث من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبى داود من رواية ابن العبد وعند النسائى فى الكبرى (٢) حديث اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل قاله لابن عباس البخارى من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الاسناد (٣) حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار متفق عليه من حديث أبى هريرة وعلى وأنس (٤) حديث كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خيرله من الدنيا. تقدم بنحوه (٥) حديث لما سئل عن شر الخلق أبى وقال اللهم اغفر الحديث الدارمى بنحوه من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا وهو ضعيف ورواه البزار فى مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف .

الشيخ السيد العمودى نفع الله به وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى رحمه الله تعالى باسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الربانى شهاب الدين أحمد الصياد اليمنى الزبيدى وكان معاصرا للغزالى نفع الله بهما قال بينما أنا ذات يوم قاعد إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس فوقفوا على قبر من القبور وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع وخرق بعدها ستين حجابا ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه فسألت عنه فقيل لى هذا الإمام الغزالى وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى ورأى فى النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد

وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس وما أكبّ الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدا الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء ، فقيل ومن الغرباء ؟ قال الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتى والذين يحيون ما أماتوه من سنتى (١) » وفى خبر آخر « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم (٢) » وفى حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير من يبغضهم فى الخلق أكثر ممن يحبهم (٣) » وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها ، ولذلك قال الثورى رحمه الله إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

(بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة)

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام قسم هو مذموم قليله وكثيره وقسم هو محمود قليله وكثيره وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل أحوال البدن فان منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فان التبذير لا يحمد فيه وهو بذل وكالشجاعة فان التهور لا يحمد فيها وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالا فائدة فيه فى دين ولا دنيا إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم فبعضه لا فائدة فيه أصلا وصرف العمر الذى هو أنفس ما يملكه الانسان إليه وإضاعة النفيس مذمومة ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر فى الدنيا فان ذلك لا يعتدّ به بالاضافة إلى الضرر الحاصل عنه . وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، فان هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب فانه البحر الذى لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى فى حقهم وهذا هو العلم المكنون الذى لا يسطر فى الكتب ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة كما سيأتى علامتهم هذا فى أول الأمر ويعين عليه فى الآخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها سواها . وأما العلوم التى لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص فهى العلوم التى أوردناها فى فروض الكفايات فان فى كل علم منها اقتصارا وهو الأقل واقتصادا وهو الوسط واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر فكن أحد رجلين إما مشغولا بنفسك وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فان كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذى هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم وإنما الأهم الذى أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم إذ لا ينفك

(١) حديث بدا الاسلام غريبا الحديث مسلم من حديث أبى هريرة مختصرا وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه (٢) حديث هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم يقوله فى وصف الغرباء لم أر له أصلا (٣) حديث الغرباء ناس قليلون صالحون أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالامام الغزالى وقال أفى أمتكما حبر كهذا قالا لا وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يقول لأصحابه من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالى وقال جماعة من العلماء رضى الله عنهم منهم الشيخ الامام الحافظ ابن عساكر فى الحديث الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وعلى رأس المائة الثانية الامام الشافعى رضى الله عنه وعلى رأس المائة الثالثة الامام أبو الحسن الأشعرى رضى الله عنه وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلانى رضى الله عنه وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالى رضى الله عنه

بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات وإهمالها من الواجبات مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدماميل والتهاون بإخراج المادة بالفصد والاسهال وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد وتتضاعف به الأمراض فإن كنت مريدا للآخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدي فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه في ربع المهلكات ثم ينجر بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لا محالة فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذلك فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك وما أبعد ذلك منك فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها فابتدئ بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في السنة ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ثم بأصول الفقه وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلبا للاستقصاء فإن العلم كثير والعمر قصير وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه علي الواحدي النيسابوري وهو الوجيز والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث، وأما حفظ أسامي الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ولك أن تعول على كتبهم وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم وأما الفقه فالاقتصار فيه على ما يحويه مختصر المزني رحمه الله وهو الذي رتبناه في خلاصة المختصر والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذي أوردناه في الوسيط من المذهب والاستقصاء ما أوردناه في البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير وما وراء ذلك طلب لكشف

روى ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعني عمر بن عبد العزيز والشافعي ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر وفيما أوردناه مقنع وبلاغ. ومن مشهورات مصنفاته البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة في الفقه وإحياء علوم الدين وهو من أنفس الكتب وأجلها وله في أصول الفقه المستصفى والمنخول والمنتحل في علم الجدل وتهافت الفلاسفة ومحك النظر ومعيار العلم والمقاصد والمضنون به على غير أهله ومشكاة الأنوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القولين وكتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلدا وكتاب أسرار علم الدين وكتاب منهاج العابدين والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة وكتاب الأنيس في الوحدة وكتاب القربة إلى الله عز وجل

حقائق الأمور من غير طريقها ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر وهو القدر الذى أوردناه فى كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب والاقتصاد فيه مايبلغ قدر مائة ورقة وهو الذى أوردناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامى وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولوشيئا يسيرا فقلما ينفع معه الكلام فانك إن أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جوابا وهو عاجز عنه وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة وأما العامى إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء فاذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم إذ التعصب سبب يرسخ العقائد فى النفوس وهو من آفات العلماء السوء فانهم يبالغون فى التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين ازدراء والاستحقار فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ويقوى غرضهم فى التمسك بمانسبوا إليه ولوجاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح فى الخلوة لافى معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه ولكن لما كان الجاه لايقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة فى النفوس . وأما الخلافيات التى أحدثت فى هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات مالم يعهد مثلها فى السلف فاياك وأن تحوم حولها واجتنبها اجتناب السم القاتل فانها الداء العضال وهوالذى ردالفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال الناس أعداء ماجهلوا فلا تظن ذلك فعلى الخبير سقطت فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه فلا يغرنك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف فان علل المذهب مذكورة فى المذهب والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم بل هى مع أنها غير مفيدة فى علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه فان الذى يشهد له حدس المفتى إذا صح ذوقه فى الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل فى أكثر الأمر فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الاذعان لذوق الفقه وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعلل بأنه يطلب علل المذهب وقد ينقضى عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب فكن من شياطين الجن فى أمان واحترز من شياطين الانس فانهم أراحوا شياطين الجن من التعب فى الاغواء والاضلال وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر نفسك فى العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك ودع عنك ما سواه والسلام وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء فى المنام فقال له ما خبر تلك العلوم التى كنت تجادل فيها وتناظر عليها فبسط يده ونفخ فيها ، وقال طاحت كلها هباء منثورا وما انتفعت إلا بركعتين خلصتا لى فى جوف الليل وفى الحديث « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل[1] » ثم قرأ ـ ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ـ وفى الحديث فى معنى قوله تعالى ـ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ـ الآية « هم أهل الجدل الذين عناهم

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل الترمذى وابن ماجه من حديث أبى أمامة قال الترمذى حسن صحيح .

وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية وكتاب جواهر القرآن والأربعين فى أصول الدين وكتاب المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وكتاب ميزان العمل وكتاب القسطاس المستقيم وكتاب التفرقة بين الاسلام والزندقة وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة وكتاب المبادى والغايات وكتاب كيمياء السعادة وكتاب تلبيس إبليس وكتاب نصيحة الملوك وكتاب الاقتصاد فى الاعتقاد وكتاب شفاء العليل فى القياس والتعليل وكتاب المقاصد وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام وكتاب الانتصار وكتاب الرسالة اللدنية وكتاب الرسالة القدسية وكتاب إثبات النظر وكتاب المأخذ وكتاب القول الجميل فى الرد على من غير الانجيل وكتاب المستظهرى وكتاب الأمالى وكتاب فى علم أعداد الوفق وحدوده

الله بقوله تعالى فاحذرهم[1] » وقال بعض السلف يكون فى آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل وفى بعض الأخبار « إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل[2] » وفى الخبر المشهور « أبغض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم[3] » وفى الخبر « ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل[4] » والله أعلم .

(الباب الرابع فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها)

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء فى أحكامه وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأقضية فكانوا لايستعينون بالفقهاء إلا نادرا فى وقائع لايستغنى فيها عن المشاورة فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين أذلة بالاقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله وقد كان أكثر الاقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها فى الولايات والحكومات . ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة فى الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ومالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات

(١) حديث هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل لم أجده (٣) حديث أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل لم أجد له أصلا .

وكتاب مقصد الخلاف وجزء فى الرد على المنكرين فى بعض ألفاظ إحياء علوم الدين وكتبه كثيرة وكلها نافعة . وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشى المحدث الصوفى صاحب كتاب النجم والكواكب :

أبا حامد أنت المخصص بالمجد
وأنت الذى علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء تحيى نفوسنا
وتنقذنا من طاعة المارد المردي
فربع عبادات وعاداته التى
يعاقبها كالدر نظم فى العقد
وثالثها فى المهلكات وإنه
لمنج من المهلك المبرح والبعد
ورابعها فى المنجيات وإنه
ليسرح بالأرواح فى جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر
ومنها صلاح للقلوب من الحقد

ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

(بيان التلبيس فى تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف)

اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح فان الحق مطلوب والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر هكذا كان عادة الصحابة رضى الله عنهم فى مشاوراتهم كتشاورهم فى مسئلة الجد والاخوة وحد شرب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفا من عمر رضى الله عنه وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعى وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبى يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى ويطلعك على هذا التلبيس ما أذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان : الأول أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب ومثاله من يترك الصلاة فى نفسه ويتجرد فى تحصيل الثياب ونسجها ويقول غرضى أستر عورة من يصلى عريانا ولا يجد ثوبا فان ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التى عنها البحث فى الخلاف ممكن والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هى فرض عين بالاتفاق ومن توجه عليه رد وديعة فى الحال فقام وأحرم بالصلاة التى هى أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به فلا يكفى فى كون الشخص مطيعا كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب . الثانى أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فان رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس وإذا قيل له فى البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفى البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها . فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب إذ لا يوجد فى أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعا ولا يرغب أحد من الفقهاء فى الاشتغال به وكذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظر فى مجلس مناظرته مشاهدا للحرير ملبوسا ومفروشا وهو ساكت ويناظر فى مسئلة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء . ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات وقد روى أنس رضى الله عنه أنه « قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال عليه السلام إذا ظهرت المداهنة فى خياركم والفاحشة فى شراركم وتحول الملك فى صغاركم والفقه فى أراذلكم (١) » الثالث أن يكون المناظر مجتهدا يفتى برأيه لا بمذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق

(الباب الرابع)

(١) حديث أنس قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الحديث ابن ماجه باسناد حسن

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله فى كتابه المنقذ من الضلال ما صورته أما بعد فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها وغاية المذاهب وأغوارها وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق وما استجرأت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار وما استفدته أولا من علم الكلام وما احتويته من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تعليم الامام وما ازدريته ثالثا من طرق أهل التفلسف وما ارتضيته آخرا من طرق أهل التصوف وما تحلل لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل أهل الحق وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة وما دعانى إلى معاودته بنيسابور بعد طول

من مذهب أبى حنيفة ترك مايوافق رأى الشافعى وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضى الله عنهم والأئمة فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتى فيما يسئل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه فأى فائدة له فى المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره وما يشكل عليه يلزمه أن يقول لعل عند صاحب مذهبى جوابا عن هذا فانى لست مستقلا بالاجتهاد فى أصل الشرع ولو كانت مباحثته عن المسائل التى فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه به فانه ربما يفتى بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجنبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط بل ربما ترك المسئلة التى فيها وجهان أو قولان وطلب مسئلة يكون الخلاف فيها مبتوتا . الرابع أن لا يناظر إلا فى مسئلة واقعة أو قريبة الوقوع غالبا فان الصحابة رضى الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض ولا ترى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التى تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التى تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسئلة خبرية أو هى من الزوايا وليست من الطبوليات فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسئلة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الاخبار أو لأنها ليست من الطبول فلا نطوّل فيها الكلام . والمقصود فى الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول . الخامس أن تكون المناظرة فى الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين فان الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق وفى حضور الجمع ما يحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا أو مبطلا وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر فى قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام . السادس أن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق كما لو أخذ طريقا فى طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته فى طريق آخر فانه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضى الله عنهم حتى إن امرأة ردت على عمر رضى الله عنه ونبهته على الحق وهو فى خطبته على ملأ من الناس فقال أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضى الله عنه فأجابه فقال ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال أصبت وأخطأت وفوق كل ذى علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما فقال أبو موسى لا تسألونى عن شىء وهذا الحبر بين أظهركم وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل فى سبيل الله فقتل فقال هو فى الجنة وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال أعده على الأمير فلعله لم يفهم فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو فى الجنة فقال أبو موسى الحق ما قال وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فان ذلك معلوم لكل أحد فانظر إلى مناظرى زمانك اليوم كيف يسودّ وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه وكيف يخجل به وكيف يجتهد فى مجاحدته بأقصى قدرته وكيف يذم من أفحمه طول عمره ثم لا يستحى من تشبيه نفسه بالصحابة رضى الله عنهم فى تعاونهم على النظر فى الحق . السابع أن لا يمنع معينه فى النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال فهكذا كانت مناظرات السلف ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله هذا لا يلزمنى ذكره وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك فان الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله وأنت

للذة فابتدرت لاجابتك إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبتك فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوفقا منه وملتجئا إليه اعلموا أحسن الله ارشادكم وألان إلى قبول الحق انقيادكم أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه الا الأقلون وكل فريق يزعم أنه الناجى كلّ حزب بما لديهم فرحون ولم أزل فى عنفوان شبابى مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين أقتحم لجة البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور وأتوغل فى كل مظلمة وأهجم على كل مشكلة وأتقحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة وأتكشف أسرار

ترى

ترى أن جميع المجالس تنقضى فى المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصل بعلة يظنها فيقال له ما الدليل على أن الحكم فى الأصل معلل بهذه العلة فيقول هذا ما ظهر لى فان ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه فيصر المعترض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمنى ذكرها ويقول المستدل عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا ويصر المعترض على أنه لا يلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ولا يعرف هذا المسكين أن قوله إنى أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمنى كذب على الشرع فانه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها وإن كان صادقا فقد فسق باخفائه ما عرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه فان كان قويا رجع إليه وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم ولا خلاف أن إظهار ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم فمعنى قوله لا يلزمنى أى فى شرع الجدل الذى أبدعناه بحكم التشهى والرغبة فى طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمنى وإلا فهو لازم بالشرع فانه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهى هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه . الثامن أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعا فى ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن فى هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلة . واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدو له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى المجتهد فيها مصيب أو مساهم للمصيب فى الأجر فهو ضحكة للشيطان وعبرة للمخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التى نعددها ونذكر تفاصيلها فنسأل الله حسن العون والتوفيق .

(بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق)

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والافحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة وكما أن الذى خير بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره فكذلك من غلب عليه حب الافحام والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها فى النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مذمتها من الأخبار والآيات فى ربع المهلكات ولكنا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه المناظرة فمنها الحسد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[1] » ولا ينفك المناظر عن الحسد فانه تارة يغلب وتارة يغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره فما دام يبقى فى الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاما

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أبو داود من حديث أبى هريرة وقال البخارى لا يصح وهو عند ابن ماجه من حديث أنس باسناد ضعيف وفى تاريخ بغداد باسناد حسن.

مذاهب كل طائفة لأميز بين كل محق ومبطل ومستن ومبتدع لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ولا متعبدا إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جراءته فى تعطيله وزندقته وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة من الله وفطرة وضعها الله فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد منى بالصبا إذ رأيت صبيان

وأقوى نظرا فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه والحسد نار محرقة فمن بلي به فهو في العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فانهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم «من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله(١)» وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته(٢)» ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم «وأن المؤمن منهى عن الاذلال لنفسه(٣)» فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفا للاسم وإضلالا للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم «المؤمن ليس بحقود(٤)» وورد في ذم الحقد مالا يخفى ولا ترى مناظرا يقدر على أن لا يضمر حقدا على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الاصغاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه وغاية تماسكه الاخفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر لامحالة في غالب الأمر وكيف ينفك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر . ومنها الغيبة وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابرا على أكل الميتة فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه فيحكي عنه لامحالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة فأما الكذب فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغي إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة . ومنها تزكية النفس . قال الله تعالى ـ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ـ وقيل لحكيم ما الصدق القبيح ؟ فقال ثناء المرء على نفسه ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم بالفضل على الأقران ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا . ومنها التجسس وتتبع عورات الناس وقد قال تعالى ـ ولا تجسسوا ـ والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله

(١) حديث من تكبر وضعه الله الحديث الخطيب من حديث عمر باسناد صحيح وقال غريب من حديث الثوري ولابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن (٢) حديث الكبرياء ردائي والعظمة إزاري الحديث أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة وهو عند مسلم بلفظ الكبرياء رداؤه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٣) حديث نهى المؤمن عن إذلال نفسه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه (٤) حديث المؤمن ليس بحقود لم أقف له على أصل .

النصارى لا يكون لهم نشء إلا على التنصر وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على التهود وصبيان الاسلام لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام وسمعت الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» فتحرك باطني إلى طلب الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات فقلت في نفسي أولا إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي أن العلم اليقين هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع العقل لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا للنقص مقارنا لو تحدى

وتخجيله إذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكا ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الافصاح به إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء كما حكي عن قوم من أكابر الناظرين المعدودين من فحولهم ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمسارّهم ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين فكل من طلب المباهاة باظهار الفضل يسره لامحالة مايسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفرلونها فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرا تغيرلونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطانا ماردا أوسبعا ضاريا فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم في السراء والضراء حتى قال الشافعي رضي الله عنه العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل فلاأدري كيف يدعي الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة هيهات هيهات وناهيك بالشر شرا أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين . ومنها النفاق فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه فانهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بدا من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور فانهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منه . فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم(١) » رواه الحسن وقدصح ذلك بمشاهدة هذه الحالة . ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلاما إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها بالبعض والمراء في مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة(٢) » وقد سوى الله تعالى بين من افترى على الله كذبا وبين من كذب بالحق . فقال تعالى ــ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ــ وقال تعالى ــ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ــ ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر كما سيأتي في كتاب الرياء والمناظر لايقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدي إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ باللحى وسب الوالدين وشتم الأستاذين والقذف الصريح فان أولئك

(١) حديث إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب الحديث الطبراني من حديث سلمان باسناد ضعيف (٢) حديث من ترك المراء وهو مبطل الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف قال الترمذي حسن .

باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وإمكانا فاني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل الواحد أكثر من العشرة بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه لم أشك في معرفتي لكذبه ولم يحصل معي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه وأما الشك فما علمته فلا ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين فهو علم لاثقة به وكل علم لا أمان معه ليس بعلم يقيني ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المستيقنات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلابد من إحكامها أولا لأتبين أن يقيني بالمحسوسات وأماني من

ليسوا معدودين فى زمرة الناس المعتبرين وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله القارنين له فى الدرجة ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل الأنفة والغضب والبغضاء والطمع وحب طلب المال والجاه للتمكن من الغلبة والمباهاة والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء والخوض فيما لا يعنى وكثرة الكلام وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدرى المصلى منهم فى صلاته ما صلى وما الذى يقرأ ومن الذى يناجيه ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر فى العلوم التى تعين فى المناظرة مع أنها لا تنفع فى الآخرة من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم دينا وأكثرهم عقلا عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها . واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضا إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهى لازمة أيضا للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران وبالجملة هى لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى فى الآخرة فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه وليته نجا منه رأسا برأس وهيهات هيهات فخطر العلم عظيم وطالبه طالب الملك المؤبد والنعيم السرمد فلا ينفك عن الملك أو الهلك وهو كطالب الملك فى الدنيا فإن لم يتفق له الإصابة فى الأموال لم يطمع فى السلامة من الإذلال بل لا بد من لزوم أفضح الأحوال . فإن قلت فى الرخصة فى المناظرة فائدة وهى ترغيب الناس فى طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان فى المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ولولا حب الرياسة لاندرس العلم ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال ﷺ فيهم « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر(٢) » فطالب الرياسة فى نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله فى ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضمر قصد الجاه فمثاله مثال الشمع الذى يحترق فى نفسه ويستضىء به غيره فصلاح غيره فى هلاكه فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التى تأكل نفسها وغيرها فالعلماء ثلاثة إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهرا وباطنا وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذى يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا فى ظاهره وقصده فى الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه فانظر من أى الأقسام أنت ومن الذى اشتغلت بالاعتداد له فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل وسيأتيك فى كتاب الرياء بل فى جميع ربع المهلكات ما ينفى عنك الريبة فيه إن شاء الله تعالى .

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم النسائى من حديث أنس باسناد صحيح
(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر متفق عليه من حديث أبى هريرة

الغلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات أو من جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات وهو أمان محقق لا تجوز فيه ولا غائلة له فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكننى أشكك نفسى فيها فانتهى بعد طول التشكك بى إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات وأخذ يتسع الشك فيها ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعلقته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت ما أردت أن أصنفه فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودى ولم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمى على الخروج عن بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر فيه أخرى ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة إلا حمل عليها جند

(الباب الخامس فى آداب المتعلم والمعلم)

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف قال صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة (١) » وهو كذلك باطنا وظاهرا قال الله تعالى ـ إنما المشركون نجس ـ تنبيها للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحس فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ملطخ بالخبائث والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها فى الحال مهلكات فى المآل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب (٢) » والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى فى القلب إلا بواسطة الملائكة ـ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ـ وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرؤون من الصفات المذمومات فلا يلاحظون إلا طيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا ولست أقول المراد بلفظ البيت هو القلب وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة ولكنى أقول هو تنبيه عليه وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ففارق الباطنية بهذه الدقيقة فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبه لكونه أيضا عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة فاعبر أنت أيضا من البيت الذى هو بناء الخلق إلى القلب الذى هو بيت من بناء الله تعالى ومن الكلب الذى ذم لصفته لا لصورته وهو ما فيه من سبعية ونجاسة إلى الروح الكلبية وهى السبعية . واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكالب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب فى المعنى وقلب فى الصورة فنور البصيرة يلاحظ المعانى لا الصور والصور فى هذا العالم غالبة على المعانى والمعانى باطنة فيها وفى الآخرة تتبع الصور المعانى وتغلب المعانى فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية « فيحشر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاريا والشره إلى أموالهم ذئبا عاديا والمتكبر عليهم فى صورة نمر وطالب الرياسة فى صورة أسد (٣) » وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار . فإن قلت كم من طالب ردىء الأخلاق حصل العلوم فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقى النافع

(الباب الخامس)

(١) حديث بنى الدين على النظافة لم أجده هكذا وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة تنظفوا فإن الإسلام نظيف وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود النظافة تدعو إلى الإيمان

(٢) حديث لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب متفق عليه من حديث أبى طلحة الأنصارى

(٣) حديث حشر الممزق لأعراض الناس فى صورة كلب ضار الحديث الثعلبى فى التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

الشهوة جملة فيغيرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسبب ميلها إلى المقام ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل فلم يبق من العمر إلا القليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض والشأن العظيم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمر السالم الخيالى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليك نفسك ولا تتيسر لك المعاودة فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعى قريبا من ستة أشهر أولها رجب من سنة ست

فى الآخرة الجالب للسعادة فان من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصى سموم قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا إنما الذى تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويردّدونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم فى شئ قال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب ، وقال بعضهم إنما العلم الخشية لقوله تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ وكأنه أشار إلى أخصّ ثمرات العلم ولذلك قال بعض المحققين معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه . فان قلت إنى أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برزوا فى الفروع والأصول وعدّوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها . فيقال إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقت إلى هذا إشارة وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى .
الوظيفة الثانية : أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فان العلائق شاغلة وصارفة ـ وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ـ ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرّق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع . الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته قال الشعبى « صلى زيد بن ثابت على جنازة فقرّبت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد خلّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد ابن ثابت يده وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا فى طلب العلم (٢) » فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائنا من كان فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للمكان العالى

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى ـ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده وليدع رأيه فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه

(١) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت ، وقوله هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء الطبرانى والحاكم والبيهقى فى المدخل إلا أنهم قالوا هكذا نفعل قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم

(٢) حديث ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم ابن عدى من حديث معاذ وأبى أمامة باسنادين ضعيفين .

وثمانين وأربعمائة وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا للقلوب المختلفة إلىّ فكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا أستطيعها ألبتة حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب وكان لا تنساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة وتعدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروّح السر عن الهم المهم ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبى الاعراض عن المال

في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة لتزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لاخبرة له به وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر - إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا - ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال - فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا - ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالاخفاق والخسران . فان قلت فقد قال الله تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون - فالسؤال مأمور به . فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه فان السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال أي دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف ومالم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراقي الدرجات لايدخل أوان السؤال عنه . وقد قال علي رضي الله عنه إن من حق العالم أن لاتكثر عليه بالسؤال ولاتعنته في الجواب ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا تفشي له سرا ولا تغتابن أحدا عنده ولا تطلبن عثرته وإن زل قبلت معذرته وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ولا تجلس أمامه وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته . الوظيفة الرابعة : أن يحترز الخائض في العلم في مبدإ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الادراك والاطلاع بل ينبغي أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأي واحد وإنما عادته نقل المذاهب وماقيل فيها فليحذر منه فان إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ومن هذا حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل ومنع المبتدي عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار وندب القوي إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي على مخالطة الكفار ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء وفي ذلك قال بعضهم من رآني في البداية صار صديقا ومن رآني في النهاية صار زنديقا إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال وهيهات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام وتشبه الضعيف بالقوي فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهي اعتذار من يلقي نجاسة يسيرة في كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى في البحر والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز ولا يدري المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته ولمثل هذا جوز للنبي صلى الله عليه وسلم مالم يجوز لغيره حتى أبيح له تسع نسوة[1] إذ كان له من القوة مايتعدى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى مابينهن من الضرار إليه حتى ينجر إلى معصية الله تعالى في طلبه رضاهن فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين . الوظيفة الخامسة : أن لايدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به

(1) حديث أبيح له صلى الله عليه وسلم تسع نسوة وهو معروف، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تسع الحديث .

والجاه والأهل والأولاد وأظهرت غرض الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على غرضي في المقام بالشام فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبدا واستهزأ بي أئمة العراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيه سببا دينيا إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس في الاستنباطات فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان الاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم في التعلق بي والانكار علي وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم فيقولون هذا أمر سماوي ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم فارقت بغداد وفارقت

على مقصده وغايته ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى ـ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ـ قال الشاعر :

ومن يك ذافم مر مريض … يجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعا من الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود والقوّام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى . الوظيفة السادسة : أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم فان العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمه ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعني قسمي المعاملة والمكاشفة فغاية المعاملة المكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة أو تلقفا ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهى إلى رتبة إيمان أبي بكر رضى الله عنه الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح (١) كما شهد له به سيد البشر ﷺ فما عندي أن ما يعتقده العامي ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العامي إلا في صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاما وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذي وقر في صدره والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدرى ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول فينبغي أن تتئد في هذا فعنده ضيعت رأس المال فكن حريصا على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء وفي يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب . الوظيفة السابعة : أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج . قال الله تعالى ـ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ـ أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه فينبغي أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ولا بخطإ واحد أو آحاد فيه ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها وقد مضى كشف هذه الشبه في كتاب معيار العلم وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطإ شاهدوه من طبيب وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطإ اتفق لآخر والكل خطأ بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه فلا كل علم يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذلك قال على رضى الله عنه لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله . الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم

(١) حديث لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح ابن عدى من حديث ابن عمر باسناد ضعيف ورواه البيهقي في الشعب موقوفا على عمر باسناد صحيح .

ما كان معي من مالي ولم أدخر من ذلك إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين ولم أر في العالم ما يأخذ العالم لعياله أصلح منه ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريبا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي ثم تحركت بي داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ثم سرت إلى الحجاز ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن

وأن

وأن ذلك يراد به شيئان أحدهما شرف الثمرة والثانى وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخرة الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك وأن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه . الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة ومع هذا فلا ينبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه فى المقدمات والتتمات من ضروب العلوم التى هى فرض كفاية ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذى يسقيهم الماء ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى — يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات — وقال تعالى — هم درجات عند الله — والفضيلة نسبية واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظنن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين فى العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان نفعه ورفعه لا محالة . الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والأعمال سعيا إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف فى هذا العالم قدره إلا الأقلون والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون ما يسبق إلى فهم العوام والمتكلمين على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعا وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل : الأول : تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة . والثانى السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل . والثالث الاشتغال بأعمال الحج ركنا بعد ركن ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة وله فى كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ومن أول سلوك البوادى إلى آخره ومن أول أركان الحج إلى آخره وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد فى إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه فالعلوم أيضا ثلاثة أقسام قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا وقسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع

وعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه وآثرت العزلة حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير فى وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة وكان لا يصفو لى الحال إلا فى أوقات متفرقة لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى عنها فيدفعنى عنها العوائق وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذى ينبغى أن نذكره لينتفع به أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم

تلك العقبات الشاغة التى عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا يغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها كذلك لا يغنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ماذكرناه فى تراجم علم المكاشفة وههنا نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك الطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون فى جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل ـ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ـ وكل من لم يتوجه إلى القصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم . واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين أعنى أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هى أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والايمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان فالسعادة وراء علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التى هى سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك فى ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذى يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه فى ضبط الناس على منهج العدل والسياسة فى ناصية الفقيه . وأما أسباب الصحة ففى ناصية الطبيب ومن قال العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة . فان قلت لم شبهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة فاعلم أن الساعى إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون به بل لا رخصة فى ذكره وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودر عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية وإنما هو أمر إلهى كما قال تعالى ـ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ـ وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن فلله الخلق والأمر جميعا والأمر أعلى من الخلق وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها من عالم الأمر ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها فان القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدرى ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن فهو وراء ما نحن بصدده والمقصود أن هذه اللطيفة هى الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فمنه مصدرها وإليه مرجعها وأما البدن فمطيتها التى تركبها وتسعى بواسطتها فالبدن لها فى طريق الله تعالى كالناقة للبدن فى طريق الحج وكالراوية الحازنة للماء الذى يفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية ولا يخفى أن الطب كذلك فانه قد يحتاج إليه فى حفظ الصحة على البدن ولو كان الانسان وحده لاحتاج إليه والفقه يفارقه فى أنه لو كان الانسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعى وحده فى تحصيل طعامه بالحراثة والزرع

ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به وبالجملة ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى وهو أقواها بالاضافة إلى ما تحت الاختيار انتهى قال العراقى فلما نفذت كلمته وبعد صيته وعلت منزلته وشدت إليه الرحال وأذعنت له الرجال شرفت نفسه عن الدنيا واشتاقت إلى الأخرى فاطرحها وسعى فى طلب الباقية وكذلك النفوس الزكية كما قال عمر بن عبد العزيز إن لى نفسا تواقة لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة قال بعض العلماء رأيت

والخبز

والخبز والطبخ وفي تحصيل الملبس والمسكن وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج والمستغرق عمره في دقائق الكلمات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكي طريق الحج أو ملابسي أركانه فتأمل هذا أولا واقبل النصيحة مجانا ممن قام عليه ذلك غاليا ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم .

(بيان وظائف المرشد المعلم)

اعلم أن للانسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغني عن السؤال وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب والذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت تضيء للناس وهي تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه . الوظيفة الأولى : الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده(1) » بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا وسنوها وشهورها منازل الطريق والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة

(1) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة

الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة وبيده عكاز وركوة فقلت له يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا فنظر إلي شذرا وقال لما بزغ بدر السعادة في فلك الارادة وظهرت شموس الوصل :

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل
وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأشواق مهلا فهذه
منازل من تهوى رويدك فانزل

انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه .

[هذا كتاب الاملاء في إشكالات الاحياء]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما خصص وعمم وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها وقرب لك مقامات الولاية تحل

في سعادات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى ـ إنما المؤمنون إخوة ـ وداخلون في مقتضى قوله تعالى ـ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . الوظيفة الثانية : أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكرا بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل ـ وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله ـ فإن المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادمه والخادم مخدوما وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسي رءوسهم عند ربهم وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة وينصر وليه ويعادي عدوه وينتهض جهارا له في حاجاته ومسخرا بين يديه في أوطاره فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحيي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقربا إلى الله تعالى ونصرة لدينه فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات . الوظيفة الثالثة : أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعا في الوعظ والاستتباع ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة وذلك يوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره ويجري حب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالي الفخ ليقتنص به الطير وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متوقع في هذه العلوم فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة في القلب وغفلة عن الله تعالى وتماديا في الضلال وطلبا للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان . وقد رؤي سفيان الثوري رحمه الله حزينا فقيل له ما لك فقال صرنا متجرا لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا . الوظيفة الرابعة : وهي من دقائق

معاليها عن بعض ما وقع في الاملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام وأمثال الأنعام وأجماع العوام وسفهاء الأحلام وذعار أهل الاسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال فإلى الله انصرافهم ومآبهم وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم فستكتب شهادتهم ويسئلون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين

صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء (١) » وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته . الوظيفة الخامسة : أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلا بعلوم فينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة . الوظيفة السادسة : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم (٢) » فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال ﷺ « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وقال علي رضي الله عنه وأشار إلى صدره إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه وقال عيسى عليه السلام لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير ولذلك قيل كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار . وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار (٣) » فقال اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني فقد قال الله تعالى ـ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ـ تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق

أأنثر درا بين سارحة النعم ... فأصبح مخزونا براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره ... فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه ... وصادفت أهلا للعلوم والحكم
نشرت مفيدا واستفدت مودة ... وإلا فمخزون لدي ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة : إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا

(١) حديث لو منع الناس عن فت البعر لفتوه الحديث لم أجده (٢) حديث نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم الحديث رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه وعند أبي داود من حديث عائشة أنزلوا الناس منازلهم (٣) حديث من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه .

يستنبطونه منهم ولكن الظالمون في شقاق بعيد ولا عجب فقد توى أدلاء الطريق وذهب أرباب التحقيق ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة متصفين بحكايات موضوعة متزينين بصفات منمقة متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة متماطلين لحجج غير صادقة كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء أو مغالبة نظراء قد ذهبت الواصلة بينهم بالبر وتألفوا جميعا على المنكر وعدمت النصائح بينهم في الأمر وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر إن نصحتهم العلماء أغروا بهم وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم أولئك الجهال في علمهم الفقراء في طولهم البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ولذلك لا تظهر عليهم مواريث الصدق ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ولا تحقق لديهم

وهو يدخره عنه فان ذلك يفتر رغبته فى الجلى ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغى أن يخلى وحرفته فانه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فانه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث فانه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص . الوظيفة الثامنة : أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر فاذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل فى المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى ـ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ـ ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ولذلك قال على رضى الله عنه قصم ظهرى رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه والله أعلم .

(الباب السادس فى آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء)

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد فى العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ونعنى بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها قال صلى الله عليه وسلم « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « العلم علمان علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم فى القلب فذلك العلم النافع (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق (٣) »

(الباب السادس)

(١) حديث لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء والبيهقى فى المدخل موقوفا على أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا (٢) حديث العلم علمان علم على اللسان الحديث الترمذى الحكيم فى النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح وأسنده الخطيب فى التاريخ من رواية الحسن عن جابر باسناد جيد وأعله ابن الجوزى (٣) حديث يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقة الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف .

أعلام المعرفة ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء وكرامة الأوتاد وفوائد الأقطاب وفى هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ولكن ليس هذا من بضائعهم حجبوا عن الحقيقة بأربع بالجهل والاصرار ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى فالجهل أورثهم السخف والاصرار أورثهم التهاون ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والاعجاب والرياء والله من ورائهم محيط . وهو على كل شىء شهيد . فلا يغرنك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ولا يغوينك

وقال

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار[١] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كتم علما عنده ألجمه الله بلجام من نار » وقال صلى الله عليه وسلم « لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل وما ذلك ؟ فقال من الأئمة المضلين[٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا[٣] » وقال عيسى عليه السلام إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فان العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد وإنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة . وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم قالوا وكيف يكون منافقا عليما قال عليم اللسان جاهل القلب والعمل وقال الحسن رحمه الله لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء وقال رجل لأبي هريرة رضى الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعة له وقيل لإبراهيم بن عيينة أي الناس أطول ندما قال أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره وأما عند الموت فعالم مفرّط وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه وقال سفيان الثوري رحمه الله يهتف العلم بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل وقال ابن المبارك لا يزال المرء عالما ما طلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل وقال الفضيل ابن عياض رحمه الله إني لأرحم ثلاثة عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر وعالما تلعب به الدنيا وقال الحسن عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وقال صلى الله عليه وسلم « إن العالم ليعذب عذابا يطيف به أهل النار استعظاما لشدة عذابه[٤] » أراد به العالم الفاجر وقال أسامة بن زيد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشرّ وآتيه[٥] » وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل ـ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ـ لأنهم جحدوا بعد العلم وجعل اليهود شرا من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولدا ولا قالوا إنه ثالث ثلاثة إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله

(١) حديث لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء الحديث ابن ماجه من حديث جابر باسناد صحيح
(٢) حديث غير الدجال أخوف عليكم من الدجال الحديث أحمد من حديث أبي ذر باسناد جيد
(٣) حديث من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث على باسناد ضعيف إلا أنه قال زهدا ، وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفا على الحسن من ازداد علما ثم ازداد بالله على الدنيا حرصا لم يزدد من الله إلا بعدا ، وروى أبو الفتح الأزدي في الضعفاء من حديث عليّ من ازداد بالله علما ثم ازداد للدنيا حبا ازداد الله عليه غضبا (٤) حديث إن العالم يعذب عذابا يطيف به أهل النار الحديث لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده (٥) حديث أسامة بن زيد يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى في النار فتندلق أقتابه الحديث متفق عليه بلفظ الرجل بدل العالم .

بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكأن قد جمع الخلائق في صعيد ـ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ـ وتلا ـ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ـ فياله من موقف قد أذهل ذوي العقول عن القال والقيل ومتابعة الأباطيل فأعرض عن الجاهلين ـ ولا تطع كل أفاك أثيم ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فاصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ـ ولقد جئناك بحول الله وقوته وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذي

- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - وقال تعالى - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين - وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء - واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين - حتى قال - فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - فكذلك العالم الفاجر فان بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات وقال عيسى عليه السلام مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من الجاهل وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات : فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه فى الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر فان من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل فان المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخره فكيف يعد من زمرة العلماء ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته وفى أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى ياداود لا تسأل عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى ياداود إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما ياداود من رد إلى هاربا كتبته جهبذا ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبدا ولذلك قال الحسن رحمه الله عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة ولذلك قال يحيى بن معاذ إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا وقال سعيد بن المسيب رحمه الله إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص وقال عمر رضى الله عنه إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم فان كل محب يخوض فيما أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله قرأت فى بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتى من قلبه وكتب رجل إلى أخ له إنك قد أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم فى نور علمهم وكان يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية ومآثمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقال الآخر : يامعشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وقيل لبعض العارفين أترى أن من تكون المعاصى قرة عينه لا يعرف الله فقال لا أشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى وهذا دون ذلك بكثير ولا تظنن أن ترك المال يكفى فى اللحوق

بعلماء

ذكر فيه الأقلام إذ اتفق أن يكون أشهر ما فى الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب حتى للدصار المثل المذكور فى المجالس تحية الداخل وحديث المجالس فساعدتنا أمنيتك ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى املائنا هذا بيانا غيره مما عدوه مشكلا وما رلعقولهم الضعيفة مخبلا ومضللا ونحن نستعيذ بالله من الشيطان ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه فى المزيد من الإحسان إنه الجواد المنان

[ذكر مراسم الأسئلة فى المثل]

ذكرت رزقك الله ذكره وجعلك تعقل نهيه وأمره كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ولفظة التوحيد تنافى التقسيم فى المشهود كما ينافى التكرير التعديد وان صح انقسامه على وجه لا يندفع قول تصح تلك القسمة فيما يوجد أو فيما يقدر ورغبت

بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال ولذلك قال بشر حدثنا باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول حدثنا فإنما يقول أوسعوا لي ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قمطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول أنا أشتهي أن أحدث ولو ذهبت عني شهوة الحديث لحدثت وقال هو وغيره إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته فحدث وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا ولذلك قال الثوري فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين ﷺ ـ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ـ وقال سهل رحمه الله العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص وقال الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة وقال عيسى عليه السلام كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به وقال صالح بن كيسان البصري أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة [1] » وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال عز وجل في علماء الدنيا ـ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا ـ وقال تعالى في علماء الآخرة ـ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم ـ وقال بعض السلف العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر إياي يخادعون وبي يستهزئون لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم حيران [2] » وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علماء هذه الأمة رجلان رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعاً ولم يشتر به ثمناً فذلك يصلي عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يرافق المرسلين ورجل آتاه الله علماً في الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً فذلك يأتي يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ينادي مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً في الدنيا فضن به على عباده وأخذ به طمعاً واشترى به ثمناً فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس [3] » وأشد من هذا ما روي أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثني موسى صفي الله حدثني موسى نجي الله حدثني موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله ففقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم

---

(١) حديث أبي هريرة من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضاً الحديث أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد (٢) حديث أبي الدرداء أوحى الله إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين الحديث ابن عبد البر بإسناد ضعيف (٣) حديث ابن عباس علماء هذه الأمة رجلان الحديث الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف .

مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة وانقسام طبقات أهلها فيها إن كان يجمع بينهم التفاوت وما وجه تمثيلها بالجوز في القشور واللبوب ولم كان الأول لا ينفع والآخر الذي هو الرابع لا يحل إفشاؤه وما معنى قول أهل هذا الشأن إفشاء سر الربوبية كفر أين أصل ما قالوه في الشرع إذ الإيمان والكفر والهداية والضلال والتقريب والتبعيد والصديقية وسائر مقامات الولاية ودركات المخالفة إنما هي مآخذ شرعية وأحكام نبوية وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ومخاطبة الجمادات العقلاء وماذا تسمع تلك المخاطبة أحاسة الآذان أم بسمع القلب وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي وما حد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت وما معنى أن الله تعالى خلق آدم

وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود فقال له موسى عليه السلام أتعرف فلانا قال نعم هو هذا الخنزير فقال موسى يارب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا فأوحى الله عز وجل إليه لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به لأنه كان يطلب الدنيا بالدين . وأغلظ من هذا ماروى معاذ بن جبل رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع (١) » وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفي الصمت سلامة وعلم ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأول من النار ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شيء من علمه أو تهوون بشيء من حقه غضب فذلك في الدرك الثاني من النار ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلا فذلك في الدرك الثالث من النار ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ والله تعالى يبغض المتكلفين فذلك في الدرك الرابع من النار ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك في الدرك الخامس من النار ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلا وذكرا في الناس فذلك في الدرك السادس من النار ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فان وعظ عنف وإن وعظ أنف فذلك في الدرك السابع من النار فعليك يا أخي بالصمت فيه تغلب الشيطان وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشي في غير أرب وفي خبر آخر « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة (٢) » وروى أن الحسن حمل إليه رجل من خراسان كيسا بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال يا أباسعيد هذه نفقة وهذه كسوة فقال الحسن عافاك الله تعالى ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك إنه من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له وعن جابر رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا قال قال رسول الله ﷺ « لاتجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الاخلاص ومن الرغبة إلى الزهد ومن الكبر إلى التواضع ومن العداوة إلى النصيحة (٣) » قال تعالى ـ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ـ الآية ، فعرف أهل العلم بايثار الآخرة على الدنيا . ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء مالم يكن هو أول عامل به . قال الله تعالى ـ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ـ وقال تعالى ـ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ـ وقال تعالى في قصة شعيب ـ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ـ وقال تعالى ـ واتقوا الله ويعلمكم الله ـ وقال تعالى ـ واتقوا الله واعلموا ـ واتقوا الله واسمعوا ـ وقال تعالى لعيسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه (٤) » وقال

(١) حديث معاذ من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع الحديث أبو نعيم وابن الجوزي في الموضوعات (٢) حديث إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة لم أجده هكذا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة (٣) حديث جابر لاتجلسوا عند كل عالم الحديث أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات (٤) حديث مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار الحديث ابن حبان من حديث أنس

على صورته وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون معتقدها منزها مجللا وما معنى الطريق في فانك بالوادي القدس طوى ولعله ببغداد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان في غير الوادي الذي سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى وما معنى فاستمع بسر قليل لما يوحى وهل يكون سماع القلب بغير سره وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الاله وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ومايسمع في النداء إذا سمع هل أسمع موسى أو أسمع نفسه وما معنى الأمن للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين وما الذي

صلى الله عليه وسلم « هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل وشر الشرار شرار العلماء وخير الخيار خيار العلماء(١) » وقال الأوزاعي رحمه الله شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه وقال الفضيل بن عياض رحمه الله بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات وقال الشعبي يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم فيقولون إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله وننهى عن الشر ونفعله وقال حاتم الأصم رحمه الله ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو وقال مالك ابن دينار إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما ... إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها

أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... فالموبقات لعمري أنت جانيها

تعيب دنيا وناسا راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر : لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله مررت بحجر بمكة مكتوب عليه اقلبني تعتبر فقلبته فإذا عليه مكتوب أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم وقال ابن السماك رحمه الله كم من مذكر بالله ناس لله وكم من مخوف بالله جرىء على الله وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله وكم من داع إلى الله فار من الله وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحنا في أعمالنا فلم نعرب وقال الأوزاعي إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا(٢) » وقال عيسى عليه السلام مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد وقال معاذ رحمه الله احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته وقال عمر رضي الله عنه إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق وقال عمر رضي الله عنه ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم وقال ابن مسعود سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى وفي التوراة والإنجيل مكتوب

(١) حديث هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء الحديث الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا بآخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث (٢) حديث عبد الرحمن ابن غنم عن عشرة من الصحابة تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا علقه ابن عبد البر وأسنده ابن عدي وأبو نعيم والخطيب في كتاب اقتضاء العلم للعمل من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمي موقوفا على معاذ بسند صحيح .

أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه وما الذي يمنعه من البقاء في الموضع الذي وصل إليه وهو أرفع من الذي خلفه وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء لو وصلوا ما رجعوا ما وصل من رجع وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود وعجزا يناقض القدرة الإلهية وما حكم هذه العلوم المكنونة هل طلبها فرض ومندوب إليه أو غير ذلك ولم كسبت الشكل من الألفاظ واللغز من العبارات وإن جاز ذلك للشارع فما له أن يختبر به ويمتحن فما بال من ليس شارعا

لاتطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم وقال حذيفة رضى الله عنه إنكم فى زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك وسيأتى زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين . واعلم أن مثل العالم مثل القاضى وقد قال صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك فى الجنة وقاض قضى بالجور وهو يعلم أو لا يعلم فهو فى النار وقاض قضى بغير ما أمر الله به فهو فى النار(١) » وقال كعب رحمه الله يكون فى آخر الزمان علماء يزهدون الناس فى الدنيا ولا يزهدون ويخوفون الناس ولا يخافون وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بألسنتهم يقربون الأغنياء دون الفقراء يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره أولئك الجبارون أعداء الرحمن وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم فقيل يارسول الله وكيف ذلك قال صلى الله عليه وسلم يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال للعلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل(٢) » وقال سرى السقطى اعتزل رجل للتعبد كان حريصا على طلب علم الظاهر فسألته فقال رأيت فى النوم قائلا يقول لى إلى كم تضيع العلم ضيعك الله فقلت إنى لأحفظه فقال حفظ العلم العمل به فتركت الطلب وأقبلت على العمل وقال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية وقال الحسن تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فان السفهاء همتهم الرواية والعلماء همتهم الرعاية وقال مالك رحمه الله إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرن عليه شيئا وقال ابن مسعود رضى الله عنه أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا وسيأتى قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم والعالم الذى لا يعمل كالمريض الذى يصف الدواء وكالجائع الذى يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها وفى مثله قوله تعالى ـ ولكم الويل مما تصفون ـ وفى الخبر « مما أخاف على أمتى زلة عالم وجدال منافق فى القرآن(٣) » .

ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع فى الآخرة المرغب فى الطاعات مجتنبا للعلوم التى يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا فى وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذى هو مؤاخذ به وذلك محض السفه وقد روى « أن رجلا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمنى من غرائب العلم فقال له ما صنعت فى رأس العلم فقال وما رأس العلم قال صلى الله عليه وسلم هل عرفت الرب تعالى قال نعم قال فما صنعت فى حقه قال ماشاء الله فقال صلى الله عليه وسلم هل عرفت الموت قال نعم قال فما أعددت له قال ماشاء الله قال صلى الله عليه وسلم اذهب فأحكم ماهناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم(٤) » بل ينبغى أن يكون المتعلم من جنس ماروى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى رضى الله عنهما أنه قال له شقيق منذ كم صحبتنى قال حاتم منذ ثلاث وثلاثين سنة قال فما تعلمت منى فى هذه المدة قال ثمانى مسائل قال شقيق له إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل قال يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإنى لا أحب أن أكذب فقال هات هذه الثمانى مسائل حتى أسمعها قال حاتم نظرت إلى هذا الخلق

(١) حديث القضاة ثلاثة الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح (٢) حديث إن الشيطان ربما سبقكم بالعلم الحديث فى الجامع من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث مما أخاف على أمتى زلة عالم الحديث الطبرانى من حديث أبى الدرداء ولابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين
(٤) حديث أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمنى من غرائب العلم الحديث ابن السنى وأبو نعيم فى كتاب الرياضة لهما وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جدا .

فرأيت

التى جملة مراسم الأسئلة فى المثل فأسأل الله تعالى أن يملى علينا ماهو الحق عنده فى ذلك وأن يجرى على ألسنتنا ما يستضاء به فى ظلمات المسالك وأن يعم بنفعه أهل المبادى والمدارك ثم لابد أن أمهد مقدمة وأؤكد قاعدة وأؤكد وصية. أما المقدمة فالغرض بها تبيين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور فنذكر ما يغمض منها ونذكر المقصد بها عندهم قرب واتفق على ما يكون من كلامنا مختصا بهذا الفن فى هذا وغيره فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ وأما القاعدة فنذكر فيها الاسم الذى يكون سلوكنا فى هذه العلوم عليه والسمت الذى ننوى بمقصدنا إليه ليكون ذلك أقرب على التأمل وأسهل على الناظر التفهم وأما الوصية فنقصد فيها تعريف ما على من نظر فى كلام الناس وآخذ

فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه إلى القبر فاذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبي فاذا دخلت القبر دخل محبوبي معي فقال أحسنت ياحاتم فما الثانية فقال نظرت في قول الله عز وجل ـ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى ـ فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى الثالثة أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ـ ماعندكم ينفد وماعند الله باق ـ فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظا الرابعة أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب فنظرت فيها فاذا هي لاشيء ثم نظرت إلى قول الله تعالى ـ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ـ فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريما الخامسة أني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضا وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ـ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ـ فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عني السادسة نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضا فرجعت إلى قول الله عز وجل ـ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ـ فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي فتركت عداوة الخلق غيره السابعة نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت إلى قوله تعالى ـ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ـ فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاشتغلت بما لله تعالى علي وتركت مالي عنده الثامنة نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى قوله تعالى ـ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ـ فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي . قال شقيق ياحاتم وفقك الله تعالى فاني نظرت في علوم التوراة والانجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة فهذا الفن من العلم لايهتم بادراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم أدركتهم ومايتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم مايتعلمون إلا الكلام . ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب والتنعم في الملبس والتجمل في الأثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه وارتفع في علماء الآخرة حزبه . ويشهد لذلك ماحكي عن أبي عبد الله الخواص وكان من أصحاب حاتم الأصم قال دخلت مع حاتم إلى الري ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلا يريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا على رجل من التجار متقشف يحب المساكين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم ألك حاجة فاني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل قال حاتم عيادة المريض فيها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضا أجيء معك وكان العليل محمد بن مقاتل قاضي الري فلما جئنا إلى الباب فاذا قصر مشرف حسن فبقي حاتم متفكرا يقول باب عالم على هذه الحالة ثم أذن لهم فدخلوا فاذا دار حسناء فوراء واسعة نزهة وإذا بزة وستور فبقي حاتم متفكرا ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفرش وطيئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مذبة فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس فقال لا أجلس فقال لعل لك حاجة

نفسه بالاطلاع على أغراضهم فيما ألفوه من تصانيفهم وكيف يكون نظره فيها واطلاعه عليها واقتباسه منها فذلك أوكد عليه أن يتعلمه من ظهورها فتبردوا عنها وغلقت في وجوههم الأبواب وأسدل دونهم الحجاب ولو أتوها من أبوابها بالترحيب وولجوا على الرضا بالحبيب لكشف لهم كثير من حجب الغيوب والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [المقدمة] : اعلم أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجماهير والعموم ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع والصنائع على ضربين علمية وعملية فالعملية كالمهن والحرف ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ويتعاطون أصول صناعتهم والعلمية هي العلوم المحفوظة بالقوانين العدلة عما تحرر من الموازين ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لايشاركهم فيها غيرهم

فقال نعم قال وماهى قال مسئلة أسألك عنها قال سل قال قم فاستو جالسا حتى أسألك فاستوى جالسا قال حاتم علمك هذا من أين أخذته فقال من الثقات حدثونى به قال عمن قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن قال عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل قال حاتم ففيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان فى داره إشراف وكانت سعتها أكثر كان له عند الله عز وجل المنزلة أكبر قال لا قال فكيف سمعت قال سمعت أنه من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله المنزلة قال له حاتم فأنت بمن اقتديت أبالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم والصالحين رحمهم الله أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ياعلماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة أفلا أكون أنا شرا منه وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا وبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له إن الطنافسى بقزوين أكثر توسعا منه فسار حاتم متعمدا فدخل عليه فقال رحمك الله أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى مبدأ دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة قال نعم وكرامة ياغلام هات إناء فيه ماء فأتى به فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثم قال هكذا فتوضأ فقال حاتم مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد فقام الطنافسى وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعا أربعا فقال الطنافسى ياهذا أسرفت قال له حاتم فيماذا قال غسلت ذراعيك أربعا فقال حاتم ياسبحان الله العظيم أنا فى كف من ماء أسرفت وأنت فى جميع هذا كله لم تسرف فعلم الطنافسى أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوما فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا ياأبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمى وليس يكلمك أحد إلا قطعته قال معى ثلاث خصال أظهر بهن على خصمى أفرح إذا أصاب خصمى وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسى أن لا أجهل عليه فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه فلما دخلوا عليه قال له ياأبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا قال ياأبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى تكون معك أربع خصال تغفر للقوم جهلهم وتمنع جهلك منهم وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم آيسا فإذا كنت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال ياقوم أية مدينة هذه قالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلى فيه قالوا ماكان له قصر إنما كان له بيت لاطىء بالأرض قال فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم قالوا ماكان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض قال حاتم ياقوم فهذه مدينة فرعون فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا هذا العجمى يقول هذه مدينة فرعون قال الوالى ولم ذلك قال حاتم لا تعجل على أنا رجل أعجمى غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصره وقص القصة ، ثم قال وقد قال الله تعالى ــ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ــ فأنتم بمن تأسيتم أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر خلفوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى وسيأتى من سيرة السلف فى البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك فى مواضعه

إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد وتكون المشاركة إذا اتفقت إما فى صورة اللفظ دون المعنى أو فى المعنى وصورة اللفظ جميعا وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب فى التقسيم واختيار لفظ دون غيره وحده بطرفين مبدإ وغاية ومالم يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من بعدهم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذى هو عند من خلفهم ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لا نسميها عندهم صناعة ونسميها بذلك عند ضبطها بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق

والتحقيق

والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بحرام ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه واستدامة الزينة لاتمكن إلا بمباشرة أسباب فى الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصى من المداهنة ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخرى هى محظورة والحزم اجتناب ذلك لأن من خاض فى الدنيا لايسلم منها البتة ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لايبالغ فى ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم [1] ونزع خاتم الذهب فى أثناء الخطبة [2] الى غير ذلك مما سيأتى بيانه . وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلى كتب الى مالك بن أنس رضى الله عنهما بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس أما بعد فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطىء وتجعل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك المطىء وارتحل إليك الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك فاتق الله تعالى يامالك وعليك بالتواضع كتبت إليك بالنصيحة منى كتابا مااطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام ، فكتب إليه مالك بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك . أما بعد فقد وصل إلى كتابك فوقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا وأسأل الله تعالى التوفيق ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم فأما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى ـ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ـ وانى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام . فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعا ومثل مالك فى منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف فى مثل هذه النصيحة فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لايحمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات ، وأما غيره فلا يقدر عليه فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية وخاصية علماء الله تعالى الخشية وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر .

ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغى أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فان الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدى السلاطين والمخالط لهم لايخلو عن تكلف فى طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ويجب على كل متدين الانكار عليهم وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم أو يتكلف فى كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح أو أن يطمع فى أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسيأتى فى كتاب الحلال والحرام مايجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الادرار والجوائز وغيرها وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط . وقد قال صلى الله عليه وسلم «من بدا جفا» يعنى من سكن البادية جفا «ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء

---

(١) حديث نزع القميص المعلم متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث نزع الخاتم الذهب فى أثناء الخطبة متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٣) حديث من بدا جفا الحديث أبوداود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث ابن عباس

والمسمين بالسادة والملقبين بالصوفية والمتشبهين بالفقراء والمعروفين بالرقة والمعزى إليهم العلم والعمل ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها فيما يتذاكرون أو يذكرونه ونحن إن شاء الله نذكر مايغمض منها إذ قد يقع منا عند مانذكر شيئا من علومهم ونشير إلى غرض من أغراضهم فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ولا حرج فى ذلك عقلا وشرعا .ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شىء قدير .فمن ذلك السفر والسالك والمسافر والحال والمقام والمكان والشطح والطوالع والذهاب والنفس والسر والوصل والفصل والأدب والرياضة والتحلى والتخلى والتجلى والعلة والانزعاج والمشاهدة والمكاشفة واللوائح والتلوين والغيرة والحرية واللطيفة والفتوح والوسم والرسم والبسط

تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم ولكن من رضى وتابع أبعده الله تعالى قيل أفلا نقاتلهم قال صلى الله عليه وسلم لا ما صلوا (١) » وقال سفيان فى جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك وقال حذيفة إياكم ومواقف الفتن قيل وما هى ؟ قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه وقال رسول الله ﷺ « العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلاطين فاذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم (٢) » رواه أنس ، وقيل للأعمش لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك فقال لا تعجلوا ثلث يموتون قبل الادراك وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقى لا يفلح منه إلا القليل ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فانه لص وقال الأوزاعى ما من شىء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء (٣) » وقال مكحول الدمشقى رحمه الله من تعلم القرآن وتفقه فى الدين ثم صحب السلطان تملقا إليه وطمعا فيما لديه خاض فى بحر من نار جهنم بعدد خطاه وقال سمنون ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير قال وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافا مع أنى لا آخذ منه شيئا ولا أشرب له شربة ماء ثم قال وعلماء زماننا شر من علماء بنى إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق هواه ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم وقال الحسن كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم فى الاسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله بن المبارك عنى به سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال وكان لا يغشى السلاطين وينفر عنهم فقال له بنوه يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك فى الصحبة والقدم فى الاسلام فلو أتيتهم فقال يا بنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها . قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالا قال يا بنى لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقا سمينا قال الحسن خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان وفى هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلم من النفاق البتة وهو مضاد للايمان وقال أبو ذر لسلمة يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فانك لا تصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لا سيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه أن فى وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويداهن ويخوض فى الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين وكان يقال العلماء إذا علموا عملوا فاذا عملوا اشتغلوا فاذا شغلوا فقدوا فاذا فقدوا طلبوا فاذا طلبوا هربوا وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأشر على بأقوام

(١) حديث سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٢) حديث أنس العلماء أمناء الرسل على عباد الله الحديث العقيلى فى الضعفاء وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٣) حديث شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

والقبض والفناء والبقاء والجمع والتفرقة وعين التحلم والزوائد والارادة والمريد والمراد والهمة والغربة والمكر والاصطلام والرغبة والرهبة والوجد والوجود والتواجد فنذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن بمشيئة الله تعالى وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم فى علومهم أكثر مما ذكرنا فانما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورا تتسلم به إذا طرأ عليك ما لم نذكره للههنا إذ لها مبحث وإليها سبيل فتطلبه بعد ذلك على وجهه (فأما السفر والطريق) فالمراد بهما سفر القلب بآلة التفكر فى طريق المعقولات وعلى ذلك اتفق لفظ السالك والمسافر فى لغتهم ولم يريد بذلك سلوك الأقدام التى بها يقطع مسافات الأجسام فان ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة

أستعين بهم على أمر الله تعالى فكتب إليه أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة هذا في عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان أزهد أهل زمانه فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستنسب طلب غيره ومخالطته ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثوري وابن المبارك والفضيل وابراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون في علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما لميلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين .

ومنها أن لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا فإن سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلي أفتى وإن سئل عما يشك فيه قال لا أدري وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفي الخبر « العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري (١) » قال الشعبي لا أدري نصف العلم ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضي الله عنهم كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد أمور الناس فضعها في عنقه وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون وقال جنة العالم لا أدري فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم يقول انظروا إلى هذا سكوته أشد علي من كلامه ووصف بعضهم الأبدال فقال أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة أي لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا فإن اضطروا أجابوا وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام ومر علي وعبد الله رضي الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال هذا يقول اعرفوني وقال بعضهم إنما العالم الذي إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقلع ضرسه وكان ابن عمر يقول تريدون أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا إلى جهنم وقال أبو حفص النيسابوري العالم هو الذي يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجبت وكان ابراهيم التيمي إذا سئل عن مسئلة يبكي ويقول لم تجدوا غيري حتى احتجتم إلي وكان أبو العالية الرياحي وابراهيم بن أدهم والثوري يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير فإذا كثروا انصرفوا وقال صلى الله عليه وسلم « ما أدري أعزير نبي أم لا وما أدري أتبع ملعون أم لا وما أدري ذو القرنين نبي أم لا (٢) » ولما سئل رسول الله ﷺ عن خير البقاع في الأرض وشرها قال لا أدري حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال لا أدري إلى أن أعلمه الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشرها الأسواق (٣) » وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس رضي الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة وكان في الفقهاء من يقول لا أدري أكثر ممن يقول أدري منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل ابن عياض وبشر بن الحرث وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فتيا إلا ود أن أخاه كفاه ذلك

---

(١) حديث العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري ، الخطيب في أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا نحوه مع اختلاف وقد تقدم

(٢) حديث ما أدري أعزير نبي أم لا الحديث أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدري حتى نزل جبريل الحديث أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر .

قواعد الشرع وخرق حجب الأمر والنهي وتعلق الغرض فيها والمراد بها ومنها فإذا خلفوا نواحيها وقطعوا معاطنها أشرفوا على مفاوز أوسع وبرزت لهم مهامه أعرض وأطول من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية النفس والعدو والدنيا فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها في الانتساب وأعرض بغير حساب من ذلك سر القدر وكيف خفي بحكم في الخلائق وقادهم بلطف في عنف وشدة في لين وبقوة في ضعف وباختيار في جبر إلى ما هو في مجاريه لا يخرج المخلوقون عنه طرفة عين ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه والإشراف على الملكوت الأعظم ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب مثل العلم الإلهي واللوح المحفوظ واليمين الكاتبة وملائكة الله يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم يسبحونه

وفي لفظ آخر كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول . وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو فى غاية الضر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوبا والمطلوب مهروبا منه ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ماروى مسندا عن بعضهم أنه قال لايفتى الناس إلا ثلاثة أمير أو مأمور أو متكلف وقال بعضهم كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء الإمامة والوصية والوديعة والفتيا وقال بعضهم كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علما وأشدهم دفعا لها أورعهم وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى خمسة أشياء قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى (١) » وقال تعالى ـ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ـ الآية ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأى من أهل الكوفة فى المنام فقال مارأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى فكره وجهه وأعرض عنه وقال ما وجدناه شيئا وما حمدنا عاقبته وقال ابن حصين إن أحدهم ليفتى فى مسئلة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزهدا فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة (٢) » وقيل العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين أوعالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون وكان يقال مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يغترف منها ومثل بشر بن الحرث مثل بئر عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد وكانوا يقولون فلان عالم وفلان متكلم وفلان أكثر كلاما وفلان أكثر عملا وقال أبو سليمان المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل إذا كثر العلم قل الكلام وإذا كثر الكلام قل العلم وكتب سلمان إلى أبى الدرداء رضى الله عنهما وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) : ياأخى بلغنى أنك قعدت طبيبا تداوى المرضى فانظر فان كنت طبيبا فتكلم فان كلامك شفاء وإن كنت متطبيا فالله الله لاتقتل مسلما فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول سلوا مولانا الحسن وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا سئل يقول سلوا حارثة بن زيد وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابى فى حضرة الحسن عشرين حديثا فسئل عن تفسيرها فقال ماعندى إلا مارويت فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثا حديثا فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه فأخذ الصحابى كفا من حصى ورماهم به وقال تسألونى عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم . ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فان المجاهدة تفضى إلى المشاهدة ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب وأما الكتب والتعليم فلا تفى بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال

(١) حديث كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة الحديث الترمذى وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال الترمذى حديث غريب (٢) حديث إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزهدا الحديث ابن ماجه من حديث ابن خلاد باسناد ضعيف (٣) حديث مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء البخارى من حديث أبى جحفة .

ويقدسونه وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ثم التخطى منها إلى معرفة الخالق لكل والمالك لجميع والقادر على كل شئ فتشاهم الأنوار المحرقة ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ويحبون حيث غاب أهل الدعوى ويبصرون ماعمى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى . والحال منزلة العبد فى الحين فيصفو له فى الوقت حاله ووقته وقيل هو ما يتحول فيه العبد ويتغير مما يرد على قلبه فاذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال وقال بعضهم الحال لا يزول فاذا زال لم يكن حالا . والمقام هو الذى يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات فمتى أقيم العبد بشئ منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينتقل منه إلى غيره

الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم(1) » وفي بعض الكتب السالفة يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به إلى الأرض ولا في تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به ، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا لي بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء ثم تلا قوله تعالى ـ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ـ الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال ﷺ « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به(2) » الحديث فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه وكذلك في علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه وإنما يخوضه كل طالب بقدر ما رزق منه وبحسب ما وفق له من حسن العمل وفي وصف هؤلاء العلماء قال علي رضي الله عنه في حديث طويل القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير والناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزكو على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق والعلم دين يدان به تكتسب به الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته العلم حاكم والمال محكوم عليه ومنفعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر ثم تنفس الصعداء وقال هاه إن ههنا علما جما لو وجدت له حملة بل أجد طالبا غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه أو منقادا لأهل الحق لكن ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك أو منهوما باللذات سلس القياد في طلب الشهوات أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقادا لهواه أقرب شبها بهم الأنعام السائمة اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وكم وأين أولئك هم الأقلون عددا الأعظمون قدرا أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمناؤه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال واشوقاه إلى رؤيتهم

(1) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه (2) حديث لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كنت سمعه وبصره وهو في الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف.

والمكان هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية فإذا كمل العبد في معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم :

مكانك من قلبي هو القلب كله
فليس لشيء فيه غيرك موضع

والشطح كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظا والطوالع أنوار التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها فيطمس سلطان نورها الألوان كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب والذهاب هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها . والنفس روح سلطه الله على نار القلب ليطفئ شرها والسر ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق وسر السر ما لا يحس به السر . والسر ثلاثة

فهذا الذى ذكره أخيرا هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذى يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة . ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فان اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليقين الإيمان كله(١) » فلابد من تعلم علم اليقين أعنى أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين(٢) » ومعناه جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين فقال صلى الله عليه وسلم : مامن آدمى إلا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة(٣) » ولذلك قال ﷺ « إن من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال مافاته من قيام الليل وصيام النهار(٤) » وفى وصية لقمان لابنه يابنى لايستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه وقال يحيى بن معاذ إن للتوحيد نورا وللشرك نارا وان نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين وأراد به اليقين وقد أشار الله تعالى فى القرآن إلى ذكر الموقنين فى مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات . فان قلت فما معنى اليقين وما معنى قوته وضعفه فلابد من فهمه أولا ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فان ما لاتفهم صورته لا يمكن طلبه فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء له أربع مقامات : الأول أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك كما إذا سئلت عن شخص معين أن الله تعالى يعاقبه أم لا وهو مجهول الحال عندك فان نفسك لا تميل إلى الحكم فيه باثبات ولا نفى بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكا . الثانى أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بامكان نقيضه ولكنه إمكان لايمنع ترجيح الأول كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لومات على هذه الحالة هل يعاقب فان نفسك تميل إلى أنه لايعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب فى باطنه وسريرته فهذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه فهذه الحالة تسمى ظنا . الثالث أن تميل النفس إلى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز وهذا يسمى اعتقادا مقاربا لليقين وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها إذ ارسخ فى نفوسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله . الرابع المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لايشك فيه ولا يتصور الشك فيه فاذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينا

(١) حديث اليقين الإيمان كله البيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن (٢) حديث تعلموا اليقين أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلا وهو معضل ورواه ابن أبى الدنيا فى اليقين من قول خالد بن معدان (٣) حديث قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أنس بإسناد مظلم (٤) حديث من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث لم أقف له على أصل وروى ابن عبدالبر من حديث معاذ ما أنزل الله شيئا أقل من اليقين ولاقسم شيئا بين الناس أقل من الحلم الحديث .

سر العلم وسر الحال وسر الحقيقة فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة . والوصل إدراك الفائت . والفصل فوت ماترجوه من محبوبك . والأدب ثلاثة : أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة والثانى أدب الخدمة وهو التشمر عن العلامات والتجرد عن الملاحظات . والثالث أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة . والرياضة اثنان رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ورياضة الطلب وهو صحة المراد والتحلى التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال . والتخلى اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق والتجلى هو ما ينكشف للقلوب من أنوار

عند هؤلاء ومثاله أنه إذا قيل للعاقل هل في الوجود شيء هو قديم فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فانه يصدق بوجودهما بالحس وليس العلم بوجود شيء قديم أزلي ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال فان هذا أيضا ضروري فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزما ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فان كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال فالمؤدى إلى المحال محال فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة فان كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم وإن كان الكل حادثا فهو محال إذ يؤدى إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينا عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر كالعلم بوجود مكة أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقينا عند هؤلاء وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نفي الشك . الاصطلاح الثاني اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل حتى يقال فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه ويقال فلان قوى اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع سمى ذلك يقينا ولا شك في أن الناس مشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به ، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعا لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ولذلك قال بعضهم ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ونحن إنما أردنا بقولنا إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعا وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها فاذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام بالقوة والضعف والكثرة والقلة والخفاء والجلاء فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثاني وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب ودرجات معاني اليقين في القوة والضعف لا تتناهى وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني وأما التفاوت بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضا أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر ، أعني الاصطلاح الثاني وفيما انتفى الشك أيضا عنه لا سبيل إلى إنكاره فانك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلا وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لا تشك في الأمرين جميعا فمستندهما جميعا التواتر ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني لأن السبب في أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة فانه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة

الغيوب والعلة تنبه عن الحق والانزعاج انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة . والمشاهدة ثلاثة مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ومشاهدة للحق وهي رؤية الحق في الأشياء ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب . والمكاشفة أتم من المشاهدة وهي ثلاثة مكاشفة بالعلم وهي تحقيق الاصابة بالفهم ومكاشفة بالحال وهي تحقيق رؤية زيادة الحال ومكاشفة بالتوحيد وهي تحقيق صحة الاشارة . واللوائح ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها . والتلوين تلوين العبد في أحواله وقالت طائفة علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة وقال آخرون علامة الحقيقة التلوين

متعلقات اليقين كما يقال فلان أكثر علما من فلان أى معلوماته أكثر ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين في جميع ماورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه . فان قلت قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وجلاءه وخفاءه بمعنى نفى الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفيما ذا يطلب اليقين فانى مالم أعرف مايطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه . فاعلم أن جميع ماورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين فان اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقه المعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحصائها ولكنى أشير إلى بعضها وهى أمهاتها فمن ذلك التوحيد وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لاحكم لها فالمصدق بهذا موقن فان انتفى عن قلبه مع الايمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين فان غلب على قلبه مع الايمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم ونزل الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع فانه لايشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقنا بالمعنى الثانى وهو الاشراف وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقنا بريئا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق فهذه أحد أبواب اليقين ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى ـ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ـ واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ماقدّر له سيساق إليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملا فى الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على مافاته وأثمر هذا اليقين أيضا جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة . ومن ذلك أن يغلب على قلبه أنّ من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع ونسبة المعاصى إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعى إلى الهلاك فكما يحرص على التحصيل للخبز طلبا للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصى قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثانى فيختص به المقربون وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة فى الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة فى التقوى والتحرز عن كل السيئات وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ . ومن ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك فى كل حال ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك وأما بالمعنى الثانى وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصدّيقون وثمرته أن يكون الانسان فى خلوته متأدبا فى جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فانه لايزال مطرقا متأدبا فى جميع أعماله متماسكا محترزا عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون فى فكرته الباطنة كهو فى أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته فى عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكالئة أشد من مبالغته فى تزيين ظاهره لسائر الناس وهذا المقام فى اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة فاليقين فى كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق فى القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه وسيأتى ذلك فى ربع

لأنه يظهر فيه قدرة القادر فيكسب منه العبد الغيرة . والغيرة غيرة فى الحق وغيرة على الحق وغيرة من الحق فالغيرة فى الحق برؤية الفواحش والمناهى وغيرة على الحق هى كتمان السرائر والغيرة من الحق ضنه على أوليائه . والحرّية إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبدا وعند غيره حرّا . واللطيفة إشارة دقيقة المعنى تلوح فى الفهم ولا يسعها العبارة . والفتوح ثلاثة فتوح العبادة فى الظاهر وذلك سبب إخلاص القصد وفتوح الحلاوة فى الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق . والوسم والرسم معنيان يجريان فى الأبد بما جريا فى الأزل . والبسط عبارة عن حال الرجاء والقبض عبارة عن حال الخوف . والفناء فناء المعاصى ويكون فناء رؤية العبد لفعله

المنجيات إن شاء الله تعالى وهذا القدر كاف فى معنى اللفظ الآن . ومنها أن يكون حزينا منكسرا مطرقا صامتا يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته لاينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى وكانت صورته دليلا على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذلة والتواضع وقد قيل ما ألبس الله عبدا لبسة أحسن من خشوع فى سكينة فهى لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء وأما التهافت فى الكلام والتشدق والاستغراق فى الضحك والحدة فى الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التسترى رحمه الله عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله وهم المفتون فى الحلال والحرام وهذا العلم لايورث الخشية وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه وقال عمر رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولاتكونوا من جبابرة العلماء فلايقوم علمكم بجهلكم ويقال ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا فذلك هو العلم النافع وفى الأثر من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين وفى الخبر « إن من خيار أمتى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة(١) » وقال الحسن الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله وقال بشر بن الحرث من طلب الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فانه ممقوت فى السماء والأرض ويروى فى الاسرائيليات أن حكيما صنف ثلثمائة وستين مصنفا فى الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقا ولم تردنى من ذلك بشىء وإنى لاأقبل من نفاقك شيئا فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة ومشى فى الأسواق ووا كل بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له الآن وفقت لرضاى . وحكى الأوزاعى رحمه الله عن بلال بن سعد أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيذ بالله منه وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطى وروى أنه قيل « يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله تعالى قيل فأى الأصحاب خير قال ﷺ صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيته ذكرك قيل فأى الأصحاب شر قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن نسيت لم يذكرك وإن ذكرت لم يعنك قيل فأى الناس أعلم قال أشدهم لله خشية قيل فأخبرنا بخيارنا نجالسهم قال صلى الله عليه وسلم الذين إذا رؤوا ذكر الله قيل فأى الناس شر قال اللهم غفرا قالوا أخبرنا يارسول الله قال العلماء إذا فسدوا(٢) »

---

(١) حديث إن من خيار أمتى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه الحديث الحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان (٢) حديث قيل يارسول الله أى الأعمال أفضل قال اجتناب المحارم ولايزال فوك رطبا من ذكر الله الحديث لم أجده هكذا بطوله وفى زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلا سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل قال أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى وللدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء وقد تقدم .

بقيام الله تعالى على ذلك . والبقاء بقاء الطاعات ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شىء والجمع التسوية فى أصل الخلق وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق والتفرقة إشارة إلى اللون والخلق فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى سبحانه ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر وإذا جمع بينهما فقد وجد . عين التحكم إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط فى الدعاء . والزوائد زيادات الإيمان بالغيب واليقين والإرادات ثلاثة إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع التمنى وإرادة الحظ منه وذلك موضع الطمع وإرادة الله سبحانه وذلك موضع الإخلاص والمريد هو الذى صح له الابتلاء ودخل فى جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر الناس أمانا يوم القيامة أكثرهم فكرا فى الدنيا وأكثر الناس ضحكا فى الآخرة أكثرهم بكاء فى الدنيا وأشد الناس فرحا فى الآخرة أطولهم حزنا فى الدنيا[1] » وقال على رضى الله عنه فى خطبة له ذمتى رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش علما أغار به فى أغباش الفتنة سماه أشباه له من الناس وأرذالهم عالما ولم يعش فى العلم يوما سالما بكر واستكثر فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلما لتخليص ما التبس على غيره فإن نزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيه حشو الرأى فهو من قطع الشبهات فى مثل نسج العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب ركاب جهالات خباط عشوات لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم تبكى منه الدماء وتستحل بقضائه الفروج الحرام لا ملىء والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوض إليه أولئك الذين حلت عليهم الثلات وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا وقال على رضى الله عنه إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب وقال بعض السلف العالم إذا ضحك ضحكة مج من العلم مجة وقيل إذا جمع المعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم الصبر والتواضع وحسن الخلق وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المعلم العقل والأدب وحسن الفهم وعلى الجملة فالأخلاق التى وردبها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة وقال ابن عمر رضى الله عنهما لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده ينثره نثر الدقل[2] ، وفى خبر آخر بمثل معناه كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وسيأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا فذلك حظهم[3] وفى لفظ آخر أولئك شرار هذه الأمة وقيل خمس من الأخلاق هى من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد فأما الخشية فمن قوله تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ وأما الخشوع فمن قوله تعالى ـ خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ـ وأما التواضع فمن قوله تعالى ـ واخفض جناحك للمؤمنين ـ وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى ـ فبما رحمة من الله لنت لهم ـ وأما الزهد فمن قوله تعالى ـ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ـ « ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ـ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ـ فقيل له ما هذا الشرح فقال إن النور إذا قذف فى القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل فهل لذلك من علامة قال صلى الله عليه وسلم نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله[4] » . ومنها أن يكون

والمراد هو العارف الذى لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات. والهمة ثلاثة : همة منية وهى تحرك القلب للمنى وهمة إرادة وهى أول صدق المريد وهمة حقيقة القصود عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل فإن الأمر إد والخطب جد والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سد وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا فصار يرى المعروف

(١) حديث إن أكثر الناس أمنا يوم القيامة أكثرهم خوفا فى الدنيا الحديث لم أجد له أصلا (٢) حديث ابن عمر لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقى (٣) حديث كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن الحديث ابن ماجه من حديث جندب مختصرا مع اختلاف (٤) حديث لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ـ الحديث الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن مسعود .

أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر فإن أصل الدين التوقي من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لايعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنما الشأن في معرفة لايفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضية ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تقع أبدا وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ويتركون مايلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجزاؤه من الله أن لاينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على مايشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضي الله عنهم أتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة في شهوات النفس وقد قيل له ياأباسعيد إنك تتكلم بكلام لايسمع من غيرك فمن أين أخذته قال من حذيفة بن اليمان وقيل لحذيفة نراك تتكلم بكلام لايسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته قال خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه (١) وقال مرة فعلمت أن من لايعرف الشر لايعرف الخير وفي لفظ آخر كانوا يقولون يارسول الله مالمن عمل كذا وكذا يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول يارسول الله مايفسد كذا وكذا فلما رآني أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم وكان حذيفة رضي الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضي الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم ولايخبر بأسمائهم وكان عمر رضي الله عنه يسأله عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق فبرأه من ذلك وكان عمر رضي الله عنه إذا دعي إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك وكان يسمى صاحب السر فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساعي إلى قرب الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد وقيل هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد
والناس في غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق

منكرا والنكر معروفا حتى ظل علم الدين مندرسا ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمسا ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهات إلى الغلبة والإفحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام فأما علم طريق الآخرة هو مادرج عليه السلف الصالح وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام والغربة ثلاثة : غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة . والاصطلام : نعت وله يرد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها . والسكر ثلاثة : سكر عموم وهو الظاهر في بعض الأحوال

(١) حديث حذيفة كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر الحديث أخرجاه مختصرا .

المذمومة فان ذلك نزع للروح على الدوام وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت ومتى تكثر الرغبة في هذا الطريق ولذلك قيل إنه كان في البصرة مائة وعشرون متكلما في الوعظ والتذكير ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم سهل التستري والصبيحي وعبد الرحيم وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذي لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يبذل للعموم فأمره قريب . ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله وإنما يقلد الصحابة رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول فينبغي أن يكون حريصا على فهم أسراره فان المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله وفعله لابد وأن يكون لسر فيه فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فانه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما ولذلك كان يقال فلان من أوعية العلم فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعا مقلدا فلا ينبغي أن يقلد غيره ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما مامن أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبي بن كعب ثم خالفهما في الفقه والقراءة جميعا . وقال بعض السلف ماجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وماجاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم فنأخذ منه ونترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أمورا أدركت بالقرائن فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليدا غير مرضي فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجلة التابعين رضي الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا احفظوا كما كنا نحفظ ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم تصحيف القرآن في مصحف وقالوا كيف نفعل شيئا مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم حتى أشار عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفا من تخاذل الناس وتكاسلهم وحذرا من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من المتشابهات فانشرح صدر أبي بكر رضي الله عنه لذلك فجمع القرآن من مصحف واحد وكان

(١) حديث ابن عباس مامن أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبراني من حديثه يرفعه بلفظه من قوله ويدع .

ومكر خصوص وهو في سائر الأحوال ومكر خفي في إظهار الآيات والكرامات. والرغبة ثلاثة : رغبة النفس في الثواب ورغبة القلب في الحقيقة ورغبة السر في الحق. والرهبة: رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق. والوجد: مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده والوجود: تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندهم . وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال الوجد ماتطلبه فتجده بكسبك واجتهادك والوجود ماتجده من الله الكريم والوجد عن غير تمكين والوجود مع التمكين والتواجد : استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد (القاعدة) وأما القاعدة التي ينبني عليها هذا الفن بأسره فذلك اجتذاب أرواح المعاني والاشارة إلى البعد في القرب قصد الاستدلال بالأقوال

أحمد بن حنبل ينكر على مالك فى تصنيفه الموطأ ويقول ابتدع مالم تفعله الصحابة رضى الله عنهم وقيل أول كتاب صنف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة . ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن جمع فيه سننا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثورى ، ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض فى الجدال والغوص فى إبطال المقالات ، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين فى الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون فصار يسمى المجادل المتكلم عالما والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لايتميز لهم حقيقة العلم من غيره ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطويا وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم فلان أعلم أم فلان يقولون فلان أكثر علما وفلان أكثر كلاما فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام هكذا ضعف الدين فى قرون سالفة فكيف الظن بزمانك هذا وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الانكار يستهدف لنسبته إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الانسان بنفسه ويسكت . ومنها أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم وليكن حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همهم أكان فى التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم فى العشرة أم كان فى الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الاثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن . واعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين ولذلك قال على رضى الله عنه خيرنا أتبعنا لهذا الدين لما قيل له خالفت فلانا فلا ينبغى أن يكترث بمخالفة أهل العصر فى موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الناس رأوا رأيا فيما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادّعوا أنه لاسبيل إلى الجنة سواه ولذلك قال الحسن محدثان أحدثا فى الإسلام رجل ذو رأى سيء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوهما إلى النار وإن رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه وصاحب هوى يدعوه إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحنّ إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتفى آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومسندا أنه قال « إنما هما اثنتان الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله تعالى ، وأحسن الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فان شر الأمور محدثاتها ، وان كل محدثة بدعة ، وان كل بدعة ضلالة ، ألا لايطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، ألا كل ماهو آت قريب ، ألا إن البعيد ماليس بآت [1] »

(١) حديث ابن مسعود إنما هما اثنتان الكلام والهدى الحديث ابن ماجه .

والأعمال والأحوال على الله تعالى قصدا ذاتيا لاعلى ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ومعرفة العلوم فى الانصراف ومصاحبة القدر بالمساعدة وبالمعروف ومعاطاة الوجودات الخمس : الذاتى والحسى والخيالى والعقلى والشبهى حسبما فهم من الشرع وثبت معناه فى المحفوظ من الوحى وقلما أدرك شيء من العجز والعلم لاينال براحة الجسم ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا (والوصية) أيها الطالب للعلوم والناظر فى التصانيف والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ولله وفى الله لأنه إن لم يكن

وفى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالط أهل الفقه والحكم وجانب أهل الزلل والمعصية طوبى لمن ذل فى نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة(١) » وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول حسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل وقال أنتم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات وقد صدق فمن لم يتوقف فى هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا وقال حذيفة رضى الله عنه أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به ولقد صدق فإن أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة رضى الله عنهم إذ من غرر المعروفات فى زماننا تزيين المساجد وتنجيدها وانفاق الأموال العظيمة فى دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها ولقد كان يعد فرش البوارى فى المسجد بدعة وقيل إنه من محدثات الحجاج فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات وقد كان من المنكرات ومن ذلك التلحين فى القرآن والأذان ومن ذلك التعسف فى النظافة والوسوسة فى الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة فى نجاسة الثياب مع التساهل فى حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال أنتم اليوم فى زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى وقد كان أحمد بن حنبل يقول تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم فيهم والله المستعان وقال مالك بن أنس رحمه الله لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه ومعناه أنهم كانوا ينظرون فى دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان فحشه ظاهرا وكان هشام بن عروة يقول لا تسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قد أعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله يقول لا ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر فيحمد الله تعالى إذ وافق ما فى نفسه وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار ولهذا لما أحدث مروان المنبر فى صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه فقال يا مروان ما هذه البدعة فقال إنها ليست ببدعة إنها خير مما تعلم إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت فقال أبو سعيد والله لا تأتون بخير مما أعلم أبدا والله لا صليت وراءك اليوم وإنما أنكر ذلك عليه « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر(٢) »

(١) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالا اكتسبه الحديث أبو نعيم من حديث الحسين بن على بسند ضعيف والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره والطبرانى والبيهقى من حديث ركب المصرى وسط الحديث وكلها ضعيفة (٢) حديث كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا الطبرانى من حديث البراء ونحوه فى يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ورواه فى الصغير من حديث سعد القرظى كان إذا خطب فى العيدين خطب على قوس وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا وهو عند ابن ماجه بلفظ كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس الحديث

نظرك به وكلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره من فهم أو علم أو حفظ أو إمام متبع أو صحة ميز أو ما شاكل ذلك وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ونكصت على عقبيك وخسرت فى الدارين صفقتك وعاد كل هول عليك فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ولاحظت بالحقيقة سواه ورؤية غيره دونه تعمى القلب وتهتك الستر وتحجب اللب وإذا نظرت فى كلام أحد من الناس ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن يستغنى عنه فى الظاهر وله إليه كثير حاجة فى الباطن ولا تقف به حيث وقف به كلامه فالمعانى أوسع من العبارات والصدور أفسح من الكتب المؤلفات وكثير علم مما

وفى الحديث المشهور «من أحدث فى ديننا ماليس منه فهو رد»(١) وفى خبر آخر «من غش أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين قيل يارسول الله وماغش أمتك قال أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها»(٢) وقال رسول الله ﷺ «إن لله عز وجل ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته»(٣) ومثال الجانى على الدين بابداع مايخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك فى قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره فى خدمة معينة وذلك قد يغفر له فأما قلب الدولة فلا وقال بعض العلماء ماتكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وماسكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف وقال غيره الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ويرتفع إليه التالى »(٤) وقال ابن عباس رضى الله عنهما الضلالة لها حلاوة فى قلوب أهلها قال الله تعالى ـ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ـ وقال تعالى ـ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ـ فكل ماأحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده فى وقت الصحابة رضى الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال ماشأنكم قالوا مارأينا مثل هؤلاء مانصيب منهم شيئا وقد أتعبونا فقال إنكم لاتقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا مارأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشئ بعد الشئ من الذنوب فاذا كان آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات فقال إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم إن استغفروا لم يغفر لهم ولايتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات قال فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها دينا لايستغفرون الله منها ولايتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاءوا. فان قلت من أين عرف قائل هذا ماقاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولاحدثه بذلك فاعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لايعلمون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة فى اليقظة على سبيل كشف المعانى بمشاهدة الأمثلة كما يكون فى المنام وهذا أعلى الدرجات وهى من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة فاياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ماجاوز حد قصورك ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجا عن الدين بالكلية قال بعض العارفين إنما انقطع الأبدال فى أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لايطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء قال سهل التسترى رضى الله عنه إن من أعظم المعاصى الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة وكل عالم خاض فى الدنيا فلاينبغى أن يصغى إلى قوله بل ينبغى أن يتهم

لم يعبر عنه واطمح بنظر قلبك فى كلامه إلى غاية مايحتمل فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصده ولا تقطع له بصحة ولا تحكم عليه بفساد وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه حتى يزول الإشكال عنك بما تتيقن من معانيه وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة واطلب المعاذير للسيئة ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ماتجده ولا تعجل على أحد بالتخطئة ولاتبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر فلكل عالم عورة وله فى بعض مايأتى به احتجاج وناهيك ماجرى بين ولى الله تعالى الخضر وكليمه موسى على نبينا وعليهما السلام وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن فى الظاهر بمحال أو اختلال فخذ ماظهر لك عليه ودع ما اعتاص عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله

(١) حديث من أحدث فى ديننا ماليس فيه فهو رد متفق عليه من حديث عائشة بلفظ فى أمرنا ماليس منه وعند أبى داود فيه (٢) حديث من غش أمتى فعليه لعنة الله الحديث الدارقطنى فى الافراد من حديث أنس بسند ضعيف جدا (٣) حديث إن لله ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته لم أجد له أصلا (٤) حديث عليكم بالنمط الأوسط الحديث أبو عبيد فى غريب الحديث موقوفا على على بن أبى طالب ولم أجده مرفوعا .

في كل مايقول لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ويدفع مالا يوافق محبوبه ولذلك قال الله عز وجل ـ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ـ والعوام العصاة أسعد حالا من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء لأن العامي العاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ماهو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر بل لا يزال مستمرا عليه إلى الموت وإذا غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لذى الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم كما سيأتي في كتاب العزلة بيانه إن شاء الله تعالى ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي ماظنك بمن بقي لا يجد أحدا يذكر الله تعالى معه إلا كان آثما أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علما أو يستفيده ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معينا له على ذلك وردءا وظهيرا ومهيئا لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ولذلك لا يرخص له في البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف فكن أحد رجلين إما متصفا بهذه الصفات أو معترفا بالتقصير مع الاقرار به وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين نعوذ بالله من خدع الشيطان فبها هلك الجمهور فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور .

الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ماهو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الانسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الشيخ في قومه كالنبي في أمته (١)» وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل فشرف العقل مدرك بالضرورة وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه الله نورا في قوله تعالى ـ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ـ وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى ـ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ـ وقال سبحانه ـ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به

الباب السابع في العقل

(١) حديث الشيخ في قومه كالنبي في أمته ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي عن حديث أبي رافع بسند ضعيف .

عزوجل" فهذه وصيتي لك فاحفظها وتذكيري إياك فلا تذهل عنه :

اسمع وصيتي إن تحفظ حظيت بها
وإن تخالف فقد يردى بك الخالف

وأزيدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء لكي يعرف أهل الحقيقة من غيرهم فلك في ذلك أكبر منفعة ولي في وصفهم أبلغ غرض قال علماؤنا : العلماء ثلاثة حجة وحجاج ومحجوج فالحجة عالم بالله وبأمره وبآياته مهتما بالخشية لله سبحانه والورع في الدين والزهد في الدنيا والإيثار لله عز وجل المستقيم والحجاج مدفوع إلى إقامة الحجة وإطفاء نار البدعة قد أخرس المتكلمين وأفحم المتخرصين برهانه ساطع وبيانه قاطع وحفظه ماينازع شواهده بينة ونجومه نيرة قد حمى صراط الله المستقيم والمحجوج عالم بالله وبأمره وبآياته

فى الناس وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله ـ يخرجهم من الظلمات إلى النور ـ وقال صلى الله عليه وسلم « ياأيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر دنىء المنزلة رثّ الهيئة وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحا نطوقا فالقردة والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا إياكم فإنهم من الخاسرين[1] » . وقال ﷺ « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال الله عز وجل وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم علىّ منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب[2] » فإن قلت فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام وإن كان جوهرا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز . فاعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة وعن أنس رضى الله عنه قال « أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل فقالوا نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال ﷺ : إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم[3] » . وعن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله[4] » وقال ﷺ « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس[5] » وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار فى النار ـ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير[6] » وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدارى « ما السودد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله ﷺ كما سألتك فقال كما قلت ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما السودد فقال العقل[7] » وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن لكل شىء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا[8] »

---

(١) حديث يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل الحديث داود بن المحبر أحد الضعفاء فى كتاب العقل من حديث أبى هريرة وهو فى مسند الحرث بن أبى أسامة عن داود (٢) حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل الحديث الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين (٣) حديث أنس أثنى قوم على رجل عند النبى ﷺ حتى بالغوا فى الثناء فقال كيف عقل الرجل الحديث ابن المحبر فى العقل بتمامه والترمذى والحكيم فى النوادر مختصرا (٤) حديث عمر ما اكتسب رجل مثل فضل عقل الحديث ابن المحبر فى العقل وعنه الحرث بن أبى أسامة (٥) حديث إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله الحديث ابن المحبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذى مختصر دون قوله ولا يتم من حديث عائشة وصححه (٦) حديث أبى سعيد لكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله الحديث ابن المحبر وعنه الحرث (٧) حديث عمر أنه قال لتميم الدارى ما السودد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث ابن المحبر وعنه الحرث (٨) حديث البراء كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شىء مطية الحديث ابن المحبر وعنه الحرث .

ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه وحجبه عن الورع والزهد فى الدنيا والرغبة والحرص وبعده من بركات علمه محبة العلوّ والشرف وحوف السقوط والفقر فهو عبد لعبيد الدنيا خادم لخدمها مفتون بعد علمه مغترّ بعد معرفته مخذول بعد نصرته شأنه الاحتقار لنعم الله والازدراء لأوليائه والاستخلاف بالجهال من عباده وفخره بلقاء أميره وصلة سلطانه وطاعة القاضى والوزير والحاجب له قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه والاتباع له ومن يكون بعده قدوة به ومراده من الدنيا مثله فى مثل هذا ضرب الله المثل حين قال ـ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون فلان أشجع من فلان وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فلا علم لكم به قالوا وكيف ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فاذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم(١) » وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا(٢) » وعن عائشة رضي الله عنها قالت « قلت يا رسول الله بما يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل قلت وفي الآخرة قال بالعقل قلت أليس إنما يجزون بأعمالهم فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون(٣) » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعي العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه ويذكرون به العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل(٤) » وقال ﷺ « إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أتمكم عقلا أشدكم لله تعالى خوفا وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرا وإن كان أقلكم تطوعا(٦) »

(بيان حقيقة العقل وأقسامه)

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة وما يجرى هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه . فالأول : الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحرث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فان الغافل عن

(١) حديث أبي هريرة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان الحديث ابن المحبر (٢) حديث البراء بن عازب جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل الحديث ابن المحبر كذلك وعنه الحارث في مسنده ورواه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذي رواه ابن المحبر (٣) حديث عائشة قلت يا رسول الله بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل الحديث ابن المحبر والترمذي الحكيم في النوادر نحوه (٤) حديث ابن عباس لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل الحديث ابن المحبر وعنه الحارث (٥) حديث إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله الحديث ابن المحبر من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس باسناد آخر ضعيف (٦) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا الحديث ابن المحبر من حديث أبي قتادة .

عليه يلهث أو تتركه يلهث فويل لمن صحب مثل هذا في دنياه وويل لمن تبعه في دينه وهذا هو الذي أكل بدينه غير منصف لله سبحانه في نفسه ولا ناصح له في عباده تراه إن أعطي من الدنيا رضي بالمدحة لمن أعطاه وإن منع وش بالذم لمن منعه وقد نسي من قسم الأرزاق وقدر الأقدار وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الضلالة بعد الهدى وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذي نحن فيه فقصدي أن يعلم من ذهب من الناس ومن بقي ومن أبصر الحقائق ومن عمي ومن اهتدى على الصراط المستقيم ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة :

العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو جاز أن يسوى بين الانسان والحمار في الغريزة والادراكات الحسية فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الانسان علوما وليس يخلقها في الحمار والبهائم لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد في الحياة ويقال لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة فانه لو قدر الحمار جمادا ميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقته للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذا مفارقة الانسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة . الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو أيضا صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلا ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال موجود إلا هذه العلوم . الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فان من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا . الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فاذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه أيضا من خواص الانسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان فالأول هو الأس والسنخ والمنبع والثاني هو الفرع الأقرب إليه والثالث فرع الأول والثاني إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب والرابع هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب ولذلك قال علي كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « ماخلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل (١) » والأخير هو المراد بقوله ﷺ « إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك (٢) » وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء رضي الله عنه « ازدد عقلا تزدد من ربك قربا فقال بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك فقال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل في آجل العقبى بها من ربك

(١) حديث ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة (٢) حديث إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك أبو نعيم في الحلية من حديث علي إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب وإسناده ضعيف .

غاب الذين إذا ما حدثوا صدقوا
وظنهم كيقين إن هم حدسوا
وذلك لما سبق في القضاء من ظهور الفساد وعدم أهل الصلاح والرشاد نعم وعدم الصنف الثالث على غربته وأعز شيء على وجه الأرض وفي الغالب ما يقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى وحماقة واجتراء وعجب بغير فضيلة ورياء يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد وأرسان العوام وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق وأخدان لعوائد السوء وعنهم يردعتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الارادة والدين :
مثل البهائم جهال بخالقهم
لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا
كل يروم على مقدار حيلته

عز وجل القرب والعز(١) » وعن سعيد بن المسيب «أن عمر وأبيّ بن كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله من أعلم الناس فقال صلى الله عليه وسلم العاقل. قالوا فمن أعبد الناس قال العاقل قالوا فمن أفضل الناس قال العاقل قالوا أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته فقال صلى الله عليه وسلم وإن كل ذلك لما متاع الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين إنّ العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسا ذليلا (٢) » قال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته (٣) » ويشبه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك فى الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشىء بثمرته فيقال العلم هو الخشية والعالم من يخشى الله تعالى فان الخشية ثمرة العلم فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول والصحيح وجودها بل هى الأصل وهذه العلوم كأنها مضمنة فى تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشىء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت ومثاله الماء فى الأرض فانه يظهر بحفر البئر ويجتمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شىء جديد وكذلك الدهن فى اللوز وماء الورد فى الورد ولذلك قال تعالى – وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى – فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة فانهم انقسموا فى إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقرّ وإلى جاحد ولذلك قال تعالى – ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله – معناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم – فطرة الله التى فطر الناس عليها – أى كل آدمى فطر على الايمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ماهى عليه أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للادراك ثم لما كان الايمان مركوزا فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين إلى من أعرض فنسى وهم الكفار وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها ولذلك قال عز وجل – لعلهم يتذكرون . وليتذكر أولوا الألباب . واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر – وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد فكأن التذكر ضربان أحدهما أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه ولكن غابت بعد الوجود والآخر أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه (٤) السماع والتقليد دون الكشف والعيان ولذلك تراه يتخبط فى مثل هذه الآيات ويتعسف فى تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعا من التعسفات ويتخايل إليه فى الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهافت ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل دارا فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة فى الدار فيقول

(١) حديث ازدد عقلا تزدد من ربك قربا الحديث قاله لأبى الدرداء ابن المحبر ومن طريقه الحارث ابن أبى أسامة والترمذى الحكيم فى النوادر (٢) حديث ابن المسيب أن عمر وأبىّ بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله من أعلم الناس فقال العاقل الحديث ابن المحبر (٣) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدّق رسله وعمل بطاعته ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلا وفيه قصة .

(٤) قوله يستروجه : من الرواج أى يكون السماع والتقليد رائجا عنده فتأمل اه مصححه .

زوائد الأسد والنباحة الاهيثا

فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أيمانهم جنة فصدّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون .

أولو النفاق فان قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولنأخذ فى جواب ماسألت عنه على نحو مارغبت فيه واستوهب الله نفوذ البصيرة وحسن السريرة وغفران الجريرة وهو ربى ورب كل شىء وإليه المصير .

[ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة]

جرى الرسم فى الاحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيها لموافقة الغرض فى التمثيل به وذكرت أن المعترض وسوس أو بالخواطر هجس بأن لفظ التوحيد ينافى التقسيم إذ لا يخلو بأن يتعلق بوصف الواحد

مالهذه الأوانى لاترفع من الطريق وترد إلى مواضعها فيقال له إنها فى مواضعها وإنما الخلل فى بصرك فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر من عمى الفرس ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى ـ ما كذب الفؤاد مارأى ـ وقال تعالى ـ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ـ الآية وسمى ضده عمى فقال تعالى ـ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ وقال تعالى ـ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ـ وهذه الأمور التى كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه فهذه أقسام ماينطلق اسم العقل عليها .

(بيان تفاوت النفوس فى العقل)

قد اختلف الناس فى تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات فان من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم فى مكانين وكون الشىء الواحد قديما حادثا وكذا سائر النظائر وكل مايدركه إدراكا محققا من غير شك وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها . أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لاضعفا وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة وقد لايقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذا لم يكن طبيبا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ولكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له فى قمع الشهوات وكسرها وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصى وأعنى به العالم الحقيقى دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان فان كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا فانه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل فانها إذا قويت كان قمعها للشهوة لامحالة أشد وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لاينكر فانهم يتفاوتون بكثرة الاصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة وإما تفاوتا فى الممارسة فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة فالتفاوت فيه لاسبيل إلى جحده فانه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه ومبادى إشراقه عند سن التمييز ثم لايزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ومثاله نور الصبح فان أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عزوجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج فى الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لاتظهر فى الصبى عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج وكذلك جميع القوى والصفات ومن أنكر تفاوت الناس فى هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل ومن ظن أن عقل النبى ﷺ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادى فهو أخس فى نفسه من آحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس فى فهم العلوم

الذى ليس بزائد عليه فذلك لا ينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم فذلك أيضا لا ينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل وذلك لضيق المجال فيه ولهذا لايتصور فيه مذاهب وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين أحدهما الشرك والثانى الإلباس وكلا الطرفين كفر والوسط إيمان محض وهو أحد من السيف وأضيق من خط الظل ولهذا قال أكثر المتكلمين بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هى علومهم ومذهبهم فى ذلك معروف ونحن لانلم فى هذه الإجابة كلها بشىء من أنحاء الجدال ومقابلة الأقوال بالأقوال بل بقصد إزالة غير الإشكال

ولما انقسموا إلى بليد لايفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم كما قال تعالى ـ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور ـ وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم فى بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام وعن مثله عبر النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به[1] » وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحى الصريح الذى هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع ودرجات الوحى كثيرة والخوض فيها لايليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة ولاتظنن أن معرفة درجات الوحى تستدعى منصب الوحى إذ لايبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خاليا عنها فالعلم شىء ووجود المعلوم شىء آخر فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم وإلى من لايفهم إلا بتنبيه وتعليم وإلى من لاينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى مايجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا وإلى مايحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى مالا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض فى صفاتها فكذلك اختلاف النفوس فى غريزة العقل ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ماروى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت «يا ربنا هل خلقت شيئا أعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بلغ من قدره قال هيهات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل قالوا لا قال الله عز وجل فانى خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك[2] » فان قلت فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول . فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم فى التسمية إذ كان ذلك لا ينمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه فى القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم فأما نور البصيرة الباطنة التى بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه وإن ذم فما الذى بعده يحمد فان كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع فان علم بالعقل المذموم الذى لايوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما ولايلتفت إلى من يقول إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لابالعقل فانا نريد بالعقل مايريده بعين اليقين ونور الإيمان وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ فهذا القدر كاف فى بيان العقل والله أعلم .

---

(1) حديث إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه الحديث الشيرازى فى الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف

(2) حديث ابن سلام سئل النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يارب هل خلقت شيئا أعظم من العرش الحديث ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذى الحكيم فى النوادر مختصرا .

ورد ماطعن به أهل الضلال والإضلال . واعلم أن التقسيم على الاطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه ههنا بشىء قدح به للمعترض أو هجس به الخاطر وإنما المستعمل ههنا من أنحائه ماتميز به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال وكل حالة منها تسمى توحيدا على جهة تنفرد بها لايشاركها فيها غيرها فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحدا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه وان علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ماشرع فى الحكم ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ولا برهان يربط به سمى أيضا موحدا على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعى شافعيا والحنبلى حنبليا

تم

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا

بسم الله الرحمن الرحيم

(كتاب قواعد العقائد ، وفيه أربعة فصول)

الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة التى هى أحد مبانى الاسلام فنقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدىء المعيد الفعال لما يريد ذى العرش المجيد والبطش الشديد الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعرف إياهم أنه فى ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلى لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لا نهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . التنزيه : وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكين والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شىء شهيد إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس فى ذاته سواه ولا فى سواه ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار وإتماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم . الحياة والقدرة : وأنه تعالى حى قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون فى قبضته وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته . العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بل

ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده وسعى من أجلسه بشكوكه العارضة له فيسمى موحدا لأنه عارف به يقال جدلى ونحوى وفقيه ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو . وأما من استغرق علم التوحيد قلبه واستولى على جملته حتى لا يجد فيه فضلا لغيره إلا على طريق التبعية له ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالعادة فى سائر العلوم فهذا يسمى موحدا ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه . فأما الصنف الأول وهم أرباب النطق المفرد فلا يضربون فى التوحيد بسهم ولا يفوزون منه بنصيب ولا يكون لهم شىء من أحكام أهله فى الحياة إلا مادام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق للسانه كما يفرد القول

يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ويدرك حركة الذرّ فى جو الهواء ويعلم السرّ وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال . الارادة : وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شرّ نفع أو ضر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد لا رادّ لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوّة على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها مريدا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدّرها فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدّم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدّل ولا تغير دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن . السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام يرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق الكلام: وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو صطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق وأن موسى ﷺ سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرض وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والارادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرّد الذات. الأفعال: وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصوّر منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ولا يتصوّر الظلم من الله تعالى فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فكل ما سواه من إنس وجنّ وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان فى الأزل موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق فى الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطول بالانعام والاصلاح لا عن لزوم فله الفضل والاحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصوّر منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده

عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجلّ . وأما الصنف الثانى وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ يخبر عن توحيد الله عز وجلّ أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله الله النبىّ عنه فقبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل فنسبوا إلى التوحيد وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذى هو منهم وبمنزلة من كثر سواد قوم فهو منهم . وأما الصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها فرأوا على كل منها خطا منطبعا فيها ليس بعربى ولا سريانى ولا عبرانى ولا غير ذلك من أجناس الخطوط قادر إلى قراءة من لم يستعجم عليه وتعلمه منهم من استعجم عليه فاذا هو الخط الإلهى المكتوب على صفحة

فوجب

فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به . معنى الكلمة الثانية : وهى الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبي الأمىّ القرشىّ محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجنّ والانس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ماقرّره منها وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلا الله مالم تقترن بهاشهادة الرسول وهو قولك محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة وأنه لايتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوّله سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد فى قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك (١) وهما فتانا القبر (٢) وسؤالهما أول فتنة بعد الموت (٣) وأن يؤمن بعذاب القبر (٤) وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على مايشاء ، وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذرّ والخردل تحقيقا لتمام العدل وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله (٥) وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة تزلّ عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوى بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار (٦) وأن يؤمن بالحوض المورود

(١) حديث سؤال منكر ونكير الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أبى هريرة إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير وفى الصحيحين من حديث أنس إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه الحديث (٢) حديث إنهما فتانا القبر أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتانى القبر فقال عمر أترد علينا عقولنا الحديث (٣) حديث إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت لم أجده (٤) حديث عذاب القبر أخرجاه من حديث عائشة إنكم تفتنون أو تعذبون فى قبوركم الحديث ولهما من حديث أبى هريرة وعائشة استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر (٥) حديث الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طباق السموات والأرض البيهقى فى البعث من حديث عمر قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان الحديث وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأبى داود من حديث عائشة أما فى ثلاثة مواطن لايذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل زاد ابن مردويه فى تفسيره قالت عائشة أى حى قد علمنا الموازين هى الكفتان فيوضع فى هذه الشئ ويوضع فى هذه الشئ فترجح إحداهما وتخف الأخرى والترمذى وحسنه من حديث أنس واطلبنى عند الميزان ومن حديث عبد الله بن عمر فى حديث البطاقة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة الحديث وروى ابن شاهين فى كتاب السنة عن ابن عباس كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها (٦) حديث الايمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر الشيخان من حديث أبى هريرة ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم ولهما من حديث أبى سعيد ثم يضرب الجسر على جهنم زاد مسلم قال أبو سعيد إن الجسر أدق من الشعر وأحدّ من السيف ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقى فى الشعب والبعث من حديث أنس وضعفه وفى البعث من رواية عبيد بن عمير مرسلا ومن قول ابن مسعود الصراط كحدّ السيف وفى آخر الحديث مايدل على أنه مرفوع .

كل مخلوق المنطبع فيه من مركب ومفرد وصفة وموصوف وحى وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن ومظلم ونير وهو الذى يسمى تارة بعلامة وتارة بسمة وتارة بأثر القدرة وتارة بآية كما قال الشاعر ولاأدرى عن سماع أور ؤية قلب: وفى كلّ شئ له آية تدلّ على أنه واحد فلو قرءوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الارادة بما سبق فى ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير فتركوا الكتابة والمكتوب وترقوا إلى معرفة الكاتب الذى أحدث الأشياء وكونها ولايخرج عن ملكه شئ منها ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوّته ولا انتقلت إلى الحرية عن رقّ استعباده فوجدوه كما وصف نفسه ـ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ـ فخلصت لهم

حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط (١) من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء (٢) فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر (٣) وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش فى الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقرّبون فيسأل الله تعالى (٤) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين (٥) ويسأل المبتدعة عن السنة (٦) ويسأل المسلمين عن الأعمال (٧) وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد

(١) حديث الايمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون مسلم من حديث أنس فى نزول ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب وسهل بن سعد أنا فرطكم على الحوض ومن حديث ابن عمر أمامكم حوض كما بين جرباء وأذرح . وقال الطبرانى كما بينكم وبين جرباء وأذرح وهو الصواب وذكر الحوض فى الصحيح من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبى ذر وحابس بن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء (٢) حديث من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء من حديث عبد الله بن عمرو ولهما من حديث أنس فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء وفى رواية لمسلم أكثر من عدد نجوم السماء (٣) حديث فيه ميزابان يصبان من الكوثر مسلم من حديث ثوبان يغتّ فيه ميزابان يمدّانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق (٤) حديث الايمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش فى الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب البيهقى فى البعث من حديث عمر فقال يا رسول الله ما الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله الحديث وهو عند مسلم دون ذكر الحساب وللشيخين من حديث عائشة من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى ـ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ـ قال ذلك العرض ولهما من حديث ابن عباس عرضت علىّ الأمم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . ولمسلم من حديث أبى هريرة وعمران بن حصين يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب زاد البيهقى فى البعث من حديث عمرو بن حزم وأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر بعده هذه الزيادة فقال فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى هكذا وفرج عبد الرحمن بن أبى بكر بين يديه الحديث (٥) حديث سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين . البخارى من حديث أبى سعيد يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته الحديث . ولابن ماجه يجيء النبى يوم القيامة الحديث وفيه فيقال هل بلغت قومك الحديث (٦) حديث سؤال المبتدعة عن السنة ابن ماجه من حديث عائشة من تكلم بشئ من القدر سئل عنه يوم القيامة . ومن حديث أبى هريرة ما من داع يدعو إلى شئ إلا وقف يوم القيامة لازما لدعوة مادعا إليه وإن دعا رجل رجلا وإسنادها ضعيف (٧) حديث سؤال المسلمين عن الأعمال أصحاب السنن من حديث أبى هريرة إنّ أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته الحديث وسيأتى فى الصلاة .

التفرقة والجمع وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها باذنه وإيجاده عن غيره وعقلت أنها علقت توحيده فسبحان من يسرها لذلك وفتح عليها بما ليس فى وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير لكن الصنف الثالث لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موجدا لديه فيما لايزال وهم المقرّبون والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل وهم الصدّيقون وبينهما تفاوت كثير . وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان فى زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول علمها إليه أو فى فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا صنف مبعد عن مقام هذا

ف

في النار موحد(١) وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجلّ فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان(٢) وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم(٣) وأن يحسن الظنّ بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله عز وجلّ ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين(٤) فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

الفصل الثاني في وجه التدريج إلى الارشاد وترتيب درجات الاعتقاد . اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان فمن فضل الله سبحانه على قلب الانسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرّد والتقليد المحض نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار

(١) حديث إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله الحديث (٢) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء وقد تقدم في العلم وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدري من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه وفي رواية من خير وفيه فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط الحديث (٣) حديث أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي البخاري من حديث ابن عمر قال كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ولأبي داود كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم زاد الطبراني ويسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينكره (٤) حديث إحسان الظنّ بجميع الصحابة والثناء عليهم الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي وللشيخين من حديث أبي سعيد لا تسبوا أصحابي . وللطبراني من حديث ابن مسعود إذا ذكر أصحابي فأمسكوا .

الكلام وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا في عقده أو عالما به والمقلدون هم العوام وهم أهل المرتبة الثانية في الكتاب فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصنفه دون النبوّة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ فالذي لم يبلغ وكان على قرب هم المقرّبون وهم أهل المرتبة الثالثة والذين بلغوا الغاية التي أعدّت لهم وهم الصديقون وهم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والاثبات ومحصور بين البادي والغايات ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ودعوى غير صافية ثم لا بدّ من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث مزيد شرح وبسط بيان تعرف منه باذن الله حقيقة

العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم فى الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كالقاء بذر فى الصدر وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فان ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده ومايفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهى ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانا فناهيك بالعيان برهانا فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامى فى الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهى والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليدا كما تلقف نفس الاعتقاد تقليدا إذ لا فرق فى التقليد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شىء والاستدلال بالنظر شىء آخر بعيد عنه ثم الصبى إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ـ وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصديقين والمقربين وإليه الإشارة بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث فضل به الخلق وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفى الاستضاءة بنور اليقين وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه . مسئلة : فان قلت تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه فاعلم أن للناس فى هذا غلوا وإسرافا فى أطراف فمن قائل إنه بدعة وحرام وإن العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فانه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعى رضى الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمى المعتزلة يقول لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ماخلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه وقال أيضا قد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام . وحكى الكرابيسى أن الشافعى رضى الله عنه سئل عن شىء من الكلام فغضب وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله ولما مرض الشافعى رضى الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له من أنا فقال حفص الفرد لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه وقال أيضا لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له قال الزعفرانى قال الشافعى حكمى فى أصحاب

الكلام

كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجريه الواحد الحق على القلب واللسان

(بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم)

فأقول أرباب النطق المجرد أربعة أصناف أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لم يعتقدوا معنى ما نطقوا به لما لم يعلموه لا يتصورون صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه إما لبعد همتهم وقلة اكتراثهم وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به أو يبدو لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل وما بعد ذلك فان التزموها فارقوا راحات أبدانهم العاجلة وفراغ أنفسهم وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة من خوف

الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام وقال أحمد بن حنبل لايفلح صاحب الكلام أبدا ولاتكاد ترى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة وقال له ويحك ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث. وقال أحمد رحمه الله علماء الكلام زنادقة. وقال مالك رحمه الله أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت وقال مالك رحمه الله أيضا لاتجوز شهادة أهل البدع والأهواء فقال بعض أصحابه فى تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا وقال أبو يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق وقال الحسن لاتجادلوا أهل الأهواء ولاتجالسوهم ولاتسمعوا منهم وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولاينحصر مانقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ماسكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم «هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون[1]» أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم مايأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستنجاء[2]، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم[3] ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال أمسكوا[4] عن القدر، وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم وهم الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التى لم تعهدها الصحابة رضى الله عنهم فالأمر فيه قريب إذ مامن علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التى تورد على القياس لما كانوا يفقهونه فاحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كاحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها فى مباح وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لانعنى به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء فى الشرع فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء ومايفضى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لايمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى ـ قل هاتوا برهانكم ـ وقال عز وجل ـ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ـ وقال تعالى ـ قل هل عندكم من سلطان بهذا ـ أى حجة وبرهان وقال تعالى ـ قل فلله الحجة البالغة ـ وقال تعالى ـ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ـ إلى قوله ـ فبهت الذى كفر ـ إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه فى معرض الثناء عليه وقال عز وجل ـ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ـ وقال تعالى ـ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ـ وقال تعالى فى قصة فرعون ـ ومارب العالمين . إلى قوله ـ أولو

(١) حديث هلك المتنطعون مسلم من حديث ابن مسعود (٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء مسلم من حديث سلمان الفارسى (٣) حديث ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم ابن ماجه من حديث أبى هريرة تعلموا الفرائض وعلموها الناس الحديث والترمذى من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت (٤) حديث نهاهم عن الكلام فى القدر وقال أمسكوا . تقدم فى العلم .

عقاب ترك ما علموا لزومه ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه على مايغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة والأشربة والأنكحة أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها أو يرتكبها على رقبة وخوف أن يصيبه صورة مايسلم ضرورة منها فيدع قراءة الطب رأسا . سئل هذا الصنف عن معنى مانطقوا به هل اعتقدوه فيقولون لانعلم فيه مايعتقد وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير والانخراط باظهار القول فى الجم الغفير ولانعرف هل ماقلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ولا شك أن هذا الصنف الذى أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسئلة الملكين أحدهم فى القبر إذ يقولان من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لاأدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته

جئتك بشيء مبين ـ وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى ـ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ وفي النبوة ـ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ـ وفي البعث ـ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ـ إلى غير ذلك من الآيات والأدلة ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى ـ وجادلهم بالتي هي أحسن ـ فالصحابة رضي الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال ماتنقمون على إمامكم قالوا قاتل ولم يسب ولم يغنم فقال ذلك في قتال الكفار أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ماتستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب فقالوا لا فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان وروى أن الحسن ناظر قدريا فرجع عن القدر وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية وناظر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يزيد ابن عميرة في الإيمان قال عبد الله لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة فقال له يزيد بن عميرة ياصاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الايمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة فقال ابن مسعود صدقت والله إنها مني زلة فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة فيقال أما قلة خوضهم فيه فانه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وازالة الشبهة فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لامحالة إلزامهم وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا فان جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور إما ادخار ليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تشحيذا للخواطر فنحن أيضا نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين . فان قلت فما المختار عندك فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لابد فيه من تفصيل فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعني بقولي لذاته أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الاسكار والموت وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار وإباحة تجرع الخمر إذا غص الانسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار والبيع وقت النداء وكأكل الطين فانه يحرم لما فيه من الاضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالاباحة كالعسل فان كثيره يضر بالمحرور وكأكل الطين وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال فان تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنعود إلى علم الكلام ونقول إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام أما مضرته فاثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل

مشكوك

فيقولان له لا دريت ولا تليت وسماه النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب والصنف الثاني نطق كما نطق الذين من قبلهم ولكنهم أضافوا إلى قولهم مالا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد وذلك مثل ماقالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء ان عليا هو الإله وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه وكانوا في زمنه فحرق منهم جماعة وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة » . والصنف الثالث نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد واستنبطوا خلاف ماظهر منهم من الاقرار وإذا رجعوا إلى أهل

مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده باللطف فى أسرع زمان إلا إذا كان نشوؤه فى بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه وهذا هو الداء العضال الذى استطار فى البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الندور فى أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق فى صنعة الكلام بل منفعته شىء واحد وهو حراسة العقيدة التى ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسدا ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه والناس متعبدون بهذه العقيدة التى قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا فى موضعه وذلك فى وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة .

وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذى ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالاصلاح وأما العامى المعتقد للبدعة فينبغى أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر فى القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين إذ العامى إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرون على دفعه فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع فى شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام واستقصاء الجدل إنما ينفع فى موضع واحد وهو أن يفرض عامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه وأما فى بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذى ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويتربص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذى أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سببا لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت

الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله : وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . الصنف الرابع قوم لم يعرفوا التوحيد وما نشأوا عليه ولا عرفوا أهله ولا سكنوا بين أظهرهم ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين والاقرار بهما فقالوا لا نعلم مقتضى هذا اللفظ ولا نعقل معنى المأمور به من النطق فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلا مهلة فسكنوا إلى ما قيل لهم ونطقوا بالشهادتين ظاهرا وهم على الجهل بما يعتقدون فيها فاخترم أحدهم من حينه من قبل أن يأتى منه استفهام أو تصور يمكن أن يكون له معه معتقد

إليهم وهـذا مقدار مختصر وقد أودعناه هـذا الكتاب لاختصاره فان كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت فى نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذى ذكرناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد وهو قدر خمسين ورقة وليس فيه خروج عن النظر فى قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين فان أقنعه ذلك كفّ عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالبا والمرض ساريا فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه فأما الخارج منه فقسمان أحدهما بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الادراكات وعن الخوض فى الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترّهات المضلات والقسم الثانى زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضا استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا فى حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضا . ولو قال قائل البحث عن حكم الادراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضا وذلك هوس فان الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التى يذم فيها والحال التى يحمد فيها والشخص الذى ينتفع به والشخص الذى لا ينتفع به . فان قلت مهما اعترفت بالحاجة إليه فى دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ولو ترك بالكلية لاندرس وليس فى مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلم فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضا من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فان الحاجة ما كانت ماسة إليه فاعلم أن الحق أنه لا بد فى كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل بدفع شبه المبتدعة التى ثارت فى تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فان هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر فالعالم ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال إحداها التجرد للعلم والحرص عليه فان المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانيـة الذكاء والفطنة والفصاحة فان البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه . الثالثة أن يكون فى طبعـه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليـه فان الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين فان ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السدّ الذى بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة فى الكلام إنما هى من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة فى القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل فى التقسيمات والتدقيقات التى لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس فاذا قابله مثله فى الصنعة قاومه، وعرفت أن الشافعى وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيـه من الضرر الذى نبهنا عليـه وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناظرة الخوارج

فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمـة الله عزّ وجل والحكم عليـه بالنار والخلود فيها مع الكفار تحكم على غيب الله سبحانه وربما كان من هذا الصنف فى الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البـلادة أن يدعوا إلى النطق فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ثم يدعوا إلى تفهم المعنى بكل وجه فلا يتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه كأنما تخاطب بهيمة ومثل هـذا أيضا فى الوجود كثير ولا أحكم على أحـد مثله بخلود فى النار ولا بعد أن هذا الصنف بأسره أعنى المخترم قبل تحصيله العقد مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى حـديث الشفاعة الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول تعالى: فرغت شفاعة الملائكة والنبيين وبقيت شفاعتى . وهو أرحم الراحمين فيخرج

وما نقل عن علىّ رضى الله عنه من المناظرة فى القدر وغيره كان من الكلام الجلى الظاهر وفى محل الحاجة وذلك محمود فى كل حال ، نعم قد تختلف الأعصار فى كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التى تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ماهى عليه وإدراك الأسرار التى يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والاقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافى عن شوائب المجادلات وهى رحمة من الله عز وجلّ تفيض على من يتعرّض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذى لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله [مسئلة] فان قلت هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلى يبدو أولا وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسرّ الخالى عن كل شىء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسرّ وعلن بل الظاهر والباطن والسرّ والعلن واحد فيه فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا فى أوائل الصبا شيئا وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترقّ إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا (١) » وقال علىّ رضى الله عنه وأشار إلى صدره إن ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ماحدّث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم (٣) » وقال الله تعالى ـ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ـ وقال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى (٤) » الحديث إلى آخره كما أوردناه فى كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٥) » فليت شعرى إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم ولاشك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل ـ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهنّ ـ لو ذكرت تفسيره لرجمتونى وفى لفظ آخر لقلتم إنه كافر . وقال أبو هريرة رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم وقال صلى الله عليه وسلم « مافضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر فى صدره (٦) » رضى الله عنه ولاشك فى أن ذلك السرّ كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره وقال سهل التسترى رضى الله عنه للعالم ثلاثة علوم علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر وعلم باطن لايسعه إظهاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لايظهره لأحد . وقال بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر وقال بعضهم للربوبية سرّ لو ظهر لبطلت النبوة وللنبوة سرّ لو كشف لبطل العلم وللعلماء بالله سرّ لو أظهروه

(١) حديث إن للقرآن ظاهرا وباطنا الحديث ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه
(٢) حديث نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم الحديث تقدم فى العلم (٣) حديث ماحدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم الحديث تقدم فى العلم (٤) حديث إن من العلم كهيئة المكنون الحديث تقدم فى العلم (٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجاه من حديث عائشة وأنس (٦) حديث مافضلكم أبو بكر بكثرة صيام الحديث تقدم فى العلم .

من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكونون فى أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عزوجلّ والحديث يطول وهو صحيح وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى وحكم الصنف الأول والثانى والثالث أجمعين أن لايجب لهم حرمة ولايكون لهم عصمة ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين فان عثر عليهم فى الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

[فصل] ولما كان اللفظ المنبئ عن التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به فى حكم الشرع منفعة ولا لصاحبه بسببه نجاة إلا مدة حياته عن السيف أن يراق دمه واليد أن تسلط على ماله

إذا لم يطلع فى حاله حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع فى البيوت ولا يحضر فى المجالس أى مجالس الطعام ولا تشتهيه النفوس إلا مادام منطويا على مطعمه صونا على لبه فاذا أزيل عنه بكسر أو علم منه أنه منطو على فراغ أو سوس أو طعمه فاسد لم يصلح لشىء ولم يبق فيه غرض لأحد وهذا لاخفاء فى صحته والغرض بالتمثيل تقريب ماغمض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه .

[فصل] فان قلت فما الذى صدّ هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل التطلع عن النظر والبحث حتى تعلموا أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله

لبطلت الأحكام وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة فى حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه وملاك الورع النبوة [مسئلة] فان قلت هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فان الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال الشرع وهو قول من قال إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفى والجلى واحدا . فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجرّ إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب فان العقائد التى ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقيها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فان ذلك لم يكلف به كافة الخلق ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه فى هذا الكتاب ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه فى الشطر الأول من الكتاب وإنما الكشف الحقيقى هو صفة سرّ القلب وباطنه ولكن إذا انجرّ الكلام إلى تحريك خيال فى مناقضة الظاهر للباطن فلابد من كلام وجيز فى حله فمن قال إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التى يختص بها المقربون بدركها ولا يشاركهم الأكثرون فى علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام : القسم الأول أن يكون الشىء فى نفسه دقيقا تكلّ أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه(١) من هذا القسم فان حقيقته مما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفا لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل فى صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شىء لم يفهموه بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبى أو العنين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذى يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل . وبالجملة فلا يدرك الانسان إلا نفسه وصفات نفسه مما هى حاضرة له فى الحال أو مما كانت له من قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا فى الشرف والكمال فليس فى قوة البشر إلا أن يثبت الله تعالى ماهو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك(٢) » وليس

(١) حديث كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال فأمسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا الحديث

(٢) حديث لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فى سجوده .

المعنى أنى أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله ولذلك قال بعضهم ماعرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل وقال الصديق رضى الله عنه الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله تعالى ولعل الاشارة إلى مثله فى قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله سبحانه سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره (١) » القسم الثانى من الخفيات التى تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ماهو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين وسر القدر الذى منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجعل وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق فى نفسه وقد أضر سماعه بقوم إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم وقد ألحد ابن الراوندى وطائفة من المخذولين بمثل ذلك وكذلك سر القدر لو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم ولو قال قائل إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ولعلها كانت قريبة فى علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم .

القسم الثالث : أن يكون الشئ بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب وله مصلحة فى أن يعظم وقع ذلك الأمر فى قلبه كما لو قال قائل رأيت فلانا يقلد الدر فى أعناق الخنازير فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الانسان لم يكن معه در ولا كان فى موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس فى ذلك ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك ... متقابلان على السماك الأعزل
لازال ينسج ذاك خرقة مدبر ... ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فإنه عبر عن سبب سماوى فى الاقبال والادبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التى تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة على النار (٢) » وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء

(١) حديث إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره أبو الشيخ ابن حيان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور وإسناده ضعيف . وفيه أيضا من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك قال إن بينى وبينه سبعين حجابا من نور ، وفى الأكبر للطبرانى من حديث سهل بن سعد دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة ولمسلم من حديث أبى موسى حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ولابن ماجه شئ أدركه بصره .

(٢) حديث إن المسجد لينزوى من النخامة الحديث لم أجد له أصلا .

وهم فى الظاهر قادرون على ذلك وما المانع الخفى الذى منعهم وأبعدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم نفقة فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابا عظيما ويهز قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من القصد ولكن لابد إذا وقع فى الأسماع ووعته قلوب الطالبين واشتاقت إلى سماع الجواب عنه أن نورد فى ذلك قدر مايقع به الكفاية وتقنع به النفوس بحول الله وقوته، نعم ماسبق فى العلم القديم لا يجرى بخلافه القادر فهم من ذلك بإرادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية والشيم الذئابية والطباع السبعية وغلبتها عليهم والملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب كذلك قال عليه الصلاة والسلام والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده وأعدها لأن

الجلدة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه رأس حمار (١)» وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولايكون ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهى البلادة والحمق ومن رفع رأسه قبل الامام فقد صار رأسه رأس حمار فى معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذى هو قالب المعنى إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فانهما متناقضان وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢)» إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين فلم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا فى تفهيم تمام الاقتدار ومن هذا القبيل فى كنايته عن الاقتدار قوله تعالى - إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون - فان ظاهره ممتنع إذ قوله كن إن كان خطابا للشئ قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لايفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع فى النفوس فى تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها. وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد فى تفسير قوله تعالى - أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها - الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هى القلوب وأن بعضها احتملت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل والزبد مثل الكفر والنفاق فانه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فانه لايثبت والهداية التى تنفع الناس تمكث، وفى هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد فى الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر. القسم الرابع: أن يدرك الانسان الشئ جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثانى كاللباب والأول كالظاهر والثانى كالباطن وذلك كما يتمثل للانسان فى عينه شخص فى الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ولا يكون الأخير ضد الأول بل له استكمال له فكذلك العلم والايمان والتصديق إذ قد يصدق الانسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع بل للانسان فى الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة الأول تصديقه بوجوده قبل وقوعه والثانى عند وقوعه والثالث عند تصرمه فان تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقق به قبل الزوال وكذلك من علوم الدين مايصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالاضافة إلى ما قبل ذلك ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها ففى هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس فى شئ منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام. القسم الخامس: أن يعبر بلسان القال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل: قال الجدار للوتد لم تشقنى قال سل من يدقنى فلم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان القال، ومن هذا قوله تعالى - ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين - فالبليد يفتقر فى فهمه إلى أن يقدر لهما حياة وعقلا وفهما للخطاب وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان

(١) حديث أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام الحديث أخرجاه من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن مسلم من حديث عبد الله بن عمرو .

بحرف

تكون خزائن علمه ومشارق مكنوناته ومهبط ملائكته ومغاشى أنواره ومهاب نفحاته ومجال مكاشفاته ومجارى رحمته وهيأها لتحصيل المعرفة به فمتى كان فيها شئ من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شئ من الخير من قبله إذ هى الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والموصلون إليه وعنه بالباقيات الصالحات ولولا تلك الأخلاق المذمومة التى حلت فيهم وهى التى ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة باذن الله عن حلولها فيها وهى لاتخلو من خير تنزل به ويكون معها فحيثما حلت حل الخير فى ذلك القلب بحلولها وإنما هى لها فحيثما وجدت قلبا خاليا ولو حينا من الدهر وزمنا نزلت عليه ودخلته وثبتت ما عندها من الخير عنده فان لم يظهر على الملائكة مازعجها عنه

بحرف وصوت وتقولان أتينا طائعين والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير ومن هذا قوله تعالى ـ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ـ فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحان الله ليتحقق تسبيحه والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدسا بذاته وشاهدا بوحدانية الله سبحانه كما يقال :

وفى كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

وكما يقال هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج فى نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده فى أطواره فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر ولذلك قال تعالى ـ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ـ وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر وفى هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف فى رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى ـ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ـ وقوله تعالى ـ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء ـ وكذلك المخاطبات التى تجرى من منكر ونكير وفى الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة فى قولهم ـ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ـ زعموا أن ذلك كله بلسان الحال وغلا آخرون فى حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله ـ كن فيكون ـ وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى فى كل لحظة بعدد كون كل مكوّن حتى سمعت بعض أصحابه يقول إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه(١) » وقوله ﷺ « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله صلى الله عليه وسلم « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن(٢) » ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والنزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسما للباب ورعاية لصلاح الخلق فانه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فانهم كانوا يقولون أمرّوها كما جاءت حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء، الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل فى كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميعا بصيرا وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ

(١) حديث الحجر يمين الله فى الأرض الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر (٢) حديث إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن أحمد من حديث أبى هريرة فى حديث قال فيه وأجد نفس ربكم من قبل اليمن ورجاله ثقات .

من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة الشياطين الذين هم فى مقابلة الملائكة ثبتت عنده وسكنت فيه ولم تبرح عنه وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير فان كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها واستعانت بغيرها حتى عتلىء البيت من متاعها وجهازها وهو الإيمان بالله والصلاح وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل فاذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذى هو متاع الملك ويثبت فيه خلقا مذموما لا يوجد إلا فى الكلب وهو متاع الشيطان قاتله الله وطرده عن ذلك المحل فان جاء الشيطان بمدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك نصره وهو عزم اليقين من قبل الروح انهزم الملك وأخلى البيت ونهب المتاع وخرب البيت بعد عمارته وأظلم بعد نوره وضاق بعد

المنسوسة وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق الجلود ويذيب الشحوم ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ماورد فى الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لايدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لايطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهى لا بالسماع ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ماهى عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ماشاهدوه بنور اليقين قرروه وماخالف أولوه فأمامن يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلايستقرله فيها قدم ولايتعين له موقف والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد فى هذه الأمور داخل فى علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التى حررناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك فى الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى فى الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق فلنورد فى هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ماحررناه لأهل القدس وسميناه الرسالة القدسية فى قواعد العقائد وهى مودعة فى هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب .

الفصل الثالث : من كتاب قواعد العقائد فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس فنقول : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم للتأسى بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين فجمعوا بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول وعرفوا أن كلتى الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهى أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول . الركن الأول فى معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول وهى العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقرا على مكان وأنه يرى وأنه واحد . الركن الثانى فى صفاته ويشتمل على عشرة أصول وهو العلم بكونه حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة . الركن الثالث فى أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول وهى أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأن له تعالى تكليف مالا يطاق وأن له إيلام البرىء ولا يجب عليه رعاية الأصلح وأنه لا واجب إلا بالشرع وأن بعثة الأنبياء جائزة وأن نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات . الركن الرابع فى السمعيات ومداره على عشرة أصول وهى إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الأول من أركان الإيمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى
وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار

انشراحه وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى وضل واهتدى فإن قلت : فميزلى أصناف هذه الأخلاق المذمومة التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معانى التوحيد ومنعهم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها فاعلم أن الأخلاق التى لايجتمع معها الملائكة فى قلب واحد كثيرة والتى فى قلوب هؤلاء منها معظمها وهى الطمع فى غير خطير والحرص على فان حقير . وأما الصنف الأول فانهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة مايشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم مارغبوا فيه من راحاتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم فأبقوا أمرهم على ماهم عليه . وأما الصنف الثانى والثالث فصدهم أيضا خوف وجزع وحرص على ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول

ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ـ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ـ وقال تعالى ـ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس ؟ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ـ وقال تعالى ـ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ـ وقال تعالى ـ أفرأيتم ما تمنون ء أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ـ إلى قوله ـ للمقوين ـ فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره ولذلك قال الله تعالى ـ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ـ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا لا إله إلا الله وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله فان ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدإ نشوهم وفي عنفوان شبابهم ولذلك قال عز وجل ـ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ـ وقال تعالى ـ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ـ فإذن في فطرة الانسان وشواهد القرآن ما يغنى عن إقامة البرهان ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول من بدائه العقول أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه والعالم حادث فاذن لا يستغنى في حدوثه عن سبب أما قولنا إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب فجلي فان كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص وأما قولنا العالم حادث فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى : الأولى قولنا إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار فان من عقل جسما لا ساكنا ولا متحركا كان لمتن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبا . الثانية قولنا إنهما حادثان ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارىء منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس . الثالثة قولنا ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهى النوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لا نهاية له محال ولأنه لو كان الفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترا أو شفعا ووترا جميعا أو لا شفعا ولا وترا ومحال أن تكون شفعا ووترا جميعا أو لا شفعا ولا وترا فان ذلك جمع بين النفي والاثبات إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر ومحال أن يكون شفعا لأن الشفع يصير وترا بزيادة واحد وكيف يعوز ما لا نهاية له واحد ومحال أن يكون وترا إذ الوتر يصير شفعا بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها ومحال أن يكون لا شفعا ولا وترا إذ له نهاية فتحصل من

ومؤانسة أشياعهم أن تنفر وتذهب ومواساة إيلافهم أن تنقطع واستثقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفرارا من شرائطه وما يصحبه من الأعمال والوظائف إذ يمثلوه والكلب ما ذم لصورته وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس والجزع من الصبر على ما بعده من الفضائل حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب فان قلت فكيف آمن من كفر وأطاع من عصى واهتدى من ضل إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابحة وذئاب عادية وسباع ضارية وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهي لا تدخل موضعا يحل فيه شيء مما ذكرنا وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فلي

هذا أن العالم لا يخلو عن الحودث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة. الأصل الثانى : العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل، أزلى ليس لوجوده أول بل هو أول كل شئ وقبل كل ميت وحى . وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضا إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى مالا نهاية وماتسلسل لم يتحصل أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذى سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه . الأصل الثالث : العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ماثبت قدمه استحال عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ولو جاز أن ينعدم شئ يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شئ يتصور عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده فى القدم ومعه ضده فان كان الضد المعدم حادثا كان محالا إذ ليس الحادث فى مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم فى مضادته للحادث حتى يدفع وجوده بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث . الأصل الرابع : العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فان سماه مسم جوهرا ولم يرد به المتحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . الأصل الخامس : العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر وإذا بطل كونه جوهرا مخصوصا بحيز بطل كونه جسما لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو لشئ آخر من أقسام الأجسام فان تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطا فى الاسم مع الاصابة فى نفى معنى الجسم . الأصل السادس : العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال فى محل لأن العرض ما يحل فى الجسم فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكون محدثه موجودا قبله فكيف يكون حالا فى الجسم وقد كان موجودا فى الأزل وحده وما معه غيره ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ولأنه عالم قادر مريد خالق كما سيأتى بيانه وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فاذن لا يشبه شيئا ولا يشبهه شئ بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شئ وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدره والمصور مصوره والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته . الأصل السابع : العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات فان الجهة إما فوق وإما أسفل وإما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الانسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا والآخر يقابله ويسمى رأسا فحدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس واسم السفل لما يلى جهة الرجل حتى إن النملة التى تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق فى حقها تحتا وإن كان فى حقنا فوقا وخلق للانسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم

هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الايمان على هذا المفهوم . فاعلم أن هذا يستدعى أصنافا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك فى مثل هذا المقام العلوم والقول والمعنى فى جواب ما سألت عنه ان الشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات كما أن للملائكة لما عن القلوب غيبات ولتواتر الخير عليها فترات فاذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ولو زمنا يافر ودخل فيه وأراه ما عنده من الخير فان صادف منه قبولا ولما عرض عليه من الخير تشوقا ونزوعا أورد عليه ما يملأ ويستغرق له وإن صادف منه محوا ومع منه بجنود الشياطين استغاثة بالأخلاق السكلابية استعانة رحل عنه وتركه ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملك أو نزغة شيطان . فان قلت : فأى بيت فهم

اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التى تلى اليمين يمينا والأخرى شمالا وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه فحدث اسم القدام للجهة التى يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها فالجهات حادثة بحدوث الانسان ولو لم يخلق الانسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة فكيف كان فى الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة أو كيف صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له أبأن خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلى جهة الرجل وكل ذلك مما يستحيل فى العقل ولأن المعقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص العرض وقد ظهر استحالة كونه جوهرا أو عرضا فاستحال كونه مختصا بالجهة وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا فى الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له وهو محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر فأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء وفيه أيضا إشارة إلى ماهو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فانه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء. الأصل الثامن: العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرآن ـ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ـ وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى ـ وهو معكم أينما كنتم ـ إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم وحمل قوله صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» على القدرة والقهر وحمل قوله صلى الله عليه وسلم «الحجر الأسود يمين الله فى أرضه» على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسما مماسا للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال ومايؤدى إلى المحال فهو محال. الأصل التاسع: العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار مرئى بالأعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ـ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ـ ولا يرى فى الدنيا تصديقا لقوله عز وجل ـ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ـ ولقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام ـ لن ترانى ـ وليت شعرى كيف عرف المعتزلى من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ولعل الجهل بذوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال فان الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم فاذا جاز تعلق العلم به وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس فى مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك. الأصل العاشر: العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فرد لا ند له انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناويه وبرهانه قوله تعالى ـ لوكان

عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطاب وأى كلب أذهل بيت القلب كلب الخلق أو بيت اللبن وكلب الحيوان فاعلم أن الحديث خارج على سبب ومعناه وجملته أن المقصود بالإخبار هو بيت اللبن وكلب الحيوان معلوم ولا يتك فى ذلك ولكن يستقرأ منه ماقلناه ويستنبط من مفهومه مانبهناك عليه ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ولا نكر فى ذلك إذ دل عليه العلم وجملة الاستنباط ولم تمجه القلوب المستضاءة ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة فلا تكن جاحدا ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافى معناه ومشابه له من الجهة التى تصلح أن يعديها إليه ولولا ذلك لما قال النبى صلى الله عليه وسلم «رب مبلغ أوعى من سامع وحامل

فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ وبيانه أنه لوكانا اثنين وأراد أحدهما أمرا فالثانى إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن إلهـا قادرا وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثانى قويا قاهرا والأول ضعيفا قاصرا ولم يكن إلهـا قادرا .

(الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول)

الأصـل الأول : العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله ـ وهو على كل شىء قدير ـ صادق لأن العالم محكم فى صنعته مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور نسجه عن ميت لااستطاعة له أوعن إنسان لاقدرة له كان منخلعا عن غريزة العقل ومنخرطا فى سلك أهل الغباوة والجهل . الأصل الثانى : العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات ـ لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ـ صادق فى قوله ـ وهو بكل شىء عليم ـ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى ـ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ـ أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لاتستريب فى دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف . الأصل الثالث : العلم بكونه عز وجل حيا فان من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس فى غمرة الجهالات والضلالات . الأصل الرابع : العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدئ المعيد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلابد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين ولو أغنى العلم عن الإرادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد فى الوقت الذى سبق العلم بوجوده لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه . الأصل الخامس : العلم بأنه تعالى سميع بصير لايعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء وكيف لايكون سميعا بصيرا والسمع والبصر كمال لامحالة وليس بنقص فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والكمال فى خلقه وصنعته أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له ـ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ـ ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى ـ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ـ وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لافرق بينهما . الأصل السادس : أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لايشبه وجوده وجود غيره والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم

فقه إلى من هو أفقه منه »
سؤال : فان قلت فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة » وعلم السبب الذى جاء هذا الحديث عليه وفيه فهل يعدى عن سببه ويترقى منه إلى مثل ماترقى من الحديث الآخر فهذا كما قيل الحديث شجون وأتبعنا هذا الباب مايقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه نعم يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ويكون هذا الحديث منبها عليه وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة وعبدت من دون الله عز وجل وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضى بذلك ونقص إدراك من دان به حين قال مخبرا عن إبراهيم عليه السلام حيث قال ـ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ـ فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد

فاقطع عن عقله طمعك و كف عن خطابه لسانك ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء وأن الباء قبل السين فى قولك بسم الله فلا يكون السين التأخر عن الباء قديما فنزه عن الالتفات إليه قلبك فلله سبحانه سر فى إبعاد بعض العباد ـ ومن يضلل الله فماله من هاد ـ ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام فى الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى فى الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لون وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل فى حاسة السمع ما عقله فى حاسة البصر وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع مادل عليه من العبارات وإن عقل كون السموات السبع و كون الجنة والنار مكتوبة فى ورقة صغيرة ومحفوظة فى مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئى فى مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار فى الحدقة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءا بالألسنة محفوظا فى القلوب مكتوبا فى المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام فى الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه فى الورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها فى الورق ولاحترق . الأصل السابع : أن الكلام القائم بنفسه قديم و كذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل فى قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزال فى أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالقها مشاركا لها فى قبول التغير وينبنى على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هى الأصوات الدالة عليه وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما فى قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذى قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذى دل عليه قوله عز وجل ـ اخلع نعليك ـ بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم. الأصل الثامن : أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر فهكذا ينبغى أن يفهم قدم علم الله تعالى . الأصل التاسع : أن إرادته قديمة وهى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ولو حدثت فى غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست فى ذاتك و كيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى و كذلك الارادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة . الأصل العاشر : أن الله تعالى عالم بعلم حى بحياة قادر بقدرة ومريد بإرادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير ببصر وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة وقول القائل عالم بلا علم كقوله غنى بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم فان العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة فى العقل لا ينفك بعض منها عن البعض فمن جوز انفكاك العالم عن العلم

من دون الله سبحانه أو ما حكى به ما هو على مثاله ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناه الله ليكون مهبطا للملائكة ومحلا للذكر ومعرفة عبادته وحده دون غيره فاذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقر به الملائكة أيضا . فان قيل فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما وما ذكرته تعليلا ينبغى أن لا يقتضى إلا منافرة ما عبد أو ما نحت على مثاله . قلنا تشابهت الصور المنحوتة كلها فى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح فلما كان هذا المعنى الجامع لها موجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة . فان قيل فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها وإنما المقصود الثوب الذى رقمت فيه .

فليجوّز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لافرق بين هذه الأوصاف .

(الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول)

الأصل الأوّل : العلم بأن كل حادث فى العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لاخالق له سواه ولا محدث له إلا إياه خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له فى قوله تعالى ـ الله خالق كل شئ ـ وفى قوله تعالى ـ والله خلقكم وما تعملون ـ وفى قوله تعالى ـ وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ـ أمر العباد بالتحرّز فى أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم لعلمه بموارد أفعالهم واستدلّ على العلم بالخلق وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لاقصور فيها وهى متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها فما الذى يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها أو كيف يكون الحيوان مستبدا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب فكيف انفردت هى باختراعها دون رب الأرباب وهى غير عالمة بتفصيل مايصدر منها من الاكتساب هيهات هيهات ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات . الأصل الثانى : أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لايخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له فانها خلقت مقدورة بقدرة هى وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى فى الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلا بها وهى عند الاختراع متعلقة به نوعا آخر من التعلق فبه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها . الأصل الثالث : أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته ومنه الشر والخير والنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لاراد لقضائه ولامعقب لحكمه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ـ لايسئل عما يفعل وهم يسألون ـ ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن وقول الله عز وجل ـ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ـ وقوله تعالى ـ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ـ ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصى والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها وإنما هى جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه والجارى على وفق إرادة العدو أكثر من الجارى على وفق إرادته تعالى فليت شعرى كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها إذ لو كان مايستمر لعدو الزعيم فى القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته والمعصية هى الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيرا ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مراده له . فان قيل فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد

فان قيل فما بال الثياب رخص فى محا كاتها بالصور وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما فى السنة فاخر ثيابها وحلىّ نسائها لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط حتى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلىّ رضى الله عنه ولم يعبدوا ما نحت على شكل النبات فلم تعبد من هذه إلا ذات روح فما أبعد عن در كها من حرّمه الله تعالى إياها فلله الحمد وهو أهله .

قلنا الأمر غير الإرادة ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه فقال له أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ولو لم يكن آمرا لما كان عذره عند السلطان ممهدا ولو كان مريدا لامتثاله لكان مريدا لهلاك نفسه وهو محال . الأصل الرابع : أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال إذ هو الموجب والآمر والناهي وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب والمراد بالواجب أحد أمرين إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار أو ضرر عاجل كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا فان أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرّضه للضرر وان أراد به المعنى الثاني فهو مسلم إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم وان أراد به معنى ثالثا فهو غير مفهوم وقوله يجب لمصلحة عباده كلام فاسد فانه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فاما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرّضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب . الأصل الخامس : أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه خلافا للمعتزلة ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه وقد سألوا ذلك فقالوا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ـ ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده . الأصل السادس : أن لله عز وجلّ إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافا للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ويدل على جواز ذلك وجوده فان ذبح البهائم إيلام لها وما صبّ عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة . فان قيل إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه . فنقول من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أنه يتضرر بتركه فهو محال وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذا خرج عن المعاني المذكورة للواجب . الأصل السابع : أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وليت شعري بما يجيب المعتزلي في قوله إن الأصلح واجب عليه في مسئلة نعرضها عليه وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين فان الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ويجب عليه ذلك عند المعتزلي فلو قال الصبي يارب لم رفعت منزلته عليّ فيقول لأنه بلغ واجتهد في الطاعات ويقول الصبي أنت أمتني في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلته فيقول الله تعالى لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا هذا عذر المعتزلي عن الله عز وجلّ وعند هذا ينادي الكفار من دركات لظى ويقولون يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا في الصبا فانا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم فماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند

[بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد]

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة وشده بالبراهين فقد انقسموا في الوجود إلى ثلاثة أصناف أحدهم صنف اعتقدوا مضمون ما أقرّوا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسرّوه في أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا وذلك لفرط بعدهم وغلظ طباعهم واعتياص طرق ذلك عليهم ويقع عليهم اسم الموحدين وتحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين رضي الله عنهم ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه والعروف عنه ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجاج بل تركوا على ما هم عليه وهؤلاء

هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال . فان قيل مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحا لا يليق بالحكمة . قلنا القبيح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحا عند شخص حسنا عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه فان أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف في ملك الغير وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال وهل هذا إلا مجرد تشه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح ، وأما الحكيم منا يراعي الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى . الأصل الثامن : أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل خلافا للمعتزلة لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فان العقل لا يوجب العبث وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى فانه يتقدس عن الأغراض والفوائد بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالى سيان وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له في الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه وليس في المآل إلا الثواب والعقاب ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر . فان قيل فاذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه فاذا قال المكلف للنبي إن العقل ليس يوجب علي النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ولست أقدم على النظر أدى ذلك إلى إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم . قلنا هذا يضاهي قول القائل للواقف في موضع من المواضع إن وراءك سبعا ضاريا فان لم تبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقي فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ولا ألتفت ورائي ولا أنظر ما لم يثبت صدقك فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادي المرشد فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا لي صدقي بالالتفات إلى معجزتي وإلا هلكتم فمن التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر علي إن هلك الناس كلهم أجمعون وإنما علي البلاغ المبين » فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل والطبع يستحث على الحذر من الضرر ومعنى كون الشيء واجبا أن في تركه ضررا ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف للضرر المتوقع فان العقل لا يهدي إلى التهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط تركه ضرر في الآخرة . الأصل التاسع : أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام خلافا للبراهمة حيث قالوا لا فائدة في بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما لا يهدي إلى الأدوية المفيدة للصحة فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبي بالمعجزة .

عنـــدي معذورون بعدم مقبولون بما تواقوا عليه من إقرارهم وعقدهم والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولا يخرجون عن مقتضى هـــذه الآيات بحال وسنبدي لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم وسلامة توحيدهم إن شاء الله عز وجل والصنف الثاني اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق واعتقدت مع ذلك أنواعا من المخاييل قام في مخيلتها أنها أدلة وظنتها براهين وليست كذلك وقد وقع في هذا كثير ممن يشار إليه فضلا عن دونهم فان وقع إلى هـــذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقـــدح ويبطلها عليهم بالمعارضـــة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ولا أصغوا لما يأتي به ويترفعوا إلى أن يجاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم أو رداءة الاعتقاد

الأصل العاشر : أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر (١) وتسبيح الحصى (٢) وإنطاق العجماء (٣) وماتفجر من بين أصابعه من الماء ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها مع كافة العرب القرآن العظيم فانهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبيه ونهبه وقتله وإخراجه كما أخبر الله عز وجل عنهم ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أميا غير ممارس للكتب والإنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى ـ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ـ وكقوله تعالى ـ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ـ ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ماعجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى فمهما كان مقرونا بتحدى النبي ﷺ ينزل منزلة قوله صدقت وذلك مثل القائم بين يدى الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فانه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقعد على خلاف عادتك ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضرورى بأن ذلك نازل منزلة قوله صدقت

الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول : الحشر والنشر (٤) وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن ومعناه الاعادة بعد الافناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الانشاء قال الله تعالى ـ قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ـ فاستدل بالابتداء على الاعادة وقال عز وجل ـ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ والاعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول. الأصل الثاني سؤال منكر ونكير (٥) وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذى به فهم الخطاب وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك مايشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا السؤال له فان النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات مايحس بتأثيره عند التنبه وقد كان رسول الله ﷺ يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لايسمعونه ولا يرونه (٦) ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء فاذالم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه .

(١) حديث انشقاق القمر متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس (٢) حديث تسبيح الحصى البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي ذر . وقال صالح بن أبي الأخضر ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أبي ذر (٣) حديث إنطاق العجماء أحمد والبيهقي باسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في البعير الذى شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أهله وقد ورد في كلام الضب والذئب والحمرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل (٤) حديث الحشر والنشر الشيخان من حديث ابن عباس إنكم لمحشورون إلى الله الحديث ومن حديث سهل يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء الحديث ومن حديث عائشة يحشرون يوم القيامة حفاة ومن حديث أبي هريرة يحشر الناس على ثلاث طرائق الحديث ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أفتنا في بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر الحديث وإسناده جيد (٥) حديث سؤال منكر ونكير تقدم (٦) حديث كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لايسمعونه ولا يرونه البخارى ومسلم من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ياعائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى مالا أرى قلت وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم .

وعندهم أن جميع تلك المخايل في باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلوم ومنهم من يكون دليله خبرا له ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ولعمرى انهم ينبغى إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقعوا في شىء من الضلال أن يتركوا على ماهم عليه ولا يحركوا بأمر آخر بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ في نفوسهم بدعة يعسر انحلالها أو يقعوا في تكفير مسلم وتضليله بل هناك أسباب كثيرة . واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس فمن رغب في أكلتها لم يقنع بدونها وإذا حصل له ذلك قوى به ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ماهو أعلى

الأصل الثالث : عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى - النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب - واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر (١) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور فانّ المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الادراك إليها . الأصل الرابع : الميزان وهو حق قال الله تعالى - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة - وقال تعالى - فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه - الآية ووجهه أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب . الأصل الخامس : الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحدّ من السيف قال الله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون - وهذا ممكن فيجب التصديق به فان القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الانسان على الصراط . الأصل السادس : أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى - وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين - فقوله تعالى أعدّت دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ولا يقال لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - . الأصل السابع : أن الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفي هذا وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الاجماع وذلك مما لا يستجرئ على اختراعه إلا الروافض واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وما جرى بين معاوية وعليّ رضي الله عنهما كان مبنيا على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الامامة إذ ظنّ عليّ رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الامامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الاغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك ، وقد قال أفاضل العلماء كل مجتهد مصيب وقال قائلون المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة علي ذو تحصيل أصلا . الأصل الثامن : أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على حسب ترتيبهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة (٢) وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحي والتنزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف ، الأصل التاسع : أن شرائط الامامة بعد الاسلام والتكليف خمسة الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش (٣) » وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالامام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى

(١) حديث استعاذ من عذاب القبر أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائشة وقد تقدم .
(٢) حديث الثناء على الصحابة تقدم .
(٣) حديث الأئمة من قريش النسائي من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر .

الانقياد

من ذلك ضعف ولكنه يعيش بعيش الطفيف وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها أو يجدها ولكنها تكون مشابة ممن جاء بحضرة بدعة وسموم كفر فلا تذهل عما يشار لك إليه وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان وقلما بين الصنف الثاني والأول من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا غير أنهم أوثق رباطا من الأولين لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا وانحل رباط عقدهم وهؤلاء في الأغلب لا سبيل إلى انحلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون فلهذا كانوا أحسن حالا . والصنف الثالث أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم وقدموا النظر أيضا ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ما لو نظروا لعلموا ولو استدلوا

الانقياد إلى الخلق . الأصل العاشر : أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للامامة وكان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته لأنا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التى أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذى يبنى قصرا ويهدم مصرا وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الامام وبفساد الأقضية وذلك محال ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البغى فى بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضى بصحة الامامة عند الحاجة والضرورة فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هى قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لرهط البدعة فالله تعالى يسددنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

[الفصل الرابع من قواعد العقائد] فى الايمان والاسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل [مسئلة] اختلفوا فى أن الاسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه فقيل إنهما شيء واحد وقيل إنهما شيئان لا يتواصلان وقيل إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر ، وقد أورد أبو طالب المكى فى هذا كلاما شديد الاضطراب كثير التطويل فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لا تحصيل له فنقول فى هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين فى اللغة ، وبحث عن المراد بهما فى إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما فى الدنيا والآخرة ، والبحث الأول لغوى والثانى تفسيرى والثالث فقهى شرعى . البحث الأول : فى موجب اللغة والحق فيه أن الايمان عبارة عن التصديق قال الله تعالى ـ وما أنت بمؤمن لنا ـ أى بمصدق والاسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالاذعان والانقياد وترك التمرد والاباء والعناد وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمان وأما التسليم فانه عام فى القلب واللسان والجوارح فان كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الاباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح فموجب اللغة أن الاسلام أعم والايمان أخص فكان الايمان عبارة عن أشرف أجزاء الاسلام فاذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا . البحث الثانى : عن إطلاق الشرع والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل . أما الترادف ففى قوله تعالى ـ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ـ ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد وقال تعالى ـ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ـ وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس (١) » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الايمان فأجاب بهذه الخمس (٢) وأما الاختلاف فقوله تعالى ـ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ـ ومعناه استسلمنا فى الظاهر فأراد بالايمان ههنا التصديق بالقلب فقط وبالاسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح ، وفى حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الايمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره

(١) حديث بنى الاسلام على خمس أخرجاه من حديث ابن عمر (٢) حديث سئل عن الايمان فأجاب بهذه الخمس ، البيهقى فى الاعتقاد من حديث ابن عباس فى قصة وفد عبد القيس تدرون ما الايمان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام ، والحديث فى الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزادوا أن تؤتوا خمسا من المغنم .

لتحققوا ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ولكنهم آثروا الراحة ومالوا إلى الدعة واستبعدوا طريق العلم واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه وقنعوا بالقعود فى حضيض الجهل فهؤلاء فيهم إشكال عند كثير من الناس فى البديهة ويتردد فى حالهم النظر وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين فى العوام على الاطلاق من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم ولعلك تقول إن مذهبهم المشهور أن المحل لا يخلو عن الصفات إلا إلى ضدها فمن لم يحكم له بالإيمان حكم عليه بالكفر كما أن من لم يحكم له بالحركة حكم عليه بالسكون وكذلك

وشره فقال فما الاسلام فأجاب بذكر الخصال الخمس[١] » فعبر بالاسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال صلى الله عليه وسلم أو مسلم فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] » وأما التداخل فما روى أيضا أنه سئل « فقيل أي الأعمال أفضل فقال صلى الله عليه وسلم الاسلام فقال أي الاسلام أفضل فقال ﷺ الايمان[٣] » وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات في اللغة لأن الايمان عمل من الأعمال وهو أفضلها والاسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيمانا والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة أما الاختلاف فهو أن يجعل الايمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة والاسلام عبارة عن التسليم ظاهرا وهو أيضا موافق للغة فان التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فان من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامسا وان لم يستغرق جميع بدنه فاطلاق اسم الاسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ــ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ــ وقوله ﷺ في حديث سعد « أو مسلم » لأنه فضل أحدهما على الآخر ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين وأما التداخل فموافق أيضا للغة في خصوص الايمان وهو أن يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا والايمان عبارة عن بعض ما دخل في الاسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذي عنيناه بالتداخل وهو موافق للغة في خصوص الايمان وعموم الاسلام للكل وعلى هذا خرج قوله الايمان في جواب قول السائل أي الاسلام أفضل لأنه جعل الايمان خصوصا من الاسلام فأدخله فيه وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا فان كل ذلك تسليم وكذا الايمان ويكون التصرف في الايمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر في معناه وهو جائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفا لاسم الاسلام ومطابقا له فلا يزيد عليه ولا ينقص وعليه خرج قوله ــ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ــ البحث الثالث : عن الحكم الشرعي، والاسلام والايمان حكمان أخروي ودنيوي . أما الأخروي فهو الاخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان[٤] »

---

(١) حديث جبريل لما سأله عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر الحساب فرواه البيهقي في البعث وقد تقدم (٢) حديث سعد أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم الحديث أخرجاه بنحوه (٣) حديث سئل أي الأعمال أفضل فقال الاسلام فقال أي الاسلام أفضل فقال الايمان أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الأخير قال رجل يارسول الله أي الاسلام أفضل قال الايمان وإسناده صحيح (٤) حديث يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان أخرجاه من حديث أبي سعيد الخدري في الشفاعة ، وفيه اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه الحديث ، ولهما من حديث أنس فيقال انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان لفظ البخاري منهما ، وله تعليقا من حديث

الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ماله من الصفات. قلنا فلئن صح ذلك في الصفات التي هي أعراض فقد لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الايمان والكفر والهداية والضلال والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الاعراض وإنما ذكرت ذلك هنا في معرض الشك في شعوب ما ورد على ذلك ومنهم من أوجب لهم الايمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وعجزهم عن العبادة ووجوب العبادة في الشرع جار على هذا النحو وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم لأن أولئك سلبوا الايمان عمن لم يصدر اعتقاده عن دليل وهؤلاء أوجبوا الايمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة في صحة الايمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال وزادوا على أنفسهم أنهم ألموا بقول من جعل المعارف

وقد

وقد اختلفوا في أن هذا الحكم على ماذا يترتب وعبروا عنه بأن الايمان ماذا هو فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثا وهو العمل بالأركان ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقره الجنة وهذه درجة . والدرجة الثانية أن يوجد اثنان وبعض الثالث وهو القول والعقد وبعض الأعمال ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر فعند هذا قالت المعتزلة خرج بهذا عن الايمان ولم يدخل في الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد في النار وهذا باطل كما سنذكره . الدرجة الثالثة أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح وقد اختلفوا في حكمه فقال أبو طالب المكي العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الاجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى - الذين آمنوا وعملوا الصالحات - إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الايمان وإلا فيكون العمل في حكم المعاد والعجب أنه ادعى الاجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به[1] » وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة فلا بد أن يقول نعم وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل فنزيد ونقول لو بقي حيا حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات فهل يخلد في النار فان قال نعم فهو مراد المعتزلة وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الايمان ولا شرطا في وجوده ولا في استحقاق الجنة به وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية فنقول فما ضبط تلك المدة وما عدد تلك الطاعات التي بتركها يبطل الايمان وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الايمان وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمنا بينه وبين الله تعالى وهذا مما اختلف فيه ومن شرط القول لتمام الايمان يقول هذا مات قبل الايمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان » وهذا قلبه طافح بالايمان فكيف يخلد في النار ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للايمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتي الشهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة ونقول هو مؤمن غير مخلد في النار والايمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الايمان فلا بد أن يكون الايمان موجودا بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الايمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة » ولا ينعدم الايمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب وقال قائلون القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخبارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة أن يقول بلسانه لا إله إلا الله

أنس يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان وهو عندهما متصل بلفظ خير مكان إيمان (١) حديث لا تكفروا أحدا إلا بجحوده بما أقر به الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد لن يخرج أحد من الايمان إلا بجحود ما دخل فيه وإسناده ضعيف .

كلها ضرورية ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما عجزت العامة عن سرد الدليل وتعظم العبارة عنه وأنه لا تجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول إنما افتقر الناس إلى النسبية ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم في تفهيمها بالزوال إلى ما ألفوه من العبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى الفيئة ومثال هذا كمن نسي شيئا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد

محمد رسول الله ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك فى أن هذا فى حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلد فى النار ولا نشك فى أنه فى حكم الدنيا الذى يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه وعلينا أن نظن به أنه ماقاله بلسانه إلا وهو منطو عليه فى قلبه وإنما نشك فى أمر ثالث وهو الحكم الدنيوى فيما بينه وبين الله تعالى وذلك بأن يموت له فى الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن فى يدى فهل يحل لى بينى وبين الله تعالى أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر فى حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له فى نفسه بينه وبين الله تعالى والأظهر والعلم عند الله تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى الله عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه والصلاة فعل ظاهر فى الدنيا وإن كان من العبادات والتوقى عن الحرام أيضا من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » وليس هذا مناقضا لقولنا إن الإرث حكم الاسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغى أن يظن القاصر فى العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده فى فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم فى العلوم . فإن قلت فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم . فأقول شبهتهم عمومات القرآن أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل ـ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ـ ولقوله عز وجل ـ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ـ الآية ولقوله تعالى ـ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ـ إلى قوله : ـ فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء ـ فقوله كلما ألقى فيها فوج عام فينبغى أن يكون كل من ألقى فى النار مكذبا ولقوله تعالى ـ لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ـ وهذا حصر وإثبات ونفى ولقوله تعالى ـ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ـ فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى ـ والله يحب المحسنين ـ وقال تعالى ـ إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ـ ولا حجة لهم فى ذلك فإنه حيث ذكر الايمان فى هذه الآيات أريد به الايمان مع العمل إذ بينا أن الايمان قد يطلق ويراد به الاسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة فى معاقبة العاصين ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان » فكيف يخرج إذا لم يدخل ومن القرآن قوله تعالى ـ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى ـ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها ـ وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى ـ ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ـ وقال تعالى ـ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ـ فهذه العمومات فى معارضة عموماتهم ولا بد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون(١) بل قوله تعالى ـ وإن منكم إلا واردها ـ كالصريح فى أن ذلك لابد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى ـ لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ـ أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى ـ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ـ أى فوج من الكفار وتخصيص العمومات

ذلك فذكر فإنه يقال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه لكنه ناس له أو غافل عنه ولولا عرفانه به ما وجد عدم الانكار وسرعة الألفة عنه وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الايمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك وأى الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس من غرضنا فى هذا الموضع وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه فى الاحياء أهل الغلول والأغلال فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك فى مراقى الزلف ما يغنى فيها بإذن الله عز وجل .

[فصل فى بيان أصناف أهل الاعتقاد]

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تتمة ماجرى فلتعلم أن ما منهم صنف إلاوله على التقريب ثلاثة أحوال لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى فأصنى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان

(١) حديث تعذيب العصاة البخارى من حديث أنس ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها الحديث ويأتى فى ذكر الموت عدة أحاديث .

قريب ومن هذه الآية وقع للأشعرى وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها . وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى ـ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ـ وقوله تعالى ـ والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وقوله تعالى ـ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ـ ثم قال ـ ثم ننجى الذين اتقوا ـ وقوله تعالى ـ ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم ـ وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالايمان وقوله تعالى ـ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ـ وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى ـ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ فينبغى أن تبقى له مشيئة فى مغفرة ماسوى الشرك وكذلك قوله عليه السلام «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان» وقوله تعالى ـ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ـ وقوله تعالى ـ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ـ فكيف يضيع أجر أصل الايمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة وقوله تعالى ـ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ـ أى لايمانه وقد ورد على مثل هذا السبب. فان قلت فقد مال الاختيار إلى أن الايمان حاصل دون العمل وقد اشتهر عن السلف قولهم الايمان عقد وقول وعمل فما معناه. قلنا لا يبعد أن يعد العمل من الايمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الانسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الايمان كالرأس من وجود الانسان إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال ﷺ «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن[1]» والصحابة رضى الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة فى الخروج عن الايمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بانسان أى ليس له الكمال الذى هو وراء حقيقة الانسانية . (مسئلة) فان قلت فقد اتفق السلف على أن الايمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فاذا كان التصديق هو الايمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان . فأقول السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن فى فهمه وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الايمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشىء لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الانسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بأن الايمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان . فان قلت فالاشكال قائم فى أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة فأقول إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الاشكال فنقول: الايمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه: الأول أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى كالعقدة على الخيط مثلا ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودى وصلابته فى عقيدته التى لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصرانى والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك فى عقده كالأول ولكنهما متفاوتان فى شدة التصميم وهذا موجود فى الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر فى نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء فى نماء الأشجار ولذلك قال تعالى ـ فزادتهم ايمانا ـ وقال تعالى ـ ليزدادوا ايمانا مع إيمانهم ـ وقال صلى الله عليه وسلم

الايمان على ما يكمل عليه فى الغالب لكنه على طريق التفاوت كما سبق . الحالة الثانية أن لا يعتقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف إذا نظر ولم ننصف إليه فى اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط أو يعتقد أنه موجود حى لا غير وأمثال هذه التقديرات ويخلو عن اعتقاد باقى الصفات خلوا كاملا لا يخطر بباله ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ولكن التقدير الذى يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره . الحالة الثالثة أن يعتقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة ويكون فيما يعتقد فى باقى الصفات على ما لا يوافق الحق ماهو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح فالذى يدل عليه العلم ويستنبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى

(١) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبى هريرة .

فيما يروى فى بعض الأخبار «الايمان يزيد وينقص(١)» وذلك بتأثير الطاعات فى القلب وهذا لايدركه إلا من راقب أحوال نفسه فى أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت فى السكون إلى عقائد الايمان فى هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد فى اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملا مقبلا أو ساجدا لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الاعمال عليها فيؤكدها ويزيدها وسيأتى هذا فى ربع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب فان ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعنى بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال:

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولاقدح وكأنما قدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فان هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضا اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن يكف عنها بالتكلف فهذا وجه زيادة الايمان بالطاعة بموجب هذا الاطلاق ولهذا قال على كرم الله وجهه : إن الايمان ليبدو لمعة بيضاء فاذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فاذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى ـ كلا بل ران على قلوبهم ـ الآية . الاطلاق الثانى : أن يراد به التصديق والعمل جميعا كما قال صلى الله عليه وسلم «الايمان بضع وسبعون بابا(٢)» وكما قال صلى الله عليه وسلم «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» وإذا دخل العمل فى مقتضى لفظ الايمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك فى زيادة الايمان الذى هو مجرد التصديق هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه . الاطلاق الثالث : أن يراد به التصديق اليقينى على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكنى أقول الأمر اليقينى الذى لاشك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس الى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لاشك فى واحد منهما فان اليقينيات تختلف فى درجات الايضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها وقد تعرضنا لهذا فى فصل اليقين من كتاب العلم فى باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الاعادة وقد ظهر فى جميع الاطلاقات أن ماقالوه من زيادة الايمان ونقصانه حق

(١) حديث الايمان يزيد وينقص ابن عدى فى الكامل وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب اللحى يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجه موقوف على أبى هريرة وابن عباس وأبى الدرداء (٢) حديث الايمان بضع وسبعون بابا وذكر بعد هذا فزاد فيه: أدناها إماطة الأذى عن الطريق البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة الايمان بضع وسبعون زاد مسلم فى رواية وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها فذكره ورواه بلفظ المصنف الترمذى وصححه .

والله أعلم على سبيل نجاة ومسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام وسواء فى ذلك الصنف الأول والثانى من أهل الاعتقاد ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه وأما أهل الحالة الثانية وهى الاقتصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر معه مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال وأركانهما فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم فى صورة المسألة ما يخرج صاحب هذا العقد عن حكم الايمان والاسلام والمتأخرون مختلفون فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل وأظهر الاقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الاسلام ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلامزيد عليه لو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل هل له إرادة أو بقاء أو كلام

وكيف

وكيف لا وفى الأخبار « أنه يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفى بعض المواضع فى خبر آخر « مثقال دينار[1] » فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما فى القلب لا يتفاوت (مسئلة) فان قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن إن شاء الله والاستثناء شك والشك فى الايمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالايمان ويحترزون عنه فقال سفيان الثورى رحمه الله من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة فكيف يكون كاذبا وهو يعلم أنه مؤمن فى نفسه ومن كان مؤمنا فى نفسه كان مؤمنا عند الله كما أن من كان طويلا وسخيا فى نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من كان مسرورا أو حزينا أو سميعا أو بصيرا ولو قيل للانسان هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله ولما قال سفيان ذلك قيل له فماذا نقول قال قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن وقيل للحسن أمؤمن أنت فقال إن شاء الله فقيل له لم تستثنى يا أبا سعيد فى الايمان فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق علىّ الكلمة وكان يقول ما يؤمننى أن يكون الله سبحانه قد اطلع علىّ فى بعض ما يكره فمقتنى وقال اذهب لا قبلت لك عملا فأنا أعمل فى غير معمل وقال إبراهيم بن أدهم إذا قيل لك أمؤمن أنت فقل لا إله إلا الله وقال مرة قل أنا لا أشك فى الايمان وسؤالك إياى بدعة وقيل لعلقمة أمؤمن أنت قال أرجو إن شاء الله وقال الثورى نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندرى ما نحن عند الله تعالى فما معنى هذه الاستثناءات فالجواب أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه وجهان مستندان إلى الشك لا فى أصل الايمان ولكن فى خاتمته أو كماله ووجهان لا يستندان إلى الشك . الوجه الأول الذى لا يستند إلى معارضة الشك الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى ــ فلا تزكوا أنفسكم ــ وقال ــ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ــ وقال تعالى ــ انظر كيف يفترون على الله الكذب ــ وقيل لحكيم ما الصدق القبيح فقال ثناء المرء على نفسه والايمان من أعلى صفات المجد والجزم به تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية كما يقال للانسان أنت طبيب أو فقيه أو مفسر فيقول نعم إن شاء الله لا فى معرض التشكيك ولكن لاخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر وهو التزكية وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء . الوجه الثانى : التأدب بذكر الله تعالى فى كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ــ ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ــ ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى ــ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ــ وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون[2] » واللحوق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار بعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمنى فاذا قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشككك وإذا قيل لك فلان سيزول مرضه ويصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى

أو ما شاكل ذلك وهل له صفات معنوية ليست هى هو ولا هى غيره ربما وجدوا يجهلون هــذا ولا يعقلون وجه ما يخاطبون به وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الاقرار بالنبوة من حكم الاسلام والنبى صلى الله عليه وسلم قد رفع القتال والقتل وأوجب حكم الايمان أو الاسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها وهذه الكلمات لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة فى الظاهر وعلى البديهية من غير نظر ثم سمعنا عمن قالها فى صدر الاسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيئات الأعمال البدنية والكف عن أذى السلم ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ولا هل الله تعالى عالم بعلم أو عالم بنفسه وهو باق ببقاء أو باق بنفسه وأشباه

(١) حديث يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار متفق عليه من حديث أبى سعيد وسيأتى فى ذكر الموت وما بعده (٢) حديث لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين الحديث مسلم من حديث أبى هريرة .

معنى الرغبة وكذلك العدول إلى معنى التأدب بذكر الله تعالى كيف كان الأمر . الوجه الثالث مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم ـ أولئك هم المؤمنون حقا ـ فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الايمان لا في أصله وكل انسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر والشك في كمال الايمان حق من وجهين : أحدهما من حيث إن النفاق يزيل كمال الايمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه . والثاني أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدرى وجودها على الكمال أما العمل فقد قال الله تعالى ـ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ـ فيكون الشك في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ـ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ـ فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى ـ أولئك الذين صدقوا ـ وقد قال تعالى ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ وقال تعالى ـ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ـ الآية وقد قال تعالى ـ هم درجات عند الله ـ وقال ﷺ « الايمان عريان ولباسه التقوى[١] » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم « الايمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق » فهذا ما يدل على ارتباط كمال الايمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله صلى الله عليه وسلم « أربع من كنّ فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر[٢] » وفي بعض الروايات « وإذا عاهد غدر » وفي حديث أبي سعيد الخدري « القلوب أربعة: قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلب عليه حكم له بها[٣] » وفي لفظ آخر « غلبت عليه ذهبت به » قال عليه السلام « أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها[٤] » وفي حديث « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا[٥] » وقال حذيفة رضى الله عنه « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[٦] » وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه بريء من النفاق وقال حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الايمان وكماله وهو خفيّ وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه بريء منه فقد قيل للحسن البصري يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق وقال هو أو غيره لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا

(١) حديث الايمان عريان تقدم في العلم (٢) حديث أربع من كنّ فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث القلوب أربعة قلب أجرد الحديث أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه (٤) حديث أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر (٥) حديث الشرك أخفى في أمتي من دبيب النملة على الصفا أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى وسيأتي في ذم الجاه والرياء (٦) حديث حذيفة كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا الحديث أحمد باسناد فيه جهالة وحديث حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث البخاري إلا أنه قال شر بدل أكثر .

هذه المعارف ولا يدفع ظهور هذه إلا معاند أو جاهل سيرة السلف وماجرى بينهم ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبى أن يذعن لتعلم ما زاد على ما عنده لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخلود في النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ولعلك تقول قد قال في مواطن أخرى إلا بحقها ثم تقول اعتقاد باقي الصفات التي بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعزّ وكماله من حقها نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يعتقدها وأما من خلا من اعتقادها ولم يقو له أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ وفي مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر هذا وأنت

«وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا يسمع أكنت تتكلم فيه فقال لا فقال: كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١) وقال صلى الله عليه وسلم «من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة» وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه» وقيل للحسن إن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق وقال والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحب إليّ من تلاع الأرض ذهبا وقال الحسن إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه إني أخاف أن أكون منافقا فقال لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن المنافق قد أمن من النفاق وقال ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين ومائة وفي رواية خمسين ومائة من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافون النفاق وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا رجلا وأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا يارسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه فقال صلى الله عليه وسلم أرى على وجهه سفعة من الشيطان، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك فقال اللهم نعم»(٢) وقال ﷺ في دعائه «اللهم إني أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم فقيل له أتخاف يارسول الله فقال وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد قال سبحانه - وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون(٣)» قيل في التفسير عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات وقال سري السقطي لو أن إنسانا دخل بستانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة فقال السلام عليك ياولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيرا في يديها فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين وقال أبو سليمان الداراني سمعت من بعض الأمراء شيئا فأردت أن أنكر فخفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فكففت وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله فالنفاق نفاقان أحدهما يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار والثاني يفضي بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية والأمن من مكر الله والعجب وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصديقون.

الوجه الرابع: وهو أيضا مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فانه لا يدري أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا فان ختم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ولو سئل

تسمع عن الله عز وجل يقول في الآخرة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الإيمان إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين لأن التقدير وقع في الإيمان لا في الأعمال فان قلت فان من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ولم يقصدها دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها قلنا قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تعسف ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك لبدا له أنه تسبب إلى مايظهر له من تصوره عن معرفة شرطها في إيمان غيره ولا ثر من حسه الركون إلى ما رأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب

---

(١) حديث سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج (٢) حديث كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء الحديث أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس (٣) حديث اللهم إني أستغفرك لما علمت ومالم أعلم الحديث مسلم من حديث عائشة اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر مالم أعمل ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل وشر ما أعلم وشر مالا أعلم.

الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال أنا صائم قطعا فلو أفطر فى أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الايمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه والعاقبة مخوفة ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التى لاتظهر إلا بظهور المقضى به ولا مطلع عليه لأحد من البشر فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر فى الحال ماسبقت الكلمة بنقيضه فمن الذى يدرى أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى وقيل فى معنى قوله تعالى ـ وجاءت سكرة الموت بالحق ـ أى بالسابقة يعنى أظهرتها . وقال بعض السلف إنما يوزن من الأعمال خواتيمها وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله مامن أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك وقيل هى عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين لو عرضت علىّ الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لا أدرى مايعرض لقلبى من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار . وقال بعضهم لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بينى وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد وفى الحديث «من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل(١)» وقيل فى قوله تعالى ـ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ـ صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك ـ وقد قال تعالى ـ ولله عاقبة الأمور ـ فمهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الايمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة ومافسد قبل الغروب لايبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الايمان بل لايبعد أن يسأل عن الصوم الماضى الذى لايشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقى هو المقبول والمقبول غائب عنه لايطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء فى جميع أعمال البر ويكون ذلك شكا فى القبول إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لايطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه فهذه وجوه حسن الاستثناء فى الجواب عن الايمان وهى آخر ماتختم به كتاب قواعد العقائد تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(كتاب أسرار الطهارة وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافه، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه، وأعد لظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالرقة واللطافه ، وصلى الله على النبى محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافه ، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفه . أما بعد : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «بنى الدين على النظافة (٢)»

ولعدل عن مذهبه ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم لم يبقوا اسم الكفر عليهم ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق فاذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ماقالوه ونقص ماقالوا إليه فلنرجع الى مانحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل وأما أرباب الحالة الثالثة وهى اعتقاد البدعة فى الصفات أو بعضها فان حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا وإسلامهم حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه اذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر لأن هؤلاء قد حصل لهم فى العقد ماهو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم وأصيبوا فيما وراء ذلك فان أمكن ردهم فى الدنيا وزجرهم عنه أن أظهروا النع عن الاقلاع والرجوع

---

(١) حديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل الطبرانى فى الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبى سليم تقدم والشطر الأول روى من قول يحيى بن أبى كثير رواه الطبرانى فى الأصغر بلفظ من قال أنا فى الجنة فهو فى النار وسنده ضعيف .

(كتاب الطهارة)

(٢) حديث بنى الدين على النظافة لم أجده هكذا وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة تنظفوا فان الاسلام نظيف والطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود النظافة تدعو إلى الايمان.

وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الصلاة الطهور(١) » وقال الله تعالى ـ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ـ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الايمان(٢) » قال الله تعالى ـ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ـ فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الايمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخباث والأقذار هيهات هيهات والطهارة لها أربع مراتب : المرتبة الأولى تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات . المرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام . الرتبة الثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة . الرتبة الرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها فان الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه ولذلك قال الله عز وجل ـ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ـ لأنهما لا يجتمعان في قلب ـ وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ـ وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شطر الايمان بهذا المعنى وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني فهذه مقامات الايمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تظنن أن هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينى ، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالاضافة إلى اللب المطلوب فصار يمعن فيها ويستقصي في مجاريها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساهلهم في أمر الظاهر حتى إن عمر رضي الله عنه مع علو منصبه توضأ من ماء في جرة نصرانية وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليد من الدسومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخمص أقدامهم وعدوا الأشنان من البدع المحدثة ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات ومن كان لا يجعل بينه وبين الأرض حاجزا في مضجعه كان من أكابرهم وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : « كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى ثم نفركها بالتراب ونكبر(٣) » وقال عمر رضي الله عنه :

(١) حديث مفتاح الصلاة الطهور د ت ه من حديث علي قال الترمذي هذا أصح شيء في هذا الباب وأحسن (٢) حديث الطهور نصف الايمان ت من حديث رجل من بني سليم وقال حسن ورواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ شطر كما في الإحياء (٣) حديث كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصباء الحديث ه من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ولم أره من حديث أبي هريرة.

بالعقوبة المؤلمة دون قتل كان ذلك وإن قالوا بالموت لم تقصر هم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم والله أعلم بالناجي والهالك من خلقه والمطيع والعاصي من عباده هكذا ينبغي أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين وفهم معنى قوله عز وجل ـ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ـ . فان قلت وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة وقول النبي صلى الله عليه وسلم في القدرية « إنهم مجوس هذه الأمة » وقوله صلى الله عليه وسلم « ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » وقال عن

« ما كنا نعرف الأشنان فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا بطون أرجلنا كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها [1] » ويقال أول ماظهر من البدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع المناخل والأشنان والموائد والشبع فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم الصلاة فى النعلين أفضل « لأن رسول الله ﷺ لما نزع نعليه فى صلاته بإخبار جبرائيل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعتم نعالكم [2] » وقال النخعى فى الذين يخلعون نعالهم وددت لو أن محتاجا جاء إليها فأخذها منكرا لخلع النعال فهكذا كان تساهلهم فى هذه الأمور بل كانوا يمشون فى طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون فى المساجد على الأرض ويأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه ولا يحترزون من عرق الإبل والخيل مع كثرة تمرغها فى النجاسات ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال فى دقائق النجاسات فهكذا كان تساهلهم فيها وقد انتهت النوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هى مبنى الدين فأكثر أوقاتهم فى تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافيا أو صلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من أدم أو توضأ من آنية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه النكير ولقبوه بالقذر وأخرجوه من زمرتهم واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته فسموا البذاذة التى هى من الايمان قذارة والرعونة نظافة فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكرا وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه.

فان قلت أفتقول إن هذه العادات التى أحدثها الصوفية فى هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات . فأقول حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ولكنى أقول إن هذا التنظيف والتكلف وإعداد الأوانى والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المقنع به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهى من المباحات وقد يقترن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات فأما كونها مباحة فى نفسها فلا يخفى أن صاحبها متصرف بها فى ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها مايريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف وأما مصيرها منكرا فبأن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله ﷺ « بنى الدين على النظافة » حتى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الأولين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرهم فان ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكرا بهذين الاعتبارين وأما كونه معروفا فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لاينكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره فاذا لم يقترن به شىء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل قربة بالنية ولكن لايتيسر ذلك إلا للبطالين الذين لولم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لايعنى فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارات يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف . وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغى أن

قوم « يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول خير البرية أو من قول خير البرية يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه مما توجب فى الظاهر تكفيرهم بالاطلاق فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أبقى عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم وكل فريق منهم فى مقابلة من خالفه فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم فهو عليه الصلاة والسلام حين قال مجوس هذه الأمة أضافهم إلى الأمة وما حكم بأن لم يقل مجوس على الاطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم فى النار فما أخبر أنهم خالدون فيها وحين قال يمرقون من الدين كما يمرق السهم

(١) حديث عمر ما كنا نعرف الأشنان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا باطن أرجلنا الحديث لم أجده من حديث عمر ولابن ماجه نحوه مختصرا من حديث جابر (٢) حديث خلع نعليه فى الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة د ك وصححه من حديث أبى سعيد الخدرى .

يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر فى حقهم وتضييع العمر الذى هو أنفس الجواهر وأعزها فى حق من قدر على الانتفاع به ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ولا ينبغى للبطال أن يترك النظافة وينكر على المتصوفة ويزعم أنه يتشبه بالصحابة إذ التشبه بهم فى أن لا يتفرغ إلا لما هو أهم منه كما قيل لداود الطائى لم لا تسرح لحيتك؟ قال إنى إذن لفارغ فلهذا لا أرى للعالم ولا للمتعلم ولا للعامل أن يضيع وقته فى غسل الثياب احترازا من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهما بالقصار تقصيرا فى الغسل فقد كانوا فى العصر الأول يصلون فى الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرق بين المقصورة والمدبوغة فى الطهارة والنجاسة بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظرهم فى استنباط الاحتمالات الدقيقة بل كانوا يتأملون فى دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثورى لرفيق له كان يمشى معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور لا تفعل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الاسراف فالناظر إليه معين له على الاسراف فكانوا يعدون حمام الذهن لاستنباط مثل هذه الرقائق لا فى احتمالات النجاسة فلو وجد العالم عاميا يتعاطى له غسل الثياب محتاطا فهو أفضل فإنه بالاضافة إلى التساهل خير وذلك العامى ينتفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمارة بالسوء بعمل المباح فى نفسه فيمتنع عليه المعاصى فى تلك الحال والنفس إن لم تشغل بشىء شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظا عليه وأشرف وقت العامى أن يشتغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على البعض فتدقيق الحساب فى حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق فى أمور الدنيا بحذافيرها وإذا عرفت هذه المقدمة واستبنت أن الطهارة لها أربع مراتب . فاعلم أنا فى هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا فى المرتبة الرابعة وهى نظافة الظاهر لأنا فى الشطر الأول من الكتاب لا نتعرض قصدا إلا للظواهر فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام طهارة عن الخبث وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن وهى التى تحصل بالقلم والاستحداد واستعمال النورة والختان وغيره .

(القسم الأول فى طهارة الخبث والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والازالة)

(الطرف الأول فى المزال)

وهى النجاسة . والأعيان ثلاثة جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر وكل منتبذ مسكر والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة الآدمى والسمك والجراد ودود التفاح وفى معناه كل ما يستحيل من الأطعمة وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شىء منها فيه وأما أجزاء الحيوانات فقسمان : أحدهما ما يقطع منه وحكمه حكم الميت والشعر لا ينجس بالجز والموت والعظم ينجس . الثانى الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلا ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط وما له مقر وهو مستحيل نجس إلا ما هو مادة الحيوان كالمنى والبيض والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها ولا يعفى عن شىء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة: الأول أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفى عنه ما لم يعد المخرج . والثانى طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعفى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه وهو الذى لا ينسب المتلطخ به إلى تفريط أو سقطة . الثالث ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعفى عنه بعد الدلك للحاجة. الرابع دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا جاوز حد العادة سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته. الخامس دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد ودلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجه

من الرمية فقد قال متصلا بهذا القول وتتبارى فى الفرق وما موضع هذا التمارى من المثل الذى ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنى أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى وتذكر شيئا وتذهل عن غيره عليك بالعدل تكن من أهله واستعمل التفطن تشاهد العجائب العجيبة وتفهم قول الله - وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا - .

[فصل] ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا وتفرده عن المعرفة قريبا ممن رآه ألقى عليه شبه القشر الثانى من الجوز لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صونا وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما للمحتاج وبلاغا للجائع وبالجملة فهو لمن لا شىء معه خير من فقده

خرج منها الدم وصلى لم يغسل وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالبا وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادرا من خراج أوغيره فيلحق بدم الاستحاضة ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الانسان عنها فى أحواله ومساعحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها .

(الطرف الثانى فى المزال به)

وهو إما جامد وإما مائع أما الجامد فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلبا طاهرا منشفا غير محترم وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشىء منها إلا الماء ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أولونه أوريحه فان لم يتغير وكان قريبا من مائتين وخمسين منا وهو خمسمائة رطل برطل العراق لم ينجس لقوله صلى الله عليه وسلم «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا(١)» وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعى رضى الله عنه هذا فى الماء الراكد وأما الماء الجارى إذا تغير بالنجاسة فالجارية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها لأن جريات الماء متفاصلات وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع فى حوض قدر قلتين وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجسا بالتفريق هذا هو مذهب الشافعى رضى الله عنه وكنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضى الله عنه فى أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير إذ الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشتراط القلتين ولأجله شق على الناس ذلك وهو لعمرى سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله ومما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطا لكان أولى المواضع بتعسر الطهارة مكة والمدينة إذلا يكثر فيهما المياه الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة فى الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات وكانت أوانى مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات وقد توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية وهذا كالصريح فى أنه لم يعول إلا على عدم تغير الماء وإلا فنجاسة النصرانية وإنائها غالبة تعلم بظن قريب فاذا عسر القيام بهذا المذهب وعدم وقوع السؤال فى تلك الأعصار دليل أول وفعل عمر رضى الله عنه دليل ثان والدليل الثالث إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء للهرة(٢) وعدم تغطية الأوانى منها بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الآبار . والرابع أن الشافعى رضى الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه وأى معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة وان أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضا ماسة الى هذا فلا فرق بين طرح الماء فى إجانة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس فى الاجانة وفيها ماء وكل ذلك معتاد فى غسل الثياب والأوانى . والخامس أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف فى مذهب الشافعى رضى الله عنه أنه إذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وان كان قليلا وأى فرق بين الجارى والراكد وليت

(١) حديث اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر (٢) حديث إصغاء الاناء للهرة الطبرانى فى الأوسط والدارقطنى من حديث عائشة وروى أصحاب السنن ذلك من فعل أبى قتادة .

وكذلك اعتقاد التوحيد وان كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشىء من الأدلة ضعيفا فهو فى الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ومتى ركب أحد هذا فقد وقع فى أعظم الحرج والمنكر . [بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين] والكلام فى هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود : أحدها أن يتكلم فى الأسباب التى توصل إليه والمسالك التى يعبر عليها نحوه والأحوال التى يتخذها بحصوله كاقدره العز بن العليمى واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم والحد الثانى أن يكون الكلام فى عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمشاهدة

شعرى هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ثم ماحد تلك القوة أتجرى فى المياه الجارية فى أنابيب الحمامات أم لا فان لم تجر فما الفرق وإن جرت فما الفرق بين مايقع فيها وبين مايقع فى مجرى الماء من الأوانى على الأبدان وهى أيضا جارية ثم البول أشد اختلاطا بالماء الجارى من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن ماجرى عليها وإن لم يتغير نجس إلى أن يجتمع فى مستنقع قلتان فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة . والسادس أنه اذا وقع رطل من البول فى قلتين ثم فرقتا فكل كوز يغترف منه طاهر ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل وليت شعرى هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة كثرة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها . والسابع أن الحمامات لم تزل فى الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدى والأوانى فى تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأيدى النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى فى النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معولين على قوله صلى الله عليه وسلم «خلق الماء طهورا لاينجسه شىء إلا ماغير طعمه أولونه أوريحه[1]» وهذا فيه تحقيق وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل مايقع فيه وكان مغلوبا من جهته فكما ترى الكلب يقع فى المملحة فيستحيل ملحا ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وزوال الصفة الكلبية عنه فكذلك الخل يقع فى الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلبته بغلبة طعمه أولونه أوريحه فهذا المعيار وقد أشار الشرع إليه فى الماء القوى على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعول عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهورا إذ يغلب عليه فيطهره كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفى الغسالة وفى الماء الجارى وفى إصغاء الاناء للهرة ولاتظن ذلك عفوا إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقى له نجسا ولا ينجس بالغسالة ولا بولوغ السنور فى الماء القليل وأما قوله صلى الله عليه وسلم «لايحمل خبثا» فهو فى نفسه مبهم فانه يحمل إذا تغير . فان قيل أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه فى الغالب لايتغير بالنجاسات المعتادة ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين وترك للمفهوم بأقل من الأدلة التى ذكرناها ممكن وقوله لايحمل خبثا ظاهره نفى الحمل أى يقلبه إلى صفة نفسه كما يقال للمملحة لاتحمل كلبا ولا غيره أى ينقلب وذلك لأن الناس قد يستنجون فى المياه القليلة وفى الغدران ويغمسون الأوانى النجسة فيها ثم يترددون فى أنها تغيرت تغيرا مؤثرا أم لا فتبين أنه إذا كان قلتين لايتغير بهذه النجاسة المعتادة . فان قلت فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «لايحمل خبثا» ومهما كثرت حملها فهذا ينقلب عليك فانها مهما كثرت حملها حكما كما حملها حسا فلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعا وعلى الجملة فميلى فى أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهما من سيرة الأولين وحسما لمادة الوسواس وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه فى مثل هذه المسائل .

(الطرف الثالث فى كيفية الإزالة)

والنجاسة إن كانت حكمية وهى التى ليس لها جرم محسوس فيكفى إجراء الماء على جميع مواردها وإن كانت عينية فلابد من إزالة العين وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص أما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين ولايعفى عنها إلا إذا كان الشىء له رائحة فائحة يعسر إزالتها فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص فى اللون

(١) حديث خلق الله الماء طهورا لاينجسه شىء إلا ماغير لونه أوطعمه أوريحه ه من حديث أبى أمامة باسناد ضعيف وقد رواه بدون الاستثناء د ن ت من حديث أبى سعيد وصححه د وغيره .

والحد الثالث فى ثمرات ذلك التوحيد ومايلق أهله به ويطلعون عليه بسببه ويكرمون به من أجله ويتحققون من فوائد المزيد من جهته أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لدقائقه وتدلله للصغير والكبير مأمور به مشدد فى أمره متوعد بالنار على كتمه فيه بعث الأنبياء ومن أجله أرسل الرسل وببيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب وليقع التفقه فى القلوب بتحقيقه وتصديقه أيدت الرسل بالمعجزات والأولياء والأنبياء بالكرامات لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه وفيه أنزل الله يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته وإياه عنى رسول الله

والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما لايشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقينا يصلى معه ولا ينبغى أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات . القسم الثانى طهارة الأحداث : ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء ، فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى .

(باب آداب قضاء الحاجة)

ينبغى أن يبعد عن أعين الناظرين فى الصحراء وأن يستتر بشىء إن وجده وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس وأن لايستقبل الشمس والقمر وأن لايستقبل القبلة ولايستدبرها إلا إذا كان فى بناء والعدول أيضا عنها فى البناء أحب وإن استتر فى الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله وأن يتقى الجلوس فى متحدث الناس وأن لايبول فى الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا فى الجحر وأن يتقى الموضع الصلب ومهاب الرياح فى البول استنزاها من رشاشه وأن يتكىء فى جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان فى بنيان يقدم الرجل اليسرى فى الدخول واليمنى فى الخروج ولا يبول قائما قالت عائشة رضى الله عنها « من حدثكم أن النبى ﷺ كان يبول قائما فلا تصدقوه[١] » وقال عمر رضى الله عنه « رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال : ياعمر لاتبل قائما[٢] » قال عمر فما بلت قائما بعد ، وفيه رخصة إذ روى حذيفة رضى الله عنه « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما فأتيته بوضوء فتوضأ ومسح على خفيه[٣] » ولايبول فى المغتسل قال صلى الله عليه وسلم « عامة الوسواس منه[٤] » وقال ابن المبارك قد وسع فى البول فى المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذى وقال عليه الصلاة والسلام « لا يبولن أحدكم فى مستحمه ثم يتوضأ فيه فان عامة الوسواس منه » وقال ابن المبارك إن كان الماء جاريا فلا بأس به ولا يستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ولايدخل بيت الماء حاسر الرأس وأن يقول عند الدخول بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم وعند الخروج الحمد لله الذى أذهب عنى مايؤذينى وأبقى على ماينفعنى ويكون ذلك خارجا عن بيت الماء وأن يعد النبل قبل الجلوس وأن لايستنجى بالماء فى موضع الحاجة وأن يستبرىء من البول بالتنحنح والنتر ثلاثا وإمرار اليد على أسفل القضيب ولا يكثر التفكر فى الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء فان كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى فى نفسه ذلك ولايتسلط عليه الشيطان بالوسواس وفى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعنى رش الماء[٥] وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه وفى حديث سلمان رضى الله عنه « علمنا رسول الله ﷺ كل شىء حتى الخراءة فأمرنا أن لانستنجى بعظم ولاروث ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول[٦] » وقال رجل لبعض الصحابة من العرب وقد

(١) حديث عائشة من حدثكم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه ت ن ه قال ت هو أحسن شىء فى هذا الباب وأصح (٢) حديث عمر رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال ياعمر لاتبل قائما ابن ماجه باسناد ضعيف ورواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر (٣) حديث أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما الحديث متفق عليه (٤) حديث قال فى البول فى المغتسل عامة الوسواس منه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل قال الترمذى غريب قلت واسناده صحيح (٥) حديث رش الماء بعد الوضوء وهو الانتضاح د ن ه من حديث سفيان بن الحكم الثقفى أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قال ت وابن عبد البر (٦) حديث سلمان علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخراءة الحديث م وقد تقدم فى قواعد العقائد .

صلى الله عليه وسلم بقوله « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وجميع ذلك محصور فى اثنتين العلم بالعبرة والعمل بالسنة وهما مبنيان على آيتين الحرص الشديد والنية الخالصة والسر فى تحصيلهما اثنان نظافة الباطن وسلامة الجوارح ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة وأما الحد الثانى فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الأمثال تشبيها بالرمز تارة وبالتصريح أخرى ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود وينكشف له جل مايشار إليه إذا كان سالما من شرك التعصب بعيدا من هوة الهوى نظيفا من دنس التقليد ، وأما الحد الثالث فلا سبيل إلى ذكر شىء منه إلا مع أهله بعد علمهم به على

خاصمه لأحسبك تحسن الخراءة قال بلى وأبيك إنى لأحسنها وإنى بها لحاذق أبعد الأثر وأعد المدر وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعى إقعاء الظبى وأجفل إجفال النعام . الشيح نبت طيب الرائحة بالبادية، والاقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه ، والاجفال أن يرفع عجزه ومن الرخصة أن يبول الانسان قريبا من صاحبه مستترا عنه(١) فعل ذلك رسول الله ﷺ مع شدة حيائه ليبين للناس ذلك.

(كيفية الاستنجاء)

ثم يستنجى لمقعدته بثلاثة أحجار فان أنقى بها كفى وإلا استعمل رابعا فان أنقى استعمل خامسا لأن الانقاء واجب والإيتار مستحب قال عليه السلام « من استجمر فليوتر(٢) » ويأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المقعدة قبل موضع النجاسة ويمره بالمسح والادارة إلى المؤخر ويأخذ الثانى ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدمة ويأخذ الثالث فيديره حول المسربة إدارة فان عسرت الادارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزأه ثم يأخذ حجرا كبيرا بيمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثا فى ثلاثة مواضع أو فى ثلاثة أحجار أو فى ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الرطوبة فى محل المسح فان حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للايتار ثم ينتقل من ذلك الوضع إلى موضع آخر ويستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجو ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللمس ويترك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فان ذلك منبع الوسواس وليعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحد ظهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس ويقول عند الفراغ من الاستنجاء اللهم طهر قلبى من النفاق وحصن فرجى من الفواحش ويدلك يده بحائط أو بالأرض إزالة للرائحة إن بقيت والجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى « أنه لما نزل قوله تعالى ـ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ـ قال رسول الله ﷺ لأهل قباء ماهذه الطهارة التى أثنى الله بها عليكم قالوا كنا نجمع بين الماء والحجر(٣) »

(كيفية الوضوء)

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله ﷺ قط خارجا من الغائط إلا توضأ ويبتدى بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك(٤) » فينبغى أن ينوى عند السواك تطهير فمه لقراءة القرآن وذكر الله تعالى فى الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث البول قريبا من صاحبه متفق عليه من حديث حذيفة (٢) حديث من استجمر فليوتر متفق عليه فى حديث أبى هريرة (٣) حديث لما نزل قوله تعالى ـ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ـ الحديث من أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ك وصححه من حديث أبى أيوب وجابر وأنس فى الاستنجاء بالماء ليس فيه ذكر الحجر وقول النووى تبعا لابن الصلاح إن الجمع بين الماء والحجر فى أهل قباء لا يعرف مردود بما تقدم (٤) حديث إن أفواهكم طرق القرآن أبو نعيم فى الحلية من حديث على ورواه موقوفا على على وكلاهما ضعيف (٥) حديث صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك أبو نعيم فى كتاب السواك من حديث ابن عمر باسناد ضعيف ورواه د ك وصححه والبيهقى وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ من سبعين صلاة .

سبيل التذكار لأهل التعليم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه لأن الحد الأول فيه محض النصح للخلق واستنقاذهم من غمرة الجهل والتسكيب بهم من مهاوى العطب وقودهم إلى معرفة هذا المقام وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر وفوز الأبد وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان وهو يومئذ الطريق وأول سبيل السعادة فمن عجز عن ذلك كان عن غيره أعجز ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ومن وصل شاهد ومن شاهد علم وذلك غاية المطلوب ونهاية المرغوب والمحبوب ومن قصد حرم الوصول وما بعده فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ومن غاب لم تنفعه الأخبار ولم يفده كثير من الأحاديث وأيضا فان الإخبار بما وراء الحد الأول

«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة (١)» وقال صلى الله عليه وسلم «مالي أراكم تدخلون على قلحا استاكوا(٢)» أي صفر الأسنان «وكان عليه السلام يستاك في الليلة مرارا(٣)» وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «لم يزل صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء(٤)»: وقال عليه السلام «عليكم بالسواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب(٥)» وقال علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم(٦). وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم وكيفيته أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح ويستاك عرضا وطولا وإن اقتصر فعرضا ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبه وعند تغير النكهة بالنوم أو طول الأزم أو أكل ما تكره رائحته ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول بسم الله الرحمن الرحيم قال صلى الله عليه وسلم «لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى(٧)» أي لا وضوء كامل ويقول عند ذلك أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ثم يغسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلهما الإناء ويقول اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة ويستديم النية إلى غسل الوجه فان نسيها عند الوجه لم يجزه ثم يأخذ غرفة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثا ويغرغر بأن يرد الماء إلى الغلصمة إلا أن يكون صائما فيرفق ويقول اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول في الاستنشاق اللهم أوجد لي رائحة الجنة وأنت عني راض وفي الاستنثار اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار لأن الاستنشاق إيصال والاستنثار إزالة ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدإ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول ومن الأذن إلى الأذن في العرض ولا يدخل في حد الوجه النزعتان اللتان على طرفي الجبينين فهما من الرأس ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب لأنها خفيفة في الغالب والعذاران هما ما يوازيان الأذنين من مبدإ اللحية ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة أعني ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا وحكم العنفقة حكم اللحية في الكثافة والخفة ثم يفعل ذلك ثلاثا أو يفيض الماء على ظاهر ما استرسل

(١) حديث لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث مالي أراكم تدخلون على قلحا استاكوا البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبد المطلب د والبغوي من حديث تمام بن العباس والبيهقي من حديث عبد الله بن عباس وهو مضطرب (٣) حديث كان يستاك من الليل مرارا م من حديث ابن عباس (٤) حديث ابن عباس لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء رواه أحمد (٥) حديث عليكم بالسواك فانه مطهرة للفم مرضاة للرب البخاري تعليقا مجزوما من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة موصولا قلت وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذي قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الايمان (٦) حديث كان أصحاب رسول الله ﷺ يروحون والسواك على آذانهم الخطيب في كتاب أسماء من روى عن مالك وعند د ت وصححه أن زيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب (٧) حديث لا وضوء لمن لم يسم الله ت ه من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة ونقل ت عن البخاري أنه أحسن شيء في هذا الباب.

والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن عما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب كان فيه زيادة محنة وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام وذلك لغرابة العلم وكثرة غموضه ودقة معناه وعلوه في منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل من جميع ما عهد في عالم الملك والشهادة وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل ما نشئوا عنه ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل كما قال عز وجل: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء وأراد من لم ينكشف له شيء من علمها وحقائقها

من

من اللحية ويدخل الأصابع فى محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما فقد روى أنه عليه السلام فعل ذلك[1] ويأمل عندذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو ويقول عنده اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهى بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك ويخلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فانه مستحب ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثا ويحرك الخاتم ويطيل الغرة ويرفع الماء إلى العضد فانهم يحشرون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء كذلك ورد الخبر قال عليه السلام « من استطاع أن يطيل غرته فليفعل[2] » وروى أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء[3] ويبدأ باليمنى ويقول اللهم أعطنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا ويقول عند غسل الشمال اللهم إنى أعوذ بك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة وهذه مسحة واحدة يفعل ذلك ثلاثا ويقول اللهم غشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لاظل إلا ظلك ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبحتيه فى صماخى أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا ويكرره ثلاثا ويقول اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم « مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة[4] » ويقول اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ثم يغسل رجليه اليمنى ثلاثا ويخلل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام فى النار ويقول عند غسل اليسرى أعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين فاذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى أستغفرك اللهم وأتوب إليك فاغفرلى وتب على إنك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى من عبادك الصالحين واجعلنى عبدا صبورا شكورا واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا يقال إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة . ويكره فى الوضوء أمور منها أن يزيد على الثلاث فمن زاد فقد ظلم وأن يسرف فى الماء « توضأ عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأساء[5] » وقال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور[6] » ويقال من وهن علم الرجل ولوعه بالماء فى الطهور[7] وقال إبراهيم بن أدهم يقال

---

(١) حديث إدخاله الأصبع فى محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل أحمد من حديث أبى أمامة كان يتعاهد الماقين ورواه الدارقطنى من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف أشربوا الماء أعينكم (٢) حديث من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل خرجاه من حديث أبى هريرة (٣) حديث تبلغ الحلية من المؤمن مايبلغ ماء الوضوء أخرجاه من حديثه (٤) حديث مسح الرقبة أمان من الغل أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف (٥) حديث توضأ ثلاثا ثلاثا وقال من زاد فقد أساء وظلم د ن واللفظ له و ه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٦) حديث سيكون قوم من هذه الأمة يعتدن فى الدعاء والطهور د ه وابن حبان و ك من حديث عبد الله بن مغفل (٧) حديث من وهن علم الرجل ولوعه فى الماء فى التطهير لم أجدله أصلا .

فى الدنيا وأيضا فلوجاز الاخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هى عليه بمجرد تقليد ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتبعيد فلهذا أمروا بالكتم إشفاقا على من حجب من العلم ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لاتحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وقال صلى الله عليه وسلم « ماحدث أحدكم قوما بحديث لم تصله عقولهم إلا كان عليهم فتنة » وعلى هذا يخرج قول الشايخ إفشاء سر الربوبية كفر رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير إنه ولى كل صالح وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر عله فى كتب الرواية والدراية وملئت منه الطروس وكثرت به فى المحافل الدروس وهو غير محجوب عن طالب ولا ممنوع عن راغب قد أمر الجهال به أن يتعلموه والعلماء

إن أول مايبتدىء الوسواس من قبل الطهور ، وقال الحسن إن شيطانا يضحك بالناس فى الوضوء يقال له الولهان ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم فى أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطماو كرهقوم التنشيف وقالوا الوضوء يوزن قاله سعيدبن المسيب والزهرى لكن روى معاذ رضى الله عنه « أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه[١] » وروت عائشة رضى الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة[٢] » ولكن طعن فى هذه الرواية عن عائشة ويكره أن يتوضأ من إناء صفر وأن يتوضأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطب وقد روى عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما كراهية إناء الصفر وقال بعضهم أخرجت لشعبة ماء فى إناء صفر فأبى أن يتوضأ منه ونقل كراهية ذلك عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغى أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهوموضع نظر الخلق فينبغى أن يستحى من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه وليتحقق أن طهارة القلب بالتوبة والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكا إلى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البرانى من الدار وماأجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوار والله سبحانه وتعالى أعلم .

(فضيلة الوضوء)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى الركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[٣] » وفى لفظ آخر « ولم يسه فيهما غفر له ماتقدم من ذنبه » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ثلاث مرات[٤] » « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة وقال هذا وضوء لايقبل الله الصلاة إلا به وتوضأ مرتين مرتين وقال من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين وتوضأ ثلاثا ثلاثا وقال هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام[٥] » وقال ﷺ « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء[٦] » وقال ﷺ « من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات[٧] » وقال ﷺ « الوضوء على الوضوء نور على نور[٨] » وهذا كله حث على تجديد الوضوء

(١) حديث معاذ أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه ت وقال غريب و إسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له منشفة ت وقال ليس بالقائم قال ولا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب شىء (٣) حديث من توضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشىء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وفى لفظ آخر لم يسه فيهما غفر له ماتقدم من ذنبه ابن المبارك فى كتاب الزهد والرقائق باللفظين معا وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله بشىء من الدنيا ودون قوله لم يسه فيهما و د من حديث زيد بن خالد ثم صلى ركعتين لايسهو فيهما الحديث (٤) حديث ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات الحديث م عن أبى هريرة (٥) حديث توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به الحديث ه من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٦) حديث من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله الحديث الدارقطنى من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف (٧) حديث من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات د ت ه من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٨) حديث الوضوء على الوضوء نور على نور لم أجد له أصلا .

أن يبذلوه ويعلموه فلانعيد فيه ههنا قولا ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى محدودات الشرع فلنثن العنان إلى الكلام بالذى يليق بهذا الحال والمقام فنقول : أرباب المقام الثالث فى التوحيد هم المقربون على ثلاثة أصناف ، وعلى الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة وجميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ولاحظوا جلاله وجماله بخفى أسرارهم وهم مع ذلك فى درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم فى اليقين وصفاء القلب وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته

وقال

وقال عليه السلام « إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له[1] » ويروى « إنّ الطاهر كالصائم[2] » وقال عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء[3] » وقال عمر رضي الله عنه: إنّ الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان وقال مجاهد من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإنّ الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

(كيفية الغسل)

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمي الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً ثم يستنجي كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ثم على شقه الأيسر ثلاثاً ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوضوء وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل فهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها ما لابد لسالك طريق الآخرة من علمه وعمله وما عداه من المسائل التي يحتاج إليها في عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران النية واستيعاب البدن بالغسل. وفرض الوضوء النية وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب ، وأما الموالاة فليست بواجبة والغسل الواجب بأربعة بخروج المنيّ والتقاء الختانين والحيض والنفاس وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والاحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع على قول والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتاً فكل ذلك مستحب.

(كيفية التيمم)

من تعذر عليه استعمال الماء لفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعطش رفيقه أو كان ملكاً لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ويضرب عليه

(١) حديث إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه الحديث د ه من حديث الصنابحي إسناده صحيح ولكن اختلف في صحبته وعند م من حديث أبي هريرة وعمرو بن عنبسة نحوه مختصراً (٢) حديث الطاهر النائم كالصائم أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث الطاهر النائم كالصائم القائم وسنده ضعيف (٣) حديث من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله الحديث د من حديث عقبة بن عامر وهو عند م من دون قوله ثم رفع هكذا عزاه المزي في الأطراف وقد رواه في اليوم والليلة من رواية عقبة بن عامر وكذا رواه الدارمي في مسنده .

واقسامهم في تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلا فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيرا منه دون كاله ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه متوقف على الانبهار في قراءته ومن حافظ في تلاوته غير متوقف في شيء منه وكلهم ينسب إليه ويعد في الشهد والغيب من أهله وكذلك أهل هذه الرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات أو كثير منها وربما كان فيما يقرأ من الصفحات ما يغم عليه ومن قارئ لجميعها متفهم لها لكن بنوع تعب ولزوم فكرة ومداومة عبرة ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها ناقد البصيرة في رؤية حقيقتها مفتوح السمع تناطقه الأشياء في فراغه وشغله وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم في الخوف والرجاء والقبض والبسط

كفيه ضاما بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة وينوي عند ذلك استباحة الصلاة ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت ويجتهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فان عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين ويكفي في الاستيعاب غالب الظن ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج بين أصابعه ثم يلصق ظهور أصابع يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى بحيث لا يجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عن المسبحة من الأخرى ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ثم يفعل باليسرى كذلك ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة فان عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء فان جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم للثانية وهكذا يفرد كل فريضة بتيمم والله أعلم.

(القسم الثالث : في النظافة والتنظيف عن الفضلات الظاهرة، وهي نوعان أوساخ وأجزاء)

(النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترشحة وهي ثمانية)

الأول ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للشعث عنه «وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر ويرجله غبا ويأمر به (١)» ويقول عليه الصلاة والسلام: «ادهنوا غبا (٢)» وقال عليه الصلاة والسلام «من كان له شعرة فليكرمها (٣)» أي ليصنها عن الأوساخ «ودخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال يدخل أحدكم كأنه شيطان (٤)» الثاني ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر الصماخ فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام فان كثرة ذلك ربما تضر بالسمع. الثالث ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار . الرابع ما يجتمع على الاسنان وطرف اللسان من القلح فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناهما . الخامس ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط وفي الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم «كان لا يفارقه المشط والمدرى والمرآة في سفر ولا حضر (٥)» وهي سنة العرب وفي خبر غريب أنه صلى الله عليه وسلم كان يسرح لحيته في اليوم مرتين (٦) وكان صلى الله عليه وسلم كث اللحية (٧) وكذلك كان أبو بكر. وكان عثمان طويل اللحية رقيقها.

(١) حديث كان يدهن الشعر ويرجله غبا الترمذي في الشمائل باسناد ضعيف من حديث أنس كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته وفي الشمائل أيضا باسناد حسن من حديث صحابي لم يسم أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غبا (٢) حديث ادهنوا غبا قال ابن الصلاح لم أجد له أصلا وقال النووي غير معروف وعند د ت ن من حديث عبد الله بن مغفل النهي عن الترجل إلا غبا باسناد صحيح (٣) حديث من كانت له شعرة فليكرمها من حديث أبي هريرة وقال به شعر فليكرمه وليس إسناده بالقوي (٤) حديث دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره الحديث د ت وابن حبان من حديث جابر باسناد جيد (٥) حديث كان لا يفارقه المشط والمدرى في سفر ولا حضر ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة وإسنادهما ضعيف وسيأتي في آداب السفر مطولا (٦) حديث كان يسرح لحيته كل يوم مرتين تقدم حديث أنس كان يكثر تسريح لحيته وللخطيب في الجامع من حديث الحكم مرسلا كان يسرح لحيته بالمشط (٧) حديث كان كث اللحية ت في الشمائل من حديث هند ابن أبي هالة وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي وأصله عند ت .

والفناء والبقاء ولا مزيد على هذا المثال فهو أصلح لذوي الأفهام من شمس النهار وقت الزوال وعلمت لم سمى أهل هـذه الرتبة مقربين فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ولا أبعد من الجاهل ولا أقرب من العارف العالم والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز في لسان الجمهور وعلى الحقيقة عند المستعملين لهما في هذا الفن احدى الحالتين عماء البصيرة وانطماس القلب والخلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ويسمى هذا بعدا مأخوذا من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب وموضع العمارة والأنس والانقطاع في مهامه القفر وأمكنة الخوف ومظان الانفراد والوحشة والحالة الثانية عبارة عن اتقاد الباطن واشتعال القلب وانفساح الصدر بنور اليقين والمعرفة

وكان على عريض اللحية قدملأت ما بين منكبيه وفى حديث أغرب منه قالت عائشة رضى الله عنها « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيته يطلع فى الحب يسوى من رأسه ولحيته فقلت أوتفعل ذلك يارسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم[١] » والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياسا على أخلاق غيره وتشبيها للملائكة بالحدادين وهيهات فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمورا بالدعوة وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره أعينهم فينفرهم ذلك ويتعلق المنافقون بذلك فى تنفيرهم وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل وهو أن يراعى من ظاهره مالا يوجب نفرة الناس عنه والاعتماد فى مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال فى أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود فالتزين على هذا القصد محبوب وترك الشعث فى اللحية إظهارا للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلا بما هو أهم منه محبوب وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل والناقد بصير والتلبيس غير رائج عليه بحال وكم من جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاتا إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعم أن قصده الخير فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمجادلين والتقرب إلى الله تعالى به وهذا أمر ينكشف ـ يوم تبلى السرائر ـ ويوم يبعثر ما فى القبور ويحصل ما فى الصدور ، فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من البهرجة فنعوذ بالله من الخزى يوم العرض الأكبر . السادس وسخ البراجم وهى معاطف ظهور الأنامل كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع فى تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم[٢] . السابع تنظيف الرواجب[٣] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهى رءوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا تحضرها المقراض فى كل وقت فتجتمع فيها أوساخ فوقت لهم رسول الله ﷺ قلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوما[٤] لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيف ما تحت الأظفار[٥] وجاء فى الأثر « أن النبى صلى الله عليه وسلم استبطأ الوحى فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم وقلحا لا تستاكون مر أمتك بذلك[٦] » والأف وسخ الظفر والتف وسخ الأذن وقوله عز وجل ـ فلا تقل لهما أف ـ تهما أى بما

والعقل وعمارة البيت بمشاهدة ما غاب عنه أهل الغفلة واللهو ولكنه يدل على أنه لم يصل لعلك تقول أرى بعض أئمة الكلام عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ولم يفز قدحهم منه بحظ ولا سهم وأراهم عند الجمهور فى الظاهر وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى وقادة الخلق إلى مراشدهم ويجاهدون أرباب النحل الردية والملل الضالة المهلكة وقد سبق فى الإحياء أنهم مع العوام فى الاعتقاد سواء وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم . فاعلم أن ما رأيت فى الإحياء صحيح ولكن بقى فى كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين إذا كانوا منصفين وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط لم يفارقوا عقود العوام وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام. والجدل علم لفظى وأكثره

(١) حديث عائشة اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيته يطلع فى الحب يسوى من رأسه ولحيته ابن عدى وقال حديث منكر (٢) حديث الأمر بغسل البراجم الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث عبد الله بن بسر نقوا براجمكم ولابن عدى فى حديث لأنس وأن يتعاهد البراجم إذا توضأ ولمسلم من حديث عائشة عشر من الفطرة وفيه وغسل البراجم (٣) حديث الأمر بتنظيف الرواجب أحمد من حديث ابن عباس أنه قيل له يارسول الله لقد أبطأ عنك جبريل فقيل ولم لا يبطئ وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظفاركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون رواجبكم وفيه إسماعيل بن عياش (٤) حديث التوقيت فى قلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوما م من حديث أنس (٥) حديث الأمر بتنظيف ما تحت الأظفار الطبرانى من حديث وابصة بن سعيد سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن كل شىء حتى سألته عن الوسخ الذى يكون بين الأظفار فقال دع ما يريبك إلى مالا يريبك (٦) حديث استبطاء الوحى فلما هبط عليه جبريل قال له كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم تقدم قبل هذا بحديثين

تحت الظفر من الوسخ وقيل لاتتأذ بهما كما تتأذى بما تحت الظفر . الثامن الدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الحمام ولابأس بدخول الحمام ،دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار روى ذلك عن أبى الدرداء وأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنهما وقال بعضهم بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء فهذا تعرض لآفته وذاك تعرض لفائدته ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات ، فعليه واجبان فى عورته وواجبان فى عورة غيره أما الواجبان فى عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلايتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده ويمنع الدلاك من مس الفخذ ومابين السرة إلى العانة وفى إباحة مس ما ليس بسوأة لازالة الوسخ احتمال ولكن الأقيس التحريم إذ ألحق مس السوأتين فى التحريم بالنظر فكذلك ينبغى أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين ، والواجبان فى عورة الغير أن يغض بصر نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النهى عن المنكر واجب وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولايسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أوشتم أومايجرى عليه مما هو حرام فى نفسه فليس عليه أن ينكر حراما يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر فأما قوله اعلم أن ذلك لايفيد ولايعمل به فهذا لا يكون عذرا بل لابد من الذكر فلايخلو قلب عن التأثر من سماع الانكار واستشعار الاحتراز عند التعيير بالمعاصى وذلك يؤثر فى تقبيح الأمر فى عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام فى هذه الأوقات إذ لاتخلو عن عورات مكشوفة لاسيما ماتحت السرة إلى مافوق العانة إذ الناس لايعدونها عورة وقد ألحقها الشرع بالعورة وجعلها كالحريم لها ولهذا يستحب تخلية الحمام وقال بشر بن الحرث ما أعنف رجلا لايملك إلا درهما دفعه ليخلى له الحمام وروى ابن عمر رضى الله عنهما فى الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصب عينيه بعصابة وقال بعضهم لابأس بدخول الحمام ولكن بإزارين إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه . وأما السنن فعشرة : فالأول النية وهو أن لايدخل لعاجل دنيا ولاعابثا لأجل هوى بل يقصد به التنظف المحبوب تزينا للصلاة ثم يعطى الحمامى الأجرة قبل الدخول فان مايستوفيه مجهول وكذا ماينتظره الحامى فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهالة من أحد العوضين وتطييب لنفسه ثم يقدم رجله اليسرى عند الدخول ويقول بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم ثم يدخل الخلوة أو يتكلف تخلية الحمام فانه إن لم يكن فى الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر فى العورات ثم لايخلو الانسان فى الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف فى أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لا يدرى ولأجله عصب ابن عمر رضى الله عنهما عينيه ، ويغسل الجناحين عند الدخول ولايعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق فى الأول وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فانه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحامى لكرهه لاسيما الماء الحار فله مئونة وفيه تعب وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدر نفسه محبوسا فى البيت الحار ساعة ويقيسه إلى جهنم فانه أشبه بيت بجهنم النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك ، بل العاقل لايغفل عن ذكر الآخرة فى لحظة فانها مصيره ومستقره فيكون له فى كل مايراه من ماء أونار أوغيرهما عبرة وموعظة فان المرء ينظر بحسب همته فاذا دخل بزاز ونجار وبناء وحائك دارا معمورة مفروشة فاذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها

احتمال وهى وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بثمرة المشاهدة والكشف ولأجل هذا كان فيه السمين والغث وشاع فى حال النضال إيراد القطعى وما هو حكمه من غلبة الظن وإبداء الصحيح وإلزام مذهب الخصم والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام والعلم الضارع للضرورى بأن لا إله إلا الله إذ لافاعل غيره ولا حاكم فى الدارين سواه ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ومن أين النازل على النازل ومالعلم الكلام مثل هذا المقام بل هو من خدام الشرع وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع وله مقام على قدره ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ومدارك الاستبصار والمدار فى أوقات الضرورات والاختيار

والبناء

والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها فكذلك سالك طريق الآخرة لايرى من الأشياء شيئا إلاويكون له موعظة وذكرى للآخرة بل لاينظر إلى شئ إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة فان نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ماينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لايصرفه عنه إلا مهمات الدنيا فاذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استحقرها إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته . ومن السنن أن لايسلم عند الدخول وان سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت ان أجاب غيره وان أحب قال عافاك الله ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول عافاك الله لابتداء الكلام . ثم لا يكثر الكلام في الحمام ولايقرأ القرآن الاسرا ولابأس باظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريبا من الغروب فان ذلك وقت انتشار الشياطين ولا بأس بأن يدلكه غيره فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله انسان لم يكن من أصحابه وقال إنه دلكني في الحمام مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه ليفرح بذلك ويدل على جوازه ماروى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره فقلت ماهذا يارسول الله؟ فقال إن الناقة تقحمت بي [1]» ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة فقد قيل الماء الحار في الشتاء من النعيم الذي يسأل عنه وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الحمام من النعيم الذي أحدثوه هذا من جهة الشرع. أما من جهة الطب فقد قيل الحمام بعد النورة أمان من الجذام ، وقيل النورة في كل شهر مرة تطفئ المرة الصفراء وتنقي اللون وتزيد في الجماع ، وقيل بولة في الحمام قائما في الشتاء أنفع من شربة دواء ، وقيل نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه هذا حكم الرجال . وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم «لايحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام [2]» وفي البيت المستحم والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر [3] وحرام على المرأة دخول الحمام إلا نفساء أو مريضة ودخلت عائشة رضي الله عنها حماما من سقم بها فان دخلت لضرورة فلا تدخل الا بمئزر سابغ ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معينا لها على المكروه .

(النوع الثاني فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية)

الأول شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قزعا أي قطعا وهو دأب أهل الشطارة أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك

(١) حديث نزل منزلا في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره الحديث الطبراني في الأوسط من حديث عمر بسند ضعيف (٢) حديث لايحل لرجل أن يدخل حليلته الحمام الحديث يأتي في الذي يليه مع اختلاف (٣) حديث حرام على الرجال دخول الحمام الا بمئزر الحديث النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بمئزر ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام وللحاكم من حديث عائشة الحمام حرام على نساء أمتي قال صحيح الاسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر فلا يدخلها الرجال بالازار وامنعوها النساء إلا من مريضة أو نفساء .

وبين ما يراد لوقت حاجته إن دعت وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذي ضلالة بما ينغص على ذوي اليقين العيش ويشغل الذهن ويكدر النفس وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع عليه فيما مضى من الزمان إليهم لا نقول في أكثرهم إنهم لايحسنون غيره ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه بل الظن بهم أنهم علماء مثل ماذكرنا فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ولما كان نجم في وقتهم من البدع وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق وتجرؤ العوام مع كل ناعق فرأوا الرد عليهم والمنازعة لهم والسعي في اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها وإهلاك ذوي الكيد في احتيالهم وإخماد نارهم الدين عم أهل

شعارا لهم فانه اذا لم يكن شريفا كان ذلك تلبيسا . الثانى شعر الشارب وقد قال صلى الله عليه وسلم «قصوا الشارب» وفى لفظ آخر «جزوا الشوارب» وفى لفظ آخر «حفوا الشوارب وأعفوا اللحى(١)» أى اجعلوها حفاف الشفة أى حولها وحفاف الشئ حوله ومنه ـ وترى الملائكة حافين من حول العرش ـ وفى لفظ آخر احفوا وهـذا يشعر بالاستئصال وقوله حفوا يدل على مادون ذلك قال الله عزّ وجلّ ـ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ـ أى يستقصى عليكم وأما الحلق فلم يرد والاحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال ذكرتنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال المغيرة بن شعبة « نظر إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربى فقال تعال فقصه لى على سواك(٢)» ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب فعل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه وقوله صلى الله عليه وسلم أعفوا اللحى أى كثروها وفى الخبر «أن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم(٣) فخالفوهم» وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة . الثالث شعر الابط ويستحب نتفه فى كل أربعين يوما مرة وذلك سهل على من تعوّد نتفه فى الابتداء فأما من تعوّد الحلق فيكفيه الحلق إذ فى النتف تعذيب وإيلام والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ فى خللها ويحصل ذلك بالحلق . الرابع شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغى أن تتأخر عن أربعين يوما . الخامس الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا هريرة قلم أظفارك فان الشيطان يقعد على ما طال منها(٤)» ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء ولأنه يتساهل فيه للحاجة لاسيما فى أظفار الرجل وفى الأوساخ التى تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدى من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم باعادة الصلاة ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزجر عن ذلك ولم أر فى الكتب خبرا مرويا فى ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت «أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحته اليمنى وختم بابهام اليمنى وابتدأ باليسرى بالخنصر إلى الإبهام(٥)» ولما تأملت فى هذا خطر لى من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوّة وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه فالذى لاح لى فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها إذ هى المشيرة

(١) حديث قصوا وفى لفظ جزوا وفى لفظ احفوا الشوارب وأعفوا اللحى متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ أحفوا ولمسلم من حديث أبى هريرة جزوا ولأحمد من حديثه قصوا (٢) حديث المغيرة ابن شعبة نظر إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربى فقال تعال فقصه لى على سواك د ن ت فى الشمائل (٣) حديث إن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم فخالفوهم أحمد من حديث أبى أمامة قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال قصوا سبالكم ووفروا عثانيكم وخالفوا أهل الكتاب قلت والمشهور أن هذا فعل المجوس ففى صحيح ابن حبان من حديث ابن عمر فى المجوس انهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم (٤) حديث يا أبا هريرة قلم ظفرك فان الشيطان يقعد على ما طال منها الخطيب فى الجامع باسناد ضعيف من حديث جابر قصوا أظافيركم فان الشيطان يجرى ما بين اللحم والظفر (٥) حديث البداءة فى قلم الأظفار بمسبحة اليمنى والختم بابهامها وفى اليسرى بالخنصر إلى الابهام لم أجد له أصلا وقد أنكره أبو عبد الله المازرى فى الرد على الغزالى وشنع عليه به.

الأهواء والفتن وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات وكشف أحوال أرباب المقامات ووصف فقه الأرواح والنفوس وتفهم كل ناطق وجامد فان هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فان ذلك من علم الخواص وهم مكفيون المؤنة والعامة أحق بالحفظ وعقائدهم أولى بالحراسة واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد والتصديق على ذى بلغة من العيش فكيف إن كان عن غناء وأيضا فان علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الالحاد والزيغ لقصورهم عن ملاحظة الحق موضع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام بعد التبليغ مع أهل العناد والتمادى على الغى وسبيل الفساد فكما لا يقال السيف أبلغ حجة النبى صلى الله عليه وسلم كذلك لا يقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء

فى

في كلتي الشهادة من جملة الأصابع ثم بعدها ينبغي أن يبتدئ بما على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمنى وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالابهام هو اليمين وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمنى واليد إذا تركت بطبعها كان الكف مائلا إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عاليا فما يقتضيه الطبع أولى ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فان ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندي إن لم يثبت فيها نقل أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما في التخليل فان المعاني التي ذكرناها في اليد لا تتجه ههنا إذ لا مسبحة في الرجل وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فان تقديرها حلقة بوضع الأخمص على الأخمص يأباه الطبع بخلاف اليدين وهذه الدقائق في الترتيب تنكشف بنور النبوة في لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب في ذلك ربما لم يخطر لنا وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه وسلم وترتيبه ربما تيسر لنا بما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى ولا تظنن أن أفعاله ﷺ في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لا يقدم على واحد معين بالاتفاق بل بمعنى يقتضى الاقدام والتقديم فان الاسترسال مهملا كما يتفق سجية البهائم وضبط الحركات بموازين المعاني سجية أولياء الله تعالى ، وكلما كانت حركات الانسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الاهمال وتركه سدى أبعد كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر إذ القريب من النبي صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريبا فالقريب من القريب قريب بالاضافة إلى غيره فنعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا في يد الشيطان بواسطة الهوى واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم « فانه كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي اليسرى اثنين(١) » فيبدأ باليمنى لشرفها وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترا فان للوتر فضلا عن الزوج فان الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى ولذلك استحب الإيتار في الاستجمار وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لا يخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكحل وإنما خصص اليمين بالثلاث لأن التفضيل لا بد منه للايتار واليمين أفضل فهي بالزيادة أحق . فان قلت فلم اقتصر على اثنين لليسرى وهي زوج فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لكل واحدة وترا كان المجموع زوجا إذ الوتر مع الوتر زوج ورعايته الايتار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الأحاديث ولذلك أيضا وجه وهو أن يكتحل في كل واحدة ثلاثا على قياس الوضوء(٢) وقد نقل ذلك في الصحيح وهو الأولى ولو ذهبت أستقصى دقائق ما راعاه صلى الله عليه وسلم في حركاته لطال الأمر فقس بما سمعته ما لم تسمعه . واعلم أن العالم لا يكون وارثا للنبي

(١) حديث كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي اليسرى اثنين الطبراني من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٢) حديث الاكتحال في كل عين ثلاثا قال الغزالي ونقل ذلك في الصحيح قلت هو عند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .

وكما لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأمصار ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم أخر كالفقه والحديث والتفسير لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات وانقطع علم الشرع ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجدل يتحلون بالمقامات المذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذ عنهم الخاص والعام ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم لما خافوا دروس الإسلام وأن يضعف ويقل أهله ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما كانوا أول مرة فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم والمبعوث لدعوة الحق عليه

صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معانى الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلادرجة واحدةوهىدرجة النبوة وهىالدرجةالفارقةبينالوارثوالوروثإذالوروث هوالذى حصل المالله واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هوالذى لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليهوتلقاهمنه بعدحصوله له فأمثالهذهالمعانىمع سهولة أمرها بالاضافةإلى الأغوار والأسرارلا يستقل بدركها ابتداء إلاالأنبياء ولايستقل باستنباطها تلقيا بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذينهم ورثة الأنبياءعليهم السلام . السادس والسابع زيادة السرة وقلفة الحشفة أما السرة فتقطع فيأول الولادة وأما التطهير بالختانفعادة اليهود فياليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلىأنيثغرالولد أحب وأبعد عن الخطر قال ﷺ « الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء[1] » وينبغى أنلايبالغ فى خفض المرأة قال صلىالله عليه وسلم لأم عطية وكانت تخفض « يا أم عطية أشمى ولاتنهكى فانه أسرى للوجه وأحظى عندالزوج[2] » أىأكثرلماءالوجه ودمه وأحسن فيجماعها فانظر إلى جزالة لفظه صلى الله عليهوسلم فيالكناية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التيهىأهم مقاصد النبوة إلى مصالح الدنيا حتى انكشفله وهوأمى منهذا الأمر النازلقدره مالووقعتالغفلةعنهخيفضرره فسبحان منأرسلهرحمةللعالمين ليجمعلهميمن بعثته مصالحالدنيا والدين صلى الله عليه وسلم . الثامنة ماطال من اللحية وإنما أخرناها لنلحق بها مافىاللحية منالسننوالبدع إذهذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقداختلفوا فيما طال منها فقيل إنقبض الرجل علىلحيته وأخذ مافضل عن القبضة فلابأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرههالحسن وقتادة وقالا تركها عافية أحب لقوله صلىالله عليه وسلم « أعفوا اللحى » والأمر فى هذا قريب إن لم ينته إلىتقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب فان الطول المفرط قديشوه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذإليه فلابأس بالاحتراز عنه علىهذه النية . وقال النخعى عجبت لرجلعاقل طويل اللحية كيف لايأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فانالتوسط فيكلشيء حسن ، ولذلكقيل كلماطالتاللحية تشمر العقل .

(فصل) وفى اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ، خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت ونتفها ونتف الشيب منها والنقصان منها والزيادة وتسريحها تصنعا لأجل الرياء وتركها شعثة إظهارا للزهد والنظر إلىسوادها عجبا بالشباب وإلى بياضها تكبرا بعلوالسنّ وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبها بالصالحين . أما الأول وهو الخضاب بالسواد فهومنهى عنه لقوله صلى الله عليه وسلم « خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشرّ شيوخكم من تشبه بشبابكم[3] » والمراد بالتشبه بالشيوخ فى الوقار لافى تبييض الشعر و « نهى عن الخضاب بالسواد[4] » وقال «هوخضابأهلالنار[5] » وفى لفظ آخر « الخضاب بالسواد خضابالكفار

(١) حديث الختان سنة الرجال مكرمة النساء أحمد والبيهقى من رواية أبى المليحبن أسامة عن أبيه باسناد ضعيف (٢) حديث أم عطية أشمى ولا تنهكى الحديث الحاكم والبيهقى من حديث الضحاك بن قيس ولأبى داود نحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف (٣) حديث خير شبابكم من تشبه بكهولكم الحديث الطبرانى من حديث واثلةباسناد ضعيف (٤) حديث نهى عن الخضاب بالسواد ابن سعد فى الطبقات من حديث عمروبن العاص باسناد منقطع ، ولمسلم منحديث جابر: وغيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد قاله حين رأى بياض شعر أبى قحافة (٥) حديث الخضاب بالسواد خضاب أهل النار ، وفى لفظ خضاب الكفار الطبرانى والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ الكافر قال ابن أبىحاتم منكر .

الصلاة والسلام رأوا أن الجهاد والرباط فى ثغر العدو والغزو فى سبيل الله وضرب وجوه الكفر بالسيف وإدخال الناس فى دين الله أولى بهم من سائر الأعمال وأحقّ من تدريس العلوم كلها ظاهرا وباطنا وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع علىالأقل وهم فىحال ذلك الشغل والنظر إلىحال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص لأن الخصوص لهم بأنفسهم غناء ولهم بحالهم قيام والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم وإذابدالهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مراشدهم وصلاحهم كان الهلاك إليهمأسرع ثم لا يكون من بعد ذلك إنفسد حال العموم للخصوص قدر ولايظهرلهم نور ولايقدرون على شيء كامل من البرّ فلاخاصة إلاّ بعامة ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر والخوف عليهم من الزيغ والضلال

وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان يخضب بالسواد فنصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه فرد نكاحه وأوجعه ضربا وقال غررت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك ويقال أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة (١) » الثاني الخضاب بالصفرة والحمرة وهو جائز تلبيسا للشيب على الكفار في الغزو والجهاد فان لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله ﷺ « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين (٢) » وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لا بأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة . الثالث تبييضها بالكبريت استعجالا لإظهار علو السن توصلا إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترفعا عن الشباب وإظهارا لكثرة العلم ظنا بأن كثرة الأيام تعطيه فضلا وهيهات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلا فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما آتى الله عز وجل عبدا علما إلا شابا والخير كله في الشباب ثم تلا قوله عز وجل — قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم — وقوله تعالى — إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى — وقوله تعالى — وآتيناه الحكم صبيا — وكان أنس رضي الله عنه يقول « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة فقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب فقيل أهو شين فقال كلكم يكرهه (٣) » ويقال إن يحيى بن أكثم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل في مجلسه يريد أن يخجله بصغر سنه كم سن القاضي أيده الله فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها فأفحمه (٤) » وروى عن مالك رحمه الله أنه قال قرأت في بعض الكتب لا تغرنكم اللحى فان التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحمق ولو كان أمية بن عبد شمس وقال أيوب السختياني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع

(١) حديث يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد الحديث أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس باسناد جيد (٢) حديث الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين الطبراني والحاكم بلفظ الإفراد من حديث ابن عمر قال ابن أبي حاتم منكر (٣) حديث قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب متفق عليه من حديث أنس دون قوله فقيل الخ ولمسلم من حديثه وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما شانه الله ببيضاء (٤) حديث يحيى بن أكثم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له كم سن القاضي فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن . الخطيب في التاريخ باسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فانه كان حين الولاية ابن عشرين سنة وأما بالنسبة إلى معاذ فانما يتم له ذلك على قول يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حاتم إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم

والملاك أشدوا اللطف بهم في تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ وكان أهل القوة وذووا البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات وكان هو صلى الله عليه وسلم يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فيما يمنعه منه أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته حين علم من أكثرهم الضعف ولم يكره لهم وفيه زيادة الأجر وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ولكن خاف عليهم أن يقعوا في تضييع الفرض فيكون عليهم كفل من الوزر ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله وكان عثمان رضي الله عنه يقومه فلم ينهه ومنع الضيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه وقال لعائشة رضي الله عنها لولا حدثان عهد قومك

الغلام يتعلم منه . وقال علي بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سنا منك ، وقيل لأبي عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجهل يقبح به فالتعلم يحسن به وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحمد لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلو ولا نزول . الرابع نتف بياضها استنكافا من الشيب « وقد نهى عليه السلام عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن (١) » وهو في معنى الخضاب بالسواد وعلة الكراهية ما سبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور . الخامس نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوه للخلقة ونتف الفنيكين بدعة وهما جانبا العنفقة . شهد عند عمر بن عبد العزيز رجل كان ينتف فنيكيه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادة من كان ينتف لحيته وأما نتفها في أول النبات تشبها بالمرد فمن المنكرات الكبار فان اللحية زينة الرجال فان لله سبحانه ملائكة يقسمون والذي زين بني آدم باللحى وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل في غريب التأويل اللحية هي المراد بقوله تعالى ــ يزيد في الخلق ما يشاء ــ قال أصحاب الأحنف بن قيس وددنا أن نشتري للأحنف لحية ولو بعشرين ألفا وقال شريح القاضي وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار والرفع في المجالس وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض فان من يشتم يعرض باللحية إن كان للمشتوم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد إلا هرون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم فان له لحية إلى سرته تخصيصا له وتفضيلا . السادس تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزين للنساء والتصنع قال كعب يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقبون نعالهم كالمناجل أولئك لاخلاق لهم . السابع الزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغين وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحى وينتهي إلى نصف الخد وذلك يباين هيئة أهل الصلاح . الثامن تسريحها لأجل الناس قال بشر في اللحية شركان تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لاظهار الزهد . التاسع والعاشر النظر في سوادها وفي بياضها بعين العجب وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن بل في جميع الأخلاق والأفعال على ما سيأتي بيانه فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس (٢) والمضمضة والاستنشاق (٣) وقص الشارب والسواك وثلاثة في اليد والرجل وهي القلم

(١) حديث نهى عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن د ت وحسنه ن ه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٢) حديث فرق شعر الرأس ا خ من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره إلى أن قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه (٣) حديث عشر من الفطرة الحديث مسلم من حديث عائشة ولفظه قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء قال وكيع يعني الاستنجاء قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ضعفه ن ولأبي د ه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء قال د روى نحوه عن ابن عباس قال خمس كلها في الرأس وذكر منها الفرق ولم يذكر إعفاء اللحية وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة الفطرة خمس الختان الحديث .

بالكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم وقال للأنصار أما ترون أن يذهب الناس بالشاء والبعير فتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ومع ذلك فالذي حفظ عنه صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من بعده وفقهاء الأمصار وأعيان المتكلمين من الاشارات لتلك العلوم المذكورة كثير لا يحصى وإنما القليل من حمله اليوم عنهم وتفقه مثلهم فاقصد مجد وتصد لاقتباس المعارف تعلم وطالع كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توقن ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب .

[بيان المرتبة الرابعة]

وهو توحيد الصديقين وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في الدارين غيره ولا اطلعوا في الوجود

وغسل البراجم وتنظيف الرواجب [1] وأربعة في الجسد وهي نتف الإبط والاستحداد والختان والاستنجاء بالماء فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة الظاهرة دون الباطنة فلنقتصر على هذا وليتحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتي تفصيلها في ربع المهلكات مع تعريف الطرق في إزالتها وتطهير القلب منها إن شاء الله عز وجل . تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه . ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(كتاب أسرار الصلاة ومهماتها)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر العباد بلطائفه وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق في السؤال والدعاء فقال هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له وباين السلاطين بفتح الباب ورفع الحجاب فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصة بل تلطف بالترغيب والدعوة ، وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه وأتم لطفه وأعم إحسانه والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليه المجتبى وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليما . أما بعد : فإن الصلاة عماد الدين وعصام اليقين ورأس القربات وغرة الطاعات وقد استقصينا في فن الفقه في بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه أصولها وفروعها صارفين جمام العناية إلى تفاريعها النادرة ووقائعها الشاذة لتكون خزانة للمفتي منها يستمد ومعولا له إليها يفزع ويرجع ونحن الآن في هذا الكتاب نقتصر على ما لا بد للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والاخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه ، ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب . الباب الأول : في فضائل الصلاة . الباب الثاني : في تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . الباب الثالث : تفضيل الأعمال الباطنة منها . الباب الرابع : في الإمامة والقدوة . الباب الخامس : في صلاة الجمعة وآدابها . الباب السادس : في مسائل متفرقة تعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها . الباب السابع : في التطوعات وغيرها .

(الباب الأول : في فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها)

(فضيلة الأذان)

قال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فزع حتى يفرغ مما بين الناس رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم بقوم وهم به راضون ورجل أذن في مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ورجل ابتلي بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة [3] »

(١) حديث تنظيف الرواجب تقدم .

(باب أسرار الصلاة)

(٢) حديث ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك الحديث ت وحسنه من حديث ابن عمر مختصرا وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف (٣) حديث لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة خ من حديث أبي سعيد .

على سواه فقد كان بيان شارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة في هجيراهم فكان هجير أبي بكر الصديق رضي الله عنه : لا إله إلا الله وكان هجير عمر رضي الله عنه : الله أكبر وكان هجير عثمان رضي الله عنه : سبحان الله وكان هجير علي رضي الله عنه : الحمد لله فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد في الدارين غير الله سبحانه وتعالى فلهذا كان الصديق وسمي به كما علمت وكان يقول لا إله إلا الله وكان عمر يرى ما دون الله صغيرا مع الله في جنب عظمته فيقول الله أكبر وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله تعالى إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول فكان يقول سبحان الله وعلي لا يرى نعمة في الدفع والرفع والعطاء والمنع في المكروه والمحبوب إلا من الله سبحانه فكان يقول الحمد لله

وقال صلى الله عليه وسلم «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه[١]» وقيل في تفسير قوله عز وجل ـ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ـ نزلت في المؤذنين وقال صلى الله عليه وسلم «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل مايقول المؤذن[٢]» وذلك مستحب إلا في الحيعلتين فانه يقول فيهما لاحول ولاقوة إلا بالله وفي قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها مادامت السموات والأرض وفي التثويب صدقت وبررت ونصحت وعند الفراغ يقول اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لاتخلف الميعاد. وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فان أذن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة.

(فضيلة المكتوبة)

قال الله تعالى ـ إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ـ وقال ﷺ «خمس صلوات كتبهنّ الله على العباد فمن جاء بهنّ ولم يضيع منهنّ شيئا استخفافا بحقهنّ كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهنّ فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة[٣]» وقال صلى الله عليه وسلم «مثل الصلوت الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لاشئ قال صلى الله عليه وسلم فان الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن[٤]» وقال صلى الله عليه وسلم «إن الصلوات كفارة لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر[٥]» وقال ﷺ «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لايستطيعونها[٦]» وقال صلى الله عليه وسلم «من لقى الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشئ من حسناته[٧]» وقال صلى الله عليه وسلم «الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين[٨]» وسئل ﷺ «أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها[٩]» وقال صلى الله عليه وسلم «من حافظ على الخمس باكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان[١٠]» وقال صلى الله عليه وسلم «مفتاح الجنة الصلاة[١١]» وقال «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شئ أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد[١٢]»

(١) حديث يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه الطبرانى فى الأوسط والحسن بن سعيد فى مسنده من حديث أنس باسناد ضعيف (٢) حديث إذا سمعتم النداء فقولوا مثل مايقول المؤذن متفق عليه من حديث أبى سعيد (٣) حديث خمس صلوات كتبهن الله على العباد الحديث د ن ه حب من حديث عبادة بن الصامت وصححه ابن عبد البر (٤) حديث مثل خمس صلوات كمثل نهر الحديث مسلم من حديث جابر ولهما نحوه من حديث أبى هريرة (٥) حديث الصلوات كفارة لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر م من حديث أبى هريرة (٦) حديث بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح مالك من رواية سعيد بن المسيب مرسلا (٧) حديث من لقى الله مضيعا للصلاة لم يعبأ الله بشئ من حسناته وفى معناه حديث أول مايحاسب به العبد الصلاة وفيه فان فسدت فسد سائر عمله رواه طب فى الأوسط من حديث أنس (٨) حديث الصلاة عماد الدين البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث عمر قال ك عكرمة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط إنه غير معروف (٩) حديث سئل أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها متفق عليه من حديث ابن مسعود (١٠) حديث من حافظ على الخمس باكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا الحديث أحمد حب من حديث عبد الله بن عمرو (١١) حديث مفاتيح الجنة الصلاة د الطيالسى من حديث جابر وهو عند الترمذى ولكن ليس داخلا فى الرواية (١٢) حديث ماافترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئا أحب إليه من الصلاة الحديث لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبرانى من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر .

وأهل هذه الرتبة على الجملة فى حال خصوصهم فيها صنفان مريدون ومرادون فالمريدون فى الغالب لابد لهم من أن يحلوا فى المرتبة الثالثة وهى توحيد المقرّبين ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ويتمكنون فيها ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء ومن أهل المرتبة الثالثة يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم . فان قلت أليس الوجود مشتركا بين الحادث والقديم والمألوه والاله ثم معلوم أن الاله واحد والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا أذلك على طريق قلب الأعيان فتعود الحوادث قديمة ثم تتحدث بالواحد فترجع هى هو وفى هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل مايغنى عن إطالة القول فيه وان كان على طريق

وقال

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد كفر[1] » أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام[2] » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا إلى الصلاة فانه فى صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة فاذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغى له أن يتأخر فان أعظمكم أجرا أبعدكم دارا قالوا لم يا أباهريرة ؟ قال من أجل كثرة الخطا . ويروى « إن أول ماينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة[3] » فان وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم « يا أباهريرة مر أهلك بالصلاة فان الله يأتيك بالرزق من حيث لاتحتسب[4] » وقال بعض العلماء مثل المصلى مثل التاجر الذى لايحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال وكذلك المصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدى الفريضة وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فاطفئوها .

(فضيلة إتمام الأركان)

قال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى[5] » وقال يزيد الرقاشى « كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة[6] » وقال ﷺ « إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض[7] وأشار إلى الخشوع وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده[8] » وقال صلى الله عليه وسلم « أما يخاف الذى يحول وجهه فى الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار[9] » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر البزار من حديث أبى الدرداء باسناد فيه مقال .
(٢) حديث من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم حم هق من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات (٣) حديث أول ماينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة الحديث رويناه فى الطيوريات من حديث أبى سعيد باسناد ضعيف ولأصحاب السنن ك وصحح إسناده نحوه من حديث أبى هريرة وسيأتى (٤) حديث يا أباهريرة مر أهلك بالصلاة فان الله يأتيك بالرزق من حيث لاتحتسب لم أقف له على أصل (٥) حديث مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى ابن المبارك فى الزهد من حديث الحسن مرسلا وأسنده البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس باسناد فيه جهالة (٦) حديث يزيد الرقاشى كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف (٧) حديث إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد الحديث ابن المحبر فى العقل من حديث أبى أيوب الأنصارى بنحوه وهو موضوع ورواه الحارث ابن أبى أسامة فى مسنده عن ابن المحبر (٨) حديث لاينظر الله إلى عبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده أحمد من حديث أبى هريرة باسناد صحيح (٩) حديث أما يخاف الذى يحول وجهه فى الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار ابن عدى فى عوالى مشايخ مصر من حديث جابر مايؤمنه إذا التفت فى صلاته أن يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب أو وجه خنزير قال منكر بهذا الاسناد وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله وجهه وجه حمار .

التخييل للولى لما لا حقيقة له فكيف يحتج به أو كيف يعد حالا لولى أو فضيلة لبشر ؟ . الجواب عن ذلك أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ولم تتحد بالفاعل ولا اعترى الولى تخييل فتخيل ما لاحقيقة له وإنما هو ولى مجتبى وصديق مرتضى خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين والكشف التام وكشف لقلبه ما لو رآه ببصره عيانا ما ازداد إلا يقينا وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه فما أعظم مصيبتك وما أعظم العزاء فيك حين فتشت الخلق بعيارك وكلتهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع إذ لاسبب لانكارك إن صح إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحدا مالم ترزق أو يخص من المعرفة مالم تخص فاذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه

« من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتمّ ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتمّ ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتنى حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجهه[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته[2] » وقال ابن مسعود رضى الله عنه وسلمان رضى الله عنه : الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ومن طفف فقد علم ما قال الله فى المطففين .

(فضيلة الجماعة)

قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة[3] » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال « لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرّق بيوتهم[4] » وفى رواية أخرى « ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فتحرّق عليهم بيوتهم بحزم الحطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مرماتين لشهدها يعنى صلاة العشاء . وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعا « من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة فى جماعة فقد ملأ نحره عبادة[6] » وقال سعيد بن المسيب ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا فى المسجد وقال محمد بن واسع ما أشتهى من الدنيا إلا ثلاثة أخا إنه إن تعوجت قومنى وقوتا من الرزق عفوا من غير تبعة وصلاة فى جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أمّ قوما مرة فلما انصرف قال مازال الشيطان بى آنفا حتى أريت أن لى فضلا على غيرى لا أؤم أبدا . وقال الحسن لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال النخعى مثل الذى يؤم الناس بغير علم مثل الذى يكيل الماء فى البحر لا يدرى زيادته من نقصانه . وقال حاتم الأصم فاتتنى الصلاة فى الجماعة فعزانى أبو إسحق البخارى وحده ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا وقال ابن عباس رضى الله عنهما من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد به خير وقال أبو هريرة رضى الله عنه لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خير له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له إن الناس قد انصرفوا فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لفضل هذه الصلاة أحب إلىّ من ولاية العراق وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار[7] »

(١) حديث من صلى الصلاة لوقتها فأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرضت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى الحديث طب فى الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسى والبيهقى فى الشعب من حديث عبادة بن الصامت بسند ضعيف نحوه (٢) حديث أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته أحمد والحاكم وصحح إسناده من حديث أبى قتادة (٣) حديث صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث أبى هريرة لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون الحديث متفق عليه (٥) حديث عثمان من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة الحديث م من حديثه مرفوعا قال الترمذى وروى عن عثمان موقوفا (٦) حديث من صلى صلاة فى جماعة فقد ملأ نحره عبادة لم أجده مرفوعا وإنما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر فى كتاب الصلاة (٧) حديث من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لا تفوته تكبيرة الإحرام الحديث ت من حديث أنس باسناد رجاله ثقات.

لا يخرج منه وما اطلع عليه لا يغيب عنه وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا فى حال نومه وشغله وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشىء وثبت فى قلبه حاله أنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده فى شغله ونومه كما لا يفقده فى يقظته وفراغه ولهذا والله أعلم إذا رأى الولى المتمكن فى رتبة الصديقين مخلوقا كان حيا أو جمادا صغيرا أو كبيرا لم يره من حيث هو هو إنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ثم أدام القهر عليه فى الوجود ثم لما كانت الصفات المشهودة آثارها فى المخلوقات ليست لغير الموصوف الذى هو الله عز وجل له ألهت الولى عن غيره وصار لم ير سواه ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكر فى سر القلب وخير للمعرفة ولا بالإدراك فى ظاهر الحس دون ما كان موجودا به

ويقال

ويقال إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرى فتقول لهم الملائكة ما كانت أعمالكم فيقولون كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لايشغلنا غيرها ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال كنا نتوضأ قبل الوقت ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون كنا نسمع الأذان فى المسجد . وروى أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعا إذا فاتتهم الجماعة .

(فضيلة السجود)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماتقرب العبد إلى الله بشئ أفضل من سجود خفى(١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة(٢) » وروى « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك وأن يرزقنى مرافقتك فى الجنة فقال ﷺ « أعنى بكثرة السجود(٣) » وقيل أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا(٤) » وهو معنى قوله عز وجل - واسجد واقترب - وقال عز وجل - سيماهم فى وجوههم من أثر السجود - فقيل هو مايلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فانه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح وقيل هى الغرر التى تكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول ياويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلى النار(٥) » وروى عن على بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد فى كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد وروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لايسجد إلا على التراب وكان يوسف بن أسباط يقول يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقى أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بينى وبين ذلك وقال سعيد بن جبير ما آسى على شئ من الدنيا إلا على السجود ، وقال عقبة بن مسلم : مامن خصلة فى العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يخر ساجدا وقال أبو هريرة رضى الله عنه أقرب مايكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك .

(فضيلة الخشوع)

قال الله تعالى - وأقم الصلاة لذكرى - وقال تعالى - ولا تكن من الغافلين - وقال عز وجل - لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون - قيل سكارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا وقال وهب المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال - حتى تعلموا ما تقولون - وكم من مصل لم يشرب خمرا وهو لايعلم مايقول فى صلاته وقال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ماتقرب العبد إلى الله بشئ أفضل من سجود خفى ابن المبارك فى الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسلا (٢) حديث مامن مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة . من حديث عبادة بن الصامت باسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث ثوبان وأبى الدرداء (٣) حديث إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك ويرزقنى مرافقتك فى الجنة الحديث م من حديث ربيعة بن كعب الأسلمى نحوه وهو الذى سأله ذلك (٤) حديث إن أقرب مايكون العبد إلى الله أن يكون ساجدا م من حديث أبى هريرة (٥) حديث إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى الحديث م من حديث أبى هريرة .

وصار عنه فانيا فبعد هذا على من أصحبه أن لايحتاج إليها مع هذا الوضوح ولا فهم إلا بالله ولا شرح إلا منه ولا نور إلا من عنده وله الحول والقوة وهو العلى العظيم [فصل] وأما معنى إفشاء سر الربوبية كفر فيخرج على وجهين أحدهما أن يكون المراد به كفرا دون كفر ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشى وتعظيما لما ارتكبه ويعترض هذا بأن يقال لايصح أن يسمى هذا كفرا لأنه ضد الكفر إذ الكفر الذى سمى على معناه ساتر وهذا المفشى للسر ناشر وأين النشر والإظهار من التغطية والاعلان من الكتم واندفاع هذا هين بأن يقال ليس الكفر الشرعى تابع الاشتقاق وإنما هو حكم لمخالفة الأمر وارتكاب النهى فمن رد إحسان محسن أو جحد نعمة متفضل فيقال عليه كافر

«من صلى ركعتين لم يحدث ، نفسه فيهما بشئ من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه»(١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتنادم وتضع يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهي خداج(٢)» وروى عن الله سبحانه في الكتب السالفة أنه قال «ليس كل مصل أتقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على عبادي وأطعم الفقير الجائع لوجهي» وقال صلى الله عليه وسلم «إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه «وإذا صليت فصل صلاة مودّع(٤)» أي مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه كما قال عز وجل - يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه - وقال تعالى - واتقوا الله ويعلمكم الله - وقال تعالى - واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه - وقال صلى الله عليه وسلم «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا(٥)» والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة وقال بكر بن عبد الله يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت قيل وكيف ذلك قال تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضي الله عنها قالت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه(٦)» اشتغالا بعظمة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم «لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه(٧)» وكان ابراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين وكان سعيد التنوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته «ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه(٨)»

---

(١) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشئ من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلا وهو في الصحيحين من حديث عثمان بزيادة في أوله دون قوله بشئ من الدنيا وزاد طس إلا بخير (٢) حديث إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع الحديث ت ن بنحوه من حديث الفضل بن عباس باسناد مضطرب (٣) حديث إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله د ت من حديث عائشة نحوه دون ذكر الصلاة قال ت حسن صحيح (٤) حديث إذا صليت فصل صلاة مودع ابن ماجه من حديث أبي أيوب و ك من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد والبيهقي في الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث أنس بنحوه (٥) حديث من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح ورواه طب وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر الحديث وإسناده صحيح (٦) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحدا من الناس (٧) حديث لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا اللفظ وروى محمد بن نصر في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلا لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف (٨) حديث رأى رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه الحكيم في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبي شيبة في المصنف وفيه رجل لم يسم .

لجهتين إحداهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك اسما ينبئ عن وصف والثانية من جهة الشرع ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة والشرع قد ورد بشكر النعم فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ولا يغرنك العبارات ولا تحجبك التسميات وتفطن لخداعها واحترس من استدراجها فاذن من أظهر ما أمر بكتمه كان كمن كتم ما أمر بنشره في مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ويدل على ذلك من جهة الشرع قوله صلى الله عليه وسلم «لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم» وفي ارتكاب النهي عصيان ويسمى في باب القياس على المذكور كفران البدن وقسمة أخرى وذلك أن العلم إن حال إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء فرأس الإنسان تشابه سماء العالم من حيث

وروى

وروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول اللهم زوجنى الحور العين فقال بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى وقيل لخلف بن أيوب ألا يؤذيك الذباب فى صلاتك فتطردها قال لا أعود نفسى شيئا يفسد علىّ صلاتى قيل له و كيف تصبر على ذلك قال بلغنى أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدى ربى أفأتحرك لذبابة وروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله تحدثوا أنتم فانى لست أسمعكم وروى عنه أنه كان يصلى يوما فى جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له مالك يا أمير المؤمنين فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها وروى عن على بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ماهذا الذى يعتريك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال داود صلى الله عليه وسلم فى مناجاته : إلهى من يسكن بيتك وممن تتقبل الصلاة فأوحى الله إليه ياداود إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمتى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب فذلك الذى يضىء نوره فى السموات كالشمس إن دعانى لبيته وإن سألنى أعطيته أجعل له فى الجهل حلما وفى الغفلة ذكرا وفى الظلمة نورا وإنما مثله فى الناس كالفردوس فى أعلى الجنان لاتيبس أنهارها ولا تتغير ثمارها وروى عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذى أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحى ثم أقوم إلى صلاتى وأجعل الكعبة بين حاجبى والصراط تحت قدمى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى وملك الموت ورائى أظنها آخر صلاتى ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعا بتواضع وأسجد سجودا بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الابهام وأتبعها الاخلاص ثم لا أدرى أقبلت منى أم لا وقال ابن عباس رضى الله عنهما ركعتان مقتصدتان فى تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه.

(فضيلة المسجد وموضع الصلاة)

قال الله عز وجل ـ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ـ وقال صلى الله عليه وسلم «من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا فى الجنة(١)» وقال ﷺ «من ألف المسجد ألفه الله تعالى(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس(٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد(٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى يصلى فيه تقول اللهم صلّ عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له مالم يحدث أو يخرج من المسجد(٥)»

(١) حديث من بنى لله مسجدا ولو مثل مفحص قطاة الحديث ه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبى ذرّ وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله ولو مثل مفحص القطاة
(٢) حديث من ألف المسجد ألفه الله تعالى طب فى الأوسط من حديث أبى سعيد بسند ضعيف
(٣) حديث إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس متفق عليه من حديث أبى قتادة
(٤) حديث لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد الدارقطنى من حديث جابر وأبى هريرة بإسنادين ضعيفين و ك من حديث أبى هريرة (٥) حديث الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة .

إن كل ما علا فهو سماء وحواسه تشابه الكواكب والنجوم من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد من نور الشمس فتضىء بها والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمدّ من الروح فيضىء مسالك الدركات وروح الانسان مشابهة للشمس فضياء العالم ونور نباته وحركة ضواربه وحيوانه وحياته فيها تظهر بتلك الشمس وكذلك روح الانسان به حصل فى الظاهر نموّ أجزاء بدنه ونبات شعره وحلول حياته وجلعت الشمس وسط العالم وهى تطلع بالنهار وتغرب بالليل وجعلت الروح وسط جسم الانسان وهى تغيب بالنوم وتطلع باليقظة ونفس الانسان تشابه القمر من حيث إنّ القمر يستمد من الشمس ونفسه تستمد من الروح والقمر خالف الشمس والروح

وقال صلى الله عليه وسلم « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل فى بعض الكتب إن بيوتى فى أرضى المساجد وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان (٣) » وقال سعيد بن المسيب من جلس فى المسجد فانما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيرا ويروى فى الأثر أو الخبر « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش (٤) » وقال النخعى كانوا يرون أن المشى فى الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة وقال أنس بن مالك من أسرج فى المسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له مادام فى ذلك المسجد ضوؤه وقال على كرم الله وجهه إذا مات العبد يبكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم قرأ ـ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ـ وقال ابن عباس تبكى عليه الأرض أربعين صباحا وقال عطاء الخراسانى مامن عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت وقال أنس بن مالك مامن بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر إلا افتخرت على ماحولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين ومامن عبد يقوم يصلى إلا تزخرفت له الأرض ويقال مامن منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم .

(الباب الثانى فى كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله)

ينبغى للمصلى إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث فى البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة أن ينتصب قائما متوجها إلى القبلة ويراوح بين قدميه ولا يضمهما فان ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد « نهى صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد فى الصلاة (٥) » والصفد هو اقتران القدمين معا ومنه قوله تعالى ـ مقرنين فى الأصفاد ـ والصفن هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل ـ الصافنات الجياد ـ هذا ماير اعيه فى رجليه عند القيام ويراعى فى ركبتيه ومعقد نطاقه الانتصاب وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والاطراق أقرب للخشوع

(١) حديث يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا حلقا ذكرهم الدنيا الحديث ابن حبان من حديث ابن مسعود و ك من حديث أنس وقال صحيح الاسناد (٢) حديث قال الله تعالى : إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها الحديث أبو نعيم من حديث أبى سعيد بسند ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أين جيرانى فتقول الملائكة من هذا الذى ينبغى له أن يجاورك فيقول أين قراء القرآن وعمار المساجد وهو فى الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسناد صحيح وأسند ابن حبان فى الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه (٣) حديث إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان ت وحسنة و ه و ك وصححه من حديث أبى سعيد (٤) حديث الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش لم أقف له على أصل .

(الباب الثانى)

(٥) حديث النهى عن الصفن والصفد فى الصلاة عزاه رزين إلى ت ولم أجده عنده ولا عند غيره وإنما ذكره أصحاب الغريب كابن الأثير فى النهاية وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلا صافا أو صافنا قدميه فقال أخطأ هذا السنة .

خالف النفس والقمر آية ممحوة والنفس مثلها ومحو القمر فى آن لا يكون ضياؤه منه ومحو النفس فى آن ليس عقلها منها ويعترى الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف وتعترى النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول وفى العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان وفى الانسان نبات وهو الشعر ومياه وهو العروق والدموع والريق والدم وفيه جبال وهى العظام وحيوان وهى هوام الجسم فحصلت المشابهة على كل حال ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ومنها ماهى لنا غير معروفة ولا معلومة كان فى استقصاء مقابلة جميعها تطويل وفيما ذكرناه مايحصل به لذوى العقول تشبيه وتمثيل . فان قلت أراك فرقت بين النفس والروح وجعلت كل واحد منهما غير الآخر وهذا قلما تساعد

وأغضّ البصر وليكن بصره محصورا على مصلاه الذي يصلي عليه فان لم يكن له مصلى فليقرب من جدار الحائط أو ليخط خطا فان ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرّق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصلى وحدود الخط وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات هذا أدب القيام فاذا استوى قيامه واستقباله وإطراقه كذلك فليقرأ قل أعوذ برب الناس تحصنا به من الشيطان . ثم ليأت بالإقامة وإن كان يرجو حضور من يقتدي به فليؤذن أولا ثم ليحضر النية وهو أن ينوى في الظهر مثلا ويقول بقلبه أؤدى فريضة الظهر لله ليميزها بقوله أؤدى عن القضاء وبالفريضة عن النفل وبالظهر عن العصر وغيره ولتكن معاني هذه الألفاظ حاضرة في قلبه فانه هو النية والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ويجتهد أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب فاذا حضر في قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حذو منكبيه بعد إرسالهما بحيث يحاذي بكفيه منكبيه وبإبهاميه شحمتي أذنيه وبرءوس أصابعه رءوس أذنيه(١) ليكون جامعا بين الأخبار الواردة فيه ويكون مقبلا بكفيه وإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ولا يتكلف فيها تفريجا ولا ضما بل يتركها على مقتضى طبعها إذ نقل في الأثر النشر والضم(٢) وهذا بينهما فهو أولى وإذا استقرت اليدان في مقرهما ابتدأ التكبير مع إرسالهما وإحضار النية . ثم يضع اليدين على مافوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى إكراما لليمنى بأن تكون محمولة وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى وقدروى أن التكبير مع رفع اليدين(٣) ومع استقرارهما(٤) ومع الإرسال(٥) فكل ذلك لاحرج فيه وأراه بالارسال أليق فانه كلمة العقد ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع ومبدأ التكبير الألف وآخره الراء فيليق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد وأما رفع اليد فكالمقدمة لهذه البداية . ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفعا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضا إذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالا خفيفا رفيقا ويستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الارسال وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى(٦) » فان صح هذا فهو أولى مما ذكرناه وأما التكبير فينبغي أن يضم الهاء من قوله الله ضمة خفيفة من غير مبالغة

عليه إذ قد كثر الخلاف في ذلك فاعلم أنه إنما على الانسان أن يبني كلامه على مايعلم لا على ما يجهل وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان فان قلت فقد سبق في الإحياء أنهما شيء واحد وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح فالذي سبق في الإحياء ورأيت في هذه الاجابة وهو شيء واحد لايتناقض مع ماقلناه الآن وذلك أن لهما معنى يسمى بالروح تارة وبالنفس أخرى وبغير ذلك ثم لايبعد أن يكون لهما معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ولا يسمى بروح ولا غير ذلك فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإضافة التي في ضمير صورته والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حيّ قادر سميع بصير عالم مريد متكلم فاعل

---

(١) حديث رفع اليدين إلى حذو المنكبين وورد إلى شحمة أذنيه وورد إلى رءوس أذنيه متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول و د من حديث وائل بن حجر باسناد ضعيف إلى شحمة أذنيه ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث فروع أذنيه (٢) حديث نشر الأصابع عند الافتتاح ونقل ضمها . وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هريرة والبيهقي لم يفرج بين أصابعه ولم يضمها ولم أجد التصريح بضم الأصابع (٣) حديث التكبير مع رفع اليدين البخاري من حديث ابن عمر كان يرفع يديه حين يكبر ولأبي داود من حديث وائل يرفع يديه مع التكبير (٤) حديث التكبير مع استقرار اليدين أي مرفوعتين مسلم من حديث ابن عمر كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر زاد د وهما كذلك (٥) حديث التكبير مع إرسال اليدين د من حديث أبي حميد كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ثم كبر حتى يقرّ كل عظم في موضعه معتدلا قال ابن الصلاح في المشكل فكلمة حتى التي هي للغاية تدل بالمعنى على ماذكره أي من ابتداء التكبير مع الارسال (٦) حديث كان إذا كبر أرسل يديه فاذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى الطبراني من حديث معاذ باسناد ضعيف .

ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو وذلك ينساق إليه بالمبالغة ولايدخل بين باء أكبر ورائه ألفا كأنه يقول أكبار ويجزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه

(القراءة)

ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر ، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا(١) وجهت وجهي إلى قوله وأنا من المسلمين(٢) ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمه وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك(٣) ليكون جامعا بين متفرقات ماورد في الأخبار وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للامام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ الفاتحة يبتدئ فيها ببسم الله الرحمن الرحيم بتمام تشديداتها وحروفها ، ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول آمين في آخر الفاتحة ويمدها مدا ولا يصل آمين بقوله ولا الضالين وصلا ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموما ويجهر بالتأمين ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوي بأن يفصل بينهما بقدر قوله سبحان الله ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره وفي الظهر والعصر والعشاء نحو والسماء ذات البروج وما قاربها وفي الصبح في السفر . قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أول الصلاة .

(الركوع ولواحقه)

ثم يركع ويراعي فيه أمورا وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبير مدا إلى الانتهاء إلى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما وأن يمد ظهره مستويا وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها وأن يقول سبحان ربي العظيم ثلاثا والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن إن لم يكن إماما ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول سمع الله لمن حمده ويطمئن في الاعتدال ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسبيح والكسوف والصبح ويقنت في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود(٤) .

(السجود)

ثم يهوي إلى السجود مكبرا فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر

(١) حديث أنه يقول بعد قوله الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا م من حديث ابن عمر قال بينا نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا الحديث و د من حديث جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال الله أكبر كبيرا الحديث (٢) حديث دعاء الاستفتاح وجهت وجهي الحديث م من حديث علي (٣) حديث سبحانك اللهم وبحمدك الحديث في الاستفتاح أيضا د ت ك وصححه من حديث عائشة وضعفه ت قط ورواه م موقوفا على عمر وعند هق من حديث جابر الجمع بين وجهت وبين سبحانك اللهم (٤) حديث القنوت في الصبح بالكلمات المأثورة هق من حديث ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم يقنت في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات اللهم اهدني فيمن هديت الحديث د ت وحسنه و ن من حديث الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمه هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر وإسناده صحيح .

وخلق آدم عليه السلام حيا قادرا عالما سميعا بصيرا مريدا متكلما فاعلا وكانت لآدم عليه السلام صورة محسوسة مكنونة مخلوقة مقدرة بالفعل وهي لله تعالى مضافة باللفظ وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة تلفظ فقط ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الامكان حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الإسماء الملفوظ بها لا غير وفرارا أن تثبت صورة لله تعالى ويطلق عليها حالة الوجود فافهم هذا فانه من أدق مايقرع سمعك ويلج قلبك ويظهر لعقلك ولهذا قيل لك فان كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود تكن مشبها مطلقا ومعناه نتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين

عند الهوى ولا يرفع يديه في غير الركوع وينبغي أن يكون أول مايقع منه على الأرض ركبتاه وأن يضع بعدهما يديه ثم يضع بعدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه ولا تفعل المرأة ذلك وأن يفرج بين رجليه ولا تفعل المرأة ذلك وأن يكون في سجوده مخويا على الأرض ولا تكون المرأة مخوية والتخوية رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الابهام إليهما وإن لم يضم الابهام فلا بأس ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب[1] فانه منهي عنه وأن يقول سبحان ربي الأعلى ثلاثا فان زاد فحسن إلا أن يكون إماما ثم يرفع من السجود فيطمئن جالسا معتدلا فيرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها ويقول رب اغفرلي وارحمني وارزقني واهدني واجبرني وعافني واعف عني ولا يطول هذه الجلسة إلا في سجود التسبيح ويأتي بالسجدة الثانية كذلك ويستوي منها جالسا جلسة خفيفة للاستراحة في كل ركعة لا تشهد عقيبها ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجليه في حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق مابين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام بحيث تكون الهاء من قوله الله عند استوائه جالسا وكاف أكبر عند اعتماده على اليد للقيام وراء أكبر في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدئ في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم ويصلي الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوذ كالابتداء.

(التشهد)

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول ثم يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلى المسبحة ولا بأس بارسال الابهام أيضا ويشير بمسبحة يمناه وحدها عند قوله إلا الله لا عند قوله لا إله ويجلس في هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدتين وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور[2] بعد الصلاة على النبي ﷺ وسننه كسنن التشهد الأول لكن يجلس في الأخير على وركه الأيسر لأنه ليس مستوفزا للقيام بل هو مستقر ويضجع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الابهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه ثم يقول السلام عليكم ورحمة الله ويلتفت يمينا بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليمين ويلتفت شمالا كذلك ويسلم تسليمة ثانية وينوي الخروج من الصلاة بالسلام وينوي بالسلام من على يمينه للملائكة والمسلمين في الأولى وينوي مثل ذلك في الثانية ويجزم التسليم[3] ولا يمده مدا فهو السنة وهذه هيئة صلاة المنفرد ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر مايسمع نفسه وينوي الامام الامامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأولى العشاء والمغرب وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معا لا تعقيبا ويسكت الامام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الامام ولا يقرأ المأموم السورة في الجهرية إلا إذا لم يسمع

(١) حديث النهي عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث الدعاء المأثور بعد التشهد م من حديث علي في دعاء الاستفتاح قال ثم يكون من آخر مايقول بين التشهد والتسليم اللهم اغفرلي ماقدمت الحديث وفي الصحيحين من حديث عائشة إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع من عذاب جهنم الحديث وفي الباب غير ذلك جميعها في الأصل (٣) حديث جزم السلام سنة د ت من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وضعفه ابن القطان.

على نفسك بالتشبيه معتقدا ولا تسكر كما قيل كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة أي تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنتسب إليهم أي تقرأ التوارة ولا تعمل بها وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة منزها مجللا ومقدسا مخلصا أي ليتق تعتقد من الاضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعاني فتلك المعاني المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال وقد حفظ عن الشبلي رحمة الله عليه في معنى ماذكرناه من هذا الوجه قول بليغ مختصر حين سئل عن معنى الحديث فقال خلقه الله على الأسماء والصفات لا على الذات. فان قلت فكذا قال ابن قتيبة في كتابه المعروف بتناقض الحديث حين قال هو صورة لا كالصور فلم أخذ عليه في ذلك وأقيمت عليه الشناعة به واطرح قوله ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق. فاعلم

صوت الامام ويقول الامام سمع الله لمن حمده عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم ولا يزيد الامام على الثلاث فى تسبيحات الركوع والسجود ولا يزيد فى التشهد الأول بعد قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ويقتصر فى الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد على دعائه فى التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينوى عند السلام السلام على القوم والملائكة وينوى القوم بتسليمهم جوابه ويثبت الامام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم وينصرف الامام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلىّ ولا يخص الامام نفسه بالدعاء فى قنوت الصبح بل يقول اللهم اهدنا ويجهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور ويمسح الوجه عند ختم الدعاء لحديث نقل فيه وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما فى آخر التشهد .

(النهيات)

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن فى الصلاة والصفد وقد ذكرناها وعن الإقعاء (١) وعن السدل (٢) والكف (٣) وعن الاختصار (٤) وعن الصلب (٥) وعن المواصلة (٦) وعن صلاة الحاقن (٧) والحاقب (٨) والحازق (٩) وعن صلاة الجائع والغضبان والملتثم (١٠) وهو ستر الوجه أما الإقعاء فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه وينصب ركبتيه ويجعل يديه على الأرض كالكلب وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جاثيا وليس على الأرض منه إلا رءوس أصابع الرجلين

---

(١) حديث النهى عن الإقعاء ت ه من حديث علىّ بسند ضعيف لا تقع بين السجدتين وم من حديث عائشة كان ينهى عن عقبة الشيطان وك من حديث سمرة وصححه نهى عن الإقعاء (٢) حديث النهى عن السدل فى الصلاة د ت ك وصححه من حديث أبى هريرة (٣) حديث النهى عن الكفت فى الصلاة متفق عليه من حديث ابن عباس أمرنا النبى ﷺ أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكفت شعرا ولا ثوبا (٤) حديث النهى عن الاختصار د ك وصححه من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ نهى أن يصلى الرجل مختصرا (٥) حديث النهى عن الصلب فى الصلاة د ن من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٦) حديث النهى عن المواصلة عزاه رزين إلى ت ولم أجده عنده وقد فسره الغزالى بوصل القراءة بالتكبير ووصل القراءة بالركوع وغير ذلك وقد روى د ت وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة سكتتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل فى صلاته: إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ من قراءة القرآن وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة كان يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة الحديث (٧) حديث النهى عن صلاة الحاقن ه وقط من حديث أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى الرجل وهو حاقن و د من حديث أبى هريرة لا يحل لرجل أن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلى وهو حاقن وله و ت وحسنه نحوه من حديث ثوبان وم من حديث عائشة لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان (٨) حديث النهى عن صلاة الحاقب لم أجده بهذا اللفظ وفسره المصنف تبعا للأزهرى بمدافعة الغائط وفيه حديث عائشة الذى قبل هذا (٩) حديث النهى عن صلاة الحازق عزاه رزين إلى ت ولم أجده عنده والذى ذكره أصحاب الغريب حديث لا رأى لحازق وهو صاحب الخف الضيق (١٠) حديث النهى عن التلثم فى الصلاة د ه من حديث أبى هريرة بسند حسن نهى أن يغطى الرجل فاه فى الصلاة رواه الحاكم وصححه قال الخطابى هو التلثم على الأفواه .

أن الذى ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه وأبلغ فى الانكار عليه وأبعد الناس عن تسويغ قوله وليس هو الذى ألممنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا وذهلت عن تعقل مرادنا ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة ألم أخبرك أنا أثبتنا الصورة فى التسميات وهو أثبتها حالة للذات فأين من لب الجوز قشور تفرقع والذى يغلب على الظن فى ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التى أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها وإنما ظهر له شىء لم يكن له به إلف وعلاه الدهش فتوقف بين ظاهر الحديث الذى هو موجب عند ذوى القصور تشبيها وبين التأويل الذى ينفيه فأثبت للمعنى المرغوب

والركعتين

والركبتين . وأما السدل فمذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم والقميص في معناه فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويداه في بدن القميص وقيل معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه والأول أقرب وأما الكف فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهي للرجال وفي الحديث « أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكف شعرا ولا ثوبا(١) » وكره أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يأتزر فوق القميص في الصلاة ورآه من الكف . وأما الاختصار فأن يضع يديه على خاصرتيه . وأما الصلب فأن يضع يديه على خاصرتيه في القيام ويجافي بين عضديه في القيام . وأما المواصلة فهي خمسة اثنان على الامام أن لا يصل قراءته بتكبيرة الاحرام ولا ركوعه بقراءته واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الاحرام بتكبيرة الامام ولا تسليمه بتسليمه وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمة الفرض بالتسليمة الثانية وليفصل بينهما . وأما الحاقن فمن البول والحاقب من الغائط والحازق صاحب الخف الضيق فان كل ذلك يمنع من الخشوع وفي معناه الجائع والمهتم وفهم نهي الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب(٢) » وفي الخبر « لا يدخلن أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان(٣) » وقال الحسن كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع وفي الحديث «سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والإلتفات والعبث بالشيء(٤) » وزاد بعضهم السهو والشك وقال بعض السلف أربعة في الصلاة من الجفاء الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلي بطريق من يمر بين يديك « ونهي أيضا عن أن يشبك أصابعه(٥) أو يفرقع أصابعه(٦) أو يستر وجهه(٧) أو يضع إحدى كفيه على الأخرى ويدخلهما بين فخذيه في الركوع(٨) » وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم كنا نفعل ذلك فنهينا عنه ويكره أيضا أن ينفخ في الأرض عند السجود للتنظيف وأن

(١) حديث أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا متفق عليه من حديث ابن عباس (٢) حديث إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة (٣) حديث لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان لم أجده (٤) حديث سبعة أشياء من الشيطان في الصلاة: الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والالتفات وزاد بعضهم السهو والشك ت من رواية عدي بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث غريب ولمسلم من حديث عثمان بن أبي العاص يارسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي الحديث وللبخاري من حديث عائشة في الالتفات في الصلاة هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم وللشيخين من حديث أبي هريرة التثاؤب من الشيطان ولهما من حديث أبي هريرة إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه صلاته حتى لا يدري كم صلى (٥) حديث النهي عن تشبيك الأصابع أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة و د ت ه حب نحوه من حديث كعب بن عجرة (٦) حديث النهي عن تفقيع الأصابع في الصلاة ه من حديث علي باسناد ضعيف لا تفقع أصابعك في الصلاة (٧) حديث النهي عن ستر الوجه د ه ك وصححه من حديث أبي هريرة حديث نهى أن يغطي الرجل فاه في الصلاة قد تقدم (٨) حديث النهي عن التطبيق في الركوع متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص قال كنا نفعله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب .

عنه وأرادني ماخاف من الوقوع فيه فلم يتأت له اجتماع مارام ولا انظام ما اقترف فما هو صورة لا كالصور ولكل ساقطة لاقطة فتبادر الناس إلى الأخذ عنه .

[فصل] ومعنى قاطع الطريق ـ فإنك بالوادي المقدس طوى ـ أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب فانك على هداية ورشد والوادي المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام مع الله تعالى في الوادي وإنما تقدس الوادي بما أنزل فيه من الذكر وسمع كلام الله تعالى وأقيم ذكر الوادي مقام ماحصل فيه فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وإلا فالمقصود ماحذف لاما أظهر بالقول إذ المواضع لا تأثير لها وإنما هي ظروف .

[فصل] ومعنى فاستمع أي سر بقلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدي ولعلك من

يسوى الحصى بيده فانها أفعال مستغنى عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيضعها على فخذه ولا يستند فى قيامه إلى حائط فان استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

(تمييز الفرائض والسنن)

جملة ما ذكرناه يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيئات مما ينبغى لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة النية والتكبير والقيام والفاتحة والانحناء فى الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائما والسجود مع الطمأنينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعدا والجلوس للتشهد الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والسلام الأول فأما نية الخروج فلا تجب وما عدا هذا فليس بواجب بل هى سنن وهيئات فيها وفى الفرائض . أما السنن فمن الأفعال أربعة رفع اليدين فى تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام والجلسة للتشهد الأول فأما ما ذكرناه من كيفية نشر الأصابع وحد رفعها فهى هيئات تابعة لهذه السنة والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة والاطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته وجلسة الاستراحة لم نعدها من أصول السنة فى الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة فى نفسها ولذلك لم تفرد بذكر . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله آمين فانه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الانتقالات ثم الذكر فى الركوع والسجود والاعتدال عنهما ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبى صلى الله عليه وسلم ثم الدعاء فى آخر التشهد الأخير ثم التسليمة الثانية وهذه وإن جمعناها فى اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة وهى الجلسة الأولى للتشهد الأول فانها مؤثرة فى ترتيب نظم الصلاة فى أعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا بخلاف رفع اليدين فانه لا يؤثر فى تغيير النظم فعبر عن ذلك بالبعض وقيل الأبعاض تجبر بالسجود وأما الأذكار فكلها لا تقتضى سجود السهو إلا ثلاثة القنوت والتشهد الأول والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيه بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما لأن الركوع والسجود فى صورتهما مخالفان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقالات فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة . وأما الجلسة للتشهد الأول ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأثير وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركهما لا يؤثر مع أن القيام صار معمورا بالفاتحة ومميزا عن العادة بها وكذلك الدعاء فى التشهد الأخير والقنوت أبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مد الاعتدال فى الصبح لأجله فكان كمد جلسة الاستراحة إذ صارت بالمد مع التشهد جلسة للتشهد الأول فبقى هذا قياما ممدودا معتادا ليس فيه ذكر واجب وفى الممدود احتراز عن غير الصبح وفى خلوه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام فى الصلاة . فان قلت تمييز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها فأما تمييز سنة عن سنة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب فى ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه . فاعلم أن اشتراكهما فى الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ولنكشف ذلك لك بمثال وهو أن الانسان لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح والظاهر أجسام أعضائه ثم بعض تلك الأعضاء ينعدم الانسان بعدمها كالقلب والكبد والدماغ وكل عضو تفوت الحياة بفواته وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن

سرادقات العز تنادى عما نودى به موسى إنى أنا ربك أى فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد الزيد وحوادث الصدق وثمار المعارف وارتياح سلوك الطريق وإشارات قرب الوصول وسر القلب كما يقول أذن الرأس ووسع الآذان وما يوحى أى ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك أو إلقاء بواسطة ملك أو إلقاء فى روع أو مكاشفة بحقيقة أو ضرب مثل مع العلم بتأويله ومعنى لعلك حرف ترويع ومعنى إن لم تدركك آفة تحطك عن سماع الوحى من إعجاب بحال أو إضافة دعوى إلى النفس أو قنوع بما وصلت إليه واستبداد به عن غيره وسرادقات المجد هى حجب الملكوت وما نودى به موسى هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له ياموسى إنى أنا الله لا إله إلا أنا والمنادى باسمه أزلا وأبدا هو اسم

كالحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون وبعضها لايفوت بها أصل الجمال ولكن كماله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهدب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالبياض فى اللون فهذه درجات متفاوتة فكذلك العبادة صوره صورها الشرع وتعبدنا باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والاخلاص كما سيأتى ونحن الآن فى أجزائها الظاهرة فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجرى منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها والسنن التى ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجرى منها مجرى اليدين والعينين والرجلين ولاتفوت الصحة بفواتها كما لاتفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه فكذلك من اقتصر على أقل مايجزى من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبدا حيا مقطوع الأطراف . وأما الهيئات وهى ماوراء السنن فتجرى مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون . وأما وظائف الأذكار فى تلك السنن فهى مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرهما فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فاليك الخيرة فى تحسين صورتها وتقبيحها فان أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها ولا ينبغى أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتتركها فان ذلك يضاهى قول الطبيب إن فقء العين لايبطل وجود الانسان ولكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرب فى قبول السلطان إذا أخرجه فى معرض الهدية فهكذا ينبغى أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب فكل صلاة لم يتم الانسان ركوعها وسجودها فهى الخصم الأول على صاحبها تقول ضيعك الله كما ضيعتنى فطالع الأخبار التى أوردناها فى كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها .

(الباب الثالث فى الشروط الباطنة من أعمال القلب)

ولنذكر فى هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب ثم نذكر المعانى الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها ثم لنذكر تفصيل ماينبغى أن يحضر فى كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة .

(بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب)

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى ـ أقم الصلاة لذكرى ـ وظاهر الأمر الوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره وقوله تعالى ـ ولاتكن من الغافلين ـ نهى وظاهره التحريم وقوله عز وجل ـ حتى تعلموا ماتقولون ـ تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسكن وتواضع » حصر بالألف واللام وكلمة إنما للتحقيق والتوكيد وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام « إنما الشفعة فيما لم يقسم » الحصر والاثبات والنفى وقوله صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » وصلاة الغافل لاتمنع من الفحشاء والمنكر . وقال صلى الله عليه وسلم « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب [1] » وما أراد به إلا الغافل وقال

(الباب الثالث)

(١) حديث كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب ن ه من حديث ابى هريرة رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر ولأحمد رب قائم حظه من صلاته السهر وإسناده حسن .

موسى لما سمى السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أزل الأزل قبل أن يخلق موسى لا إلى أول وكلام الله تعالى صفة له لايتغير كما لايتغير هو إذ ليست صفاته المعنوية لغيره وهو الذى لايحول ولايزول وقد زل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة وعياذا بالله من أين يحتمل هذا القول ماحملوه من المذهب أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر قلد ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما وحباه حباء خطيرا وهو ينادى باسمه أو يأمره بما يمتثل من أمره ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير الولى لم يشارك الولى المخلوع عليه والمفوض إليه فى شىء مما ولى وأعطى ولم تجب له بسماعه ومشاهدته

صلى الله عليه وسلم «ليس للعبد من صلاته إلا ماعقل منها[1]» والتحقيق فيه أن المصلى مناج ربه عز وجل[2] كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة وبيانه أن الزكاة إن غفل الانسان عنها مثلا فهى فى نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذى هو آلة للشيطان عدو الله فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام كان القلب حاضرا مع أفعاله أو لم يكن أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود فأما الذكر فانه محاورة ومناجاة مع الله عز وجل فاما أن يكون المقصود منه كونه خطابا ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحانا للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالامساك فى الصوم وكما يمتحن البدن بمشاق الحج ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق ولا شك أن هذا القسم باطل فان تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث إنه عمل بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق ولا يكون نطقا إلا إذا أعرب عما فى الضمير ولا يكون معربا إلا بحضور القلب فأى سؤال فى قوله اهدنا الصراط المستقيم إذا كان القلب غافلا وإذا لم يقصد كونه تضرعا ودعاء فأى مشقة فى تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاعتياد هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الانسان وقال لأشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم لم يبر فى يمينه ولو جرت على لسانه فى ظلمة وذلك الانسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارا فى يمينه إذ لا يكون كلامه خطابا ونطقا معه مالم يكن هو حاضرا فى قلبه فلو كانت تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه فى بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر بارا فى يمينه ولا شك فى أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله عز وجل وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الايمان به هذا حكم القراءة والذكر وبالجملة فهذه الخاصية لاسبيل إلى إنكارها فى النطق وتميزها عن الفعل. وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعا ولو جاز أن يكون معظما لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظما لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه أو يكون معظما للحائط الذى بين يديه وهو غافل عنه وإذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والاسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فان ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التى هى مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى ـ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ـ أى الصفة التى استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هى المطلوبة فكيف الأمر فى الصلاة ولا أرب فى أفعالها فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب. فان قلت إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطا فى صحتها خالفت إجماع الفقهاء فانهم لم يشترطوا

أكثر من حظوة القربة وشرف الحضور ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية والمفوض إليه الأمر ولذلك هذا السالك للذكور إذا وصل فى طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل العلوم فلا يمتنع أن يسمع مايوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك إذ هو محل سماع الوحى على الدوام وموضع الملائكة وكفى بها أنها الحضرة الربوبية وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ولا استوجب التكليم وسماع الوحى مقصودا بذلك بحاوله فى هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط بل قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضعافا فجاوز المرتبة الرابعة لأن آخر مقامات

(١) حديث ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل لم أجده مرفوعا وروى محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبى دهرش مرسلا لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى بن كعب ولابن المبارك فى الزهد موقوفا على عمار لا يكتب للرجل من صلاته ما سهى عنه (٢) حديث المصلى يناجى ربه متفق عليه من حديث أنس.

إلا حضور القلب عند التكبير . فاعلم أنه قد تقدم فى كتاب العلم أن الفقهاء لا يتصرفون فى الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا فى طريق الآخرة بل يبنون ظاهر أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان فأما أنه ينفع فى الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعى الاجماع فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكى عن سفيان الثورى أنه قال من لم يخشع فسدت صلاته وروى عن الحسن أنه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو فى الصلاة فلا صلاة له وروى أيضا مسندا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها[1] » وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتمسك به وقال عبد الواحد بن زيد أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها فجعله إجماعا وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار والآثار ظاهرة فى هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى فى التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب فى جميع الصلاة فان ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما ينطلق عليه الاسم ولو فى اللحظة الواحدة وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقتصرنا على التكليف بذلك ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل فى جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا وأحضر القلب لحظة وكيف لا والذى صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذى يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالا من الذى يعرض عن الخدمة وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطرا فى نفسه فاليك الخيرة بعده فى الاحتياط والتساهل ومع هذا فلا مطمع فى مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة فان ذلك من ضرورة الفتوى كما سبق التنبيه عليه ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها ولكن قد ذكرنا فى باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر فى كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع فلنقتصر على هذا القدر من البحث فان فيه مقنعا للمريد الطالب لطريق الآخرة وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن . وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح فى أجزاء الصلاة وكم من حى لا حراك به قريب من ميت فصلاة الغافل فى جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لا حراك به نسأل الله حسن العون .

(بيان المعانى الباطنة التى تتم بها حياة الصلاة)

اعلم أن هذه المعانى تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست جمل وهى حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج فى اكتسابها . أما التفاصيل فالأول حضور القلب ونعنى به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان

(١) حديث إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها الحديث دن حب من حديث عمار بن ياسر بنحوه .

الأولياء أول مقامات الأنبياء وموسى عليه السلام نبى مرسل فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون فى أطرافه لأن هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مباديها أقرب منه إلى غايتها فمن لم يفهم درجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف تعرض للكلام فيه والطعن على أهله هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه محاسب بظنه وبقينه مكتوب عليه خطراته محفوظ عليه لحظاته مخلصا منه يقظاته وغفلاته فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . فان قلت أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ونداء كلامه والله تعالى يقول - تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن

في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر فإنها تفهم أمورا تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لامحالة . وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائبا والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة والهيبة خوف مصدرها الاجلال . وأما الرجاء فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته والعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل . وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب . وأما أسباب هذه المعاني الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا بل جائلا فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنن أن له سببا سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع . وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة فلذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين إحداهما معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه . الثانية معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبدا مسخرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه . وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة

كله من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة في التفضيل وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ممن ليس بنبي ولا رسول وإذا بان السبب وقصد بادر الشك العارض في مسالك الحقائق فنقول ليس في الآية ما يرد ماقلنا ولا يكسره لأنا ما أوجبنا أنه كلمه قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدا وإنما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه أليس من يسمع كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمه وقد حكى أن طائفة من بني إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذي خاطب به موسى حين كله ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة في نبوته ورسالته على أنا نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن

مايجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف مايشاهد من ملوك الأرض ، وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة وسيأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربع المنجيات . وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لامحالة . وأما الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم مايقتضيه جلال الله عز وجل والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ففي معرفة السبب معرفة العلاج ورابطة جميع هذه الأسباب الايمان واليقين أعني به هذه المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم وبقدر اليقين يخشع القلب ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » ، وقد روى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام « ياموسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكري خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلب وجل ولسان صادق » ، وروى أن الله تعالى أوحى إليه « قل لعصاة أمتك لايذكروني فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته فاذا ذكروني ذكرتهم باللعنة » هذا في عاص غير غافل في ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان . وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لايحس بما يجري بين يديه ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليها وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره ووجيب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم وكل ذلك غير مستبعد فان أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لايقدر على الاخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ولكل درجات مما عملوا فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فان موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدو ومن وجود النعيم بها واللذة ولقد صدق فانه يحشر كل على مامات عليه ويموت على ماعاش عليه ويراعى في ذلك حال قلبه لاحال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولاينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان الدواء النافع في حضور القلب)

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحييا من تقصيره فلاينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه فانفكاكه عنها في الصلاة لاسبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة ولا يلهى عن الصلاة

الاختلاف فيه فيكون
النبي المرسل يسمع
كلام الله تعالى عز
وجل الذاتي القديم
بلا حجاب في السمع
ولا واسطة بينه وبين
القلب ومن دونه يسمعه
على غير تلك الصورة
مما يلقى في روعه ومما
ينادى به في سمعه أو
سره وأشباه ذلك كما
ذكر أن قوم موسى
عليه السلام حين سمعوا
كلام الله سبحانه مع
موسى أنهم سمعوا
صوتا كالشبور وهو
القرآن فاذا صح ذلك
فبتباين المقامات اختلاف
ورود الخطاب فموسى
سمع كلام الله بالحقيقة
الذي هو صفة له بلا
كيف ولاصورة نظم
الحروف ولا أصوات
والذين كانوا معه أيضا
سمعوا صوتا مخلوقا جعل
لهم علامة ودلالة على
صحة التكليم وخلق الله
سبحانه لهم بذلك العلم
الضروري وسمى ذلك
الذي سمعوه كلامه
إذ كان دلالة عليه كما
تسمى التلاوة وهي
الحروف المتلو بها

إلا الخواطر الواردة الشاغلة فالدواء فى إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشئ إلا بدفع سببه فلتعلم سببه وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا فى ذاته باطنا أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ويكون الابصار سببا للافتكار ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ماجرى على حواسه ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق به فكره وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلى فى بيت مظلم أو لايترك بين يديه مايشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لاتتسع مسافة بصره ويحترز من الصلاة على الشوارع وفى المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة ولذلك كان المتعبدون يتعبدون فى بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع للهم والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة فى أن لايعرفوا من على يمينهم وشمالهم ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما لايدع فى موضع الصلاة مصحفا ولاسيفا إلا نزعه ولا كتابا إلا محاه . وأما الأسباب الباطنة فهى أشد فان من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا لاينحصر فكره فى فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لايغنيه ، فان ماوقع فى القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه فى الصلاة ويشغلها به عن غيره ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى شيبة « إنى نسيت أن أقول لك أن تخمر القدر الذى فى البيت (١) » فانه لاينبغى أن يكون فى البيت شئ يشغل الناس عن صلاتهم فهذا طريق تسكين الأفكار فان كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولاشك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق فكل مايشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه فامساكه أضر عليه من إخراجه فيتخلص منه باخراجه كما روى أنه صلى الله عليه وسلم « لما لبس الخميصة التى أتاه بها أبوجهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبى جهم فانها ألهتنى آنفا عن صلاتى وائتونى بأنبجانية أبى جهم (٢) . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شراك نعله ثم نظر إليه فى صلاته إذ كان جديدا فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك الخلق (٣). وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربى عزوجل كى لا يمقتنى ثم خرج بها فدفعها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر عليا رضى الله عنه أن يشترى له نعلين سبتيتين جرداوين فلبسهما (٤). وكان صلى الله عليه وسلم فى يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر

القرآن كلام الله تعالى إذ هى دلالة عليه. فان قلت فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه وفهم مراده وحكمه يلحقه العلم الضرورى فما أرى بأنه الشئ المرسل إلا بأن يشتغل باصلاح الخلق دونه ولو كان عوضا منه أخبر عنه ومقامه مقامه ؟ فاعلم أن الذى أوجب عثورك ودوام زللك واعتراضك على العلوم بالجهل وعلى الحقائق بالخايل إنك بعيد عن غور المطالب قعيد فى شرك المعاطب قعيد صوب الصوت عتيد صحب السحاب إن الذى استحق به الناظر السالك الواصل الرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر وبينهما مابين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به وبين من

(١) حديث إنى نسيت أن أقول لك تخمر القرنتين اللذين فى البيت الحديث د من حديث عثمان الحجبى وهو عثمان بن طلحة كما فى مسند أحمد ووقع للمصنف أنه قال ذلك لعثمان بن شيبة وهو وهم (٢) حديث نزع الخميصة وقال ائتونى بأنبجانية أبى جهم متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم فى العلم .
(٣) حديث أمره بنزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق إذ نظر إليه فى صلاته ابن المبارك فى الزهد من حديث أبى النضر مرسلا بإسناد صحيح (٤) حديث احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربى الحديث أبو عبد الله بن خفيف فى شرف الفقراء من حديث عائشة باسناد ضعيف .

فرماه وقال شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم (١) » وروى « أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسي طار في الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدر كم صلى فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من الفتنة ثم قال يارسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت (٢) » . وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر إليها فأعجبته ولم يدر كم صلى فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال هو صدقة فاجعله في سبيل الله عز وجل فباعه عثمان بخمسين ألفا فكانوا يفعلون ذلك قطعا لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ولا يغني غيره فأما ماذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهمم التي لاتشغل إلا حواشي القلب فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لاتزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة ومثاله رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوش عليه فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة فقيل له إن هذا أسير السواني ولا ينقطع فان أردت الخلاص فاقطع الشجرة فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار والشغل يطول في دفعها فان الذباب كلما ذب آب ولأجله سمي ذبابا فكذلك الخواطر وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة فان من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته وهمة الرجل مع قرة عينه فان كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لامحالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالا حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لايحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فاذن لا مطمع فيه لأمثالنا وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل فبقدر مايدخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لامحالة ولا يجتمعان.

(بيان تفصيل ماينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة)

فنقول حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أولا عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها . أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائما والنية فاذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للاجابة والمسارعة فان المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء فان وجدته مملوءا بالفرح والاستبشار مشحونا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحنا يابلال (٣) » أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه فيها صلى الله عليه وسلم وأما الطهارة فاذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك

(١) حديث رميه بالخاتم الذهب من يده وقال شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم ن من حديث ابن عباس باسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهبا ولا فضة إنما هو مطلق (٢) حديث إن أبا طلحة صلى في حائط له فيه شجر فأعجبه ريش طائر في الشجر الحديث في سهوه في الصلاة وتصدقه بالحائط مالك عن عبدالله بن أبي بكر أن أباطلحة الأنصاري فذكره بنحوه (٣) حديث بها أرحنا يابلال قط في العلل من حديث بلال ولأبي داود ونحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم باسناد صحيح .

لايستحق أكثر من سماعه من يخاطب به غيره فهذا من الاشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما مما يوجب نفورا وتباين مابينهما فان فهمت الآن وإلا فقد عنى لاندر بحبال؟. فان قيل ألم يقل الله تعالى — فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول — وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب وعلم مافي الملكوت ومشاهدة الملائكة وماغاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب فكيف يطلع عليها من ليس برسول قلنا في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الصورية وهو أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة أو عمل بما جاء به النبي لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله »

الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ثم في بشرتك وهو قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك الذى هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والندم على مافرطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فانه موضع نظر معبودك . وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فان ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لايستر عن عين الله سبحانه ساتر وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد باحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنها فتذل بها نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدى الله عز وجل قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذى ندم فرجع إلى مولاه ناكسا رأسه من الحياء والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى أمر الله عز وجل ليس مطلوبا منك هيهات فلا مطلوب سواه وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالاثبات في جهة واحدة حتى لاتبغي على القلب فانها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك . فاعلم أنه كما لايتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه(١) » وأما الاعتدال قائما فانما هو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله عز وجل فليكن رأسك الذى هو أرفع أعضائك مطرقا مطأطئا متنكسا وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرى عن الترؤس والتكبر وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدى الله عز وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال . واعلم في الحال أنك قائم بين يدى الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح فانه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها إنك تدعين معرفة الله وحبه أفلاتستحيين من استجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده أوتخشين الناس ولاتخشينه وهو أحق أن يخشى ولذلك لما قال أبو هريرة « كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم تستحى منه كما تستحى من الرجل الصالح من قومك(٢) » وروى « من أهلك » . وأما النية فاعزم على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفا من عقابه وطلبا للقربة منه متقلدا للمنة منه باذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجي وكيف تناجي وبماذا

وهل يبقى الإما غاب عنه أن ينكشف إليه وقال « إن يكن منكم محدثون فعمر » أو كما قال « المؤمن ينظر بنور الله » وفي القرآن العزيز - قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك - فعلم ماغاب عن غيره من إمكان بيان ماوعد به وأراد أنه قدر عليه ولم يكن نبيا ولا رسولا وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية وصدقه فيه حين قال - فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا - وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذى القرنين فالاجماع على أنه ليس برسول وهو خلاف المسطور في الآية وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين وما ظهر على يدى الذى كان عنده علم من الكتاب وأراد أن يجوز على

---

(١) حديث إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهواه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه لم أجده
(٢) حديث قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحى منه كما تستحى من الرجل الصالح من قومك الخرائطي في مكارم الأخلاق هق في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسلا بنحو وأرسله هق بزيادة ابن عمر في السند وفي العلل قط عن ابن عمر له وقال إنه أشبه شيء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة .

تناجي وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف . وأما التكبير فاذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك فان كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب وان كان الكلام صدقا كما شهد على المنافقين في قولهم إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله فان كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك الله أكبر كلاما باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه . وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فانك إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل على فاطر السموات وإياك أن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ولن ينصرف الوجه الى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه وان عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صدقا ، وإذا قلت حنيفا مسلما فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده فان لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال وإذا قلت أما أنا من المشركين فأخطر ببالك الشرك الخفي فان قوله تعالى — فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا — نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس وكن حذرا مشفقا من هذا الشرك واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك فان اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه واذا قلت محياي ومماتي لله فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائما للحال واذا قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك فان من قصده سبع او عدو ليفترسه أو ليقتله فقال أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه فان ذلك لا ينفعه بل لا يعيده إلا تبديل المكان فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان وحصنه لا إله إلا الله إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا ﷺ «لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي [1]» والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . واعلم أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فان حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها . فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة: رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب اليمين ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولا ثم يخدم اللسان القلب

(١) حديث قال الله تعالى لا إله إلا الله حصني الخ في التاريخ وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل البيت من حديث علي باسناد ضعيف جدا وقول ابي منصور الديلمي إنه حديث ثابت مردود عليه .

عمر التشبه بالحقائق فما يصنع فيما جرى للخضر وما أنبأ الله سبحانه وأظهر عليه من العلوم الغيبية وهو بعد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول — إلا من ارتضى من رسول — فدل على أن في الآية حذف مضاف معناه ما تقدم وانظر إلى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهي من غيب الله وشواهد الشرع كثيرة جدا يعجز التأول ويلهو المعاند هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة ويحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي الذي بواسطته تنجلي العلوم وتنكشف الغيوب فمتى لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب أو بخاطب مشافهة أو إلقاء معنى في روع أو ضرب مثل

فيترجمه ففرق أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه وافهم أن معناها أن الأمور كلها بالله سبحانه وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان الحمد لله ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى فاذا قلت الرحمن الرحيم فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك مالك يوم الدين أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه ثم جدد الاخلاص بقولك إياك نعبد وجدد العجز والاحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك وإياك نستعين وتحقق أنه ماتيسرت طاعتك إلا باعانته وأن له المنة إذ وفقك الله لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك بسم الله الرحمن الرحيم ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الاعانة مطلقا فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل اهدنا الصراط المستقيم الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا واستشهادا بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الاجابة وقل آمين فاذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل (١) » يقول العبد الحمد لله رب العالمين فيقول الله عز وجل حمدني عبدي وأثنى علي وهو معنى قوله سمع الله لمن حمده الحديث الخ فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله وكذلك ينبغي أن تفهم ماتقرؤه من السور كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد والخوف حق الوعيد والعزم حق الأمر والنهي والاتعاظ حق الموعظة والشكر حق ذكر المنة والاعتبار حق إخبار الأنبياء . وروى أن زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى ـ فاذا نقر في الناقور ـ خر ميتا وكان ابرهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى ـ إذا السماء انشقت ـ اضطرب حتى تضطرب أوصاله وقال عبد الله بن واقد رأيت ابن عمر يصلي مغلوبا عليه وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فانه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضا ثم يراعي الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فان ذلك أيسر للتأمل ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد . كان النخعي إذا مر بمثل قوله عز وجل ـ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ـ يخفض صوته كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به وروى أنه يقال لقارئ القرآن « اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا (٢) » .

في يقظة أو منام لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ويكون تقدير الآية فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام فانه يطلع على ذلك أيضا ويكون فائدة الاخبار بهذا في الآية الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لا تصل إليها نفسه ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى حين أرسل إليه الملك بذلك وبعثه الله حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ويرجع إلى الله تعالى وحده ويتحقق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بارادته ومشيئته ويحتمل وجه آخر وهو أن يكون معناه والله أعلم فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى يريد من سائر خلقه وأصناف عباده ويكون معنى من

(١) حديث قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين الحديث م عن أبي هريرة (٢) حديث يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق د ت ن من حديث عبد الله بن عمر وقال ت حسن صحيح .

وأما

وأما دوام القيام فانه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل مقبل على المصلى مالم يلتفت (١) » وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة فاذ التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجى ليعود إليه وألزم الخشوع للقلب فان الخلاص عن الالتفات باطنا وظاهرا ثمرة الخشوع ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلا مصليا يعبث بلحيته « أما هذا لوخشع قلبه لخشعت جوارحه » فان الرعية بحكم الراعى ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعى والرعية (٢) » وهو القلب والجوارح وكان الصديق رضى الله عنه في صلاته كأنه وتد وابن الزبير رضى الله عنه كأنه عود وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدى من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لايتقاضاه بين يدى ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك وكل من يطمئن بين يدى غير الله عز وجل خاشعا وتضطرب أطرافه بين يدى الله عابثا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل وعن اطلاعه على سره وضميره وقال عكرمة في قوله عز وجل ـ الذى يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ـ قال قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه . وأما الركوع والسجود فينبغى أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرا بعفو الله عز وجل من عقابه بتجديد نية ومتبعا سنة نبيه ﷺ ثم تستأنف له ذلا وتواضعا بركوعك وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار ثم ترتفع من ركوعك راجيا أنه راحم لك ومؤكدا للرجاء في نفسك بقولك سمع الله لمن حمده أى أجاب لمن شكره ثم تردف ذلك الشكر المتقاضى للمزيد فتقول ربنا لك الحمد وتكثر الحمد بقولك ملء السموات وملء الأرض ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب وإن أمكنك أن لاتجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل فانه أجلب للخشوع وأدل على الذل وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فانك من التراب خلقت وإليه تعود فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل سبحان ربى الأعلى وأكده بالتكرار فان الكرة الواحدة ضعيفة الأثر فاذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك في رحمة الله فان رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك وقائلا رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم أوما أردت من الدعاء ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانيا كذلك وأما التشهد فاذا جلست له فاجلس متأدبا وصرح بأن جميع ماتدلى به من الصلوات والطيبات أى من الأخلاق الطاهرة لله وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات وأحضر في قلبك النبى صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل سلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ماهو أوفى منه ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وافيا بعدد عباده الصالحين ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجددا عهد الله سبحانه بإعادة كلمتى الشهادة ومستأنفا للتحصن بها ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال

(١) حديث إن الله يقبل على المصلى مالم يلتفت د ن ك وصحح إسناده من حديث أبى ذر
(٢) حديث اللهم أصلح الراعى والرعية لم أقف له على أصل وفسره المصنف بالقلب والجوارح .

رسول أى عن يد رسول من الملائكة . [فصل] ومعنى ولا يتخطى رقاب الصديقين إن قلت ماالذى أوصله إلى مقامهم أوجاوز به ذلك وهو في الرتبة الثالثة حال المقربين ماوصل حيث ظننت فكيف يجاوزه وإنما خاصية من هو في رتبة الصديقين عدم السؤال لكثرة التحقق بالأحوال وخاصية من هو في رتبة القرب كثرة السؤال طمعا في بلوغ الآمال ومثالهما فيما أشير إليه مثال إنسانين دخلا في بستان أحدهما يعرف جميع أنواع نبات البستان ويتحقق أنواع تلك الثمار ويعلم أسماءها ومنافعها فهو لايسأل عن شىء مما يراه ولا يحتاج إلى أن يخبر به والثانى لايعرف مما رأى شيئا أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف فهو يسأل ليصل إلى علم الباقى وذلك من تكلمنا عليه حسين أكثر

وصدق الرجاء بالإجابة وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانو ختم الصلاة به واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه « صل صلاة مودع » ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتا بذنب ظاهر أو باطن فترد صلاتك في وجهك وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله . كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض فهذا تفصيل صلاة الخاشعين الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم على صلاتهم يحافظون والذين هم على صلاتهم دائمون والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الانسان نفسه على هذه الصلاة فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر وفي مداواة ذلك ينبغي أن يجتهد. وأما صلاة الغافلين فهي مخطرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته . واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عز وجل وأداءها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لا سيما في السجود إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود ولذلك قال تعالى ـ واسجد واقترب ـ وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة وبالجلاء والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها ويختلف أيضا بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله ولبعضهم من أفعاله ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة ويكون لتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى وأشدها مناسبة الهمة فإنها إذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف ولما كانت هذه الأمور لا تتراءى إلا في المرآة الصقيلة وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لخبث متراكم الصدأ على مصب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الانسان في متسع الهواء ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض وهكذا الانسان في كل طور يكاد ينكر ما بعده ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوة وقد خلق الخلق أطوارا فلا ينبغي أن ينكر كل واحد ما وراء درجته نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل فقدوه فأنكروه ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغيب ويصدق به إلى أن يشاهد بالتجربة ففي الخبر « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادي مناد لو علم هذا المناجي من يناجي ما التفت وإن أبواب السماء تفتح للمصلين وإن الله عز وجل يباهي ملائكته بعبده المصلي[(١)] » ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كناية عن الكشف الذي ذكرناه وفي التوراة مكتوب : يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا فأنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري قال فكنا

السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه وكان غير مراد لذلك إما في ذلك الوقت أو الأبد وتلك العلوم متى كانت لا تنال بالكسب وإنما تنال بالمنح فقيل له لا تتخط رقاب الصديقين بالسؤال فذلك مما لا يخطر به وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به في حاله وسيرته فسأل ترزق مقامه فإن لم يكن فتبقى على حالة القرب وهي تلو الصديقية فهذا معناه .

[فصل] ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه ما لاق به من الأحوال ليحكم ما بقي عليه من الأعمال كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم للذي سأله أن يعلمه غرائب العلم اذهب فأحكم ما هناك وبعد

(١) حديث إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده الحديث لم أجده .

ترى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنوّ الرب سبحانه من القلب وإذا لم يكن هذا الدنوّ هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب ويقال إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منه عشرة آلاف وباهى الله به مائة ألف ملك وذلك أن العبد قد جمع فى الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقد فرق الله ذلك على أربعين ألف ملك فالقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة وهكذا الراكعون والقاعدون فان مارزق الله تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم مستمر على حال واحد لا يزيد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا: وما منا إلا له مقام معلوم، وفارق الانسان الملائكة فى الترقى من درجة إلى درجة فانه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد مزيد قربه وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التى هى وقف عليه وعبادته التى هو مشغول بها لا ينتقل إلى غيرها ولا يفتر عنها فلا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومفتاح مزيد الدرجات هى الصلوات . قال الله عزّ وجلّ ـ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ـ فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة وهى المقرونة بالخشوع ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا فقال تعالى ـ والذين هم على صلواتهم يحافظون ـ ثم قال تعالى فى ثمرة تلك الصفات ـ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ـ فوصفهم بالفلاح أوّلا وبوراثة الفردوس آخرا وما عندى أن هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ولذلك قال الله عز وجل فى أضدادهم ـ ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ـ فالمصلون هم ورثة الفردس وهم الشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم . نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الاحسان وصلى الله على كلّ عبد مصطفى .

(حكايات وأخبار فى صلاة الخاشعين رضى الله عنهم)

اعلم أن الخشوع ثمرة الايمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل ومن رزق ذلك فانه يكون خاشعا فى الصلاة وفى غير الصلاة بل فى خلوته وفى بيت الماء عند قضاء الحاجة فانّ موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة ولذلك روى عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وخشوعا له وكان الربيع بن خيثم من شدة غضه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فاذا رأته جاريته قالت لابن مسعود صديقك الأعمى قد جاء فكان يضحك ابن مسعود من قولها وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقا غاضا بصره وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول وبشر المخبتين أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك ، وفى لفظ آخر لأحبك وفى لفظ آخر لضحك ، ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلتهب صعق وسقط مغشيا عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله فلم يزل مغشيا عليه إلى مثل الساعة التى صعق فيها ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول هذا والله هو الخوف . وكان الربيع يقول مادخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها إلا ماأقول ومايقال لى . وكان عامر بن عبد الله من خاشعى المصلين وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن فى البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله وقيل له ذات يوم هل تحدّثك نفسك فى الصلاة بشئ قال نعم بوقوفى بين يدى الله عز وجل ومنصرفى إلى احدى الدارين قيل فهل تجد شيئا مما نجد من أمور الدنيا فقال لأن تختلف الأسنة فىّ أحب إلى من أن أجد فى صلاتى ماتجدون وكان يقول لو كشف الغطاء ماازددت يقينا وقد كان مسلم بن يسار منهم وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط

ذلك أعلمك غرائب العلم وأما صفة النصر قه فانه نهض بالبحث ورجع بالتذكر وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام فى ذلك الموضع بعد وصوله إليه فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ومسكنه عالم الملك ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لا يمكن فى العادة ولو أمكن لهلك الجسم وتفرّقت الأوصال والله تعالى أراد عمارة الدنيا وقد سبق فى علمه ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ ومعنى قول أبى سليمان الدارانى لو وصلوا مارجعوا مارجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الاخلاص والذى طمع الناظر فى الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه إذ لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله . [فصل] ومعنى بأن ليس فى الامكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا

أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة وتآكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقيل إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه فقطع وهو في الصلاة وقال بعضهم الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا وقيل لآخر هل تحدث نفسك بشيء من الدنيا في الصلاة فقال لا في الصلاة ولا في غيرها وسئل بعضهم هل تذكر في الصلاة شيئا فقال وهل شيء أحب إليّ من الصلاة فأذكره فيها وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس وروي أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقيل له خففت يا أبا اليقظان فقال هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئا قالوا لا قال إني بادرت سهو الشيطان إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها وكان يقول إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها (١) » ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك ؟ قال لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها . وسئل أبو العالية عن قوله ـ الذين هم عن صلاتهم ساهون ـ قال هو الذي يسهو في صلاته فلا يدري على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج . وقال بعضهم هو الذي إن صلاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيرا ولا تأخيرها إثما واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول إن الصلاة في الصحة لا تتجزأ ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل (٢) وفي الخبر قال عيسى عليه السلام يقول الله تعالى بالفرائض نجا مني عبدي وبالنوافل تقرب إليّ عبدي وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما افترضته عليه (٣) » وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انفتل قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبيّ بن كعب رضي الله عنه فقال قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندري أنسخت أم رفعت فقال أنت لها يا أبيّ ثم أقبل على الآخرين فقال ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم ألا إن بني إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن قل لقومك تحضروني أبدانكم وتعطوني ألسنتكم وتغيبون عني بقلوبكم باطل ما تذهبون إليه (٤) » وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه وقال بعضهم إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا قيل وكيف يكون ذلك قال يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه

(١) حديث إن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقيل له خففت يا أبا اليقظان الحديث وفيه إن العبد ليصلي صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها إلى آخره أحمد باسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند د ن

(٢) حديث جبر نقصان الفرائض بالنوافل أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته وفيه فإن انتقص من فرضه شيئا قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما نقص من الفريضة (٣) حديث قال الله تعالى لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما افترضت عليه لم أجده (٤) حديث صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما التفت قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبيّ بن كعب الحديث رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة مرسلا وأبو منصور الديلمي من حديث أبيّ بن كعب ورواه مختصرا من حديث عبد الرحمن بن أبزى باسناد صحيح.

أكمل منا ولو كان وادّخره مع القدرة كان ذلك بخلا يناقض الكرم الإلهي وإن لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجزا يناقض القدرة الإلهية فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختيارا وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ويقال ادّخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرنا وما الفرق بينهما وذلك لأن تأخيره بالعالم قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل فإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم مجاري أفعاله ومصادر أموره وأن تتحقق أنّ كلّ ما اقتضاه ويقتضيه من خلقه بعلمه وإرادته وقدرته إن ذلك على غاية الحكمة ونهاية

فهذه

فهذه صفة الخاشعين فدلت هذه الحكايات والأخبار مع ماسبق على أن الأصل فى الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى فى المعاد والله أعلم نسأل الله حسن التوفيق .

(الباب الرابع فى الإمامة والقدوة

وفى أركان الصلاة و بعد السلام وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفى القراءة)

أما الوظائف التى هى قبل الصلاة فستة : أولها أن لا يتقدم للامامة على قوم يكرهونه فان اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين فان كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى وفى الحديث « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم: العبد الآبق وامرأة زوجها ساخط عليها وإمام أمّ قوما وهم له كارهون(١) » وكما ينهى عن تقدمه مع كراهتهم فكذلك ينهى عن التقدم إن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم فان لم يكن شىء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل إن قوما تدافعوا الامامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم وماروى من مدافعة الامامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسببه إيثارهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم فان الأئمة ضمناء وكأن من لم يتعود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص فى صلاته حياء من المقتدين لاسيما فى جهره بالقراءة فكان لاحتراز من احترز أسباب من هذا الجنس . الثانية إذا خير المرء بين الأذان والامامة فينبغى أن يختار الامامة فان لكل واحد منهما فضلا ولكن الجمع مكروه بل ينبغى أن يكون الامام غير المؤذن وإذا تعذر الجمع فالامامة أولى وقال قائلون الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان ولقوله ﷺ « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن(٢) » فقالوا فيها خطر الضمان وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فاذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا(٣) » وفى الحديث « فان أتم فله ولهم وإن نقص فعليه لا عليهم(٤) » ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين(٥) » والمغفرة أولى بالطلب فان الرشد يراد للمغفرة وفى الخبر « من أمّ فى (١) مسجد سبع سنين وجبت له الجنة بلا حساب ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب(٦) » ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون الإمامة والصحيح أن الامامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما والأئمة بعدهم ، نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة والخلافة أفضل لقوله ﷺ « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة(٧) »

(الباب الرابع)

(١) حديث ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم: العبد الآبق الحديث ت من حديث أبى أمامة وقال حسن غريب وضعفه هق (٢) حديث الامام ضامن والمؤذن مؤتمن د ت من حديث أبى هريرة وحكى عن ابن المدينى أنه لم يثبته ورواه أحمد من حديث أبى أمامة باسناد حسن (٣) حديث الامام أمين فاذا ركع فاركعوا الحديث ع من حديث أبى هريرة دون قوله الامام أمين وهو بهذه الزيادة فى مسند الحميدى وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة (٤) حديث فان أتم فله ولهم وإن انتقص فعليه ولا عليهم د ه ك وصححه من حديث عقبة بن عامر والبخارى من حديث أبى هريرة يصلون بكم فان أصابوا فلكم وإن أخطئوا فلكم وعليهم (٥) حديث اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين هو بقية حديث الامام ضامن وتقدم قبل بحديثين (٦) حديث من أذن فى مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب ت ه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قال ت حديث غريب (٧) حديث ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة

(١) قوله من أمّ الخ هكذا هو فى النسخ وهو الموافق لكلام المصنف ولكن فى العراقى والشارح لفظا وإن فى الوضعين فليحرر الحديث اه .

الاتقان ومبلغ جودة الصنع ليجعل كمال ماخلق دليلا قاطعا وبرهانا على كماله فى صفات جلاله الموجبة لإجلاله فلو كان ماخلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ماقدر على خلقه ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود من خلقه كما يظهر على ماخلقه على غير ذلك ويكون الجميع من باب الاستدلال على ماصنع من النقصان قطعا وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظنا إذ خلق للخلق عقولا وجعل لهم فهوما وعرفهم ما أمكن وكشف لهم ماحجب وأجن فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه تعالى الله رب العالمين الملك الحق المبين وأيضا فلا يعترض هنا ويتزر به الامن لا يعرف مخلوقاته ولم يصرف الكلام الصحيح فى مشابه ذلك

ولكن فيها خطر ولذلك وجب تقديم الأفضل والأفقه فقد قال صلى الله عليه وسلم « أئمتكم شفعاؤكم أوقال وفدكم إلى الله فان أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم (١) » وقال بعض السلف ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدى الله عز وجل وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعماد الدين وهو الصلاة وبهذه الحجة احتج الصحابة فى تقديم أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعنهم للخلافة إذ قالوا نظرنا فاذا الصلاة عماد الدين فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا (٢) » وماقدموا بلالا احتجاجا بأنه رضيه للأذان (٣) » وماروى أنه قال له رجل يارسول الله « دلنى على عمل أدخل به الجنة قال كن مؤذنا قال لاأستطيع قال كن إماما قال لا أستطيع فقال صل بازاء الامام (٤) » فلعله ظن أنه لايرضى بامامته إذ الأذان إليه والامامة إلى الجماعة وتقديمهم له ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها . الثالثة أن يراعى الامام أوقات الصلوات فيصلى فى أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه ففضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا (٥) هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الحديث « إن العبد ليصلى الصلاة فى آخر وقتها ولم تفته ، ولما فاته من أول وقتها خير له من الدنيا ومافيها (٦) » ولاينبغى أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهى أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة وقد قيل كانوا إذا حضر اثنان فى الجماعة لم ينتظروا الثالث وإذا حضر أربعة فى الجنازة لم ينتظروا الخامس وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا فى سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول

---

(١) حديث أئمتكم وفدكم إلى الله تعالى فان أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم قط هق وضعف إسناده من حديث ابن عمر والبغوى وابن قانع والطبرانى فى معاجمهم و ك من حديث مرثد بن أبى مرثد نحوه وهو منقطع وفيه يحيى بن يحيى الأسلمى وهو ضعيف (٢) حديث تقديم الصحابة أبا بكر وقولهم اخترنا لدنيانا من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ابن شاهين فى شرح مذاهب أهل السنة من حديث على قال لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلى بالناس وإنى لشاهد ما أنا بغائب ولأبى مرض فرضينا لدنيانا مارضى به النبى صلى الله عليه وسلم لديننا والمرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبى موسى فى حديث قال مروا أبا بكر فليصل بالناس (٣) حديث تقديم الصحابة بلالا (١) احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيه للأذان أما المرفوع منه فرواه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبد الله بن زيد فى بدء الأذان وفيه قم مع بلال فألق عليه مارأيت فليؤذن به الحديث وأما تقديمهم له بعد موت النبى ﷺ فروى الطبرانى أن بلالا جاء إلى أبى بكر فقال ياخليفة رسول الله أردت أن أربط نفسى فى سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر أنشدك بالله يابلال وحرمتى وحقى لقد كبرت سنى وضعفت قوتى واقترب أجلى فأقام بلال معه فلما توفى أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ماقال لأبى بكر فأبى عليه فقال عمر فمن يابلال فقال إلى سعد فانه قد أذن بقباء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمر الأذان إلى سعد وعقبه وفى إسناده جهالة (٤) حديث قال له رجل يارسول الله دلنى على عمل أدخل به الجنة قال كن مؤذنا الحديث البخارى فى التاريخ والعقيلى فى الضعفاء وطب فى الأوسط من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٦) حديث إن العبد ليصلى الصلاة فى أول وقتها ولم تفته الحديث الدارقطنى من

---

(١) قول العراقى تقديم الصحابة بلالا لعل المناسب عدم تقديمه فليتأمل

أصلا فى العلم أو كان نسخا له ومعنى تقيس عليه غيره وأما انكشافه بخبر ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم فى حق الخبر إذ أفشاه لغير أهله وأهداه لمن لايستحقه كما روى عن عيسى على نبينا وعليه السلام: لاتعلقوا الدرفى أعناق الخنازير. وإنما أراد قطاع العلم غير أهله وقد جاء لاتمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها وأما سر العلم الذى يوجب كشفه بطلان الأحكام فان كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة بطلت الأحكام فى حقها لمن يطلع عليه فى ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وعواقب الخلق وكشف أسرار العبادة وما يظن من مقدور فمن عرف نفسه مثلا أنه من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يتعب نفسه فى خير وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كن

الله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها قال فأشفقنا من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قد أحسنتم هكذا فافعلوا[١]» وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فقام إلى جانبه[٢]، وليس على الامام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الامام للاقامة فاذا حضر فلا ينتظر غيره . الرابعة أن يؤم مخلصاً لله عز وجل ومؤدياً أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته أما الاخلاص فبأن لا يأخذ عليها أجرة فقد أمر رسول الله ﷺ عثمان ابن أبي العاص الثقفي وقال اتخذ مؤذناً لا يأخذ على الأذان أجراً[٣] فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر فان أخذ رزقاً من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه والكراهية في الفرائض أشد منها في التراويح وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة . وأما الأمانة فهي الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والاصرار على الصغائر فالمترشح للامامة ينبغي أن يحترز عن ذلك بجهده فانه كالوفد والشفيع للقوم فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فانه لا يطلع عليه سواه فان تذكر في أثناء صلاته حدثاً أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في الصلاة[٤] وقال سفيان صل خلف كل بر وفاجر إلا مدمن خمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه أو صاحب بدعة أو عبد آبق . الخامسة أن لا يكبر حتى تستوي الصفوف فليلتفت يميناً وشمالاً فان رأى خللاً أمر بالتسوية ، قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الاقامة والمؤذن يؤخر الاقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة ففي الخبر « ليتمهل المؤذن بين الأذان والاقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره[٥] » وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين[٦] وأمر بتقديم العشاء على العشاء[٧] طلباً لفراغ القلب . السادسة أن يرفع صوته بتكبيرة الاحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه وينوي الامامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نووا الاقتداء ونالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الامامة ، وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبيرة الامام فيبتدئ بعد فراغه والله أعلم . وأما وظائف القراءة فثلاثة : أولها

حديث أبي هريرة نحوه باسناد ضعيف (١) حديث تأخر رسول الله ﷺ يوماً عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبد الرحمن بن عوف الحديث متفق عليه من حديث المغيرة. (٢) حديث تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد (٣) حديث اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجرة أصحاب السنن و ك وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي (٤) حديث تذكر النبي ﷺ الجنابة في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع د من حديث أبي بكرة باسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وإنما قال ثم أومأ إليهم أن مكانكم الحديث وورد الاستخلاف من فعل عمر وعلي وعند خ استخلاف عمر في قصة طعنه (٥) حديث يمهل المؤذن بين الأذان والاقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره ، ت ك من حديث جابر : يابلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته قال ت إسناده مجهول وقال ك ليس في إسناده مطعون فيه غير عمرو بن فايد قلت بل فيه عبد المنعم الدياحي منكر الحديث قاله خ وغيره (٦) حديث النهي عن مدافعة الأخبثين م من حديث عائشة بلفظ لا صلاة ولبيهق لا يصلين أحدكم الحديث (٧) حديث الأمر بتقديم العشاء على العشاء تقدم من حديث ابن عمر وعائشة إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء متفق عليه.

أنهما كذا فلا يحتاج إلى تعب زائد ولا تصيبه مكابدة فلو عرف كل واحد عاقبته وما له بطلت الأحكام الجارية عليه وإن كان كشفها من مخبر استروح الضعيف إلى ما يسمع من ذلك فيتعطل وينخرم حاله وينحل قيده وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على ما يقدر لا على ما يوجد ولذلك جعله مقروناً بحرف لو الدال على امتناع الشئ لامتناع غيره كما يقال لو كان للانسان جناحان لطار ولو كان للسماء درج لصعد عليها ولو كان البشر ملكاً لفقد الشهوات فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم .

[فصل] وأما خطاب العقلاء الجمادات فغير مستنكر فقد عا تدب الناس الديار وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير وفي حديث

أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها فى جميع الصبح وأولى العشاء والمغرب وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين فى الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معا لا تعقيبا[1] ويجهر ببسم الله الرحمن الرحيم والأخبار فيه متعارضة[2] واختيار الشافعى رضى الله عنه الجهر . الثانية أن يكون للامام فى القيام ثلاث سكتات[3] هكذا رواه سمرة بن جندب وعمران بن الحصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاهن إذا كبر وهى الطولى منهن مقدار مايقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح فانه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع فيكون عليه مانقص من صلاتهم فان لم يقرءوا الفاتحة فى سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليه لا عليهم . السكتة الثانية إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة فى السكتة الأولى فاتحته وهى كنصف السكتة الأولى . السكتة الثالثة إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهى أخفها وذلك بقدر ماتنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه ولا يقرأ المأموم وراء الامام إلا الفاتحة فان لم يسكت الامام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصر هو الامام وإن لم يسمع المأموم فى الجهرية لبعده أو كان فى السرية فلا بأس بقراءة السورة . الوظيفة الثالثة أن يقرأ فى الصبح سورتين من المثانى مادون المائة فان الاطالة فى قراءة الفجر والتغليس بها سنة ولا يضره الخروج منها مع الاسفار ولا بأس بأن يقرأ فى الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها لأن ذلك لا يتكرر على الأسماع كثيرا فيكون أبلغ فى الوعظ وأدعى إلى التفكر وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض أول السورة وقطعها وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع[4] وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ فى الفجر آية من البقرة[5] وهى قوله — قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا — وفى الثانية — ربنا آمنا بما أنزلت — وسمع بلالا يقرأ من ههنا وههنا فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب فقال أحسنت[6] ويقرأ فى الظهر

(١) حديث الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قط ك وصححه من حديث ابن عباس (٢) حديث ترك الجهر بها م من حديث أنس صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم وللنسائى يجهر بسم الله الرحمن الرحيم (٣) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين فى سكتات الامام أحمد من حديث سمرة قال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سكتات فى صلاته وقال عمران أنا أحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبوا فى ذلك إلى أبى بن كعب فكتب إن سمرة قد حفظ هكذا وجدته فى غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا فى غير موضوع من المسند و د ه حب و ت فأنكر ذلك عمران وقال حفظنا سكتة وقال حديث حسن انتهى وليس فى حديث سمرة إلا سكتتان ولكن اختلف عنه فى محل الثانية فروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السورة ولقط من حديث أبى هريرة وضعفه من صلى صلاة مكتوبة مع الامام فليقرأ بفاتحة الكتاب فى سكتاته (٤) حديث قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع م من حديث عبد الله بن السائب وقال سورة المؤمنين وقال موسى وهرون وعلقه خ (٥) حديث قرأ فى الفجر — قولوا آمنا بالله — الآية ، وفى الثانية — ربنا آمنا بما أنزلت — م من حديث ابن عباس كان يقرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى منهما — قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا — الآية التى فى البقرة وفى الآخرة منهما — آمنا بالله واشهدوا بأنا مسلمون — و د من حديث أبى هريرة — قل آمنا بالله وما أنزل علينا — الآية وفى الركعة الآخرة — ربنا آمنا بما أنزلت — أو — إنا أرسلناك بالحق — (٦) حديث سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب فقال أحسنت د من حديث أبى هريرة باسناد صحيح نحوه .

النبى صلى الله عليه وسلم « اسكن أحد فانما عليك نبى وصديق وشهيدان » وقال بعضهم اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها وفجر بحارها وفتق أهواءها ورتق أحواءها وأرسى جبالها إن لم تجبك أجابتك اعتبارا وإنما الذى يتوقف على الأذهان ويتحير فى قوله السامعون وتتعجب منه العقول هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات ففى هذا وقع الانكار واضطرب النظار وكذب فى تصحيح وجوده ذو السمع من الاعتبار ولكن لتعلم أن تلق الكلام للعقلاء ممن لم يغفل عنه فى الشهود يكون على جهات من ذلك سماع الكلام الذاتى كما تلق من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم فى بعض الأوقات كحنين

بطوال المفصل إلى ثلاثين آية وفى العصر بنصف ذلك وفى المغرب بأواخر المفصل وآخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب قرأ فيها سورة المرسلات ماصلى بعدها حتى قبض [(١)] . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثر الجمع قال صلى الله عليه وسلم فى هذه الرخصة « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فان فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ماشاء [(٢)] » وقد كان معاذ ابن جبل يصلى بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه فقالوا نافق الرجل فتشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فزجر رسول الله ﷺ معاذا فقال أفتان أنت يامعاذ اقرأ سورة سبح والسماء والطارق والشمس وضحاها [(٣)] . وأما وظائف الأركان فثلاثة : أولها أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد فى التسبيحات على ثلاث فقد روى عن أنس أنه قال مارأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام [(٤)] ، نعم روى أيضا أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميرا بالمدينة قال ماصليت وراء أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الشاب قال وكنا نسبح وراءه عشرا عشرا [(٥)] وروى مجملا أنهم قالوا : كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركوع والسجود عشرا عشرا [(٦)] وذلك حسن ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر هذا وجه الجمع بين الروايات وينبغى أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع سمع الله لمن حمده . الثانية فى المأموم ينبغى أن لايساوى الإمام فى الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلا إذا وصلت جبهة الامام إلى المسجد هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم [(٧)] ولا يهوى للركوع حتى يستوى الامام راكعا وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الامام وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساوونه وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسابقون الامام. وقد اختلف فى أن الامام فى الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة ولعل الأولى أن ذلك مع الاخلاص لابأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فان حقهم مرعى فى ترك التطويل عليهم . الثالثة لايزيد فى دعاء التشهد على مقدار التشهد حذرا من التطويل ولا يخص نفسه فى الدعاء بل يأتى بصيغة الجمع فيقول اللهم اغفر لنا ولا يقول اغفر لى فقد كره للامام أن يخص نفسه ولا بأس بأن يستعيذ فى التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول نعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين [(٨)] وقيل سمى مسيحا لأنه يمسح الأرض بطولها

الجذع للنبى صلى الله عليه وسلم وكان حجر يسلم عليه فى طريقه قبل مبعثه ومنها تلقى الكلام فى حس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ويشترى هذا سائر الحواس كشكل مايسمع النائم فى منامه من مثال شخص من غير مثال والمثال المرئى للنائم ليس له وجود فى سمعه وأما مايجده غير النائم فى اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر فى زمن عيسى ينادى المسلم يامسلم خلفى يهودى فاقتله وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ويذهب عنه معنى الحجرية أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستتر عن الأبصار فى العادة من الملائكة والجن أو يكون كلام يخلقه الله عز وجل فى أذن السامع ليفيده العلم باختفاء اليهودى حتى يقتله وكما يقال فى العرض الأكبر يوم

(١) حديث قراءته فى المغرب بالمرسلات وهى آخر صلاة صلاها متفق عليه من حديث أم الفضل .
(٢) حديث إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٣) حديث صلى معاذ بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة الحديث متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر والسماء والطارق وهى عند البيهقى (٤) حديث أنس مارأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام متفق عليه (٥) حديث أنس أنه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ماصليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الشاب الحديث د ن باسناد جيد وضعفه ابن القطان (٦) حديث كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركوع والسجود عشرا لم أجده أصلا إلا فى الحديث الذى قبله وفيه فحزرنا فى ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات .
(٧) حديث كان الصحابة لايهوون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأرض متفق عليه من حديث البراء بن عازب (٨) حديث التعوذ فى التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر الحديث تقدم وزاد فيه الغزالى هنا وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين ولم أجده مقيدا.

وقيل لأنه ممسوح العين أى مطموسها . وأما وظائف التحلل فثلاثة : أولها أن ينوى بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية أن يثبت عقيب السلام كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما فيصلى النافلة فى موضع آخر فان كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن[1] وفى الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقعد إلاقدر قوله اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام[2] . الثالثة إذا وثب فينبغى أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل انفتال الإمام فقد روى عن طلحة والزبير رضى الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قالا للامام ما أحسن صلاتك وأتمها إلاشيئا واحدا أنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك ثم قالا للناس ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم ثم ينصرف الامام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب هذه وظيفة الصلوات وأما الصبح فزيد فيها القنوت فيقول الإمام اللهم اهدنا ولا يقول اللهم اهدنى ويؤمن المأموم فاذا انتهى إلى قوله إنك تقضى ولا يقضى عليك فلا يليق به التأمين وهو ثناء فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول بلى وأنا على ذلك من الشاهدين أو صدقت وبررت وما أشبه ذلك وقد روى حديث فى رفع اليدين فى القنوت[3] فاذا صح الحديث استحب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات فى آخر التشهد إذ لا يرفع بسببها اليد بل التعويل على التوقيف وبينهما أيضا فرق وذلك أن للأيدى وظيفة فى التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما ههنا فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة فى القنوت فانه لائق بالدعاء والله أعلم فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق .

(الباب الخامس فى فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها)

(فضيلة الجمعة)

اعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الاسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى ـ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ـ فحرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعى إلى الجمعة ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا فى مقامى هذا[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه[5] » وفى لفظ آخر « فقد نبذ الإسلام وراء ظهره[6] » واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال فى النار فلم يزل يتردد إليه شهرا يسأله عن ذلك وهو يقول فى النار ، وفى الخبر : إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه وهدانا الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجعله عيدا لهم فهم أولى الناس به سبقا وأهل الكتابين لهم تبع[7]

القيامة إذا نودى فيه باسم كل واحد على الخصوص وفى الخلائق مثل اسم النادى به كثير وقد قالت العلماء إنه لا يسمع النداء فى ذلك الجمع إلا من نودى فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للمنادى فى حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه فى اسمه ولا يكون نداء من خارج والأمثلة كثيرة فى الشرع وفيما سمعت غنية ومقنع . ومنها تلقى الكلام فى العقل وهو المستفاد بالمعرفة المسموع بالقلب المفهوم بالتقدير على اللفظ المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوباد حين رأيته
وكبر للرحمن حين رآنى
فقلت له أين الذين عهدتهم
حواليك فى عيش وخفض زمان
فقال مضوا واستودعونى بلادهم
ومن الذى يبقى على الحدثان

بآخر الصلاة والترمذى من حديث ابن عباس وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون و ك نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عايش وصححهما وسيأتى فى الدعاء (١) حديث المكث بعد السلام خ من حديث أم سلمة (٢) حديث إنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام م من حديث عائشة (٣) حديث رفع اليدين فى القنوت البيهقى من حديث أنس بسند جيد فى قصة قتل القراء ولقد رأيت رسول الله ﷺ كلما صلى الغداة رفع يديه يدعو عليهم .

(الباب الخامس)

(٤) حديث إن الله فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا الحديث ه من حديث جابر باسناد ضعيف .

(٥) حديث من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه أحمد واللفظ له وأصحاب السنن و ك وصححه من حديث أبى الجعد الضمرى (٦) حديث من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر فقد نبذ الاسلام وراء ظهره البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس (٧) حديث إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة بنحوه .

وفى حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتانى جبريل عليه السلام فى كفه مرآة بيضاء وقال هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمتك من بعدك . قلت فما لنا فيها قال لكم خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخر له ماهو أعظم منه أو تعوذ من شرّ هو مكتوب عليه إلا أعاذه الله عزّ وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد . قلت ولم ؟ قال إن ربك عز وجل اتخذ فى الجنة واديا أفيح من المسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة فى السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى فى الجنة(٢) » وفى الخبر « إن لله عز وجل فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار(٣) » وفى حديث أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجحيم تسعر فى كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس فى كبد السماء فلا تصلوا فى هذه الساعة إلا يوم الجمعة فانه صلاة كله وإن جهنم لاتسعر فيه(٥) » وقال كعب إن الله عزوجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالى ليلة القدر ، ويقال إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضا فى يوم الجمعة فتقول سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر(٦) »

(بيان شروط الجمعة)

اعلم أنها تشارك جميع الصلوات فى الشروط وتتميز عنها بستة شروط : الأول الوقت فان وقعت تسليمة الامام فى وقت العصر فاتت الجمعة وعليه أن يتمها ظهرا أربعا والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجا من الوقت ففيه خلاف . الثانى المكان ، فلا تصح فى الصحارى والبرارى وبين الخيام بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية لاتنقل ، يجمع أربعين ممن تلزمهم الجمعة والقرية فيه كالبلد ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحبّ استئذانه . الثالث العدد فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكورا مكلفين أحرارا مقيمين لايظعنون عنها شتاء ولا صيفا فان انفضوا حتى نقص العدد إما فى الخطبة أو فى الصلاة لم تصح الجمعة بل لابد منهم من الأول إلى الآخر . الرابع الجماعة فلو صلى أربعون فى قرية أو فى بلد متفرقين لم تصح جمعتهم ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد

وفى أمثال العوامّ قال الحائط للوتد لم تشقنى فقال الوتد للحائط سل من يدقنى فلو كانت العبارة تتأتى منها ماعبرت إلا بما قد استعير لها وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين — قالتا أتينا طائعين — وفى قوله تعالى — إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا — ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام عليه عباءتان قطوانيتان يلبى وتجيبه الجبال والله يقول لبيك يايونس » فقوله كأنى يدلّ على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها فى الحال وجود ذاتى لأن يونس بن متى عليه السلام قدمات وتلك الحالة منه سلفت

---

(١) حديث أنس أتانى جبريل فى كفه مرآة بيضاء فقال هذه الجمعة الحديث الشافعى فى المسند والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه فى التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف (٢) حديث خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة الحديث م من حديث أبى هريرة (٣) حديث إن لله فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار عد حب فى الضعفاء وهب فى الشعب من حديث أنس قال قط فى العلل والحديث غير ثابت (٤) حديث أنس إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام حب فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية وهق فى الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أنس (٥) حديث إن الجحيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس إلى أن قال إلا يوم الجمعة الحديث د من حديث أبى قتادة وأعله بالانقطاع (٦) حديث من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر أبو نعيم فى الحلية من حديث جابر وهو و ت نحوه مختصرا من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ليس إسناده بمتصل . قلت وصله ت الحكيم فى النوادر .

بالركعة الثانية وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر وإذا سلم الامام تممها ظهرا . الخامس أن لاتكون الجمعة مسبوقة بأخرى فى ذلك البلد فان تعذر اجتماعهم فى جامع واحد جاز فى جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التى يقع بها التحريم أولا ، وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الامامين فإن تساويا فالمسجد الأقدم فإن تساويا فنى الأقرب ولكثرة الناس أيضا فضل يراعى . السادس الخطبتان فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة والجلسة بينهما فريضة وفى الأولى أربع فرائض : التحميد وأقله الحمد لله والثانية الصلاة على النبى ﷺ والثالثة الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى والرابعة قراءة آية من القرآن وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة واستماع الخطبتين واجب من الأربعين . وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الامام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية والكلام لاينقطع إلا بافتتاح الخطبة ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلا على الناس بوجهه لايلتفت يمينا ولا شمالا ويشغل يديه بقائم السيف أو العنزة والمنبر كى لايعبث بهما أو يضع إحداهما على الأخرى ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة ولايستعمل غريب اللغة ولايمطط ولايتغنى وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة ويستحب أن يقرأ آية فى الثانية أيضا ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جوابا والاشارة بالجواب حسن ولا يشمت العاطسين أيضا هذه شروط الصحة فأما شروط الوجوب فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل حر مقيم فى قرية تشتمل على أربعين جامعين لهذه الصفات أو فى قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف يليها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى ـ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ـ ويرخص لهؤلاء فى ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم غيره ثم يستحب لهم أعنى أصحاب الأعذار تأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر أوعبد أوامرأة صحت جمعتهم وأجزأت عن الظهر والله أعلم .

(بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهى عشر جمل)

الأول أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة فى يوم الجمعة قال بعض السلف إن لله عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لايعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة ويغسل فى هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده ويفرغ قلبه من الأشغال التى تمنعه من البكور إلى الجمعة وينوى فى هذه الليلة صوم يوم الجمعة فان له فضلا ولكن مضموما إلى يوم الخميس أو السبت لامفردا فانه مكروه ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة ويجامع أهله فى هذه الليلة أوفى يوم الجمعة فقد استحب ذلك قوم حملوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم «رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل[1]» وهو حمل الأهل على الغسل وقيل معناه غسل ثيابه فروى بالتخفيف واغتسل لجسده وبهذا تم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا ماهذا اليوم قال بعض السلف أوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول إيش اليوم وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة

(١) رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل الحديث أصحاب السنن وحب و ك وصححه من حديث أوس بن أوس من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر الحديث وحسنه ت .

وفى هذا الحديث إخبار عن الوجود الخيالى فى البصر والوجود الخيالى فى السمع ومنها تلقى الكلام بالشبه وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه كقوله عليه السلام فى صوت أبى موسى الأشعرى إذ سمعه يترنم بالقرآن « لقد أعطى مزمارا من مزامير آل داود » ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت وإنما شبه صوته بها وكإذا سمع المريد صوت مزمار أو عود فجأة على غير قصد يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها بما فجأ صوته من ذلك فهذه مراتب الوجود فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ولم يشترك غلط فى بعضها بعض ولا اشتبهت عليك وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر فقال له مابال

في الجامع لأجلها . الثاني إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر وإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحبّ ليكون أقرب عهداً بالنظافة فالغسل مستحب استحباباً مؤكداً وذهب بعض العلماء إلى وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم[1] » والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل[2] » وقال ﷺ «من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل[3] » وكان أهل المدينة إذا تسابّ المتسابان يقول أحدهما للآخر لأنت أشر ممن لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لعثمان رضي الله عنهما لما دخل وهو يخطب « أهذه الساعة منكراً عليه ترك البكور فقال ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت فقال والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالغسل[4] » وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضي الله عنه وبما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل[5] » ومن اغتسل للجنابة فليفض الماء على بدنه مرة أخرى على نية غسل الجمعة فان اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة وقد دخل بعض الصحابة على ابنه وقد اغتسل فقال له أللجمعة فقال بل عن الجنابة فقال أعد غسلاً ثانياً وروى الحديث في غسل الجمعة على كل محتلم وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه وكان لا يبعد أن يقال المقصود النظافة وقد حصلت دون النية ولكن هذا ينقدح في الوضوء أيضاً وقد جعل في الشرع قربة فلا بد من طلب فضلها ومن اغتسل ثم أحدث توضأ ولم يبطل غسله والأحب أن يحترز عن ذلك . الثالث الزينة وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة الكسوة والنظافة وتطييب الرائحة أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة قال ابن مسعود من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منه داء وأدخل فيه شفاء فان كان قد دخل الحمام في الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود فليتطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشامّ الحاضرين في جواره « وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه[6] » روي ذلك في الأثر وقال الشافعي رضي الله عنه من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض لا يلبس ما فيه شهرة ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمامة مستحبة في هذا اليوم روى واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة »[7] فان أكربه الحرّ فلا بأس بنزعها قبل الصلاة وبعدها ولكن لا ينزع في وقت السعي من المنزل إلى الجمعة ولا في وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفي خطبته . الرابع

(١) حديث غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم متفق عليه من حديث أبي سعيد (٢) حديث نافع عن ابن عمر من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل متفق عليه وهذا لفظ حب (٣) حديث من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا حب وهق من حديث ابن عمر (٤) حديث قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب أهذه الساعة الحديث إلى أن قال والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يسم البخاري وعثمان (٥) حديث من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت الحديث د ت وحسنه و ن من حديث سمرة (٦) حديث طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه د ت وحسنه و ن من حديث أبي هريرة (٧) حديث واثلة بن الأسقع إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة طـ وعد وقال منكر من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث واثلة

وجهك وقد كان أبيض أشقر موثقاً والآن قد ظهر فيه السواد فلم سودت وجهك فقال سل الحبر فانه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً فقال صدقت . ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات أعمل الفكر وجدد النظر وحل الكلام إلى أجزائه التي ينتظم منها جملة ما بلغك فسأل عن معنى الناظر ومعنى المشكاة ومعنى نور الله سبحانه وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب وبأي لسان خاطب الكاغد وكيف مخاطبة الكاغد وهو ليس من أهل النطق وفيما صدق الناطق الكاغد ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد فيبدو لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب فما أورده عليه الحس والمشكاة استعارة من مشكاة

البكور إلى الجامع ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاث وليبكر ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر وفضل البكور عظيم وينبغى أن يكون فى سعيه إلى الجمعة خاشعا متواضعا ناويا للاعتكاف فى المسجد إلى وقت الصلاة قاصدا للمبادرة إلى جواب نداء الله عزّ وجلّ إلى الجمعة إياه والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه وقدقال صلى الله عليه وسلم « من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة فاذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر فمن جاء بعد ذلك فانما جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شيء (١) » والساعة الأولى إلى طلوع الشمس والثانية إلى ارتفاعها والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضلهما قليل ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لو يعلم الناس مافيهنّ لركضوا ركض الإبل فى طلبهن الأذان والصف الأوّل والغدوّ إلى الجمعة (٢) » وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه أفضلهن الغدوّ إلى الجمعة وفى الخبر « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم (٣) » وجاء فى الخبر « إن الملائكة يتفقدون الرجل إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا عنه مافعل فلان وما الذى أخره عن وقته فيقولون اللهم ان كان أخره فقر فأغنه وان كان أخره مرض فاشفه وان كان أخره شغل ففرغه لعبادتك وان كان أخره لهو فأقبل بقلبه إلى طاعتك (٤) » وكان يرى فى القرن الأوّل سحرا أو بعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون فى السرج ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل أوّل بدعة حدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجامع وكيف لايستحى المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والربح فلم لايسابقهم طلاب الآخرة ويقال إن الناس يكونون فى قربهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة ودخل ابن مسعود رضى الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر

(١) حديث من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وليس فيه ورفعت الأقلام وهذه اللفظة عند البيهقى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٢) حديث ثلاث لو يعلم الناس مافيهن لركضوا ركض الإبل فى طلبهن الأذان والصف الأوّل والغدوّ إلى الجمعة أبو الشيخ فى ثواب الأعمال من حديث أبى هريرة ثلاث لو يعلم الناس مافيهن ماأخذن إلا بالاستهام عليها حرصا على مافيهنّ من الخير والبركة الحديث . قال والتهجير إلى الجمعة وفى الصحيحين من حديثه لو يعلم الناس مافى النداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا ولو يعلمون مافى التهجير لاستبقوا إليه (٣) حديث إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب الحديث ابن مردويه فى التفسير من حديث علىّ باسناد ضعيف إذا كان يوم الجمعة نزل جبريل فركز لواء بالمسجد الحرام وغدا سائر الملائكة إلى المساجد التى يجمع فيها يوم الجمعة فركزوا ألويتهم وراياتهم بباب المساجد ثم نشروا قراطيس من فضة وأقلاما من ذهب (٤) حديث إن الملائكة يفتقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا مافعل فلان هق من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة ونقص باسناد حسن . واعلم أن المصنف ذكر هذا أثرا فان لم يرد به حديثا مرفوعا فليس من شرطنا وانما ذكرناه احتياطا .

الزجاجة التى أغمرت بسراج النار إلى خبر المعرفة الملقب بسر القلب شبيها بها لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى شعلها بنوره ونوره للذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن واشتعال النير بطلوع نيران كواكب المعارف الذاهبة بإذن الله تعالى ظلم جهالات القلوب ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف والكاغد والحبر كناية عن أنفسهما لاعن غيرهما وجعلهما مبدأ طريقه وأول سلوكه إذ هما فى عالم الملك والشهادة الذى محل جولة الناظر فى حال نظره وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب فلأجل أنه كان أميا لايقرأ الكتاب الصناعى وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهى الذى هو أبين وأدل على الفهم منه وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو

قد سبقوه بالبكور فاغتم لذلك وجعل يقول فى نفسه معاتبا لها رابع أربعة وما رابع أربعة من البكور ببعيد . الخامس فى هيئة الدخول ينبغى أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والبكور يسهل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد فى تخطى الرقاب وهو أنه يجعل جسرا يوم القيامة يتخطاه الناس (١) وروى ابن جريج مرسلا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى النبي ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال يا فلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا قال يا نبيّ الله قد جمعت معكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألم نرك تتخطى رقاب الناس (٢) » . أشار به إلى أنه أحبط عمله . وفى حديث مسند أنه قال « ما منعك أن تصلى معنا » قال أولم ترنى يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم « رأيتك تأنيت وآذيت (٣) » أى تأخرت عن البكور وآذيت الحضور ومهما كان الصف الأول متروكا خاليا فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة قال الحسن تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فانه لا حرمة لهم وإذا لم يكن فى المسجد إلا من يصلى فينبغى أن لا يسلم لأنه تكليف جواب فى غير محله . السادس أن لا يمر بين يدى الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمرون بين يديه أعنى بين يدى المصلى فان ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم « لأن يقف أربعين عاما خير له من أن يمر بين يدى المصلى (٤) » وقال ﷺ « لأن يكون الرجل رمادا رمديدا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلى (٥) » وقد روى فى حديث آخر فى المار والمصلى حيث صلى على الطريق أو قصر فى الدفع فقال « لو يعلم المار بين يدى المصلى والمصلى ما عليهما فى ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيرا له من أن يمر بين يديه (٦) » والأسطوانة والحائط والمصلى المفروش حدّ للمصلى فمن اجتاز به فينبغى أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم « ليدفعه فان أبى فليدفعه فان أبى فليقاتله فانه شيطان (٧) » وكان أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان فيخبره أن النبي ﷺ أمره بذلك فان لم يجد أسطوانة فلينصب بين يديه شيئا طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده . السابع أن يطلب الصف الأول فان فضله كثير كما رويناه وفى الحديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الامام واستمع كان ذلك له كفارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام (٨) »

(١) حديث من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسرا إلى جهنم ت وضعفه و ه من حديث معاذ بن أنس (٢) حديث ابن جريج مرسلا أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس الحديث وفيه ما منعك أن تجمع معنا اليوم ابن المبارك فى الرقائق (٣) حديث ما منعك أن تصلى معنا فقال أو لم ترنى قال رأيتك آنيت وآذيت د ن حب ك من حديث عبد الله بن بسر مختصرا (٤) حديث لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدى المصلى البزار من حديث زيد بن خالد وفى الصحيحين من حديث أبى جهم أن يقف أربعين قال أبو النضر لا أدرى أربعين يوما أو شهرا أو سنة و ه وحب من حديث أبى هريرة مائة عام (٥) حديث لأن يكون الرجل رمادا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلى أبو نعيم فى تاريخ أصبهان وابن عبد البر فى التمهيد موقوفا على عبد الله بن عمرو وزاد متعمدا (٦) حديث لو يعلم المار بين المصلى والمصلى ما عليهما فى ذلك الحديث رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى السراج فى مسنده من حديث زيد بن خالد باسناد صحيح (٧) حديث أبى سعيد فليدفعه فان أبى فليقاتله فانما هو شيطان متفق عليه (٨) حديث من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الامام واسمع الحديث ك من حديث أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن .

جماد فسبق الكلام على مثله ومراجعة الكاغد له فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا فيلقى الكلام فى الحس بما ينبئه عن المطلوب من الحق وهو من باب الالقاء فى الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الانسان صور الأشياء المحسوسة وإن كان مريدا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة والعقل وتصديق الناظر للكاغد فى عذره وإحالته على الحبر لم يكن لمجرد قوله بل بشهادة أولى الرضا والعدل وهو البحث والتجربة لم تكن وشهادة النفس وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها سئل عن أجزاء عالم الملك . وأما ما سمعته فى حد عالم الجبروت فذلك من القدرة الحدثة إلى العقل والعلم الموجودين فى الانسان المستقرة فى القوّة الوهمية المدركة جميع ما لا يستدعى وجوده جسما ولكن قد يعرض

وفى لفظ آخر « غفر الله له إلى الجمعة الأخرى وقد اشترط فى بعضها ولم يتخطر قاب الناس(١) » ولا يغفل فى طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور : أولها أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكرا يعجز عن تغييره من لبس حرير من الامام أو غيره أو صلى فى سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك مما يجب فيه الانكار فالتأخر له أسلم وأجمع للهم فعل ذلك جماعة من العلماء طلبا للسلامة قيل لبشر بن الحرث نراك تبكر وتصلى فى آخر الصفوف فقال إنما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه ونظر سفيان الثورى إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبى جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال شغل قلبى قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال يا أبا عبد الله أليس فى الخبر « ادن واستمع(٢) » فقال ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل وقال سعيد بن عامر « صليت إلى جنب أبى الدرداء فجعل يتأخر فى الصفوف حتى كنا فى آخر صف فلما صلينا قلت له أليس يقال خير الصفوف أولها قال نعم إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم(٣) فان الله تعالى إذا نظر إلى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس فانما تأخرت رجاء أن يغفر لى بواحد منهم ينظر الله إليه وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك فمن تأخر على هذه النية إيثارا وإظهارا لحسن الخلق فلا بأس وعند هذا يقال الأعمال بالنيات . ثانيها إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلاطين فالصف الأول محبوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة كان الحسن وبكر المزنى لا يصليان فى المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلاطين وهى بدعة أحدثت بعد رسول الله ﷺ فى المساجد والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافه وصلى أنس بن مالك وعمران بن حصين فى المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجب كراهة . وثالثها أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذى فى فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع وكان الثورى يقول الصف الأول هو الخارج بين يدى المنبر وهو متجه لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى وتكره الصلاة فى الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب . الثامن أن يقطع الصلاة عند خروج الامام ويقطع الكلام أيضا بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ولم يثبت له أصل فى أثر ولا خبر ولكنه إن وافق سجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء لأنه وقت فاضل ولا يحكم بتحريم هذا السجود فانه لا سبب لتحريمه ، وقد روى عن على وعثمان رضى الله عنهما أنهما قالا : من استمع وأنصت فله أجران ومن لم يستمع وأنصت فله أجر ومن سمع ولغا فعليه وزران ومن لم يسمع ولغا فعليه وزر واحد وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت أو مه فقد لغا ومن لغا والامام يخطب فلا جمعة له(٤) » وهذا يدل على أن الإسكات ينبغى أن يكون باشارة أو رمى حصاة لا بالنطق

(١) حديث أنه اشترط فى بعضها ولم يتخط رقاب الناس د حب ك من حديث أبى سعيد وأبى هريرة وقال صحيح على شرط م (٢) حديث ادن فاستمع د من حديث سمرة احضروا الذكر وادنوا من الامام وتقدم بلفظ من هجر ودنا واستمع وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد (٣) حديث أبى الدرداء إن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس و لم أجده (٤) حديث من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا لا جمعة له ت ن عن أبى هريرة د وت قوله ومن لغا فلا جمعة له قال ت حديث حسن صحيح وهو فى الصحيحين بلفظ

له أنه فى جسم كما تدرك السخلة عداوة الذئب وعطف أمها فتتبع العطف وتنفر من العداوة وأما ماسمعته فى حد عالم الملكوت وذلك من العلم الإلهى إلى ما وراء ذلك مما هو داخل فيه ومعدود منه فسر القلب الذى يأخذ به عن الملائكة ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره فأما أى شئ حقائق هذه المذكورات وما كنه كل واحد منها على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا ينتفع بسماعه مع عدم المشاهدة والله قد عرفك بأسمائها فان كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة لملك أنك لا تخبر بقسميات ليس لها مسميات إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات ومن كفر فان الله غنى حميد . [فصل] والفرق بين العلم المحسوس فى عالم

وفى حديث أبى ذر أنه لما سأل أبيا والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال متى أنزلت هذه السورة فأومأ إليه أن اسكت فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبى اذهب فلا جمعة لك فشكاه أبو ذر إلى النبى ﷺ فقال « صدق أبى[1] » وإن كان بعيدا من الإمام فلا ينبغى أن يتكلم فى العلم وغيره بل يسكت لأن ذلك يتسلسل ويفضى إلى هينمة حتى ينتهى إلى المستمعين ولا يجلس فى حلقة من يتكلم فمن عجز عن الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب وإذا كانت تكره الصلاة فى وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية وقال على كرم الله وجهه تكره الصلاة فى أربع ساعات بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطب . التاسع أن يراعى فى قدوة الجمعة ما ذكرناه فى غيرها فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة فإذا فرغ من الجمعة قرأ الحمد لله سبع مرات قبل أن يتكلم وقل هو الله أحد والمعوذتين سبعا سبعا وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزا له من الشيطان ويستحب أن يقول بعد الجمعة اللهم يا غنى يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغننى بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب ثم يصلى بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعد الجمعة ركعتين[2] ، وروى أبو هريرة أربعا[3] ، وروى على وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ستا[4] والكل صحيح فى أحوال مختلفة والأكمل أفضل . العاشر أن يلازم المسجد حتى يصلى العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل يقال من صلى العصر فى الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة فإن لم يأمن التصنع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعنى فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكرا الله عز وجل مفكرا فى آلائه شاكرا لله تعالى على توفيقه خائفا من تقصيره مراقبا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تفوته الساعة الشريفة ولا ينبغى أن يتكلم فى الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يكون حديثهم فى مساجدهم أمر دنياهم ليس لله تعالى فيهم حاجة فلا تجالسوهم[5] » .

(بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذى يعم جميع النهار وهى سبعة أمور)

الأول أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير فى كلامهم ولا ينبغى أن يخلو المريد فى جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو خير ولا ينبغى أن يحضر الحلق قبل الصلاة وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم

إذا قلت لصاحبك و د من حديث على من قال صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له (١) حديث أبى ذر لما سأل أبيا والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب وقال متى أنزلت هذه السورة الحديث هق وقال فى المعرفة إسناده صحيح د ه من حديث أبى بن كعب بسند صحيح أن السائل له أبو الدرداء وأبو ذر ولأحمد من حديث أبى الدرداء أنه سأل أبيا ولابن حبان من حديث جابر إن السائل عبد الله بن مسعود ولأبى يعلى من حديث جابر قال قال سعد بن أبى وقاص لرجل لا جمعة لك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لم يا سعد فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال صدق سعد (٢) حديث ابن عمر فى الركعتين بعد الجمعة متفق عليه (٣) حديث أبى هريرة فى الأربع ركعات بعد الجمعة م إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا (٤) حديث على وعبد الله فى صلاة ست ركعات بعد الجمعة هق مرفوعا عن على وله موقوفا على ابن مسعود أربعا و د من حديث ابن عمر كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستا (٥) حديث يأتى على أمتى زمان يكون حديثهم فى مساجدهم أمر دنياهم الحديث هق فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وأسنده ك من حديث أنس وصحح إسناده وحب نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الملك وبين العلم الإلهى فى عالم الملكوت أن العلم كما اعتقدته مجسما بطىء الحركة بالفعل سريع الانتقال بالهلاك مخالفا عن مثله فى الظاهر مجعولا تحت قهر سلطان الآدمى الضعيف الجاهل فى أكثر أوقاته متصرف بين أحوال متنافية كالعلم والجهل والعدل والظلم والشك والصدق والإفك فالعلم الإلهى عبارة عن خلق الله فى عالم الملكوت مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة فى عالم الملك يرى من أوصاف ما سمى به القلم المحسوس كليا مصرفا يتميز الخالق بحكم إرادته على ما سبق به علمه فى أزل الأزل وإنما سمى بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ما سمى به غير أنه لا يكتب إلا حقائق الحق والفرق بين عين الآدمى وعين الله عز وجل أن عين الآدمى كما علمت مركبة من عصب استمهى بقاؤها وعضل تعضل أدواؤها وعظام يعظم بلاؤها

نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة[١] » إلا أن يكون عالما بالله يذكر بأيام الله ويفقه في دين الله يتكلم في الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستماع واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالنوافل فقد روى أبو ذر « إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة[٢] » قال أنس بن مالك في قوله تعالى ـ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ـ أما انه ليس بطلب دنيا ولكن عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة أخ في الله عز وجل وقد سمى الله عز وجل العلم فضلا في مواضع قال تعالى ـ وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ـ وقال تعالى ـ ولقد آتينا داود منا فضلا ـ يعني العلم فتعلم العلم في هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع . بكر ابن عمر رضى الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع فاذا قاص يقص في موضعه فقال قم من مجلسي فقال لا أقوم وقد جلست وسبقتك إليه فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا[٣] » وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه وروى أن قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضى الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر إن هذا قد آذاني بقصصه وشغلني عن سبحتي فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده . الثاني أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة ففي الخبر المشهور « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا أعطاه[٤] » وفي خبر آخر « لا يصادفها عبد يصلي[٥] » واختلف فيها فقيل إنها عند طلوع الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الأذان وقيل إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة وقيل إذا قام الناس إلى الصلاة وقيل آخر وقت العصر أعني وقت الاختيار وقيل قبل غروب الشمس وكانت فاطمة رضى الله عنها تراعي ذلك الوقت وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أبيها ﷺ وعليها[٦] وقال بعض العلماء هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر حتى تتوفر الدواعي على مراقبتها وقيل إنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينبغي أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا[٧] لها » ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضا لها باحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات وقد قال كعب الأحبار إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب فقال أبو هريرة وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة » فقال كعب ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قعد ينتظر

وعلم ممتد وجلد غير جلد موصولة كلها في الضعف والانفعال ملقية باليد وهي عاجزة على كل حال وعين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدرته وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرة وليست بجارحة ولا جسم وعند آخرين أنها عبارة عن خلق الله هي واسطة بين القلم الإلهي الناقش العلوم الحدثة وغيرها وبين قدرته التي هي صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهي المثبوت على صفحات المخلوقات الذي ليس بعربي ولا عجمي يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم ولم يشارك عين الآدمي إلا في بعض الأسماء لأجل الشبه اللطيف الذي بينهما بالفعل وتقريبا إلى كل ناقص الفهم عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر .

(١) حديث عبد الله بن عمر في النهي عن التحلق يوم الجمعة د ن ه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولم أجده من حديث ابن عمر (٢) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة تقدم في العلم (٣) حديث لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه ت ه من حديث عمرو بن عوف المزني (٥) حديث لا يصادفها عبد مصل متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث فاطمة في ساعة الجمعة قط في العلل هق في الشعب وعلته الاختلاف (٧) حديث إن لربكم في أيام دهركم نفحات الحديث الحكيم في النوادر وطب في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ولابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه بن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة واختلف في إسناده .

الصلاة فهو فى الصلاة (١) » قال بلى قال فذلك صلاة فسكت أبوهريرة وكان كعب مائلا إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما . الثالث يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى عليّ فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يارسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وتعقد واحدة وإن قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء وأعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ماهو أهله واجزه أفضل ماجازيت نبيا عن أمته وصل عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصالحين ياأرحم الراحمين (٢) » تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها فى سبع جمع فى كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال «اللهم اجعل فضائل صلواتك ونوامى بركاتك وشرائف زكواتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين قائد الخير وفاتح البر ونبي الرحمة وسيد الأمة اللهم ابعثه مقاما محمودا تزلف به قربه وتقرّ به عينه يغبطه به الأولون والآخرون اللهم أعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيفة اللهم أعط محمدا سؤله وبلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلغ حجته وارفع فى أعلى المقربين درجته اللهم احشرنا فى زمرته واجعلنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته وأوردنا حوضه وأسقنا بكأسه غير خزايا ولانادمين ولا شاكين ولامبدلين ولا فاتنين ولامفتونين آمين يارب العالمين (٣) » وعلى الجملة فكل ماأتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهورة فى التشهد كان مصليا وينبغى أن يضيف إليه الاستغفار فان ذلك أيضا مستحب فى هذا اليوم . الرابع قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة فقد روى عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهما أن «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الآخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفى من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال (٤) » ويستحب أن يختم القرآن فى يوم الجمعة وليلتها إن قدر وليكن ختمه للقرآن فى ركعتى الفجر إن قرأ بالليل أو فى ركعتى المغرب أو بين الأذان والاقامة للجمعة فله فضل عظيم وكان العابدون يستحبون أن يقرءوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة ويقال إن من قرأها فى عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة وكانوا يصلون

(١) حديث اختلاف كعب وأبى هريرة فى ساعة الجمعة وقول أبى هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لايوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة قلت وقع فى الإحياء أن كعبا هو القائل إنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام وأما كعب فانما قال إنها فى كل سنة مرة ثم رجع والحديث رواه د ت ن حب من حديث أبى هريرة ه نحوه من حديث عبدالله بن سلام (٢) حديث من صلى فى يوم الجمعة ثمانين مرة الحديث قط من رواية ابن المسيب قال أظنه عن أبى هريرة وقال حديث غريب وقال ابن النعمان حديث حسن (٣) حديث اللهم اجعل فضائل صلواتك الحديث ابن أبى عاصم فى كتاب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه بسند ضعيف وقفه على ابن مسعود (٤) حديث ابن عباس وأبى هريرة من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة الحديث لم أجده من حديثهما.

[فصل] وحد عالم الملك ماظهر للحواس ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وصحة التعبير وحدّ عالم الملكوت ما أوجده سبحانه بالأمر الأزلى بلاتدريج وبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولانقصان منه وحدّ عالم الجبروت هومابين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك فجبر بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت .

[فصل] ومعنى أن الله خلق آدم على صورته فذلك على ماجاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وللعلماء فيه وجهان فمنهم من يرى للحديث سببا وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبى صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال إن الله تعالى خلق آدم على صورته وتأوّلوا عود الضمير على المضروب وعلى هذا لايكون للحديث مدخل فى هذا الموضع لم يرده مورد آخر فى غير هذا الموطن

على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ألف مرة وإن قرأ المسبعات الست في يوم الجمعة أو ليلتها فحسن وليس يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورا بأعيانها إلا في يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين[1] وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرؤهما في ركعتي الجمعة وكان يقرأ في الصبح يوم الجمعة سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الانسان[2] . الخامس الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلي أربع ركعات يقرأ فيهن قل هو الله أحد مائتي مرة في كل ركعة خمسين مرة[3] فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ولا يدع ركعتي التحية وإن كان الامام يخطب ولكن يخفف . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك[4] وفي حديث غريب أنه صلى الله عليه وسلم سكت للداخل حتى صلاها[5] . فقال الكوفيون إن سكت له الامام صلاها ويستحب في هذا اليوم أو في ليلته أن يصلي أربع ركعات بأربع سور : الأنعام والكهف وطه ويس فان لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك ولا يدع قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة ففيها فضل كثير ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهوله بمنزلة الختمة ويكثر من قراءة سورة الاخلاص ويستحب أن يصلي صلاة التسبيح كما سيأتي في باب التطوعات كيفيتها لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس صلها في كل جمعة[6] وكان ابن عباس رضي الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال وكان يخبر عن جلالة فضلها والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار . السادس الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فانها تتضاعف إلا على من سأل والامام يخطب وكان يتكلم في كلام الامام فهذا مكروه وقال صالح بن محمد سأل مسكين يوم الجمعة والامام يخطب وكان إلى جانب أبي فأعطى رجل أبي قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبي وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال في الجامع الذين يتخطون رقاب الناس إلا أن يسأل قائما أو قاعدا في مكانه من غير تخط وقال كعب الاحبار من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم لم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه وقال بعض

(١) حديث القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وفي عشائها الجمعة والمنافقين حب وهق من حديث سمرة وفي ثقات حب المحفوظ عن سماك مرسلا قلت لا يصح مسندا ولا مرسلا (٢) حديث القراءة في الجمعة بالجمعة والمنافقين وفي صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى م من حديث ابن عباس وأبي هريرة (٣) حديث من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فيها قل هو الله أحد مائتي مرة الحديث الخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال غريب جدا (٤) حديث الأمر بالتخفيف في التحية إذا دخل والامام يخطب م من حديث جابر وخ الأمر بالركعتين ولم يذكر التخفيف (٥) حديث سكوته صلى الله عليه وسلم عن الخطبة للداخل حتى فرغ من التحية قط من حديث أنس وقال أسنده سبيد بن محمد ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلا (٧) حديث صلاة التسبيح وقوله لعمه العباس صلها في كل جمعة د ه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال عق وغيره ليس فيها حديث صحيح .

ويكون الايمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث واثباته في غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر فليبق السبب على حاله ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ويحسن الاحتجاج به في هذا الموطن والوجه الآخر أن يكون الضمير الذي في صورته عائدا إلى الله سبحانه ويكون معنى الحديث أن الله خلق آدم على صورة هي إلى الله سبحانه وهذا العبد المضروب على صورة آدم فاذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ثم ينحصر بيان معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الاضافة وعلى أي جهة يحمل في الاعتقاد العلمي على الله سبحانه ففيها وجهان : أحدهما أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة واليمين على أحد الأوجه والوجه الآخر أن تكون إضافة تخصيص

السلف من أطعم مسكينا يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحدا ثم قال حين يسلم الإمام بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم أسألك أن تغفر لي وترحمني وتعافيني من النار ثم دعا بما بدا له استجيب له . السابع أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدئ فيه السفر فقد روى « أنه من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه (١) » وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء ليشربه أو يسبله حتى لا يكون مبتاعا في المسجد فان البيع والشراء في المسجد مكروه وقالوا لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد وبالجملة ينبغي أن يزيد في الجمعة في أوراده وأنواع خيراته فان الله سبحانه إذا أحب عبدا استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال ليكون ذلك أوجع في عتابه وأشد لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت ويستحب في الجمعة دعوات وسيأتي ذكرها في كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى وصلى الله على كل عبد مصطفى .

(الباب السادس : في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها)

فأما المسائل التي تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه

[مسئلة] الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة وذلك في دفع المار وقتل العقرب التي تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فاذا صارت ثلاثا فقد كثرت وبطلت الصلاة وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما وكذلك حاجته إلى الحك الذي يشوش عليه الخشوع كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة وابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده وقال النخعي يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها وقال ابن المسيب يأخذها ويخدرها ثم يطرحها وقال مجاهد الأحب إلي أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدر ما لا تؤذي ثم يلقيها وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب وقال لا أعود نفسي ذلك فيفسد علي صلاتي وقد سمعت أن الفساق بين يدي الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون ومهما تثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأولى وإن عطس حمد الله عز وجل في نفسه ولا يحرك لسانه وإن تجشأ فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا ينبغي أن يسويه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة [مسئلة] الصلاة في النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلا وليست الرخصة في الخف لعسر النزع بل هذه النجاسة معفو عنها وفي معناها المداس « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نعليه ثم نزع فنزع الناس نعالهم فقال لم خلعتم نعالكم قالوا رأيناك خلعت فخلعنا فقال صلى الله عليه وسلم إن جبرائيل عليه السلام أتاني فأخبرني أن بهما خبثا فاذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما فان رأى خبثا فليمسحه بالأرض وليصل فيهما (٢) » وقال بعضهم الصلاة في النعلين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال لم خلعتم نعالكم وهذه مبالغة فانه صلى الله عليه وسلم سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبي ﷺ خلع نعليه (٣) » فاذن قد فعل كليهما فمن خلع فلا ينبغي أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف بل يضعهما بين يديه

(١) حديث من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه قط في الافراد من حديث ابن عمر وفيه ابن لهيعة وقال غريب والخطيب في الرواة عن مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

(الباب السادس)

(٢) حديث صلى في نعليه ثم نزع فنزع الناس نعالهم الحديث أحمد واللفظ له د ك وصححه من حديث أبي سعيد (٣) حديث عبد الله بن السائب في خلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه م .

به تعالى فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير فان العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلا شك متشابهتان فالذي نظر في تحليل صورة العالم الأكبر قسمه على أنحاء من القسمة وقسم آدم عليه السلام كذلك فوجد كل نحوين منهما شبيهين فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك والثاني باطن معقول كعالم الملكوت والانسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع

ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتا إليهما ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راعى هذا المعنى وهو التفات القلب إليهما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه[1] » وقال أبو هريرة لغيره اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما ووضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماما[2] فللإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فيشغلانه ولكن قدام قدميه ولعله المراد بالحديث وقد قال جبير بن مطعم وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة [مسئلة] إذا بزق في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل وما لا يحصل بصوت لا يعد كلاما وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغي أن يحترز منه إلا كما أذن رسول الله ﷺ فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في القبلة نخامة فغضب غضبا شديدا ثم حكها بعرجون كان في يده وقال ائتوني بعبير فلطخ أثرها بزعفران ثم التفت إلينا وقال أيكم يحب أن يبزق في وجهه فقلنا لا أحد قال فإن أحدكم إذا دخل في الصلاة فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة[3] » وفي لفظ آخر واجهه الله تعالى فلا يبزقن أحدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى فإن بدرته بادرة فليبصق في ثوبه وليقل به هكذا ودلك بعضه ببعض [مسئلة] لوقوف المقتدي سنة وفرض . أما السنة فأن يقف الواحد عن يمين الامام متأخرا عنه قليلا والمرأة الواحدة تقف خلف الامام فإن وقفت بجنب الامام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة فإن كان معهما رجل وقف الرجل عن يمين الامام وهي خلف الرجل ولا يقف أحد خلف الصف منفردا بل يدخل في الصف أو يجر إلى نفسه واحدا من الصف فإن وقف منفردا صحت صلاته مع الكراهية . وأما الفرض فاتصال الصف وهو أن يكون بين المقتدي والامام رابطة جامعة فإنهما في جماعة فإن كانا في مسجد كفى ذلك جامعا لأنه بني له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الامام ؛ صلى أبو هريرة رضي الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الامام وإذا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيكفي القرب بقدر غلوة سهم وكفى بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر وإنما يشترط إذا وقف في صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطئ في المسجد فالشرط أن يمد صف المسجد في دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الأبنية المختلفة فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء [مسئلة] المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الامام فهو أول صلاته فليوافق الامام وليبن عليه وليقنت في الصبح في آخر صلاة نفسه وإن قنت مع الامام وإن أدرك مع الامام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها فإن ركع الامام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم فإن عجز وافق الامام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق وإن ركع الامام وهو في السورة فليقطعها وإن أدرك الامام في السجود أو التشهد كبر للاحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانيا في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له والتكبيرات للانتقالات الأصلية في الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة ولا يكون مدركا للركعة ما لم يطمئن راكعا في الركوع والامام بعد في حد الراكعين فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الامام حد الراكعين فاتته تلك

(١) حديث أبي هريرة إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه د بسند صحيح وضعفه المنذري وليس بجيد (٢) حديث وضعه نعليه على يساره م من حديث عبد الله بن السائب (٣) حديث رأى في القبلة نخامة فغضب الحديث م من حديث جابر واتفقا عليه مختصرا من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر .

الجواهر المحسوسة وإلى باطن كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك ، وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك وهو الظاهر للحواس وإلى عالم الملكوت وهو الباطن في العقول وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منهما والانسان كذلك انقسم إلى ما شابه هذه القسمة فالمشابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة وقد علمتها والمشابهة لعالم الملكوت فمثل الروح والعقل والقدرة والارادة وأشباه ذلك والمشابه لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزائه والوجه الثاني أن يكون معناه كفرا للسامع لا للمخبر بخلاف الوجه الأول ويكون هذا مطابقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم أتريدون

الركعة [مسئلة] من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أولا ثم العصر فان ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف فان وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فان الجماعة بالأداء أولى فان صلى منفردا فى أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى فى الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحتسب أيهما شاء فان نوى فائتة أو تطوعا جاز وإن كان قد صلى فى الجماعة فأدرك جماعة أخرى فلينو الفائتة أو النافلة فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لاوجه له وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة [مسئلة] من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه ولو رأى النجاسة فى أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم والأحب الاستئناف وأصل هذا قصة خلع النعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فانه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة [مسئلة] من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله ﷺ فى التشهد الأول أو فعل فعلا سهوا وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلم يدر أصلى ثلاثا أو أربعا أخذ باليقين وسجد سجدتى السهو قبل السلام فان نسى فبعد السلام مهما تذكر على القرب فان سجد بعد السلام وبعد أن أحدث بطلت صلاته فانه لما دخل فى السجود كأنه جعل سلامه نسيانا فى غير محله فلا يحصل التحلل به وعاد إلى الصلاة فلذلك يستأنف السلام بعد السجود فان تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات [مسئلة] الوسوسة فى نية الصلاة سببها خبل فى العقل أو جهل بالشرع لأن امتثال أمر الله عز وجل مثل امتثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره فى حق القصد ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال نويت أن أنتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله متصلا بدخوله مقبلا عليه بوجهى كان سفها فى عقله بل كما يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو فى غفلة واشتراط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا فى كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الاقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه وقصد التعظيم به ليكون تعظيما فانه لو قام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما ثم هذه الصفات لابد وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها فى النفس فى لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظا باللسان وإما تفكرا بالقلب فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلى فى وقت فأجبت وقمت فالوسوسة محض الجهل فان هذه القصود وهذه العلوم تجتمع فى النفس فى حالة واحدة ولا تكون مفصلة الآحاد فى الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها وفرق بين حضور الشىء فى النفس وبين تفصيله بالفكر والحضور مضاد للعزوب والغفلة وإن لم يكن مفصلا فان من علم الحادث مثلا فيعلمه بعلم واحد فى حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما هى حاضرة وإن لم تكن مفصلة فان من علم الحادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدم والتأخر والزمان وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحادث بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدم والمتأخر فقال ما عرفته قط كان كاذبا وكان قوله مناقضا لقوله إنى أعلم الحادث ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس فان الموسوس يكلف نفسه أن يحضر فى قلبه الظهرية والأدائية والفرضية فى حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال ولو كلف نفسه ذلك فى القيام لأجل العالم لتعذر عليه فبهذه المعرفة يندفع الوسواس وهو أن يعلم أن امتثال أمر الله سبحانه فى النية كامتثال أمر غيره ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول لو لم يفهم الموسوس النية إلا باحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمثل فى نفسه الامتثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك فى أثناء التكبير من أوله

أن يكذب الله ورسوله فمن حدث أحدا بما لم يصله عقله ربما سارع إلى التكذيب وهو الأكثر ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها فقد كفر ولو لم يقصد الكفر فان أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها وهى كفار بلا ريب وهذا وجه واضح قريب ولا تلتفت إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين فى العلم حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذى هو نقيض الإيمان والاسلام بتعلق مخبره وتلحق قائله وهذا لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء الذين يكفرون بالمعاصى وأهل السنن لا يرضون بذلك وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر وعبد الله بالقول الذى ينزه به والعمل الذى يقصد به التعبد لوجهه

إلى آخره بحيث لايفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاه ذلك ولانكلفه أن يقرن الجميع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط ولو كان مأمورا به لوقع للأولين سؤال عنه ولوسوس واحد من الصحابة في النية فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل فكيفما تيسرت النية للموسوس ينبغي أن يقنع به حتى يتعود ذلك وتفارقه الوسوسة ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة ، وقد ذكرنا في الفتاوى وجوها من التحقيق في تحقيق العلوم والقصود المتعلقة بالنية تفتقر العلماء إلى معرفتها أما العامة فربما ضرها سماعها ويهيج عليها الوسواس فلذلك تركناها

[مسئلة] ينبغي أن لايتقدم المأموم على الامام في الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال ولاينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقفوا أثره فهذا معنى الاقتداء فان ساواه عمدا لم تبطل صلاته كالو وقف بجنبه غير متأخر عنه فان تقدم عليه ففي بطلان صلاته خلاف ولايبعد أن يقضى بالبطلان تشبيها بما لو تقدم في الموقف على الامام بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء في الفعل لافي الموقف فالتبعية في الفعل أهم وإنما شرط ترك التقدم في الموقف تسهيلا للمتابعة في الفعل وتحصيلا لصورة التبعية إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدم فالتقدم عليه في الفعل لاوجه له إلا أن يكون سهوا ولذلك شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير فيه فقال «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه رأس حمار (١)» وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة وذلك بأن يعتدل الامام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فان وضع الامام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الراكعين بطلت صلاته وكذا إن وضع الامام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأول

[مسئلة] حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره وينكر عليه وان صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف والانكار على من يرفع رأسه قبل الامام إلى غير ذلك من الأمور فقد قال صلى الله عليه وسلم « ويل للعالم من الجاهل حيث لايعلمه (٢)» وقال ابن مسعود رضي الله عنه من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه في وزرها وعن بلال ابن سعد أنه قال الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فاذا أظهرت فلم تغير أضرت بالعامة وجاء في الحديث « أن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة (٣)» وعن عمر رضي الله عنه قال تفقدوا إخوانكم في الصلاة فاذا فقدتموهم فان كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولاينبغي أن يتساهل فيه وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذي يتأخر عن الجماعة دون الحي ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد يمين الصف ولذلك تزاحم الناس عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم « من عمر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر (٤)» ومهما وجد غلاما في الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرجه إلى خلف ويدخل فيه أعنى إذا لم يكن بالغا وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تعم بها البلوى وسيأتي أحكام الصلوات المتفرقة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

(١) حديث أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الامام متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث ويل للعالم من الجاهل الحديث صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث إن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة لم أجده (٤) حديث قيل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد الحديث ، من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

الذي يستزيد به إيمانا ومعرفة له سبحانه ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفوائد المزيد وينيله ماشرف من النسخ ويريه أعلام الرضا ثم يكفره أحد بغير شرع ولاقياس عليه والايمان لايخرج عنه إلا بنبذه واطراحه وتركه واعتقاد مالايتم الإيمان معه ولايحصل بمقارنته وليس في إفشاء سر الولي مايحصل به تناقض الإيمان اللهم إلا أن يريد بافشائه وقوع الكفر من السامع له فهذا عات متمرد وليس بولي ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لامحالة كافر وعلى هذا يخرج قوله تعالى ـ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ـ ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى مايجد له من العداوة والبغضاء قيل له أخطأت وأثمت من غير تكفير وأنه أعيا فعل ذلك وسب رسول

(الباب السابع من النوافل من الصلوات)

اعلم أن ماعدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن ومستحبات وتطوعات ونعنى بالسنن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتهجد وغيرها لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة ونعنى بالمستحبات ماورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه كما سننقله فى صلوات الأيام والليالى فى الأسبوع وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله ونعنى بالتطوعات ماوراء ذلك مما لم يرد فى عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب فى مناجاة الله عز وجل بالصلاة التى ورد الشرع بفضلها مطلقا فكأنه متبرع به إذلم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقا والتطوع عبارة عن التبرع وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملتها زائد على الفرائض فلفظ النافلة والسنة والمستحب والتطوع أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة فى الألفاظ بعد فهم المقاصد وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته فى الفضل بحسب ماورد فيها من الأخبار والآثار المعرّفة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد وأفضل سنن الجماعات صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء وأفضل سنن الانفراد الوتر ثم ركعتا الفجر ثم مابعدهما من الرواتب على تفاوتها . واعلم أن النوافل باعتبار الاضافة إلى متعلقاتها تنقسم إلى مايتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء وإلى مايتعلق بأوقات والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى مايتكرر بتكرر اليوم والليلة أو بتكرر الأسبوع أو بتكرر السنة فالجملة أربعة أقسام :

القسم الأول مايتكرر بتكرر الأيام والليالى وهى ثمانية خمسة هى رواتب الصلوات الخمس وثلاثة وراءها وهى صلاة الضحى وإحياء مابين العشاءين والتهجد

الأولى : راتبة الصبح وهى ركعتان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا ومافيها(١) » ويدخل وقتها بطلوع الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير فى أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتران طلوعه بالكواكب الظاهرة للبصر فيستدل بالكواكب عليه ويعرف بالقمر فى ليلتين من الشهر فان القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثنى عشر من الشهر هذا هو الغالب ويتطرق إليه تفاوت فى بعض البروج وشرح ذلك يطول وتعلم منازل القمر من المهمات للمريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ويفوت وقت ركعتى الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ولكن السنة أداؤهما قبل الفرض فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فانه صلى الله عليه وسلم قال « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة (٢) » ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلاهما والصحيح أنهما أداء ماوقعتا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للفرض فى وقته وإنما الترتيب بينهما سنة فى التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة فاذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقيتا أداء والمستحب أن يصليهما فى المنزل ويخففهما ثم يدخل المسجد ويصلى ركعتين تحية المسجد ثم يجلس ولا يصلى إلى أن يصلى المكتوبة وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب

(الباب السابع)

(١) حديث ركعتا الفجر خير من الدنيا الحديث م من حديث عائشة (٢) حديث إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة م من حديث أبى هريرة .

الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع .
[سؤال] فان قيل فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى ونسب إليه : للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوّات وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام وجاء فى الإحياء على أثر هذا القول وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة فى حق الضعفاء فما قالوا ليس بحق فإن الصحيح لا يتناقض والكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه وهذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق منها بما فرّع من الكلام فيها آنفا وناظر إليه إذ ما أدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم كفر فالجواب : أن الذى قاله رحمه الله وإن كان مستعجما فى الظاهر فهو قريب المسلك باد للمتأمل الذى يعرف مصادر أغراضهم ومسالك أقوالهم الإلهية

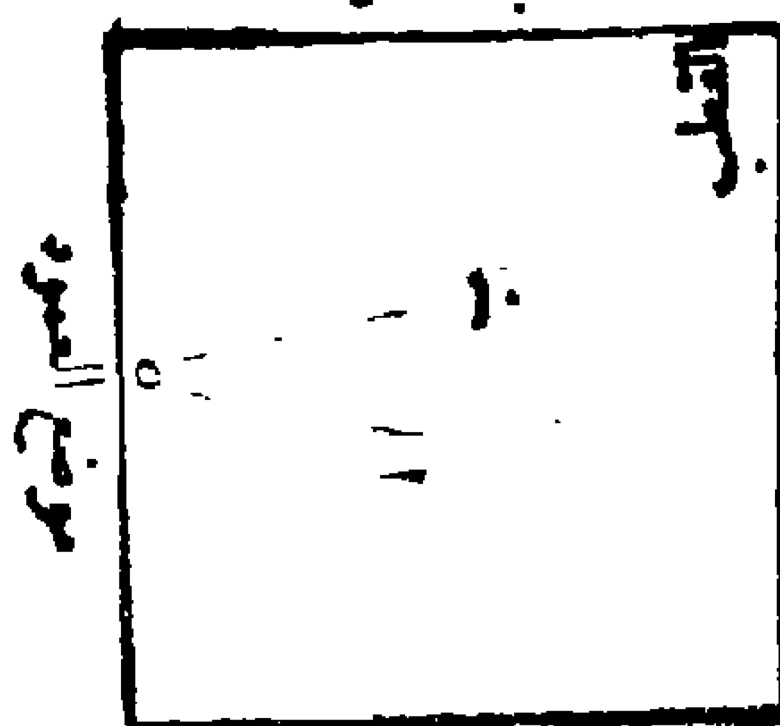
فيه الذكر والفكر والاقتصار على ركعتي الفجر والفريضة . الثانية : راتبة الظهر وهي ست ركعات ركعتان بعدها وهي أيضا سنة مؤكدة وأربع قبلها وهي أيضا سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل(١) . وكان صلى الله عليه وسلم لايدع أربعا بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح في هذه الساعة فأحب أن يرفع لي فيها عمل(٢) » رواه أبو أيوب الأنصاري وتفرد به ودل عليه أيضا ماروت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بني له بيت في الجنة وركعتين قبل الفجر وأربعا قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب(٣) » وقال ابن عمر رضي الله عنهما : حفظت من رسول الله ﷺ في كل يوم عشر ركعات(٤) » فذكر ماذكرته أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال تلك ساعة لم يكن يدخل فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثتني أختي حفصة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج وقال في حديثه ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة ويدخل وقت ذلك بالزوال والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبة مائلة إلى جهة الشرق إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب الغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة الغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر ويعلم قطعا أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكاليف لاترتبط إلا بما يدخل تحت الحس والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة يطول في الشتاء ويقصر في الصيف ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدي ومنتهى قصره بلوغها أول السرطان ويعرف ذلك بالأقدام وللموازين ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالي بالليل ويضع على الأرض لوحا مربعا وضعا مستويا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطا من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أي لا يكون الخط مائلا إلى أحد الضلعين ثم تنصب عمودا على اللوح نصبا مستويا في موضع علامة ه وهو بإزاء القطب فيقع ظله على اللوح في أول النهار مائلا إلى جهة المغرب في صوب خط ا ثم لايزال يميل إلى أن ينطبق على خط ب بحيث لو مد رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر ويكون موازيا للضلع الشرقي والغربي غير مائل إلى أحدهما فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربي فالشمس في منتهى الارتفاع فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس وهذا يدرك بالحس تحقيقا في وقت

ومن وصل إليه اليقين الذي لولاه لم يكن نبيا لايخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التي هي غائبة عنها بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه مايبهر العقول ويفقد الحس ويقطع عن الدنيا وما فيها وذلك لضعفه ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة في حقه أن يعرفها أو يستقل ماجاء من قبلها إذ قد شغله عنها ماهو أعظم لديه منها وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل ما يطرأ عليه كما حكي أن شابا من سالكي طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل فلما رآه انكشف له ذلك وكان في مقام الضعفاء من المريدين فلم يطق حمله فمات به وإما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه فتبطل النبوة في حق

(١) حديث أبي هريرة من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن الحديث ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغا من حديث ابن مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي أيوب كان لايدع أربعا بعد الزوال الحديث أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبي داود وه مختصرا وت نحوه من حديث عبدالله بن السائب وقال حسن (٣) حديث أم حبيبة من صلى في يوم اثنتي عشرة ركعة الحديث ن ك وصحح إسناده على شرط م ورواه م مختصرا ليس فيه تعيين أوقات الركعات (٤) حديث ابن عمر حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات الحديث متفق عليه واللفظ خ ولم يقل في كل يوم .

هو

هو قريب من أول الزوال في علم الله تعالى ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر فهذا القدر لا بأس بمعرفته في علم الزوال وهذه صورته :



الثالثة : راتبة العصر وهي أربع ركعات قبل العصر . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « رحم الله عبدا صلى قبل العصر أربعا[^1] » ففعل ذلك على رجاء الدخول في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستحب استحبابا مؤكدا فإن دعوته تستجاب لا محالة ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر . الرابعة : راتبة المغرب وهما ركعتان بعد الفريضة لم تختلف الرواية فيهما ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامة المؤذن على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة كأبي بن كعب وعبادة بن الصامت وأبي ذر وزيد بن ثابت وغيرهم قال عبادة أو غيره كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواري يصلون ركعتين[^2] وقال بعضهم كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا[^3] فيسأل أصليتم المغرب ، وذلك يدخل في عموم قوله صلى الله عليه وسلم « بين كل أذانين صلاة لمن شاء[^4] » وكان أحمد بن حنبل يصليهما فعابه الناس فتركهما فقيل له في ذلك فقال لم أر الناس يصلونهما فتركهما وقال لئن صلاهما الرجل في بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن ويدخل وقت المغرب بغيبوبة الشمس عن الأبصار في الأراضي المستوية التي ليست محفوفة بالجبال فإن كانت محفوفة بها في جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق قال صلى الله عليه وسلم « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم[^5] » والأحب المبادرة في صلاة المغرب خاصة وإن أخرت وصليت قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ولكنه مكروه وأخر عمر رضي الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . الخامسة : راتبة العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام[^6] واختار بعض

الخبر حين نهى أن لا يفشى فأفشى أو أمر أن لا يتحدث فلم يفعل فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها فلهذا قيل في ذلك بطلت النبوة في حقه . فإن قيل فلم لا تكفروه على هذا الوجه إذا بطلت النبوة في حقه باختياره . قلنا ما بطلت في حقه جميعا وإنما بطل في حقه منها ما خالف الأمر الثابت من قبلها ويعد هذا من الكلام على تغليظ حق الافشاء وقد سبق الكلام عليه في معنى إفشاء سر الربوبية كفر وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها أو رزق معرفتها على الجملة إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبي فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع الجنة له بالأمر المتوجه عليه بطلبه والبحث عنه والتفكر فيه فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء لو وقعت

[^1]: حديث أبي هريرة رحم الله عبدا صلى أربعا قبل العصر د ت حب من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبي هريرة

[^2]: حديث عبادة أو غيره في ابتدار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السوارى إذا أذن لصلاة المغرب متفق عليه من حديث أنس لا من حديث عبادة وروى عبد الله بن أحمد في زيادات المسند أن أبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركعتين قبل المغرب

[^3]: حديث كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا م من حديث أنس

[^4]: حديث بين كل أذانين صلاة لمن شاء متفق عليه من حديث عبد الله بن مغفل

[^5]: حديث إذا أقبل الليل من ههنا الحديث متفق عليه من حديث عمر

[^6]: حديث عائشة كان يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام د .

العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة ركعتان قبل الصبح وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث بعد العشاء الآخرة وهي الوتر (١) ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصلاة خير موضع فمن شاء أكثر ومن شاء أقل (٢) » فاذا اختيار كل مريد من هذه الصلوات بقدر رغبته في الخير فقد ظهر فيما ذكرناه أن بعضها آكد من بعض وترك الآكد أبعد لاسيما والفرائض تكمل بالنوافل فمن لم يستكثر منها يوشك أن لاتسلم له فريضة من غير جابر. السادسة : الوتر قال أنس ابن مالك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد (٣) وجاء في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا وفي بعضها متربعا (٤) وفي بعض الأخبار « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد يقرأ فيهما إذا زلزلت الأرض وسورة التكاثر (٥) » وفي رواية أخرى قل يا أيها الكافرون ويجوز الوتر مفصولا وموصولا بتسليمة واحدة وتسليمتين وقد أوتر رسول الله ﷺ بركعة (٦) وثلاث (٧) وخمس (٨) وهكذا بالأوتار (٩) إلى إحدى عشرة ركعة (١٠) والرواية مترددة في ثلاث عشرة (١١) وفي حديث شاذ سبع عشرة ركعة (١٢) وكانت هذه الركعات أعني ما سمينا جملتها وترا صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنة مؤكدة وسيأتي ذكر فضلها في كتاب الأوراد وفي الأفضل خلاف فقيل إن الايتار بركعة فردة أفضل إذ صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يواظب على الايتار بركعة فردة وقيل الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لاسيما الامام إذ قد يقتدي به من لايرى الركعة الفردة صلاة فان صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وصح لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وترا وأن يكون موترا لغيره مما سبق قبله وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح

(١) حديث الوتر بثلاث بعد العشاء أحمد واللفظ له والنسائي من حديث عائشة كان يوتر بثلاث لايفصل بينهن (٢) حديث الصلاة خير موضع أحمد وابن حبان ك وصححه من حديث أبي ذر (٣) حديث أنس كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبح الحديث ابن عدي في ترجمة محمد بن أبان ورواه ت ن ه من حديث ابن عباس بسند صحيح (٤) حديث كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا م من حديث عائشة (٥) حديث إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين الحديث هق من حديث أبي أمامة وأنس نحوه وضعفه وليس فيه زحف إليه ولا ذكر ألهاكم التكاثر (٦) حديث الوتر بركعة متفق عليه من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة (٧) حديث الوتر بثلاث تقدم (٨) حديث الوتر بخمس من حديث عائشة يوتر من ذلك بخمس ولايجلس في شيء إلا في آخرها (٩) حديث الوتر بسبع م د ن واللفظ له من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وضعف أوتر بسبع ركعات لايقعد إلا في السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلي السابعة حديث الوتر تسع م من حديث عائشة وهو في الذي قبله (١٠) حديث الوتر باحدى عشرة أبو داود باسناد صحيح من حديث عائشة كان يوتر بأربع وثلاث وست وثلاث وثمان وثلاث وعشر وثلاث الحديث ولمسلم من حديثها كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة الحديث (١١) حديث الوتر بثلاث عشرة تقدم في الذي قبله وللترمذي والنسائي من حديث أم سلمة كان يوتر بثلاث عشرة وقال ت حسن ولمسلم من حديث عائشة كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة زاد في رواية بركعتي الفجر (١٢) حديث الوتر سبع عشرة ابن المبارك من حديث طاوس مرسلا كان يصلي سبع عشرة ركعة من الليل.

له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها بل ينتظر ماعود من كشف الحقائق باخبار ملك أو ضرب مثل يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ أو إلقاء في روع فيعود مخترعاته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ولا عرف خواصها ولاتنزه في عجائبها ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه ولافهم أن الجنة أعلى النعيم وأن النار أقصى العذاب الأليم وأن النظر إليه منتهى الكرامات وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذي هو نفي محض إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح وقدره منازل وجعله ميقات فمن حي وميت ومتحرك وساكن وعالم

أي

أى لاينال فضيلة الوتر الذى هو خير له من حمر النعم (١) كما ورد به الخبر وإلا فركعة فردة صحيحة فى أىّ وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق فى الفعل ولأنه لم يتقدّم مايصير به وترا فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففى نيته فى الركعتين نظر فانه إن نوى بهما التهجد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر وإن نوى الوتر لم يكن هو فى نفسه وترا وإنما الوتر مابعده ولكن الأظهر أن ينوى الوتر كما ينوى فى الثلاث الموصولة الوتر ولكن للوتر معنيان أحدهما أن يكون فى نفسه وترا والآخر أن ينشأ ليجعل وترا بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وترا والركعتان من جملة الثلاث إلا أن وتريته موقوفة على الركعة الثالثة وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوى بهما الوتر والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها والركعتان لايوتران غيرهما وليستا وترا بأنفسهما ولكنهما موترتان بغيرهما والوتر ينبغى أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد وسيأتى فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما فى كتاب ترتيب الأوراد . السابعة : صلاة الضحى فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات روت أم هانئ أخت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمانى ركعات أطالهنّ وحسنهن (٢) ولم ينقل هذا القدر غيرها فأما عائشة رضى الله عنها فانها ذكرت أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ماشاء الله سبحانه (٣) فلم تحدّ الزيادة أى أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات وروى فى حديث مفرد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى ستّ ركعات (٤) وأما وقتها فقد روى علىّ رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى ستا فى وقتين إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين وهو أوّل الورد الثانى من أوراد النهار كما سيأتى وإذا انبسطت الشمس وكانت فى ربع السماء من جانب الشرق صلى أربعا (٥) فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثانى إذا مضى من النهار ربعه بإزاء صلاة العصر فان وقته أن يبقى من النهار ربعه والظهر على منتصف النهار ويكون الضحى على منتصف مابين طلوع الشمس إلى الزوال كما أن العصر على منتصف مابين الزوال إلى الغروب وهذا أفضل الأوقات ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ماقبل الزوال وقت للضحى على الجملة . الثامنة : إحياء مابين العشاءين وهى سنة مؤكدة ومما نقل عدده من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ستّ ركعات (٦) ولهذه الصلاة فضل عظيم وقيل إنها المراد بقوله عز وجل

(١) حديث الوتر خير من حمر النعم د ت ه من حديث خارجة بن حذافة إن الله أمدّكم بصلاة هى خير لكم من حمر النعم وضعفه خ وغيره (٢) حديث أم هانئ صلى الضحى ثمانى ركعات أطالهن وأحسنهن متفق عليه دون زيادة أطالهن وأحسنهن وهى منكرة (٣) حديث عائشة كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله م (٤) حديث كان يصلى الضحى ستّ ركعات لك فى فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورجاله ثقات (٥) حديث كان إذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت فى ربع النهار من جانب الشرق صلى أربعا ت ن ه من حديث على كان نبى الله صلى الله عليه وسلم إذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات لفظ ن وقال ت حسن (٦) حديث صلى بين العشاءين ستّ ركعات ابن منده فى الضحى وطب فى الأوسط والأصغر من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف و ت وضعفه من حديث أبى هريرة من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتى عشرة سنة .

وجاهل وشقى وسعيد وقريب وبعيد وصغير وكبير وجليل وحقير وغنى وفقير ومأمور وأمير ومؤمن وكافر وجاحد وشاكر وذكر وأنثى وأرض وسماء ودنيا وأخرى وغير ذلك مما لايحصى والكل قائم به موجود بقدرته وباق بعلمه ومنته إلى أجله ومصرف عشيئته وذلك على بالغ حكمته فما أكمل جهل من لايجد به إلا قدماه ولا من يصرفه إلا استبداده ولا ملكه إلا ملكه فيعود المحدث قديما والمربوب ربا والمملوك مالكا فيعود الخلق من خلق الله كهو ، تعالى الله عن جهل الجاهلين وتخييل المتوهمين وزيغ الزائغين .

[فصل] وأما حكم هذه العلوم المكتوبة فى الطلب وسلوك هذه المقامات ورقى هذه الدرجات واستفهام هذه المخاطبات أهى من قبيل الواجبات والمندوبات أو المباحات

ـ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى بين المغرب والعشاء فانها من صلاة الأوابين [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين فى الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الأرض لوسعهم [(٢)] » وسيأتى بقية فضائلها فى كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

(القسم الثانى مايتكرر بتكرر الأسابيع)

(وهى صلوات أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة)

أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله له بعدد كل نصرانى ونصرانية حسنات وأعطاه الله ثواب نبى وكتب له حجة وعمرة وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله فى الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر [(٣)] » وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فانه سبحانه واحد لاشريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة ، وفى الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقا على الله أن يقضى حاجته [(٤)] » . يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة فاذا سلم استغفر الله عشر مرات وصلى على النبى ﷺ عشر مرات غفر الله تعالى له ذنوبه كلها [(٥)] » وروى أنس ابن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين ثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة فاذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتى عشرة مرة واستغفر اثنتى عشرة مرة ينادى به يوم القيامة أين فلان بن فلان ليقم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل فأول مايعطى من الثواب ألف حلة ويتوج ويقال له ادخل الجنة فيستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يشيعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألأ [(٦)] » . يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال: قال صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار [(٧)] » وفى حديث آخر « عند ارتفاع النهار يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب

فاعلم أن المسئول عنه على ضربين أحدهما ماهو فى حكم المبادى والثانى فى حكم الغايات فأما الذى هو فى حكم المبادى فطلبه فرض على كل أحد بقدر بذل المجهود وإفراغ الوسع وجميع مايقدر عليه من العبادة وذلك ما تضمنه أصول علم المعاملة مثل إخلاص التوحيد والصدق فى العمل وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء والتزين بالصبر والشكر لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهى واجبة قال الله تعالى ـ فاتقوا الله مااستطعتم ـ وقد سبق التنبيه عليه . وأما الذى هو فى حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالاثبات والتوكل بالتجريد وحقيقة علم معانى التوحيد وسبر معانى التقرير وأوصاف أهل أبيات اليقين فهو درجات ومقامات ومنازل ومراتب ومنح

(١) حديث من صلى بين المغرب والعشاء فانها من صلاة الأوابين . ابن المبارك فى الرقائق من رواية ابن المنذر مرسلا (٢) حديث من عكف نفسه بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا له من حديث عبد الله بن عمر (٣) حديث من صلى يوم الأحد أربع ركعات الحديث أبو موسى المدينى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٤) حديث على وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد الحديث ذكره أبو موسى المدينى فيه بغير إسناد (٥) حديث جابر من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين الحديث أبو موسى المدينى من حديث جابر عن عمر مرفوعا وهو حديث منكر (٦) حديث أنس من صلى يوم الاثنين اثنتى عشرة ركعة الحديث ذكره أبو موسى المدينى بغير سند وهو منكر (٧) حديث يزيد الرقاشى عن أنس من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار الحديث أبو موسى المدينى بسند ضعيف ولم يقل عند انتصاف النهار

وآية

وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوما فإن مات إلى سبعين يوما مات شهيدا وغفر له ذنوب سبعين سنة . يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الأربعاء ثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وضيقه وظلمته ورفع عنك شدائد القيامة ورفع له من يومه عمل نبي[1] » يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصلي على محمد مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجبا وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج البيت وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة[2] » يوم الجمعة : روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يوم الجمعة صلاة كله مامن عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسبغ الوضوء فصلى سبحة الضحى ركعتين إيمانا واحتسابا إلا كتب الله له مائتي حسنة ومحا عنه مائة سيئة ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له في الجنة أربعمائة درجة ومن صلى ثماني ركعات رفع الله تعالى له في الجنة ثمانمائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثنتي عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائتي حسنة ومحا عنه ألفين ومائتي سيئة ورفع له في الجنة ألفين ومائتي درجة[3] » وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال « من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له[4] » . يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسي كتب الله بكل حرف حجة وعمرة ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء[5] » . وأما الليالي . ليلة الأحد : روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه صلى الله عليه وسلم قال « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوذتين مرة مرة واستغفر الله عز وجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة وتبرأ من حوله وقوته والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله

ولا عند ارتفاعه (١) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة الحديث أبو موسى المديني وقال رواته ثقات والحديث مركب . قلت بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين (٢) حديث عكرمة عن ابن عباس من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين الحديث أبو موسى المديني بسند ضعيف جدا (٣) حديث علي يوم الجمعة صلاة مامن عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس الحديث لم أجد له أصلا وهو باطل (٤) حديث نافع عن ابن عمر من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات الحديث الدارقطني في غرائب مالك وقال لا يصح وعبد الله بن وصيف مجهول والخطيب في الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أعرف له وجها غير هذا (٥) حديث أبي هريرة من صلى يوم السبت أربع ركعات الحديث أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليالي والأيام بسند ضعيف جدا .

يخص الله تعالى بها من شاء من عباده من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعلم ولو كان ذلك لما قيل الناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ارجع لا تتخطّ رقاب الصديقين لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته وهي مراتب الصدق في العلم وبركات الإخلاص في العمل فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه فطلبه والعمل به شتان من هذه المعاني فليس في شيء من الحقيقة وإن كان حقا غير أن حاله معلول إما مفتون بدنياه أو محجوب بهواه وربك على كل شيء قدير .

[فصل] وأما الأشياء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات وبالرموز دون التصريحات وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات وإن كان قد سبق هذا من

ومحمـدا حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولدا ومن لم يدع لله ولدا وبعثه الله عزوجل يوم القيامة مع الآمنين وكان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة مع النبيين[١] » . ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ فى الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات وفى الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة وفى الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة وفى الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة ثم يسأل الله حاجته كان حقا على الله أن يعطيه سؤاله ما سأل[٢] » وهى تسمى صلاة الحاجة . ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسى واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم . روى عن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه وقل هو الله أحد سبع مرات أعتق الله رقبته من النار ويكون يوم القيامة قائده ودليله إلى الجنة[٣] » . ليلة الأربعاء: روت فاطمة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات وفى الثانية بعد الفاتحة قل أعوذ برب الناس عشر مرات ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم عشر مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة[٤] » وفى حديث آخر « ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة ماشاء الله ويقرأ فى آخر الركعتين آية الكرسى ثلاثين مرة وفى الأوليين ثلاثين مرة قل هو الله أحد يشفع فى عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار » روت فاطمة رضى الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فاذا فرغ من صلاته يقول جزى الله محمدا عنا ماهو أهله غفر له ذنوب سبعين سنة وكتب له براءة من النار[٥] » . ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الخميس مابين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى خمس مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فاذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشرة مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حق والديه عليه

الشارع فما له أن يمتحن به من كلف ويتلو من بعيد ولكن العلم رجال مخصوصون فما بال من لم يجعل شارعا ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك . والجواب عنه أن العالم هو وارث النبى صلى الله عليه وسلم وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ويحل فيه كمحله والنبى صلى الله عليه وسلم لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وحكم الوارث فما ورث حكم الموروث فما ورث عنه فما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثله وما لم يصل إليه فيه شىء كان له اجتهاده فان أخطأ كان له أجر وإن أصاب كان له أجران ثم إن الوارث رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار مما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصيص كما قال الله عز وجل وما يعقلها إلا العالمون

(١) حديث أنس من صلى ليلة الأحد بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة الحديث لم أجد له أصلا وحديث من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة الحديث ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس فى فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات وكلاهما ضعيف جدا (٢) حديث الأعمش عن أنس من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات الحديث ذكره أبو موسى المدينى هكذا عن الأعمش بغير إسناد وأسند من رواية يزيد الرقاشى عن أنس حديثا فى صلاة ست ركعات فيها وهو منكر (٣) حديث الصلاة فى ليلة الثلاثاء ركعتين الحديث ذكره أبو موسى بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثا فى صلاة أربع ركعات فيها وكلها منكرة (٤) حديث من صلى ليلة الأربعاء ركعتين الحديث لم أجد فيه إلا حديث جابر فى صلاة أربع ركعات فيها ورواه أبو موسى المدينى وروى من حديث أنس ثلاثين ركعة (٤) حديث فاطمة من صلى ست ركعات أى ليلة الأربعاء الحديث أبو موسى المدينى بسند ضعيف جدا .

قول العراقى حديث أنس من صلى ليلة الأحد اثنتى عشر ركعة .. لم يكن بالاحياء ولعله بنسخته وكذا لم تخرجه تأمل .

وإن كان عاقا لهما وأعطاه الله تعالى ما يعطي الصديقين والشهداء[١] » . ليلة الجمعة : قال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها[٢] » وقال أنس قال النبي ﷺ « من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة ثم أوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة فكأنما أحيا ليلة القدر[٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة[٤] » . ليلة السبت : قال أنس قال رسول الله ﷺ « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بني له قصر في الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهود وكان حقا على الله أن يغفر له[٥] » .

(القسم الثالث ما يتكرر بتكرر السنين)

وهي أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان . الأولى صلاة العيدين : وهي سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين وينبغي أن يراعي فيها سبعة أمور ، الأول : التكبير ثلاثا نسقا فيقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد وفي العيد الثاني يفتتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر وهذا أكمل الأقاويل ويكبر عقب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل وهو عقيب الفرائض آكد . الثاني إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال وليجنب الصبيان الحرير والعجائز التزين عند الخروج . الثالث أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر[٦] هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ﷺ « يأمر باخراج العواتق وذوات الخدور[٧] » . الرابع المستحب الخروج إلى الصحراء إلا مكة وبيت المقدس فان كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد ويجوز في يوم الصحو أن يأمر الامام رجلا يصلي بالضعفة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس يراعي الوقت فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر يوم . الثالث عشر ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر

---

(١) حديث أبي هريرة من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين الحديث أبو موسى المديني وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جدا وهو منكر (٢) حديث جابر من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة الحديث باطل لا أصل له (٣) حديث أنس من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات الحديث باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للميت من حديث أنس من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمسة عشر مرة وقال إبراهيم بن المظفر خمسين مرة أمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضا وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء والله أعلم (٤) حديث أكثروا على من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهر طب في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبد المنعم بن بشير ضعفه ابن معين وابن حبان (٥) حديث أنس من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة الحديث لم أجد له أصلا (٦) حديث الخروج في العيد في طريق والرجوع في أخرى م من حديث أبي هريرة (٧) حديث كان يأمر باخراج العواتق وذوات الخدور متفق عليه من حديث أم عطية .

فلم يكن للوارث تعد عن حكم الموروث كما حكي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أحدهما هو الذي بثثته فيكم ، وأما الثاني فلو بثثته لحز منى السكين على هذا البلعوم وأشار إلى حلقه وبعد كل شيء ففي القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة وفي اتباعه الفوز بحب الله ويد الله مع الجماعة وفوق كل ذي علم عليم وقد أفدناك من طرائف ما عندنا وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا وإلى الله يرد العلم مما دق وجل وكثر وقل وعظم وصغر وظهر واستتر وإنما ينطق الانسان بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه إذ كل ميسر لما خلق له فاستنزل ما عند ربك وخالقك من خير واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر بقراءة السبع المثاني والقرآن

لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . السادس فى كيفية الصلاة فليخرج الناس مكبرين فى الطريق وإذا بلغ الامام المصلى لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة ويصلى الامام بهم ركعتين يكبر فى الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويقول وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ماوراء الثامنة ويقرأ سورة قٓ فى الأولى بعد الفاتحة واقتربت فى الثانية والتكبيرات الزائدة فى الثانية خمس سوى تكبيرتى القيام والركوع وبين كل تكبيرتين ماذكرناه ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد قضاها : السابع أن يضحى بكبش « ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين وذبح بيده وقال بسم الله والله أكبر هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من رأى هلال ذى الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئا(٣) » قال أبو أيوب الأنصارى كان الرجل يضحى على عهد رسول صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهل بيته ويأكلون ويطعمون (٤) وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما فوق ، وردت فيه الرخصة بعد النهى عنه وقال سفيان الثورى يستحب أن يصلى بعد عيد الفطر اثنتى عشرة ركعة وبعد عيد الأضحى ست ركعات(٥) وقال هو من السنة . الثانية التراويح : وهى عشرون ركعة وكيفيتها مشهورة وهى سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين واختلفوا فى أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد وقد خرج رسول الله ﷺ فيها ليلتين أو ثلاثا للجماعة ثم لم يخرج وقال «أخاف أن توجب عليكم(٦) » وجمع عمر رضى الله عنه الناس عليها فى الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحى فقيل إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضى الله عنه ولأن الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ولأنه ربما يكسل فى الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بصلاة الضحى وتحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معا ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ولقوله صلى الله عليه وسلم « فضل صلاة التطوع فى بيته على صلاته فى المسجد كفضل صلاة المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت(٧) »

(١) حديث تعجيل صلاة الأضحى وتأخير صلاة الفطر الشافعى من رواية أبى الحويرث مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجران أن عجل الأضحى وأخر الفطر (٢) حديث ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال بسم الله والله أكبر هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى متفق عليه دون قوله عنى الخ من حديث أنس وهذه الزيادة عند أبى داود و ت من حديث جابر وقال ت غريب ومنقطع (٣) حديث من رأى هلال ذى الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره وأظفاره م من حديث أم سلمة (٤) حديث أبى أيوب كان الرجل يضحى على عهد رسول صلى الله عليه وسلم الشاة عن أهله فيأكلون ويطعمون ت ه قال ت حسن صحيح (٥) قال سفيان الثورى من السنة أن يصلى بعد الفطر اثنتى عشرة ركعة وبعد الأضحى ست ركعات لم أجد له أصلا فى كونه سنة وفى الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه ﷺ لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا فى قول التابعى من السنة كذا وأما قول تابعى التابع كذلك كالثورى فهو مقطوع (٦) حديث خروجه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثا ثم لم يخرج وقال أخاف أن يوجب عليكم متفق عليه من حديث عائشة بلفظ خشيت أن تفرض عليكم (٧) حديث فضل صلاة التطوع فى بيته على صلاته فى المسجد كفضل صلاة المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت رواه آدم بن أبى إياس فى كتاب الثواب من حديث ضمرة بن حبيب مرسلا ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم موقوفا

العظيم التى أمرت بقراءتها فى كل صلاة وكذا عليك أن تعيدها فى كل ركعة وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن ليس فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها وفى هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد وخصت به من الذخائر والعوائد عما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال فافهم وانتبه واعقل ماخلقت له واعرف ما أعد لك والله تعالى سبحانه حسيب من أراده وهادى من جاهد فى سبيله وكاف من توكل عليه وهو الغنى الكريم انتهى الجواب عما سألت عنه وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ونسأل الله تعالى المباعدة بين حيلات قلوب البشر أن يصرف عنا حجب الكدرات والأهواء ومراتب الغين فبيده مجارى المقدورات وهو إله من ظهر وغبر وإليه يرجع

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة فى غيره من المساجد وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فى مسجدى وأفضل من ذلك كله رجل يصلى فى زاوية بيته ركعتين لايعلمهما إلا الله عز وجل (١)» وهذا لأن الرياء والتصنع ربما يتطرق إليه فى الجمع ويأمن منه فى الوحدة فهذا ماقيل فيه ، والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضى الله عنه فان بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التى تظهر ، وأما الالتفات إلى الرياء فى الجمع والكسل فى الانفراد عدول عن مقصود النظر فى فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة وكأن قائله يقول الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء فلنفرض المسئلة فيمن يثق بنفسه أنه لايكسل لوانفرد ولايرائى لوحضر الجمع فأيهما أفضل له فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب فى الوحدة فيجوز أن يكون فى تفضيل أحدهما على الآخر تردد ، ومما يستحب القنوت فى الوتر فى النصف الأخير من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى باسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامن أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلى فيما بين العشاء والعتمة اثنتى عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتى عشرة مرة فاذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرة يقول اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آله ثم يسجد ويقول فى سجوده سبعين مرة : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرة رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ماقال فى السجدة الأولى ثم يسأل حاجته فى سجوده فانها تقضى (٢) » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايصلى أحد هذه الصلاة إلا غفر الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار ويشفع يوم القيامة فى سبعمائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار » فهذه صلاة مستحبة وإنما أوردناها فى هذا القسم لأنها تتكرر بتكرر السنين وإن كانت رتبتها لاتبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد ولكنى رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولايسمحون بتركها فأحببت إيرادها . وأما صلاة شعبان : فليلة الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد فهذا أيضا مروى فى جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها

وفى سنن د باسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرء فى بيته أفضل من صلاته فى مسجدى هذا إلا المكتوبة (١) حديث صلاة فى مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة فى غيره وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فى مسجدى وأفضل من هذا كله رجل يصلى ركعتين فى زاوية بيته لايعلمهما إلا الله ، أبو الشيخ فى الثواب من حديث أنس صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل لايريد بهما إلا وجه الله عز وجل وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة تعليقا من حديث الأوزعى قال دخلت على يحيى فأسندلى حديثا فذكره إلا أنه قال فى الأولى ألف وفى الثانية مائة (٢) حديث مامن أحد يصوم أول خميس من رجب الحديث فى صلاة الرغائب أورده رزين فى كتابه وهو حديث موضوع

من آمن وكفر ومجازى الخلائق بنعيم أوسقر والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر وكافى الضرر وعلى آله السادات الغرر وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين .

تم كتاب الإملاء فى مشكلات الإحياء

[كتاب عوارف المعارف]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العظيم شأنه القوى سلطانه الظاهر إحسانه الباهر حجته وبرهانه المحتجب بالجلال والمتفرد بالكمال والمتردى بالعظمة فى الآباد والآزال لايصوره وهم وخيال ولايحصره حد ومثال ذى العز الدائم السرمدى والملك القائم الديموى والقدرة الممتنع إدراك كنهها والسطوة المتوعر طريق استيفاء وصفها نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع ولاح من صفحات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع وسم عقل الانسان

وربما صلوها جماعة روى عن الحسن أنه قال حدثني ثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة (١)

(القسم الرابع من النوافل مايتعلق بأسباب عارضة ولايتعلق بالمواقيت وهي تسعة :) صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتي الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه ونظائر ذلك فنذكر منها مايحضرنا الآن . الأولى صلاة الخسوف قال رسول الله ﷺ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينخسفان لموت أحد ولالحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة (٢) » قال ذلك لما مات ولده ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس إنما كسفت لموته . والنظر في كيفيتها ووقتها : أما الكيفية فاذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودى الصلاة جامعة وصلى الامام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين أوائلهما أطول من أواخرهما ولايجهر فيقرأ في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة وفي الثانية الفاتحة وآل عمران وفي الثالثة الفاتحة وسورة النساء وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة أومقدار ذلك من القرآن من حيث أراد ولواقتصر على الفاتحة في كل قيام أجزأه ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الانجلاء ويسبح في الركوع الأول قدر مائة آية وفي الثاني قدر ثمانين وفي الثالث قدر سبعين وفي الرابع قدر خمسين وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة ، وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يبطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب القمر خاسفا لأن الليل كله سلطان القمر فان انجلى في أثناء الصلاة أتمها مخففة ومن أدرك الركوع الثاني مع الامام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول . الثانية صلاة الاستسقاء : فاذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أوانهارت قناة فيستحب للامام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصي ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين بخلاف العيد وقيل يستحب إخراج الدواب لمشاركتها في الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا (٣) » ولو خرج أهل الذمة أيضا متميزين لم يمنعوا فاذا اجتمعوا في المصلى الواسع من الصحراء نودى الصلاة جامعة فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة وليكن الاستغفار معظم الخطبتين وينبغي في وسط الخطبة الثانية أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه في هذه الساعة تفاؤلا بتحويل الحال (٤) هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث صلاة ليلة نصف شعبان حديث باطل و ه من حديث علي إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها وإسناده ضعيف (٢) حديث إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله الحديث أخرجاه من حديث المغيرة بن شعبة (٣) حديث لولا صبيان رضع ومشايخ ركع الحديث هق وضعفه من حديث أبي هريرة (٤) حديث استدبار الناس واستقبال القبلة وتحويل الرداء في الاستسقاء أخرجاه من حديث عبد الله بن زيد المازني

بالعجز والنقصان وألزم فصيحات الألسن وصف الحصر في حلبة البيان وأحرقت سبحات وجهه الكريم أجنحة طائر الفهم وسدت تعززا وجلالا مسالك الوهم وأطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا ولم يجد من فرط الهيبة في فضاء الجبروت مجالا فعاد البصر كليلا والعقل عليلا ولم يتهيج إلى كنه الكبرياء سبيلا فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه وتعذر على العقول تحديده وتكييفه ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان وخصهم من بين عباده بخصائص الاحسان فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة ومرائي قلوبهم بنور القدس مجلوة فتهيأت لقبول الإمداد القدسية واستعدت لورود الأنوار العلوية واتخذت من الأنفاس المعطرية بالأذكار

فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمين على الشمال وما على الشمال على اليمين وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سرا ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محولة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب ويقول في الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما دعوتنا اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك في سقيانا وسعة أرزاقنا ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج ، ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها وسيأتي ذلك في كتاب الدعوات . الثالثة صلاة الجنائز : وكيفيتها مشهورة وأجمع دعاء مأثور ما روى في الصحيح عن عوف بن مالك قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلى على جنازة فحفظت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار[1] » حتى قال عوف تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغي أن يراعي ترتيب الصلاة في نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذي فات كفعل المسبوق فإنه لو بادر التكبيرات لم تبق للقدوة في هذه الصلاة معنى فالتكبيرات هي الأركان الظاهرة وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات ، هذا هو الأوجه عندي وإن كان غيره محتملا والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنازة وتشييعها مشهورة فلا نطيل بإيرادها وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفايات وإنما تصير نفلا في حق من لم تتعين عليه بحضور غيره ، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين لأنهم بجملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم فلا يكون ذلك كنفل لا يسقط به فرض عن أحد ويستحب طلب كثرة الجمع تبركا بكثرة الهمم والأدعية واشتماله على ذي دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس أنه مات له ابن فقال يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال تقول هم أربعون قلت نعم قال أخرجوه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله عز وجل فيه[2] » وإذا شيع الجنازة فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوى على الميت قبره قام عليه وقال اللهم عبدك رد إليك فارأف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقبول حسن اللهم إن كان محسنا فضاعف له في إحسانه وإن كان مسيئا فتجاوز عنه . الرابعة تحية المسجد : ركعتان فصاعدا سنة مؤكدة حتى إنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تأكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياما بحق المسجد ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين في الفضل ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تكره التحية في أوقات الكراهية وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب لما روى

(١) حديث عوف بن مالك في الصلاة على الجنازة اللهم اغفر لي وله وارحمني وارحمه وعافني وعافه الحديث أخرجه مسلم دون الدعاء للمصلي (٢) حديث ابن عباس ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون الحديث م .

جلاسا وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراسا وأشعلت في ظلم البشرية من اليقين نبراسا واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها وأنكرت مصايد الهوى وتبعاتها وامتطت غوارب الرغبوت والرهبوت واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت وامتدت إلى المعالي أعناقها وطمحت إلى اللامع العلوي أحداقها واتخذت من الملأ الأعلى مسامرا ومحاورا ومن النور الأعز الأقصى مزاورا ومجاورا أجساد أرضية بقلوب سماوية وأشباح فرشية بأرواح عرشية نفوسهم في منازل الخدمة سيارة وأرواحهم في فضاء القرب طيارة مذاهبهم في العبودية مشهورة وأعلامهم في أقطار الأرض منشورة يقول الجاهل بهم فقدوا وما فقدوا ولكن سمت أحوالهم فلم يدركوا وعلا مقامهم فلم يملكوا

« أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقيل له أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلنى عنهما الوفد[1] » فأفاد هذا الحديث فائدتين إحداهما أن الكراهية مقصورة على صلاة لاسبب لها ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل إذ اختلفت العلماء فى أن النوافل هل تقضى وإذا فعل مثل مافاته هل يكون قضاء وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنتفى بدخول المسجد وهو سبب قوى ولذلك لاتكره صلاة الجنازة إذا حضرت ولا صلاة الخسوف والاستسقاء فى هذه الأوقات لأن لها أسبابا . الفائدة الثانية : قضاء النوافل إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة وقالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أومرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتى عشرة ركعة[2] » وقد قال العلماء من كان فى الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت ولامعنى الآن لقول من يقول إن ذلك مثل الأول وليس يقضى إذ لوكان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الكراهة ، نعم من كان له ورد ففاته عن ذلك عذر فينبغى أن لا يرخص لنفسه فى تركه بل يتداركه فى وقت آخر حتى لاتميل نفسه إلى الدعة والرفاهية وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل[3] » فيقصد به أن لايفترق دوام عمله وروت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها ملالة مقته الله عز وجل[4] » فليحذر أن يدخل تحت الوعيد وتحقيق هذا الخبر أنه مقته الله تعالى بتركها ملالة فلولا المقت والابعاد لما سلطت الملالة عليه . الخامسة : ركعتان بعد الوضوء مستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعى فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فرأيت بلالا فيها فقلت لبلال بم سبقتنى إلى الجنة ؟ فقال بلال لا أعرف شيئا إلا أنى لا أحدث وضوءا إلا أصلى عقيبه ركعتين[5] » . السادسة : ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين يمنعانك مدخل السوء[6] » وفى معنى هذا كل أمر يبتدأ به مماله وقع ولذلك ورد ركعتان عند الاحرام[7] وركعتان

كائنين بالجثمان بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدثان لأرواحهم حول العرش تطواف ولقلوبهم من خزائن البر إسعاف يتنعمون بالخدمة فى الدياجر ويتلذذون من وهيج الطلب بظمأ الهواجر تسلوا بالصلوات عن الشهوات وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجدان وينم على مكنون سرائرهم نضارة العرفان لايزال فى كل عصر منهم علماء بالحق داعون للخلق منحوا بحسن التابعة رتبة الدعوة وجعلوا للمتقين قدوة فلايزال تظهر فى الخلق آثارهم وتزهر فى الآفاق أنوارهم من اقتدى بهم اهتدى ومن أنكرهم ضل واعتدى فلله الحمد على ماهيأ للعباد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد والصلاة على نبيه ورسوله محمد وآله وأصحابه

---

(١) حديث صلى ركعتين بعد العصر قيل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر الحديث أخرجاه من حديث أم سلمة ولمسلم من حديث عائشة كان يصلى ركعتين قبل العصر ثم إنه شغل عنهما الحديث (٢) حديث عائشة كان إذا غلبه نوم أومرض فلم يقم تلك الليلة الحديث م (٣) حديث أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل أخرجاه من حديث عائشة . (٤) حديث عائشة من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقته الله ورواه ابن السنى فى رياضة التعبدين موقوفا على عائشة (٥) حديث دخلت الجنة فرأيت بلالا فيها فقلت بلال بم سبقتنى إلى الجنة الحديث أخرجاه من حديث أبى هريرة (٦) حديث أبى هريرة إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء وإذا دخلت منزلك الحديث هق فى الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان ابن سليم . قال بكر حسبته عن أبى سلمة عن أبى هريرة فذكره وروى الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من ركعتيه خيرا قال ابن عدى وهو بهذا الإسناد منكر وقال خ لا أصل له (٧) حديث ركعتى الاحرام خ من حديث ابن عمر .

عند ابتداء السفر (١) وركعتان عند الرجوع من السفر (٢) في المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين وكذلك في كل أمر يحدثه وبداية الأمور ينبغي أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل وهي على ثلاث مراتب بعضها يتكرر مرارا كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر (٣) » الثانية ما لا يكثر تكرره وله وقع كعقد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول المزوج الحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ زوجتك ابنتي ويقول القابل الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح وكانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد. الثالثة ما لا يتكرر كثيرا وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والاحرام وما يجري مجراه فيستحب تقديم ركعتين عليه وأدناه الخروج من المنزل والدخول إليه فانه نوع سفر قريب. السابعة صلاة الاستخارة. فمن هم بأمر وكان لا يدري عاقبته ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الاقدام عليه فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصلي ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون وفي الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد فاذا فرغ دعا وقال اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاقدره لي وبارك لي فيه ثم يسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير أينما كان إنك على كل شيء قدير (٤) رواه جابر بن عبد الله قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن وقال ﷺ « إذا هم أحدكم بأمر فليصل ركعتين ثم ليسم الأمر ويدعو بما ذكرنا » وقال بعض الحكماء من أعطي أربعا لم يمنع أربعا من أعطي الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب. الثامنة صلاة الحاجة: (٥) فمن ضاق عليه الأمر ومسته حاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة فقد روي عن وهيب بن الورد أنه قال إن من الدعاء الذي لا يرد أن يصلي العبد اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد فاذا فرغ خر ساجدا ثم قال سبحان الذي لبس العز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له سبحان ذي المن والفضل سبحان ذي العز والكرم سبحان ذي الطول أسألك بمعاقد العز

---

(١) حديث صلاة ركعتين عند ابتداء السفر الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس ما استخلف في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصليهن العبد في بيته إذا شد عليه ثياب سفره الحديث وهو ضعيف (٢) حديث الركعتين عند القدوم من السفر أخرجاه من حديث كعب بن مالك (٣) حديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر د ن ه حب في صحيحه من حديث أبي هريرة (٤) حديث صلاة الاستخارة خ من حديث جابر قال أحمد حديث منكر (٥) حديث ابن مسعود في صلاة الحاجة اثنتي عشرة ركعة أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس باسنادين ضعيفين جدا فيهما عمرو بن هارون البلخي كذبه ابن معين وفيه علل أخرى وقد وردت صلاة الحاجة ركعتين رواه ت ه من حديث عبد الله بن أبي أوفى وقال ت حديث غريب وفي إسناده مقال.

الأكرمين الأمجاد. ثم إن إيثاري لهدي هؤلاء القوم ومحبتي لهم علما بشرف حالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة التحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة حداني أن أذهب عن هذه العصابة بهذه الصبابة وأؤلف أبوابا في الحقائق والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه مشعرة بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتقدوه حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم وتستر بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سلفهم سوء ظن وكاد لا يسلم من وقيعة فيهم وطعن ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم ومما حضرني فيه من النية أن أكثر سواد القوم بالاعتزاء إلى طريقهم والاشارة إلى أحوالهم وقد ورد من

من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وبأسمائك الأعظم وجدّك الأعلى وكلماتك التامات العامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر أن تصلي على محمد وعلى آل محمد ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عز وجل قال وهيب بلغنا أنه كان يقال لا تعلموها لسفهائكم فيتعاونون بها على معصية الله عز وجل . التاسعة صلاة التسبيح : وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ولا تختصّ بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب « ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوّله وآخره قديمه وحديثه خطأه وعمده سره وعلانيته تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة فاذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم تقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات ثم ترفع من الركوع فتقولها قائما عشرا ثم تسجد فتقولها عشرا ثم ترفع من السجود فتقولها جالسا عشرا ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشرا ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا فذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل فان لم تفعل ففي كل جمعة مرة فان لم تفعل ففي كل شهر مرة فان لم تفعل ففي السنة مرة [1] » وفي رواية أخرى : أنه يقول في أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعد القراءة والباقي كما سبق عشرا عشرا ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعدا وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك والمجموع عن الروايتين ثلثمائة تسبيحة فان صلاها نهارا فبتسليمة واحدة وإن صلاها ليلا فبتسليمتين أحسن إذ ورد « أن صلاة الليل مثنى مثنى [2] » وان زاد بعد التسبيح قوله لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم فهو حسن فقد ورد ذلك في بعض الروايات فهذه الصلوات المأثورة ولا يستحب شيء من هذه النوافل في الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد وما أوردناه بعد التحية من ركعتي الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا لأن النهي مؤكد وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الخسوف والاستسقاء والتحية وقد رأيت بعض المتصوّفة يصلي في الأوقات المكروهة ركعتي الوضوء وهو في غاية البعد لأن الوضوء لا يكون سببا للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء فينبغي أن يتوضأ ليصلي لا أنه يصلي لأنه توضأ وكل محدث يريد أن يصلي في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصلي فلا يبقى للكراهية معنى ولا ينبغي أن ينوي ركعتي الوضوء كما ينوي ركعتي التحية بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوعا كيلا يتعطل وضوءه كما كان يفعله بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب كالخسوف والتحية حتى ينوي ركعتي الوضوء فيستحيل أن ينوي بالصلاة الوضوء بل ينبغي أن ينوي بالوضوء الصلاة وكيف ينتظم أن يقول في وضوئه أتوضأ لصلاتي وفي صلاته يقول أصلي لوضوئي بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فلينو قضاء إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطرق إليها خلل لسبب من الأسباب فان قضاء الصلوات في أوقات الكراهية غير مكروه فأما نية التطوع فلا وجه لها ففي النهي في أوقات الكراهية مهمات ثلاثة أحدها التوقي من مضاهاة عبدة الشمس والثاني الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس لتطلع ومعها قرن الشيطان فاذا طلعت قارنها وإذا ارتفعت فارقها فان استوت قارنها فاذا زالت فارقها فاذا تضيفت للغروب قارنها فاذا غربت فارقها [3] » ونهى عن الصلوات

(١) حديث صلاة التسبيح تقدم (٢) حديث صلاة الليل مثنى مثنى أخرجاه من حديث ابن عمر (٣) حديث إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا طلعت قارنها الحديث ن من حديث عبد الله الصنابحي .

كثر سواد قوم فهو منهم وأرجو من الله الكريم صحة النية فيه وتخليصها من شوائب النفس وكل ما فتح الله تعالى عليّ فيه منح من الله الكريم وعوارف وأجلّ المنح عوارف المعارف والكتاب يشتمل على نيف وستين بابا والله المعين . الباب الأول في منشأ علوم الصوفية . الباب الثاني في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع . الباب الثالث في بيان فضيلة علم الصوفية والاشارة إلى أنموذج منها . الباب الرابع في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم فيها . الباب الخامس في ذكر ماهية التصوف الباب السادس في ذكر تسميتهم بهذا الاسم . الباب السابع في ذكر المتصوّف والمتشبه . الباب الثامن في ذكر الملامتي وشرح حاله . الباب التاسع في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم . الباب

في

في هذه الأوقات ونبه به على العلة والثالث أن سالكي طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات في جميع الأوقات والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعي والانسان حريص على مامنع منه ففي تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت فخصصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر ففي الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط وفي الاستمرار على شيء واحد استثقال وملال ولذلك لم تكن الصلاة سجودا مجردا ولا ركوعا مجردا ولا قياما مجردا بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة فان القلب يدرك من كل عمل منها لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واظب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل فاذا كانت هذه أمورا مهمة في النهي عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة في الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد فأما ماضعف عنها فلا ينبغي أن يصادم به مقصود النهي هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم.

كمل كتاب أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين. يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

(كتاب أسرار الزكاة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسعد وأشقى وأمات وأحيا وأضحك وأبكى وأوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأضر وأقنى الذي خلق الحيوان من نطفة تمنى ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى ثم خصص بعض عباده بالحسنى فأفاض عليهم من نعمه ماأيسر به من شاء واستغنى وأحوج إليه من أخفق في رزقه وأكدى إظهارا للامتحان والابتلا ثم جعل الزكاة للدين أساسا ومبنى وبين أن بفضله تزكى من عباده من تزكى ومن غناه زكى ماله من زكى والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى.

[أما بعد] فان الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبانى الاسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام فقال تعالى ـ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ـ وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة(١) » وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ـ ومعنى الانفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة قال الأحنف بن قيس كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر فقال بشر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكي في أقفائهم يخرج من جباههم وفي رواية أنه يوضع على حلمة ثدي أحدهم فيخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل وقال أبو ذر انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال « هم الأخسرون ورب الكعبة فقلت ومن هم قال الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم ، مامن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كنت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت

وهو مرسل ومالك هو الذي يقول عبد الله الصنابحي ووهم فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم.

(كتاب أسرار الزكاة)

(١) حديث بنى الاسلام على خمس أخرجاه من حديث ابن عمر

العاشر في شرح رتبة المشيخة. الباب الحادي عشر في شرح حال الخادم ومن يتعنيه به. الباب الثاني عشر في شرح خرقة المشايخ الصوفية. الباب الثالث عشر في فضيلة سكان الربط. الباب الرابع عشر في مشابهة أهل الربط بأهل الصفة. الباب الخامس عشر في خصائص أهل الربط فيما يتعاهدونه بينهم. الباب السادس عشر في اختلاف احوال المشايخ بالسفر والمقام. الباب السابع عشر فيما يحتاج المسافر إليه من الفرائض والنوافل والفضائل. الباب الثامن عشر في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه. الباب التاسع عشر في حال الصوفي المتسبب. الباب العشرون في حال من يأكل من الفتوح. الباب الحادي والعشرون في شرح حال المتجرد من الصوفية والتأهل.

عليه أولاها حتى يقضى بين الناس [1] » وإذا كان هذا التشديد مخرجا فى الصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية ومعانيها الظاهرة والباطنة مع الاقتصار على مالا يستغنى عن معرفته مؤدّى الزكاة وقابضها وينكشف ذلك فى أربعة فصول . الفصل الأول : فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها . الثانى آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة . الثالث : فى القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه . الرابع : فى صدقة التطوع وفضلها .

(الفصل الأول : فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع : زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر)

(النوع الأول : زكاة النعم)

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ولا يشترط البلوغ بل تجب فى مال الصبى والمجنون هذا شرط من عليه . وأما المال فشروطه خمسة أن يكون نعما سائمة باقية حولا نصابا كاملا مملوكا على الكمال . الشرط الأول كونه نعما فلا زكاة إلا فى الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها . الثانى السوم فلا زكاة فى معلوفة وإذا أسيمت فى وقت وعلفت فى وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها . الثالث الحول قال رسول الله ﷺ « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول [2] » ويستثنى من هذا نتاج المال فانه ينسحب عليه حكم المال وتجب الزكاة فيه لحول الأصول ومهما باع المال فى أثناء الحول أو وهبه انقطع الحول . الرابع كمال الملك والتصرف فتجب الزكاة فى الماشية المرهونة لأنه الذى حجر على نفسه فيه ولا تجب فى الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فتجب زكاة مامضى عند عوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فانه ليس غنيا به إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة . الخامس كمال النصاب . أما الابل فلا شىء فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية أو ثنية من المعز وهى التى تكون فى السنة الثالثة وفى عشر شاتان وفى خمس عشرة ثلاث شياه وفى عشرين أربع شياه وفى خمس وعشرين بنت مخاض وهى التى فى السنة الثالثة فان لم يكن فى ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر وهو الذى فى السنة الثالثة يؤخذ وإن كان قادرا على شرائها وفى ست وثلاثين ابنة لبون ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة وهى التى فى السنة الرابعة فاذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهى التى فى السنة الخامسة فاذا صارت ستا وسبعين ففيها بنتا لبون فاذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان فاذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون فاذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون . وأما البقر فلا شىء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذى فى السنة الثانية ثم فى أربعين مسنة وهى التى فى السنة الثالثة ثم فى ستين تبيعان واستقر الحساب بعد ذلك ففى كل أربعين مسنة وفى كل ثلاثين تبيع . وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ثم لا شىء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان إلى مائتى شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربعمائة ففيها أربع شياه ثم استقر الحساب فى كل مائة شاة . وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد فى النصاب فاذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم وخلطة الجوار كخلطة الشيوع ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا

(١) حديث أبى ذر انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الأخسرون ورب الكعبة الحديث أخرجاه م وخ (٢) حديث لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول أبو داود من حديث على باسناد جيد و ه من حديث عائشة باسناد ضعيف .

الباب الثانى والعشرون فى القول فى السماع قبولا وإيثارا . الباب الثالث والعشرون فى القول فى السماع ردا وإنكارا . الباب الرابع والعشرون فى القول فى السماع ترفعا واستغناء . الباب الخامس والعشرون فى القول فى السماع تأدبا واعتناء . الباب السادس والعشرون فى خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية . الباب السابع والعشرون فى ذكر فتوح الأربعينية . الباب الثامن والعشرون فى كيفية الدخول فى الأربعينية . الباب التاسع والعشرون فى ذكر أخلاق الصوفية وشرح الخلق . الباب الثلاثون فى ذكر تفاصيل الأخلاق . الباب الحادى والثلاثون فى الأدب ومكانه من التصوف . الباب الثانى والثلاثون فى آداب الحضرة لأهل القرب . الباب الثالث

معا ويحلبامعا ويسرحا معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعا من أهـل الزكاة ولا حكم للخلطة مع الذمى والمكاتب ومهما نزل فى واجب الإبل عن سن إلى سن فهو جائز مالم يجاوز بنت مخاض فى النزول ولكن تضم إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهما ولسنتين أربع شياه أو أربعين درهما وله أن يصعد فى السن مالم يجاوز الجذعة فى الصعود ويأخذ الجبران من الساعين من بيت المال ولا تؤخذ فى الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحا ولو واحدة ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللئام لئيمة ولا يؤخذ من المال الأكولة ولا الماخض ولا الربى ولا الفحل ولا غراء المال .

(النوع الثانى زكاة العشرات)

فيجب العشر فى كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من ولا شىء فيما دونها ولا فى الفواكه والقطن ولكن فى الحبوب التى تقتات وفى التمر والزبيب ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمرا أو زبيبا لا رطبا وعنبا ويخرج ذلك بعد التجفيف ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر فى خلطة الشيوع كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة من من زبيب فيجب على جميعهم ثمانون منا من زبيب بقدر حصصهم ولا يعتبر خلطة الجوار فيه ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير ويكمل نصاب الشعير بالسلت فانه نوع منه هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة فان كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر فان اجتمعا فالأغلب يعتبر وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة فى قطعها قبل تمام الإدراك فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير ولا يمنع من هذه القسمة قولنا إن القسمة بيع بل يرخص فى مثل هذا للحاجة ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح فى الثمار وأن يشتد الحب ووقت الأداء بعد الجفاف .

(النوع الثالث زكاة النقدين)

فاذا تم الحول على وزن مائتى درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم وهو ربع العشر ومازاد فبحسابه ولو درهما ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا بوزن مكة ففيها ربع العشر ومازاد فبحسابه وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة وتجب الزكاة فى التبر وفى الحلى المحظور كأوانى الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال ولا تجب فى الحلى المباح وتجب فى الدين الذى هو على ملىء ولكن تجب عند الاستيفاء وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

(النوع الرابع زكاة التجارة)

وهى كزكاة النقدين وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا فان كان ناقصا أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم فان كان مابه الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقويم به أولى من نقد البلد ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشترى به شيئا ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما فى النتاج وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ، هذا هو الأقيس .

(النوع الخامس الركاز والمعدن)

والركاز مالدفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الاسلام ملك فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر والأولى أن لايعتبر النصاب أيضا لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة واعتباره أيضا ليس يبعيد لأن مصرفه مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالنقدين ، وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب وفى الحول قولان وفى قول يجب الخمس فعلى هذا لايعتبر وفى النصاب قولان والأشبه والعلم عند الله تعالى أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فانه نوع اكتساب وفى الحول بالمعشرات فلايعتبر لأنه عين الرفق ويعتبر النصاب كالمعشرات والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ومن عين النقدين أيضا خروجا عن شبهة هذه الاختلافات فانها ظنون قريبة من التعارض وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

(النوع السادس فى صدقة الفطر)

وهى واجبة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات[1] بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منوان وثلثا من يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه فان اقتات بالحنطة لم يجز الشعير وإن اقتات حبوبا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولايجوز إخراج الدقيق والسويق ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو فى نفقته أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون[2] » وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولاتجب صدقة العبد الكافر وإن تبرعت الزوجة بالاخراج عن نفسها أجزأها وللزوج الاخراج عنها دون إذنها وإن فضل عنه مايؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته آكد وقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم[3] فهذه أحكام فقهية لابد للغنى من معرفتها وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار .

(الفصل الثانى فى الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة)

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور : الأول : النية وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ويسن عليه تعيين الأموال فان كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه ونية الولى تقوم مقام نية المجنون والصبى ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ولكن فى ظاهر حكم الدنيا : أعنى فى قطع المطالبة عنه أما فى الآخرة فلا بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه لأن توكيله بالنية نية . الثانية : البدار عقيب الحول

(١) حديث وجوب صدقة الفطر على كل مسلم أخرجاه من حديث ابن عمر قال فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان الحديث (٢) حديث أدوا زكاة الفطر عمن تمونون قط هق من حديث ابن عمر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ممن تمونون قال هق إسناده غير قوى (٣) حديث قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم من حديث أبى هريرة بسند صحيح وحب ك وصححه ورواه ن حب بتقديم الزوجة على الولد وسيأتى

والأربعون فى ذكر فضل قيام الليل . الباب السادس والأربعون فى الأسباب المعينة على قيام الليل . الباب السابع والأربعون فى آداب الانتباه من النوم والعمل بالليل . الباب الثامن والأربعون فى تقسيم قيام الليل . الباب التاسع والأربعون فى استقبال النهار والأدب فيه . الباب الخمسون فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات . الباب الحادى والخمسون فى آداب المريد مع الشيخ . الباب الثانى والخمسون فيما يعتمده الشيخ مع الأصحاب والتلامذة . الباب الثالث والخمسون فى حقيقة الصحبة ومافيها من الخير والشر . الباب الرابع والخمسون فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى . الباب الخامس والخمسون فى آداب الصحبة والأخوة . الباب السادس والخمسون فى معرفة الانسان

وفى زكاة الفطر لايؤخرها عن يوم الفطر ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان ووقت تعجيلها شهر رمضان كله ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول ويجوز تعجيل زكاة حولين ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أوارتد أوصار غنيا بغير ماعجل إليه أو تلف مال المالك أومات فالمدفوع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العاقبة . الثالث : أن لايخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه فلا يجزئ ورق عن ذهب ولاذهب عن ورق وإن زاد عليه فى القيمة ولعل بعض من لايدرك غرض الشافعى رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعده عن التحصيل فان سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام: قسم هو تعبد محض لامدخل للحظوظ والاغراض فيه وذلك كرمى الجمرات مثلا إذ لاحظ للجمرة فى وصول الحصى إليها فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل مالايعقل له معنى لأن مايعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلايظهر به خلوص الرق والعبودية إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لالمعنى آخر وأكثر أعمال الحج كذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى إحرامه « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا [1] » تنبيها على أن ذلك إظهارا للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثانى من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلاجرم لايعتبر فيه فعله ونيته ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع فهذان قسمان لاتركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس . والقسم الثالث هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعا وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعباد فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق فهذا قسم فى نفسه معقول فان ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولاينبغى أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم ينتبه له غير الشافعى رضى الله عنه فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة وهو جلى سابق إلى الأفهام وحق التعبد فى اتباع التفاصيل مقصود للشرع وباعتباره صارت الزكاة قرينة الصلاة والحج فى كونها من مبانى الاسلام ولاشك فى أن على المكلف تعبا فى تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتى والتساهل فيه غير قادح فى حظ الفقير لكنه قادح فى التعبد ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها فى كتب الخلاف من الفقهيات ومن أوضحها أن الشرع أوجب فى خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقدين والتقويم وإن قدر أن ذلك لقلة النقود فى أيدى العرب بطل بذكره عشرين درهما فى الجبران مع الشاتين فلم لم يذكر فى الجبران قدر النقصان من القيمة ولم قدر بعشرين درهما وشاتين وإن كانت الثياب والأمتعة كلها فى معناها ، فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما فى الحج ولكن جمع بين المعنيين والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه . الرابع : أن لاينقل الصدقة إلى بلد آخر فان أعين المساكين فى كل بلدة تمتد إلى أموالها وفى النقل تخييب الظنون فان فعل ذلك أجزأه فى قول ولكن

(١) حديث لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا . البزار والدارقطنى فى العلل من حديث أنس .

نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك . الباب السابع والخمسون فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها . الباب الثامن والخمسون فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما . الباب التاسع والخمسون فى الاشارة الى المقامات على الاختـ الايجاز. الباب الستون فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب . الباب الحادى والستون فى ذكر الأحوال وشرحها. الباب الثانى والستون فى شرح كلمات من اصطلاح الصوفية مشيرة إلى الأحوال. الباب الثالث والستون فى ذكر شئ من البدايات والنهايات وصحتها ، فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم وآدابهم وأخلاقهم وغرائب مواجيدهم وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ودقيق إشاراتهم ولطيف

الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال فى تلك البلدة . ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء فى تلك البلدة . الخامس أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين فى بلده فان استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله تعالى ـ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ـ الآية فانه يشبه قول المريض إنما ثلث مالى للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك فى التمليك والعبادات ينبغى أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر وقد عدم من الثمانية صنفان فى أكثر البلاد وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة ويوجد فى جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون أعنى أبناء السبيل وصنفان يوجدان فى بعض البلاد دون البعض وهم الغزاة والمكاتبون فان وجد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أومتقاربة وعين لكل صنف قسما . ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أومتفاوتة وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فان له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغى أن ينقص فى كل صنف عن ثلاثة إن وجد ثم لولم يجب إلا صاع الفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفرا ولو نقص منهم واحد مع الامكان غرم نصيب ذلك الواحد فان عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليتشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه فان ذلك لابد منه .

(بيان دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة)

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف . الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مبانى الاسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاثة معان . الأول : أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بافراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لايبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد فان المحبة لاتقبل الشركة والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ولذلك قال الله تعالى ـ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ـ وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عز وجل والمسامحة بالمال أهون ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدّخروا دينارا ولا درهما فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم فقال أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله وعمر رضى الله عنه بشطر ماله فقال صلى الله عليه وسلم ماأبقيت لأهلك فقال مثله وقال لأبى بكر رضى الله عنه ماأبقيت لأهلك قال الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم بينكما مابين كلمتيكما (١) فالصديق وفى بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله . القسم الثانى درجتهم دون درجة هذا وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات فيكون قصدهم فى الادخار الانفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها وهؤلاء لايقتصرون على مقدار الزكاة وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا

اصطلاحاتهم فعلومهم كلها إنباء عن وجدان واعتزاء إلى عرفان وذوق تحقق بصدق الحال ولم يف باستيفاء كنهه صريح المقال لأنها مواهب ربانية ومنائح حقانية استنزلها صفاء السرائر وخلوص الضمائر فاستعصت بكنهها على الإشارة وطفحت على العبارة وتهادتها الأرواح بدلالة القشام والائتلاف وكرعت حقائقها من بحر الألطاف وقد اندرس كثير من دقيق علومهم كما انطمس كثير من حقائق رسومهم . وقد قال الجنيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطه منذ كذا سنة ونحن نتكلم فى حواشيه بدا هذا القول منه فى وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحى التابعين فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين والعارفين بحقائق علوم الدين والله المأمول أن يقابل جهد المقل بحسن القبول

(١) حديث جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشطر ماله الحديث د ت ك وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله بينكما مابين كلمتيكما .

سوى

سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة قال نعم أما سمعت قوله عز وجل ـ وآتى المال على حبه ذوي القربى ـ الآية واستدلوا بقوله عز وجل ـ ومما رزقناهم ينفقون ـ وبقوله تعالى ـ وأنفقوا مما رزقناكم ـ وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع مسلم ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم مايزيل الحاجة قرضا ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ويحتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض أي لايجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهي درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهي أقل الرتب وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة قال الله تعالى ـ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ـ يحفكم أي يستقص عليكم فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبد لايستقصى عليه لبخله فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال . المعنى الثاني التطهير من صفة البخل فانه من المهلكات قال ﷺ « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه[1] » وقال تعالى ـ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ـ وسيأتي في ربع المهلكات وجه كونه مهلكا وكيفية التقصي منه وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا فالزكاة بهذا المعنى طهرة أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى . المعنى الثالث شكر النعمة فان لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات البدنية شكرا لنعمة البدن والمالية شكرا لنعمة المال وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لاتسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله . الوظيفة الثانية : في وقت الأداء ومن آداب ذوي الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهارا للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات وعلما بأن في التأخير آفات مع مايتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يغتنم فان ذلك لمة الملك وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فما أسرع تقلبه والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربته وتضاعف زكاته وذلك كشهر المحرم فانه أول السنة وهو من أول الأشهر الحرم أو رمضان فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لايمسك فيه شيئا[2] ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن وكان مجاهد يقول لاتقولوا رمضان فانه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فانه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول والأيام المعدودات وهي أيام التشريق وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر وأفضل أيام ذي الحجة

(١) حديث ثلاث مهلكات الحديث تقدم (٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان ، الحديث أخرجاه من حديث ابن عباس .

والحمد لله رب العالمين . الباب الأول في ذكر منشأ علوم الصوفية : حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله ابن محمد السهروردي إملاء من لفظه في شوال سنة ستين وخمسمائة قال أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزينبي قال أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية المجاورة بمكة حرسها الله تعالى قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميهني قال أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري قال حدثنا أبو كريب قال حدثنا أبو أسامة عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال ياقومي إني رأيت

العشر الأول . الوظيفة الثالثة . الاسرار فان ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر[(١)] » وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة[(٢)] » وقد روى أيضا مسندا وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا فان أظهره نقل من السر وكتب فى العلانية فان تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء[(٣)] » وفى الحديث المشهور « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله . أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه[(٤)] » وفى الخبر « صدقة السر تطفئ غضب الرب[(٥)] » وقال تعالى ـ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ـ وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة فقد قال ﷺ لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان والتحدث بصدقته يطلب السمعة والمعطى فى ملأ من الناس يبغى الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه[(٦)] » وقد بالغ فى فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقيه فى يد أعمى وبعضهم يلقيه فى طريق الفقير وفى موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره فى ثوب الفقير وهو نائم وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من الرياء والسمعة ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى إذ فى معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس فى معرفة المتوسط إلا الرياء ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك فى الآخرة ولكن صفة البخل تنقلب فى القبر فى حكم المثال عقربا لادغا وصفة الرياء تنقلب فى القبر أفعى من الأفاعى وهو مأمور بتضعيفهما أو قتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما فمهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقويا للحية فبقدر ما ضعف من العقرب زاد فى قوة الحية ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه وقوة هذه الصفات التى بها قوتها العمل بمقتضاها وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة فى أن يخالف دواعى البخل ويجيب دواعى الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأقوى وستأتى أسرار هذه المعانى فى ربع المهلكات . الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره فى معالجة الرياء فى كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل ـ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ـ وذلك حيث يقتضى الحال الابداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من

الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » . معنى اجتاحهم : استأصلهم ومن ذلك الجائحة التى تفسد الثمار ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى

(١) حديث أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر أحمد حب ك من حديث أبى ذر ولأبى داود من حديث أبى هريرة أى الصدقة أفضل قال جهد المقل (٢) حديث ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة أبو نعيم فى كتاب الايجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا فان أظهره نقل من السر الحديث الخطيب فى التاريخ من حديث أنس نحوه باسناد ضعيف (٤) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله الحديث أخرجاه من حديث أبى هريرة (٥) حديث صدقة السر تطفئ غضب الرب طب من حديث أبى أمامة ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب وهق فى الشعب من حديث أبى سعيد كلاهما ضعيف والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة إن الصدقة لتطفئ غضب الرب ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضا (٦) حديث لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان لم أظفر به هكذا.

الرياء فى الاظهار بل ينبغى ان يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الامكان وهذا لأن فى الاظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير فانه ربما يتأذى بأن يرى فى صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى فى إظهاره وهو كاظهار الفسق على من تستر به فانه محظور والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهى عنه فامامن أظهره فاقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها ومثل هذا المعنى قال ﷺ « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له (١) » وقد قال الله تعالى ـ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ـ ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه فان ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فقد يكون الاعلان فى بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال. الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى قال الله تعالى ـ لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ـ واختلفوا فى حقيقة المنّ والأذى فقيل المنّ أن يذكرها والأذى أن يظهرها وقال سفيان من فسدت صدقته فقيل له كيف المنّ فقال أن يذكره ويتحدث به وقيل المن أن يستخدمه بالعطاء والأذى أن يعيره بالفقر وقيل المنّ أن يتكبر عليه لأجل عطائه والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسئلة وقد قال ﷺ « لا يقبل الله صدقة منان (٢) » وعندى أن المنّ له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعما عليه وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهنا به فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل قال رسول الله ﷺ « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل (٣) » فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل ولو كان عليه دين لانسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا فان المحسن إليه هو المتكفل برزقه أما هو فانما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم يمن به على غيره ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه إما ببذل ماله إظهارا لحب الله تعالى أو تطهيرا لنفسه عن رذيلة البخل أو شكرا على نعمة المال طلبا للمزيد وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس والمتابعة فى الأمور فهذه كلها ثمرات المنة ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالاظهار وفنون الاستخفاف وباطنه وهو منبعه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فان ذلك يضيق الخلق لا محالة . والثانى رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشؤه الجهل أما كراهية تسليم المال فهو حمق لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحمق ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الدار الآخرة

(١) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له عد حب فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث لا يقبل الله صدقة منان هو كالذى قبله بحديث لم أجده (٣) حديث إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع فى يد السائل قط فى الافراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه هق فى الشعب بسند ضعيف

الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » قال الشيخ أعد الله تعالى لقبول ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصفى القلوب وأزكى النفوس فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع فمن القلوب ماهو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا مثل من انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القلوب ماهو بمثابة الأخاذات أى الغدران جمع أخاذة وهو المصنع والغدير الذى يجتمع فيه الماء فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكت وقلوبهم صفت فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله

وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا لطلب المزيد وكيفما فرض فالكراهة لا وجه لها وأما الثانى فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «هم الأخسرون ورب الكعبة» فقال أبو ذر من هم قال «هم الأكثرون أموالا» الحديث ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد فى حفظه بمقدار الحاجة وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه فاذن مهما انتفت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له فى أداء الواجب وتقييضه الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والثناء وقبول المنة فهذا منشأ المنّ والأذى . فان قلت فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا . فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالا عدوّا له عليه مثلا هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدّق فان زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك . فان قلت : فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه . فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا أما الباطن فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول وأما الظاهر فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة فان الأفعال التى تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق كما سيأتى أسراره فى الشطر الأخير من الكتاب ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويتمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو ردّه وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول احفظ ما يدعو به ثم كانتا تردّان عليه مثل قوله وتقولان هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله وهكذا فعل عمر ابن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ومن حيث الباطن المعارف التى ذكرناها هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل وهذه الشريطة من الزكوات تجرى مجرى الخشوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها(١)» وهذا كقوله ﷺ لا يتقبل الله صدقة منان وكقوله عز وجل ـ لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ـ وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر وقد أشرنا إلى معناه فى كتاب الصلاة . الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية فانه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال قال تعالى ـ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ـ ويقال إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل وقيل لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور تصغيره وتعجيله وستره وليس الاستعظام هو المنّ والأذى فانه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المنّ والأذى بل العجب والاستعظام يجرى فى جميع العبادات ودواؤه علم وعمل .

(١) حديث ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها تقدم فى الصلاة

عليه وسلم فوجدتهم كأخاذات لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم أخبرنا الشيخ الامام رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزوينى إجازة قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلى قال أنبأنا القاضى أبو سعيد محمد الفرخزاذى قال أنبأنا أبو اسحق أحمد بن محمد الثعالبى قال أنبأنا ابن فنجويه قال حدثنا ابن حبان قال حدثنا اسحق بن محمد قال حدثنا أبى قال حدثنا إبراهيم بن عيسى قال حدثنا على بن على قال حدثنا أبو حمزة الثمالى قال حدثنى عبد الله بن الحسن قال حين نزلت هذه الآية ـ وتعيها أذن واعية ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا على قال على فما نسيت شيئا بعد وما كان لى أن أنسى قال أبو بكر الواسطى آذان وعت

أما

أما العلم فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل كما ذكرنا فى فهم الوجوب فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم فى حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه وأما العمل فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ـ فيحفكم تبخلوا ـ . الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه فان الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع وفى حديث أبان عن أنس بن مالك طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية(١) وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام فى بيته لأوغر بذلك صدره هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه فى الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى والذى يأكله قضاء وطر فى الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ـ أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الاغماض فلا تؤثروا به ربكم وفى الخبر سبق درهم مائة ألف درهم(٢) وذلك بأن يخرجه الانسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشىء مما يحبه وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون فقال تعالى ـ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا ـ وقف بعض القراء على النفى تكذيبا لهم ثم ابتدأ وقال ـ جرم أن لهم النار ـ أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار . الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فان فى عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهى ستة : الأولى أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى(٣) » وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا له فى طاعته باعانتك إياه وقال صلى الله عليه وسلم « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين(٤) » وفى لفظ آخر « أضف بطعامك من تحبه فى الله تعالى(٥) » وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل فقال لا هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى

(١) حديث أنس طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية عد والبزار (٢) حديث سبق درهم مائة ألف ن حب وصححه من حديث أبى هريرة (٣) حديث لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى د ت من حديث أبى سعيد بلفظ لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى (٤) حديث أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين ابن المبارك فى البر والصلة من حديث أبى سعيد الخدرى قال ابن طاهر غريب فيه مجهول (٥) حديث أضف بطعامك من تحبه الله ابن المبارك أنبأنا جويبر عن الضحاك مرسلا .

عن الله تعالى أسراره وقال أيضا واعية فى معادنها ليس فيها غير ما شهدته شىء فهى الخالية عما سواه فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل فقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى فبالتقوى زكت نفوسهم وبالزهد صفت قلوبهم فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد انفتحت مسام بواطنهم وسمعت آذان قلوبهم وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا علما بالكتاب والسنة واستنبطوا منهما الأحكام وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص وحمى الله بهم الدين وعرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ومذاهب العرب فى اللغة وغرائب النحو والتصريف وأصول القصص واختلاف

من أن أعطى ألفا ممن همته الدنيا فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال هذا ولى من أولياء الله تعالى وقال ماسمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فان التجارة لاتضر مثلك وكان هذا الرجل بقالا لايأخذ من الفقراء ثمن مايبتاعون منه . الصفة الثانية : أن يكون من اهل العلم خاصة فان ذلك إعانة له على العلم والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له لو عممت فقال إنى لاأعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فاذا اشتغل قلب أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل . الصفة الثالثة : أن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه وفى وصية لقمان لابنه لاتجعل بينك وبين الله منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف النعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ سلط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وسو مقهور ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودنياه فى فعله فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الارادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لاتردد فيه والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لاتضيع . وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم « بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ مايقول فلما أخذ قال الحمد لله الذى لاينسى من ذكره ولايضيع من شكره ثم قال اللهم إنك لم تنس فلانا يعنى نفسه فاجعل فلانا لاينساك يعنى بفلان نفسه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فسر وقال صلى الله عليه وسلم : علمت أنه يقول ذلك[(١)] » فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده وقال صلى الله عليه وسلم « لرجل تب فقال أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لأهله[(٢)] » ولما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك قال أبو بكر رضى الله عنه قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله لاأفعل ولا أحمد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم دعها يا أبا بكر[(٣)] وفى

(١) حديث بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ مايقول فلما أخذه قال الحمد لله الذى لاينسى من ذكره الحديث لم أجد له أصلا إلا فى حديث ضعيف من حديث ابن عمر روى ابن منده فى الصحابة أوله ولم يسق هذه القطعة التى أوردها المصنف وسمى الرجل حديرا فقد روينا من طريق البيهقى أنه وصل لحدير من أبى الدرداء شىء فقال اللهم انك لم تنس حديرا فاجعل حديرا لاينساك وقيل إن هذا آخر لاصحبة له يكنى أبا جريرة وقد ذكره ابن حبان فى ثقات التابعين (٢) حديث قال لرجل تب فقال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد الحديث أحمد وطب من حديث الأسود بن سريع بسند ضعيف (٣) حديث لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث د من حديث عائشة بلفظ فقال أبواى قومى فقبلى رأس رسول الله ﷺ فقلت أحمد الله لا إيا كما وللبخارى تعليقا فقال أبواى قومى إليه فقلت لا والله لاأقوم إليه ولاأحمده ولاأحمد كما ولكن أحمد الله ، وله ولمسلم فقالت لى أمى قومى إليه فقلت لا والله لاأقوم إليه ولا أحمد إلا الله وللطبرانى فقالت

وجوه القراءة وصنفوا فى ذلك الكتب فاتسع بطر يقتهم علوم القرآن على الأمة وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامى الرجال وحكموا بالجرح والتعديل ليتبين الصحيح من السقيم ويتميز المعوج من المستقيم فيتحفظ بطريقهم طريق الرواية والسند حفظا للسنة وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع فى المسائل ومعرفة التعليل ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع واستيعاب الحوادث بحكم النصوص وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه وعلم الخلاف وتفرع من علم الخلاف علم الجدل وأحوج علم أصول الفقه إلى شىء من علم أصول الدين وكان من علمهم علم الفرائض ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة إلى غير ذلك فتمهدت الشريعة

لفظ آخر أنها رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك مع أن الوحي وصل إليها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ـ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ـ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سره فليتق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه . الصفة الرابعة : أن يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش في جلباب التجمل قال الله تعالى ـ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ـ أي لا يلحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال . الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل ـ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ـ أي حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب ـ لا يستطيعون ضربا في الأرض ـ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف فبهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطي أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها وكان صلى الله عليه وسلم يعطي العطاء على مقدار العيلة (١) وسئل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال . الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال علي رضي الله عنه لأن أصل أخا من إخواني بدرهم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهما ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق رقبة والأصدقاء وإخوان الخير أيضا يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد فإن أحد أجريه في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل فإن أصاب حصل الأجران وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني فبهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

(الفصل الثالث في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه)

(بيان أسباب الاستحقاق)

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهاشمي ولا مطلبي اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عز وجل ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبي

بحمد الله لا بحمد صاحبك ، وله من حديث ابن عباس فقالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك ، وله من حديث ابن عمر فقال أبو بكر هوى فاحتضني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا والله لا أدنو منه الحديث وفيه أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم بحمد الله لا بحمدك (١) حديث كان يعطي العطاء على مقدار العيلة لم أر له أصلا ولأبي داود من حديث عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه وأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظا .

وتأيدت واستقام الدين الحنيفي وتفرع وتأصل الهدى النبوي المصطفوي فأنبتت أراضي قلوب العلماء الكلأ والعشب بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم قال الله تعالى ـ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما الماء العلم والأودية القلوب قال أبو بكر الواسطي رضي الله عنه خلق الله تعالى ذرة صافية فلاحظها بعين الجلال فذابت حياء منه فسالت فقال أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها . وقال ابن عطاء أنزل من السماء ماء هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد وذلك إذا سال السيل في الأودية لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها كذلك إذا سال النور الذي قسمه الله تعالى للعبد في نفسه لا تبقى

أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية . الصنف الأول الفقراء : والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب فان كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير لأنه في الحال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فان هذا غلوّ والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرجه عن الفقر كونه معتادا للسؤال فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف ما لو قدر على كسب فان ذلك يخرجه عن الفقر فان قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشترى له آلة وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير وإن كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته وإن كان متعبدا يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة [1] » وأراد به السعي في الاكتساب وقال عمر رضي الله عنه كسب في شبهة خير من مسئلة وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو من تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير . الصنف الثاني المساكين : والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأسا وحبلا وهو غنيّ والدويرة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين وكذا أثاث البيت أعني ما يحتاج إليه وذلك ما يليق به وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فانه محتاج إليه ولكن ينبغي أن يحتاط في قطع الحاجة بالكتاب فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض: التعليم والاستفادة والتفرّج بالمطالعة أما حاجة التفرج فلا تعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع في الآخرة ولا يجري في الدنيا إلا مجرى التفرج والاستئناس فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر ويمنع اسم المسكنة وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدّب والمعلم والمدرس بأجرة فهذه آلته فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادّخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به فان كان في البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدّة فينبغي أن يضبط مدة الحاجة والأقرب أن يقال ما لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه فان من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة فاذا قدرنا القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغي أن تقدّر بالسنة فلا تباع ثياب الصيف في الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما . فان قال إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما . قلنا اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفه وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة فان كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له في فنّ الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره فان استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدّى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها وفي ثياب البدن

(١) حديث طلب الحلال فريضة بعد الفريضة الطبراني والبيهقي في شعب الايمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

فيه غفلة ولا ظلمة أنزل من السماء ماء يعني قسمة النور فسالت أودية بقدرها يعني في القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها في الأزل - فأما الزبد فيذهب جفاء - فتصير القلوب منوّرة لا تبقى فيها جفوة - وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - تذهب البواطل وتبقى الحقائق وقال بعضهم أنزل من السماء ماء أنواع الكرامات فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بقدرها وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين في الدنيا المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها فمن كان في باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه وطلب المناصب والرفعة سال وادي قلبه بقدره فأخذ من العلم طرفا صالحا ولم يحظ بحقائق العلوم ومن زهد في الدنيا اتسع وادي قلبه

وفي الدار وسعتها وضيقها وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقتحم فيه خطر الشبهات والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريبه إلى مالا يريبه والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولاينجى منها إلا الاحتياط والله أعلم . الصنف الثالث العاملون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضي ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال ولا يزاد واحد منهم على أجرة المثل فان فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كمل من مال المصالح . الصنف الرابع المؤلفة قلوبهم على الاسلام : وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم وفي إعطائهم تقريرهم على الاسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم . الصنف الخامس المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولايدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبدا له . الصنف السادس الغارمون : والغارم هو الذى استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فان استقرض في معصية فلايعطى إلا إذا تاب وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة . الصنف السابع الغزاة : الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو . الصنف الثامن ابن السبيل : وهو الذى شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته فان قلت فبم تعرف هذه الصفات قلنا أما الفقر والمسكنة فبقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا يحلف بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز فان لم يف به استرد وأما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة فهذه شروط الاستحقاق وأما مقدار مايصرف إلى كل واحد فسيأتى .

(بيان وظائف القابض وهى خمسة)

الأولى : أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكفى همه ويجعل همومه هما واحدا فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر وهو المعنى بقوله تعالى ـ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ـ ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهى تفرق همه اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفى الحاجات فأكثر الأموال وصبها فى أيدى عباده لتكون آلة لهم فى دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه فى الخطر ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمى المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب فى الجمع والحفظ عليهم وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجردون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولاتشغلهم عن التأهب الفاقة وهذا منتهى النعمة فحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه كما سيأتى فى كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى فليأخذ مايأخذه من الله سبحانه رزقا وعونا له على الطاعة ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فان لم يقدر عليه فليصرفه إلى ماأباحه الله عز وجل فان استعان به على معصية الله كان كافرا لأنعم الله عز وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه . الثانية : أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لايخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة

فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أخاذات . قيل للحسن البصرى هكذا قال الفقهاء فقال وهل رأيت فقيها قط إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا فالصوفية أخذوا حظا من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة فهم مع سائر العلماء فى علومهم وتميزوا عنهم بعلوم زائدة هى علوم الوراثة وعلم الوراثة هو الفقه فى الدين قال الله تعالى ـ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ـ فصار الانذار مستفادا من الفقه والانذار إحياء النذر بماء العلم والإحياء بالعلم رتبة الفقيه فى الدين فصار الفقه فى الدين من أكمل المراتب وأعلاها وهو علم العالم الزاهد فى الدنيا المتقى الذى يبلغ رتبة الانذار بعلمه فمورد العلم

وذلك لاينافى رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله (١) » وقد أثنى الله عز وجل على عباده فى مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى ـ نعم العبد إنه أوّاب ـ إلى غير ذلك وليقل القابض فى دعائه طهر الله قلبك فى قلوب الأبرار وزكى عملك فى عمل الأخيار وصلى على روحك فى أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فان لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه (٢) » ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه فوظيفة المعطى الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام وعلى كل عبد القيام بحقه وذلك لاتناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه وكل ذلك لايناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فان من لايرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا . الثالثة : أن ينظر فيما يأخذه فان لم يكن من حلّ تورع عنه ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان مايسلم إليه لايعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة فان فتوى الشرع فى مثل هذا أن يتصدق به على ماسيأتى بيانه فى كتاب الحلال والحرام وذلك إذا عجز عن الحلال فاذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لايقع زكاة عن مؤديه وهو حرام . الرابعة : أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه فى مقدار مايأخذه فلا يأخذ إلا القدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق فان كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل وان أعطى زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده وإن كان غازيا لم يأخذ إلا مايحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حدّ وكذا زاد السفر والورع ترك مايريبه إلى مالايريبه وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أوّلا إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها مايستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفى ويفضل بعض قيمته وكل ذلك إلى اجتهاده وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشتبهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه والاعتماد فى هذا على قول الآخذ ظاهرا وللمحتاج فى تقدير الحاجات مقامات فى التضييق والتوسيع ولاتنحصر مراتبه وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو ممقوت فى الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل مايتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة فهذا أقصى مايرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ومن حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادّخر لعياله قوت سنة (٣) فهذا أقرب مايحد به حد الفقير والمسكين

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله ت وحسنه من حديث أبى سعيد وله ولأبى داود وابن حبان نحوه من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح (٢) حديث من أسدى إليكم معروفا فكافئوه الحديث د ن من حديث ابن عمر باسناد صحيح بلفظ من صنع (٣) حديث ادخر لعياله قوت سنة أخرجاه من حديث عمر كان يعزل نفقة أهله سنة وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقى قال الذهبى حديث منكر .

والهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّلا ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهرا وباطنا فظهر من ارتوائه ظاهره الدين والدين هو الانقياد والخضوع مشتق من الدون فكل شىء اتضع فهو دون فالدين أن يضع الانسان نفسه لربه قال الله تعالى ـ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ـ فالتفرق فى الدين يستولى الذبول على الجوارح وتذهب عنها نضارة العلم والنضارة فى الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد فى النفس والمال مستفاد من ارتواء القلب والقلب فى ارتوائه بالعلم بمثابة البحر فصار قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والهدى بحرا مواجا. ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس

ولو

ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى . ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الغنى فسئل عن غناه فقال ﷺ غداؤه وعشاؤه(١) » وقال آخرون يأخذ إلى حد الغنى وحد الغنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة وقال آخرون حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش فسئل وما غناه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب(٢) » وقيل راويه ليس بقوي وقال قوم أربعون لما رواه عطاء بن يسار منقطعا أنه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال(٣) » وبالغ آخرون في التوسيع فقالوا له أن يأخذ مقدار ما يشترى به ضيعة فيستغني به طول عمره أو يهيئ بضاعة ليتجر بها ويستغني بها طول عمره لأن هذا هو الغنى وقد قال عمر رضي الله عنه إذا أعطيتم فأغنوا حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال ولما شغل أبو طلحة بستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة فقال صلى الله عليه وسلم « اجعله في قرابتك فهو خير لك(٤) » فأعطاه حسان وأبا قتادة فحائط من نخل لرجلين كثير من وأعطى عمر رضي الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئر لها فهذا ما حكي فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر بل التجويز إلى أن يشترى ضيعة فيستغني بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضا مائل إلى الاسراف والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه فيه خطر وفيما دونه تضييق وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزء بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له ثم يقال للورع « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك(٥) » كما قاله صلى الله عليه وسلم إذ الإثم حزاز القلوب فإذا وجد القابض في نفسه شيئا مما يأخذه فليتق الله فيه ولا يترخص تعللا بالفتوى من علماء الظاهر فإن لفتواهم قيودا ومطلقات من الضرورات وفيها تخمينات واقتحام شبهات والتوقي من الشبهات من شيم ذوي الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة . الخامسة : أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم وسيأتي ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال في كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

(١) حديث سهل بن الحنظلية في النهي عن السؤال مع الغنى فيسأل ما يغنيه فقال غداؤه وعشاؤه د حب بلفظ من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم الحديث (٢) حديث ابن مسعود من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش الحديث أصحاب السنن وحسنه ت وضعفه النسائي والخطابي (٣) حديث عطاء بن يسار منقطعا من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال د ن من رواية عطاء عن رجل من بني أسد متصلا وليس بمنقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته وأخرجه د ن حب من حديث أبي سعيد (٤) حديث لما شغل أبا طلحة بستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة تقدم في الصلاة (٥) حديث استفت قلبك وإن أفتوك تقدم في العلم .

فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها . ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت رياته ناضرة فلما استتم نضارة وامتلأ ريا بعثه الله تعالى إلى الخلق فأقبل على الأمة بقلب مواج بمياه العلوم واستقبل جداول الفهوم وجرى من بحره في كل جدول قسط ونصيب وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه في الدين . روى عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما عبد الله عز وجل بشيء أفضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه » . حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب إملاء قال حدثنا سعيد ابن حفص قال حدثنا أبو طالب الزيني قال أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية

(الفصل الرابع فى صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها)

(بيان فضيلة الصدقة)

من الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « تصدقوا ولو بتمرة فانها تسد من الجائع وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة[2] » وقال ﷺ « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد[3] » وقال صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس[6] » وقال ﷺ « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر[7] » وقال صلى الله عليه وسلم « صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل » وقال ﷺ « ما الذى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة[8] » ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساويا للمعطى الذى يقصد باعطائه عمارة دينه وسئل رسول الله ﷺ « أى الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان[9] » وقد قال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندى دينارا فقال أنفقه على نفسك فقال إن عندى آخر قال أنفقه على زوجتك قال إن عندى آخر قال أنفقه على ولدك قال إن عندى آخر قال أنفقه على خادمك قال إن عندى آخر قال صلى الله عليه وسلم أنت أبصر به[10] » وقال ﷺ « لا تحل الصدقة لآل محمد إنما هى أوساخ الناس[11] »

(١) حديث تصدقوا ولو بتمرة فانها تسد من الجائع وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ابن المبارك فى الزهد من حديث عكرمة مرسلا ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن استترى من النار ولو بشق تمرة فانها تسد من الجائع مسدها من الشبعان ولأبى يعلى والبزار من حديث أبى بكر اتقوا النار ولو بشق تمرة فانها تقوم العوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان وإسناده ضعيف وللترمذى و ن فى الكبرى و ه فى حديث معاذ والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار (٢) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة أخرجاه من حديث عدى بن حاتم (٣) حديث ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيبا الحديث خ تعليقا و م ت ن فى الكبرى واللفظ له ه من حديث أبى هريرة (٤) حديث قال لأبى الدرداء إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها الحديث م من حديث أبى ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبى الدرداء وهم (٥) حديث ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته ابن المبارك فى الزهد من حديث ابن شهاب مرسلا باسناد صحيح وأسنده الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس حب ك وصححه على شرط م من حديث عقبة ابن عامر (٧) حديث الصدقة تسد سبعين بابا من الشر ابن المبارك فى البر من حديث أنس بسند ضعيف إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء (٨) حديث ما المعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة حب فى الضعفاء وطب فى الأوسط من حديث أنس ورواه فى الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٩) حديث سئل أى الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح الحديث أخرجاه من حديث أبى هريرة (١٠) حديث قال يوما لأصحابه تصدقوا فقال رجل إن عندى دينارا فقال أنفقه على نفسك الحديث د ن واللفظ له وحب ك من حديث أبى هريرة وقد تقدم قبل بيسير (١١) حديث لا تحل الصدقة لآل محمد الحديث م من حديث المطلب بن ربيعة.

قالت أخبرنا أبو الهيثم قال أخبرنا الفربرى قال أخبرنا البخارى قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن قال سمعت معاوية خطيبا يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى » قال الشيخ إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب فأبصر الحق والباطل وتبين له الرشد من الغى ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأعرابى : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره. قال الأعرابى حسبى حسبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقه الرجل. وروى عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه فى الدين والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب فقال ـ لهم قلوب لا يفقهون بها ـ فلما فقهوا علموا

وقال

وقال « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « لو صدق السائل ما أفلح من رده (٢) » وقال عيسى عليه السلام : من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام . وكان نبينا صلى الله عليه وسلم لا يكل خصلتين إلى غيره كان يضع طهوره بالليل ويخمره وكان يناول المسكين بيده (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم لا يسألون الناس إلحافا (٤) » وقال ﷺ « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله عز وجل مادامت عليه منه رقعة (٥) » . الآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وان درعها لمرقع وقال مجاهد فى قول الله عز وجل ـ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ـ فقال وهم يشتهونه وكان عمر رضى الله عنه يقول اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوى الحاجة منا وقال عمر بن عبد العزيز الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه وقال ابن أبى الجعد إن الصدقة لتدفع سبعين بابا من السوء وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفا وإنها لتفك لحى سبعين شيطانا وقال ابن مسعود إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين وقال لقمان لابنه إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة وقال عبد العزيز بن أبى رواد كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة كتمان المرض وكتمان الصدقة وكتمان المصائب وروى مسندا وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة أنا أفضلكن وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول سمعت الله يقول ـ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ـ والله يعلم أنى أحب السكر وقال النخعى إذا كان الشئ لله عز وجل لا يسرنى أن يكون فيه عيب وقال عبيد بن عمير يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط فمن أطعم لله عز وجل أشبعه الله ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله وقال الحسن لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض وقال الشعبى من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه وقال مالك لا نرى بأسا بشرب الموسر من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص ويقال إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال للنخاس أترضى ثمنها الدرهم والدرهمين قال لا قال فاذهب فان الله عز وجل رضى فى الحور العين بالفلس واللقمة .

(بيان إخفاء الصدقة وإظهارها)

قد اختلف طريق طلاب الاخلاص فى ذلك فمال قوم إلى أن الاخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الاظهار أفضل ونحن نشير إلى ما فى كل واحد من المعانى والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه . أما الاخفاء ففيه خمسة معان : الأول أنه أبقى للستر على الآخذ فان أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة وكشف عن

---

(١) حديث ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام العقيلى فى الضعفاء من حديث عائشة (٢) حديث لو صدق السائل ما أفلح من رده العقيلى فى الضعفاء وابن عبد البر فى التمهيد من حديث عائشة قال العقيلى لا يصح فى هذا الباب شئ وللطبرانى نحوه من حديث أبى أمامة بسند ضعيف (٣) حديث كان لا يكل خصلتين إلى غيره الحديث الدار قطنى من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك فى البر مرسلا (٤) حديث ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٥) حديث ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله الحديث ت وحسنه و ك وصحح إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالد بن طهمان ضعيف

ولما علموا عملوا ولما عملوا عرفوا ولما عرفوا اهتدوا فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر انقيادا لمعالم الدين وأوفر حظا من نور اليقين فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب والمعرفة تميز تلك الجملة والهدى وجدان القلوب ذلك فالنبى صلى الله عليه وسلم لما قال « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم » أخبر أنه وجد القلب النبوى العلم وكان هاديا مهديا وعلمه صلوات الله عليه منهما وراثة معجونة فيه من آدم أبى البشر صلى الله عليه وسلم حيث علم الأسماء كلها والأسماء سمة الأشياء فكرمه الله تعالى بالعلم وقال تعالى ـ علم الانسان مالم يعلم ـ فآدم لما ركب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة والرأفة واللطف والحب والبغض والفرح والغم والرضا والغضب

الحاجة وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف . الثانى أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فانهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء أو ينسبونه إلى أخذ زيادة والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى وقال أبو أيوب السختيانى إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث فى جيرانى حسدا وقال بعض الزهاد ربما تركت استعمال الشئ لأجل إخوانى يقولون من أين له هذا وعن إبراهيم التيمى أنه رؤى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا فقال كسانيه أخى خيثمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته . الثالث إعانة المعطى على إسرار العمل فان فضل السر على الجهر فى الاعطاء أكثر والاعانة على إتمام المعروف معروف والكتمان لا يتم إلا باثنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئا ظاهرا فرده إليه ودفع إليه آخر شيئا فى السر فقبله فقيل له فى ذلك فقال إن هذا عمل الأدب فى إخفاء معروفه فقبلته وذاك أساء أدبه فى عمله فرددته عليه وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئا فى الملأ فرده فقال له لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك فقال إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك وقبل بعض العارفين فى السر شيئا كان رده فى العلانية فقيل له فى ذلك فقال عصيت الله بالجهر فلم أكن عونا لك على المعصية وأطعته بالاخفاء فأعنتك على برك وقال الثورى لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته . الرابع أن فى إظهار الأخذ ذلا وامتهانا وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول إن فى إظهاره إذلالا للعلم وامتهانا لأهله فما كنت بالذى أرفع شيئا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله . الخامس الاحتراز عن شبهة الشركة قال صلى الله عليه وسلم « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها (١) » وبأن يكون ورقا أو ذهبا لا يخرج عن كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يطعمه خبزا (٢) » فجعل الورق هدية بانفراده فما يعطى فى الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة فاذا انفرد سلم من هذه الشبهة . أما الاظهار والتحدث به ففيه معان أربعة : الأول الاخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة . والثانى إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق قال بعض العارفين لتلميذه أظهر الأخذ على كل حال إن كنت آخذا فانك لا تخلو عن أحد رجلين رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك أو رجل تزداد فى قلبه باظهارك الصدق فذلك الذى يريده أخوك لأنه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه . الثالث هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية فى حقه واحد فاختلاف الحال شرك فى التوحيد قال بعضهم كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ فى السر ويرد فى العلانية والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان فى الحال بل ينبغى أن يكون النظر مقصورا على الواحد الفرد . حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين فشق على الآخرين فأراد

(١) حديث من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها العقيلى وابن حبان فى الضعفاء وطب فى الأوسط وهق من حديث ابن عباس قال عق لا يصح فى هذا المتن حديث (٢) حديث أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يعطيه خبزا عد وضعفه من حديث ابن عمر أن أفضل العمل عند الله أن يقضى عن مسلم دينه أو يدخل عليه سرورا أو يطعمه خبزا ولأحمد و ت وصححه من حديث البراء من منح منحة ورق أو منحة لبن أو هدى زقاقا فهو كعتاق نسمة .

والكياسة ثم اقتضاه استعمال كل ذلك وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذى وهب له فالنبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة وقيل لما خاطب الله السموات والأرض بقوله ـ ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ـ نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ومن السماء ما يحاذيها وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض بمكة فقال بعض العلماء هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ومن موضع الكعبة دحيت الأرض فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصل فى التكوين والكائنات تبع له وإلى هذا إشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبيا وآدم

أن

أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فانه رد الدجاجة فسألهم فقالوا فعلنا ما أمرنا به الشيخ فقال الشيخ للمريد مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال ذلك المريد لم أقدر على مكان لا يرانى فيه أحد فان الله يرانى فى كل موضع فقال الشيخ لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل . الرابع أن الاظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى ـ وأما بنعمة ربك فحدث ـ والكتمان كفران النعمة وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى ـ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ـ وقال ﷺ « إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته عليه (١) » وأعطى رجل بعض الصالحين شيئا فى السر فرفع به يده وقال هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر فى أمور الآخرة أفضل ولذلك قال بعضهم إذا أعطيت فى الملإ فخذ ثم اردد فى السر والشكر فيه محثوث عليه قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل (٢) » والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال ﷺ « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فان لم تستطيعوا فأثنوا عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » ولما قال المهاجرون فى الشكر « يارسول الله مارأينا خيرا من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله فقال صلى الله عليه وسلم كل ما شكرتم لهم وأثنيتم عليهم به فهو مكافأة (٣) » فالآن إذا عرفت هذه المعانى فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا فى المسئلة بل هو اختلاف حال فكشف الغطاء فى هذا أنا لا نحكم حكما بتا بأن الاخفاء أفضل فى كل حال أو الاظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص فينبغى أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان والمكر والخداع أغلب فى معانى الاخفاء منه فى الاظهار مع أن له دخلا فى كل واحد منهما فأما مدخل الخداع فى الاسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من خفض الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن فهذا هو الداء الدفين ويستكن فى النفس والشيطان بواسطته يظهر معانى الخير حتى يتعلل بالمعانى الخمسة التى ذكرناها ومعيار كل ذلك ومحكه أمر واحد وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله فانه إن كان يبغى صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن أو يتقى انتهاك الستر أو إعانة المعطى على الاسرار أو صيانة العلم عن الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه فان كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعانى أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه فان إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ وأما جانب الاظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطييب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين فى الشكر حتى يرغبوا فى إكرامه وتفقده وهذا داء دفين فى الباطن والشيطان لا يقدر على التدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث فى معرض السنة ويقول له الشكر

(١) حديث إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه ت من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٢) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم (٣) حديث قالت المهاجرون يارسول الله مارأينا خيرا من قوم نزلنا عليهم الحديث ت وصححه من حديث أنس ورواه مختصرا د ن فى اليوم والليلة و ك وصححه .

بين الماء والطين » وفى رواية « بين الروح والجسد » وقيل لذلك سمى أميا لأن مكة أم القرى وذرته أم الخليقة وتربة الشخص مدفنه فكان يقتضى أن يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها ولكن قيل الماء لما تموج رمى الزبد إلى النواحى فوقعت جوهرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذى تربته بالمدينة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيا مدنيا حنينه إلى مكة وتربته بالمدينة والاشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ما قال الله تعالى ـ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ـ ورد فى الحديث « إن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر » استخرج الذر من مسام شعر آدم فخرج الذر

من السنة والاخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ماذكرناه ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لاينتهي الخبر إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لايعطون إلا من يخفي ولايشكر فان استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلافهو مغرور . ثم إذا علم أن باعثه السنة في الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطي فينظر فان كان هو ممن يحب الشكر والنشر فينبغي أن يخفي ولايشكر لأن قضاء حقه أن لاينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم وإذا علم من حاله أنه يحب الشكر ولايقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي مدح بين يديه « ضربتم عنقه لوسمعها ماأفلح [(١)] » مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثني على قوم في وجوههم لثقته بيقينهم وعلمه بأن ذلك لايضرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال لواحد « إنه سيد أهل الوبر [(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم في آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه [(٣)] » وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا [(٤)] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا علم أحدكم من أخيه خير فليخبره فانه يزداد رغبة في الخير [(٥)] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه [(٦)] » وقال الثوري من عرف نفسه لم يضره مدح الناس . وقال أيضا ليوسف بن أسباط إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل علي فاشكر وإلا فلا تشكر ودقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه فان أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه إن تعلم مسئلة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل وعلى الجملة فالأخذ في الملأ والرد في السر أحسن المسالك وأسلمها فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة بحيث يستوي السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يتحدث به ولايرى . نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

(بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة)

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقه أفضل فان في أخذ الزكاة مزاحمة للساكين وتضييقا عليهم ولأنه ربما لايكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز

(١) حديث قال للرجل الذي مدح بين يديه ضربتم عنقه لوسمعها ما أفلح متفق عليه من حديث أبي بكرة بلفظ ويحك قطعت عنق صاحبك زاد طب في رواية والله لوسمعها ما أفلح أبدا وفي سنده علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه وله نحوه من حديث أبي موسى (٢) حديث إنه سيد الوبر العنبري وطب وابن قانع في معاجمهم وحب في الثقات من حديث قيس بن عاصم المنقري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك (٣) حديث إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه ، من حديث ابن عمر ورواه د في المراسيل من حديث الشعبي مرسلا بسند صحيح وقال روي متصلا وهو ضعيف و ك نحوه من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه وصحح إسناده (٤) حديث إن من البيان سحرا خ من حديث ابن عمر (٥) حديث إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فانه يزداد رغبة في الخير قط في العلل من رواية ابن المسيب عن أبي هريره . وقال لايصح عن الزهري وروي عن ابن المسيب مرسلا (٦) حديث إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه طب من حديث أسامه بن زيد بسند ضعيف

بخروج العرق وقيل كان المسح من بعض الملائكة فأضاف الفعل إلى المسبب وقيل معنى القول بأنه مسح أي أحصى كما تحصى الأرض بالمساحة وكان ذلك ببطن نعمان واد بجنب عرفة بين مكة والطائف فلما خاطب الذر وأجابوا بلى كتب العهد في رق أبيض وأشهد عليه الملائكة وألقم الحجر الأسود فكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المجيبة من الأرض والعلم والهدى فيه معجونان فبعث بالعلم والهدى موروثا له وموهو باوقيل لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت حتى بعث الله تعالى عزرائيل فقبض قبضة من الأرض وكان إبليس قد وطيء الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضوع أقدامه فخلقت النفس مما مس قدم

وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا ولأن الزكاة لا منة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين ولأنه أخذ بالحاجة والانسان يعلم حاجة نفسه قطعا وأخذ الصدقة أخذ بالدين فان الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيرا ولأن مرافقة المساكين أدخل في الذل والمسكنة وأبعد من التكبر إذ قد يأخذ الانسان الصدقة في معرض الهدية فلا تتميز عنه وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته والقول الحق في هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية فان كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغى أن يأخذ الزكاة فاذا علم أنه مستحق قطعا إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه في قضائه فهو مستحق قطعا فاذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فاذا كان صاحب الصدقة لايتصدق بذلك المال لولم يأخذه هو فليأخذ الصدقة فان الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين وإن كان المال معرضا للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير والأمر فيهما يتفاوت وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال والله أعلم .

كمل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقربين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(كتاب أسرار الصوم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم على عباده المنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه ، ورد أمله وخيب ظنه ، إذ جعل الصوم حصنا لأوليائه وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة وإن بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قصم خصمها قوية المنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق وممهد السنة وعلى آله وأصحابه ذوى الأبصار الثاقبة والعقول المرجحة وسلم تسليما كثيرا [أما بعد] فان الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر[1] » وبمقتضى قوله ﷺ « الصبر نصف الإيمان[2] » ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه ﷺ « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فانه لى وأنا أجزى به[3] » وقد قال الله تعالى ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ـ والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلى فالصوم لى وأنا أجزى به[4] »

(كتاب أسرار الصيام)

(١) حديث الصوم نصف الصبر ت وحسنه من حديث رجل من بنى سليم و ه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم في الحلية والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن

(٣) حديث كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم الحديث أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم الحديث أخرجاه من حديثه وهو بعض الذى قبله

إبليس فصارت مأوى الشر وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء وكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدم إبليس فلم يصبه حظ الجهل بل صار منزوع الجهل موفرا حظه من العلم فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم وانتقل من قلبه إلى القلوب ومن نفسه إلى النفوس فوقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة ووقع التأليف بالتعارف الأول فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كان أوفر حظا من قبول ماجاء به فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات فعلموا وعلموا كالأخاذ الذى يسقى منه ويزرع منه وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بإحكام أساس التقوى ولما

وقال صلى الله عليه وسلم « للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون وهو موعود بلقاء الله تعالى في جزاء صومه(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة(٤) » وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد ياباغي الخير هلمّ وياباغي الشرّ أقصر(٥) » وقال وكيع في قوله تعالى ـ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ـ هي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة المباهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال « إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشابّ العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته لأجلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم في الصائم « يقول الله عز وجل انظروا ياملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي(٧) » وقيل في قوله تعالى ـ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون ـ قيل كان عملهم الصيام لأنه قال ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ـ فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا ويجازف جزافا فلا يدخل تحت وهم وتقدير وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنيين : أحدهما أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد . والثاني أنه قهر لعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ولذلك قال ﷺ « إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع(٨) » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « داومي قرع باب الجنة قالت بماذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم بالجوع(٩) » وسيأتي فضل الجوع في كتاب شره الطعام وعلاجه من ربع المهلكات فلما كان الصوم على الخصوص قمعا للشيطان وسدا لمسالكه وتضييقا لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل ففي قمع عدو الله نصرة

(١) حديث للجنة باب يقال له الريان الحديث أخرجا من حديث سهل بن سعد (٢) حديث للصائم فرحتان الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة (٣) حديث لكل شيء باب وباب العبادة الصوم ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٤) حديث نوم الصائم عبادة رويناه في أمالي بن منده من رواية ابن المغيرة القواس عن عبدالله بن عمر بسند ضعيف ولعله عبد الله بن عمرو فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية إلا عنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبدالله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد الكذابين (٥) حديث إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة الحديث ت وقال غريب ن ه ك وصححه على شرطهما من حديث أبي هريرة وصحح خ وقفه على مجاهد وأصله متفق عليه دون قوله ونادى مناد (٦) حديث إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته الحديث عد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٧) حديث يقول الله تعالى للملائكته ياملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي (٨) حديث إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم الحديث متفق عليه من حديث صفية دون قوله فضيقوا مجاريه بالجوع (٩) حديث قال لعائشة داومي قرع باب الجنة الحديث لم أجد له أصلا .

تركت النفوس انجلت مرايا قلوبهم عاصقلها من التقوى فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها فلما زهدوا في الدنيا انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم أنصبابا وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة . واعلم أن كل حال شريف نعزوه إلى الصوفية في هذا الكتاب هو حال المقرب والصوفي هو المقرب وليس في القرآن اسم الصوفي واسم الصوفي ترك ووضع للمقرب على ما نستشرح ذلك في بابه ولا يعرف في طرفي بلاد الإسلام شرقا وغربا هذا الاسم لأهل القرب وإنما يعرف للمترسمين وكم من الرجال المقربين في بلاد المغرب وبلاد تركستان وما وراء النهر ولا يسمون صوفية لأنهم لا يتزيون بزي الصوفية ولا مشاحة في الألفاظ فيعلم أنا نعني

لله سبحانه وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له قال الله تعالى ـ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ـ فالبداية بالجهد من العبد والجزاء بالهداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ وقال تعالى ـ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ـ وإنما التغيير تكثير الشهوات فهي مرتع الشياطين ومرعاهم فمادامت مخصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوبا عن لقائه وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات (١) » فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ونبين ذلك بثلاثة فصول .

(الفصل الأول في الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده) .

(أما الواجبات الظاهرة فستة)

الأول : مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فان غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان ونعنى بالرؤية العلم ويحصل ذلك بقول عدل واحد ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة ومن سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضى به فليتبع كل عبد فى عبادته موجب ظنه وإذا رؤى الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولايتعدى الوجوب . الثانى النية ولابد لكل ليلة من نية مبيتة معينة جازمة فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه وهو الذى عنينا بقولنا كل ليلة ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ولاصوم الفرض إلا التطوع وهو الذى عنينا بقولنا مبيتة ولو نوى الصوم مطلقا أو الفرض مطلقا لم يجزه حتى ينوى فريضة الله عزوجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يجزه فانها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل واحتمال غلط العدل أو كذبه لايبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالشك فى الليلة الأخيرة من رمضان فذلك لايمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس فى المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لايمنعه من النية ومهما كان شاكا ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان فان النية محلها القلب ولايتصور فيه جزم القصد مع الشك كما لوقال فى وسط رمضان أصوم غدا إن كان من رمضان فان ذلك لايضره لأنه ترديد لفظ ومحل النية لايتصور فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان ومن نوى ليلا ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوت امرأة فى الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها . الثالث الامساك عن إيصال شىء إلى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ولايفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال الميل فى الأذن والاحليل إلا أن يقطر فيه مايبلغ المثانة ومايصل بغير قصد من غبار الطريق أوذبابة تسبق إلى جوفه أومايسبق إلى جوفه فى المضمضة فلايفطر إلا إذا بالغ فى المضمضة فيفطر لأنه مقصر وهو الذى أردنا بقولنا عمدا فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسى فانه لايفطر أما من أكل عامدا فى طرفى النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارا بالتحقيق فعليه القضاء وإن بقى على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه ولاينبغى أن يأكل فى طرفى النهار إلا بنظر واجتهاد. الرابع الامساك عن الجماع وحده مغيب الحشفة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أواحتلم فأصبح جنبا لم يفطر وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع فى الحال صح صومه فان صبر فسد ولزمته الكفارة .

بالصوفية المقربين فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم فى الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا فى طريق المقربين وعلومهم علوم أحوال المقربين ومن تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار فهو متصوف مالم يتحقق بحالهم فاذا تحقق بحالهم صار صوفيا ومن عداهما ممن تميز بزى ونسب إليهم فهو متشبه ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ .

[الباب الثانى فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع]

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى إملاء قال أنا أبومنصور القرى قال أنا الامام الحافظ أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمى قال أنا أبوعلى اللؤلؤى قال أنا أبو داود السجستانى قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن شعبة قال حدثنى عمر بن

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم الحديث أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه

الخامس : الامساك عن الاستمناء وهو إخراج المنى قصدا بجماع أو بغير جماع فان ذلك يفطر ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها مالم ينزل لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخا أو مالكا لإربه فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر لتقصيره السادس : الامساك عن إخراج القيء فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فانه يفطر عند ذلك .

(وأما لوازم الافطار فأربعة)

القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبها بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد أما الكافر والصبي والمجنون فلاقضاء عليهم ولايشترط التتابع فى قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .
وأما الكفارة : فلا تجب إلا بالجماع وأما الاستمناء والأكل والشرب وماعدا الجماع لاتجب به كفارة فالكفارة عتق رقبة فان أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فاطعام ستين مسكينا مدا مدا .
وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أوقصر فيه ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين ويجب الامساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك والصوم فى السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيما فى أوله ولايوم يقدم إذا قدم صائما . وأما الفدية : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولديهما لكل يوم مدّ حنطة لمسكين واحد مع القضاء والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا . وأما السنن فست : تأخير السحور وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة وترك السواك بعد الزوال والجود فى شهر رمضان لماسبق من فضائله فى الزكاة ومدارسة القرآن والاعتكاف فى المسجد لاسيما فى العشر الأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش وشد المئزر ودأب وأدأب أهله(١) » أى أداموا النصب فى العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها فى أوتار وأشبه الأوتار ليلة إحدى وثلاث وخمس وسبع والتتابع فى هذا الاعتكاف أولى فان نذر اعتكافا متتابعا أو نواه انقطع تتابعه بالخروج من غير ضرورة كما لو خرج لعيادة أوشهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع وله أن يتوضأ فى البيت ولاينبغى أن يعرج على شغل آخر « كان صلى الله عليه وسلم لايخرج إلا لحاجة الانسان ولايسأل عن المريض إلامارا(٢) » وينقطع التتابع بالجماع ولاينقطع بالتقبيل ولا بأس فى المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد فى الطست فكل ذلك قد يحتاج إليه فى التتابع ولاينقطع التتابع بخروج بعض بدنه « كان صلى الله عليه وسلم يدنى رأسه فترجله عائشة رضى الله عنها وهى فى الحجرة(٣) » ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فاذا عاد ينبغى أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولا عشرة أيام مثلا والأفضل مع ذلك التجديد .

(١) حديث كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش الحديث متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المئزر (٢) حديث كان لايخرج إلا لحاجة ولايسأل عن المريض إلامارا متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشطر الثانى رواه أبوداود بنحوه بسند لين (٣) حديث كان يدنى رأسه لعائشة متفق عليه من حديثها

سليمان من ولد عمر ابن الخطاب عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه وليس بفقيه » أساس كل خير حسن الاستماع قال الله تعالى ــ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ــ بقولهم بعضهم علامة الخير فى السماع أن يسمع العبد بفناء أوصافه ونعوته ويسمعه بحق من حق وقال بعضهم لو علمهم أهلا للسماع لفتح آذانهم للاستماع فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه حديث النفس لايقدر على حسن الاستماع فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم رأوا كل آية من كلامه تعالى بحرا

(الفصل الثاني في أسرار الصوم وشروطه الباطنة)

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله . وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد للدين فان ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة فان ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقه الموعود وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ولا يطول النظر في تفصيلها قولا ولكن في تحقيقها عملا فانه إقبال بكنه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عز وجل ـ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ـ وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة أمور : الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل مايذم ويكره وإلى كل مايشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته في قلبه (١) » وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة (٢) » . الثاني : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم رواه بشر بن الحرث عنه وروى ليث عن مجاهد خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جنة فاذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم (٣) » وجاء في الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنانه في الافطار فأرسل إليهما قدحا وقال ﷺ : قل لهما قيئا فيه ما أكلتما فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم الله تعالى عليهما قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يغتابان الناس فهذا ما أكلتا من لحومهم (٤) » . الثالث : كف السمع عن الاصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الاصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى ـ سماعون للكذب أكالون للسحت ـ وقال عز وجل ـ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ـ فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى ـ إنكم إذا مثلهم ـ

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام إبليس الحديث ك وصحح إسناده من حديث حذيفة (٢) حديث جابر عن أنس خمس يفطرن الصائم الحديث الأزدي في الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازي هذا كذاب (٣) حديث الصوم جنة فاذا كان أحدكم صائما الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة (٤) حديث أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في الغيبة للصائم أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بسند فيه مجهول .

من أجل العلم بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه وجليه وخفيه وبابا من أبواب الجنة باعتبار ما تنبه أو تدعو إليه من العمل ورأوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق به عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى من عند الله تعالى يتعين الاستماع إليه فكان من أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت ورأوا أن الوسواس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء وقتام يتراكم من نفث الشيطان وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الحطب الذي تزداد النار به تأججا ويزداد القلب به تحرجا فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها فلما انقطعت عن نار

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «المغتاب والمستمع شريكان فى الاثم (١)» الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل وعن المكاره وكف البطن عن الشبهات وقت الافطار فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الافطار على الحرام فمثال هذا الصائم مثال من يبنى قصرا ويهدم مصرا فان الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه فالصوم لتقليله وتارك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيها والحرام سم مهلك للدين والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره وقصد الصوم تقليله وقد قال صلى الله عليه وسلم «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش (٢)» فقيل هو الذى يفطر على الحرام وقيل هو الذى يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام وقيل هو الذى لا يحفظ جوارحه عن الآثام. الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ جوفه فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه مالا يؤكل فى عدة أشهر ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ماعساها كانت راكدة لو تركت على عادتها فروح الصوم وسره تضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان فى العود إلى الشرور ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفوا عند ذلك قلبه ويستديم فى كل ليلة قدرا من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء وليلة القدر عبارة عن الليلة التى ينكشف فيها شئ من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى - إنا أنزلناه فى ليلة القدر - ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب مالم يخل همته عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام وسيأتى له مزيد بيان فى كتاب الأطعمة إن شاء الله عز وجل. السادس: أن يكون قلبه بعد الافطار معلقا مضطربا بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين وليكن كذلك فى آخر كل عبادة يفرغ منها فقد روى عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه والمسىء باساءته أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له إنك شيخ كبير وان الصيام يضعفك فقال إنى أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه فهذه هى المعانى الباطنة فى الصوم. فان قلت فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعانى فقد قال الفقهاء

النفس أحطابها وفترت نيرانها وقل دخانها شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم فهيأوا مواردها بصفاء الفهوم فلما شهدوا سمعوا قال الله تعالى - إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - قال الشبلى رحمه الله: موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين قال يحيى بن معاذ الرازى القلب قلبان قلب قد احتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه فى الآخرة فانظر كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة وشؤم هذه الأشغال الفانية التى أقعدتك عن الطاعة قال بعضهم لمن كان له قلب سليم من

---

(١) حديث المغتاب والمستمع شريكان فى الاثم غريب وللطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة (٢) حديث كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ن ه من حديث أبى هريرة

صومه صحيح فما معناه . فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هى أضعف من هذه الأدلة أى أوردناها فى هذه الشروط الباطنة لاسيما الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول وبالقبول الوصول إلى المقصود ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية والاقتداء بالملائكة فى الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات والانسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها فكلما انهمك فى الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة والملائكة مقربون من الله عز وجل والذى يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم فان الشبيه من القريب قريب وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأى جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك فى الشهوات الأخر طول النهار ولو كان لمثله جدوى فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ولهذا قال أبو الدرداء ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف لايعيبون صوم الحمقى وسهرهم ولذرة من ذوى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين ولذلك قال بعض العلماء كم من صائم مفطر وكم مفطر صائم والمفطر الصائم هو الذى يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش ويطلق جوارحه ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه فى الوضوء ثلاث مرات فقد وافق فى الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وان ترك الفضل ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته[1] » . ولما تلا قوله عز وجل ـ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ـ وضع يده على سمعه وبصره فقال : « السمع أمانة والبصر أمانة[2] » ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إنى صائم » أى إنى أودعت لسانى لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك فاذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهرا وباطنا وقشرا ولبا ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات فاليك الخيرة الآن فى أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب .

(الفصل الثالث فى التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه)

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة وبعضها يوجد فى كل شهر وبعضها فى كل أسبوع . أما فى السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة والعشر الأول من المحرم ، وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم وهى أوقات فاضلة « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه فى رمضان[3] »

(١) حديث إنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود فى حديث فى الأمانة والصوم واسناده حسن (٢) حديث لما تلا قوله تعالى: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. وضع يده على سمعه وبصره وقال السمع والبصر أمانة د من حديث أبى هريرة دون قوله السمع أمانة (٣) حديث كان يكثر صيام شعبان الحديث متفق عليه من حديث عائشة

الأغراض والأمراض قال الحسين بن منصور لمن كان له قلب لايخطر فيه إلا شهود الرب وأنشد :

أنعى إليك قلوبا طالما هطلت
سحائب الوحى فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء قلب لاحظ الحق بعين التعظيم فذاب له وانقطع إليه عما سواه قال الواسطى : أى لذكرى لقوم مخصوصين لا لسائر الناس لمن كان له قلب أى فى الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم ـ أومن كان ميتا فأحييناه ـ وقال أيضا للشاهدة تذهل والحجبة تفهم لأن الله تعالى إذا تجلى لشىء خضع له وخشع وهذا الذى قاله الواسطى صحيح فى حق أقوام وهذه الآية تحكم بخلاف هذا لأقوام آخرين وهم أرباب التمكين يجمع لهم بين المشاهدة والفهم فموضع الفهم محل المحادثة والمكالمة وهو

وفى الخبر «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم (١) » لأنه إبتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وقال صلى الله عليه وسلم « صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام (٢) » وفى الحديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعمائة عام (٣) » وفى الخبر إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان (٤) ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فان وصل شعبان برمضان فجائز (٥) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وفصل مرارا كثيرة (٦) ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردا له وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان فالأشهر الفاضلة ذوالحجة والمحرم ورجب وشعبان والأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب واحد فرد وثلاثة سرد وأفضلها ذوالحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج وشوال من أشهر الحج وليس من الحرم والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج وفى الخبر « مامن أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذى الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر قيل ولا الجهاد فى سبيل الله تعالى قال ولا الجهاد فى سبيل الله عز وجل إلا من عقر جواده وأهريق دمه (٧) » . وأما مايتكرر فى الشهر: فأول الشهر وأوسطه وآخره ووسطه الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما فى الأسبوع : فالاثنين والخميس والجمعة فهذه هى الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الاوقات . وأما صوم الدهر فانه شامل للكل وزيادة وللسالكين فيه طرق فمنهم من كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته والصحيح أنه إنما يكره لشيئين أحدهما أن لا يفطر فى العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله (٨) والآخر أن يرغب عن السنة فى الافطار ويجعل

(١) حديث أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم م من حديث أبى هريرة (٢) حديث صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين الحديث لم أجده هكذا وفى المعجم الصغير للطبرانى من حديث ابن عباس من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما (٣) حديث من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت الحديث الازدى فى الضعفاء من حديث أنس (٤) حديث إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان الأربعة من حديث أبى هريرة حب فى صحيحه عنه إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى يجىء رمضان وصححه ت (٥) حديث وصل شعبان برمضان مرة الأربعة من حديث أم سلمة لم يكن يصوم من السنة شهرا تاما إلا شعبان يصله برمضان و د ن نحوه من حديث عائشة (٦) حديث فصل شعبان من رمضان مرارا د من حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من هلال شعبان مالا يتحفظ من غيره فان غم عليه عد ثلاثين يوما ثم صام وأخرجه قط وقال إسناده صحيح و ك وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث مامن أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذى الحجة الحديث ت ه من حديث أبى هريرة دون قوله قيل ولا الجهاد الخ وعند خ من حديث ابن عباس ماالعمل فى أيام أفضل من العمل فى هذا العشر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء (٨) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر خ م من حديث عبدالله بن عمرو فى حديث له لاصام من صام الأبد ولمسلم من حديث أبى قتادة قيل يارسول الله كيف بمن صام الدهر قال لاصام ولا أفطر و ن نحوه من حديث عبدالله بن عمر وعمران بن حصين وعبدالله بن الشخير .

سمع القلب وموضع المشاهدة بصر القلب وللسمع حكمة وفائدة وللبصر حكمة وفائدة فمن هو فى سكر الحال يغيب سمعه فى بصره ومن هو فى حال الصحو والتمكين لايغيب سمعه فى بصره لتملكه ناصية الحال ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد لفهم المقال لأن الفهم مورد الإلهام والسماع والإلهام يستدعيان وعاء وجوديا وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانيا للتمكن فى مقام الصحو وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء إلى مقار البقاء . وقال ابن سمعون إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعرف آداب الخدمة وآداب القلب وهى ثلاثة أشياء فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة فمن وقف على شهوته وجد ثلث الأدب ومن افتقر إلى مالم يجد

الصوم حجراً على نفسه مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه فاذا لم يكن شيء من ذلك وأرى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبوموسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين (١) » ومعناه لم يكن له فيها موضع ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « عرضت عليّ مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت أجوع يوما وأشبع يوما أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام صوم أخي داود كان يصوم يوما ويفطر يوما (٣) » ومن ذلك « منازلته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول إني أطيق أكثر من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : صم يوما وأفطر يوما فقال إني أريد أفضل من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم لاأفضل من ذلك (٤) » وقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم ماصام شهرا كاملا قط إلا رمضان (٥) » بل كان يفطر منه ومن لايقدر على صوم نصف الدهر فلابأس بثلثه وهو أن يصوم يوما ويفطر يومين وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث وواقع في الأوقات الفاضلة وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الانسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الافطار بالصوم وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لايوجب ترتيبا مستمرا ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم « كان يصوم حتى يقال لايفطر ويفطر حتى يقال لايصوم وينام حتى يقال لايقوم ويقوم حتى يقال لاينام (٦) » وكان ذلك بحسب ماينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات وقد كره العلماء أن يوالي بين الافطار أكثر من أربعة أيام تقديرا بيوم العيد وأيام التشريق وذكروا أن ذلك يقسي القلب ويولد ردىء العادات ويفتح أبواب الشهوات ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لاسيما من يأكل في اليوم والليلة مرتين فهذا ماأردنا ذكره من ترتيب الصوم التطوع به والله أعلم بالصواب .

تم كتاب أسرار الصوم والحمد لله بجميع محامده كلها ماعلمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها

(١) حديث أبوموسى الأشعري من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين أحمد ن في الكبرى و حب وحسنه أبوعلي الطوسي (٢) حديث عرضت عليّ مفاتيح خزائن الدنيا الحديث ت من حديث أبي أمامة بلفظ عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا . وقال حسن (٣) حديث أفضل الصيام صوم أخي داود الحديث أخرجاه من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث منازلته لعبد الله بن عمرو وقوله صم يوما وأفطر يوما الحديث أخرجاه من حديثه (٥) حديث ماصام شهرا كاملا قط إلا رمضان أخرجاه من حديث عائشة (٦) حديث كان يصوم حتى يقال لايفطر الحديث أخرجاه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر القيام والنوم و خ من حديث أنس كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لايصوم منه شيئا ويصوم حتى يظن أن لايفطر منه شيئا وكان لاتشاء تراه من الليل مصليا إلا رأيته ولانائما إلا رأيته .

من الأدب بعده الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثي الأدب والثالث امتلاء القلب بالذي بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلا فقد وجد كل الأدب . قال محمد ابن علي الباقر موت القلب من شهوات النفس فكلما رفض شهوات نال من الحياة بقسطها فالسماع للأحياء لاللأموات قال الله تعالى — إنك لاتسمع الموتى — قال سهل بن عبدالله القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة وأثر القليل عليه كثير قال الله تعالى — ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين — فالقلب عمال لايفتر والنفس يقظانة لاترقد فان كان العبد مستمعا إلى الله تعالى وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس فكل شيء سد باب الاستماع فمن حركة النفس وفي حركتها يطرق الشيطان . وقد ورد « لولا أن الشياطين

ماعلمنا منها ومالم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الحج والله المعين لارب غيره وماتوفيقى إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(كتاب أسرار الحج)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزا وحصنا وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا وتحصينا ومنا وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا والصلاة على محمد نبى الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فان الحج من بين أركان الاسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين فيه أنزل الله عزوجل قوله ــ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ــ وفيه قال صلى الله عليه وسلم «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا [(١)] » فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال وأجدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب .

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدإ السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة فلنبدأ بالباب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشد الرحال إلى المساجد .

(فضيلة الحج)

قال الله عزوجل ــ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ــ وقال قتادة لما أمر الله عزوجل إبراهيم ﷺ وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج نادى : ياأيها الناس إن الله عزوجل بنى بيتا فحجوه وقال تعالى ــ ليشهدوا منافع لهم ــ قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة ولما سمع بعض السلف هذا قال غفر لهم ورب الكعبة وقيل فى تفسير قوله عزوجل ــ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ــ أى طريق مكة يقعد الشيطان عليها ليمنع الناس منها وقال ﷺ « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه [(٢)] » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « ماروى الشيطان فى يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة [(٣)] » وماذلك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال « إن من الذنوب ذنوبا لايكفرها إلا الوقوف بعرفة [(٤)] »

(كتاب أسرار الحج)

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا عد من حديث أبى هريرة و ت نحوه من حديث على وقال غريب وفى إسناده مقال (٢) حديث من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه أخرجاه من حديث أبى هريرة (٣) حديث ماروى الشيطان فى يوم هو أصغر الحديث مالك عن إبراهيم بن أبى عبلة عن طلحة بن عبد الله بن كريز مرسلا (٤) حديث من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الوقوف بعرفة لم أجد له أصلا

يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» وقال الحسين بصائر البصرين ومعارف العارفين ونور العلماء الربانيين وطرق السابقين الناجين والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع . وقال ابن عطاء هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة فيسمع به بل يسمع منه ويشهد به بل يشهده فاذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال فزع وارتعد وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر وقال بعضهم لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى والتفريد له حق يخرج من الدنيا والخلق والنفس فلا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواه فقلب الصوفى مجرد عن الأكوان ألقى سمعه وشهد بصره فسمع المسموعات

وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر بعض المكاشفين من المقربين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له في صورة شخص بعرفة فإذا هو ناحل الجسم مصفر اللون باكي العين مقصوف الظهر فقال له ماالذي أبكى عينك قال خروج الحاج إليه بلا تجارة أقول قد قصدوه أخاف أن لا يخيبهم فيحزنني ذلك قال فما الذي أنحل جسمك قال صهيل الخيل في سبيل الله عز وجل ولو كانت في سبيلي كان أحب إلي قال فما الذي غير لونك قال تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلي قال فما الذي قصف ظهرك قال قول العبد أسألك حسن الخاتمة أقول يا ويلتي متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شفعوا شفعوا (٣) » وفي حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له (٤) » وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين (٥) » وفي الخبر « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أجل شيء تجدونه في صحفكم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه (٦) » ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة وفي الخبر « من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا في المطر غفر له ما سلف من ذنبه (٧) » ويقال إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنبا في الموقف غفره لكل من أصابه في ذلك الموقف وقال بعض السلف إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل يوم في الدنيا وفيه « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل – اليوم أكملت لكم دينكم

(١) حديث من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة هق في الشعب بالشطر الأول من حديث أبي هريرة وروى هو وقط من حديث عائشة الشطر الثاني نحوه وكلاهما ضعيف (٢) حديث حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة أخرجاه من حديث أبي هريرة الشطر الثاني بلفظ الحج المبرور وقال إن الحجة المبرورة وعند ابن عدي حجة مبرورة (٣) حديث الحجاج والعمار وفد الله وزواره الحديث ه من حديث أبي هريرة دون قوله وزواره ودون قوله إن سألوه أعطاهم وإن شفعوا شفعوا وله من حديث ابن عمر وسألوه فأعطاهم ورواه حب (٤) حديث أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له الخطيب في المتفق والمفترق وأبو منصور شهردار ابن شيرويه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٥) حديث ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة حب في الضعفاء وهق في الشعب من حديث ابن عباس باسناد حسن وقال أبو حاتم حديث منكر (٦) حديث استكثروا من الطواف بالبيت الحديث حب و ك من حديث ابن عمر استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة وقال ك صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه لم أجده هكذا وعند ت و ه من حديث ابن عمر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة لفظ ت وحسنه .

وأبصر المبصرات وشاهد المشهودات لتخلصه إلى الله تعالى واجتماعه بين يدي الله والأشياء كلها عند الله وهو عنده فسمع وشاهد فأبصر وسمع جملها ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع وقال إن الباذر خرج يبذره فملأ منه كفه فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه ووقع منه شيء على الصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يسير وندى قليل فنبت حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفا لم تجد مساغا تنفذ فيه فيبس ووقع منه شيء في أرض طيبة فيها شوك نابت فنبت فلما ارتفع خنقه الشوك

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ـ (١) » قال أهل الكتاب لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد فقال عمر رضي الله عنه أشهد لقد أنزلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج (٢) » وروى أن علي بن موفق حج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حججا قال فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي يا ابن موفق حججت عني؟ قلت نعم قال ولبيت عني؟ قلت نعم قال فاني أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب وقال مجاهد وغيره من العلماء إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الابل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقا وقال الحسن من مات عقب رمضان أو عقيب غزو أو عقيب حج مات شهيدا وقال عمر رضي الله عنه الحاج مغفور له ولمن يستغفر له في شهر ذي الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول وقد كان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام ويروى عن علي بن موفق قال حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمنى في مسجد الخيف فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه يا عبد الله فقال الآخر لبيك يا عبد الله قال تدري كم حج بيت ربنا عز وجل في هذه السنة؟ قال لا أدري قال حج بيت ربنا ستمائة ألف أفتدري كم قبل منهم؟ قال لا قال ستة أنفس قال ثم ارتفعا في الهواء فغابا عني فانتبهت فزعا واغتممت غما شديدا وأهمني أمري فقلت إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا في ستة أنفس فلما أفضت من عرفة قمت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر في كثرة الخلق وفي قلة من قبل منهم فحملني النوم فاذا الشخصان قد نزلا على هيئتهما فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ثم قال أتدري ماذا حكم ربنا عز وجل في هذه الليلة؟ قال لا قال فانه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف قال فانتبهت وبي من السرور ما يجل عن الوصف وعنه أيضا رضي الله عنه قال حججت سنة فلما قضيت مناسكي تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت اللهم إني قد وهبت حجتي وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته قال فرأيت رب العزة في النوم جل جلاله فقال لي يا علي تتسخى علي وأنا خلقت السخاء والأسخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجود والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته.

(فضيلة البيت ومكة المشرفة)

قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فان نقصوا أكملهم الله عز وجل من الملائكة (٣) » وأن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها وفي الخبر « إن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وإنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق (٤) »

فأفسده واختلط به ووقع منه شيء على أرض طيبة ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما وصلح فمثل الباذر مثل الحكيم ومثل البذر كمثل صواب الكلام ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه فما يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه ومثل الذي وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضي الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوي أن يعمل به فاذا اعترضت له الشهوات قيدته عن النهوض بالعمل فيترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة كالزرع يختنق بالشوك ومثل الذي وقع في أرض طيبة

(١) حديث وقوفه في حجة الوداع يوم الجمعة ونزول ـ اليوم أكملت لكم دينكم ـ الحديث أخرجاه من حديث عمر (٢) حديث اللهم اغفر للحجاج ولمن استغفر له الحاج ك من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط م (٣) حديث إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة ستمائة ألف الحديث لم أجد له أصلا (٤) حديث إن الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة ويبعث يوم القيامة له عينان الحديث ت وصححه ن من حديث ابن عباس الحجر الأسود من الجنة لفظ ن وباقي الحديث رواه ت وحسنه و ه وحب و ك وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضا وللحاكم من حديث أنس إن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة وصحح إسناده ورواه ن حب ك من حديث عبد الله بن عمرو.

وكان صلى الله عليه يقبله كثيرا (١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن (٢) وقبله عمر رضى الله عنه ثم قال إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع (٣) ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم بكى حتى علا نشيجه فالتفت إلى ورائه فرأى عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه فقال ياأبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات فقال على رضى الله عنه ياأمير المؤمنين بل هو يضر وينفع قال وكيف ؟ قال إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود قيل فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام : اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك ، وروى عن الحسن البصرى رضى الله عنه أن صوم يوم فيها بمائة ألف يوم وصدقة درهم بمائة ألف درهم وكذلك كل حسنة بمائة ألف ويقال طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة وفى الخبر الصحيح «عمرة فى رمضان كحجة معى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معى ثم آتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين (٥) » وفى الخبر «إن آدم ﷺ لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام (٦) » وجاء فى الأثر : إن الله عز وجل ينظر فى كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفا غفر له ومن رآه مصليا غفر له ومن رآه قائما مستقبل الكعبة غفر له وكوشف بعض الأولياء رضى الله عنهم قال إنى رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجدة ويقال لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثرا وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فاذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغانى وأخبار الجاهلية ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب التى تتوقع ولادتها وفى الخبر «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة (٧) » وروى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى «إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره (٨) »

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا أخرجاه من حديث عمر دون قوله كثيرا ، ون أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا إن رآه خاليا (٢) حديث إنه كان يسجد عليه البزار وك من حديث عمر وصحح إسناده (٣) حديث قبله عمر وقال إنى لأعلم أنك حجر أخرجاه دون الزيادة التى رواها على ورواه بتلك الزيادة ك وقال ليس من شرط الشيخين (٤) حديث عمرة فى رمضان كحجة معى أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله معى فهى عند مسلم على الشك تقضى حجة أو حجة معى ورواه ك بزيادتها من غير شك (٥) حديث أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معى الحديث ت وحسنه وحب من حديث ابن عمر (٦) حديث إن آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم الحديث رواه للفضل الجندى ومن طريقه ابن الجوزى فى العلل من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرقى فى تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس (٧) حديث استكثروا من الطواف بهذا البيت الحديث البزار وحب و ك وصححه من حديث ابن عمر استمتعوا من هذا البيت فانه هدم مرتين ويرفع فى الثالثة (٨) حديث قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره ليس له أصل

مثل المستمع الذى ينوى عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه وهذا الذى جانب الهوى وانتهج سبيل الهدى هو الصوفى لأن للهوى حلاوة والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهى تركن إليه وتستلذه واستلذاذ الهوى هو الذى يخنق النبت كالشوك وقلب الصوفى نازله حلاوة الحب الصافى والحب الصافى تعلق الروح بالحضرة الإلهية ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس وحلاوة الحب للحضرة الالهية تغلب حلاوة الهوى لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار لكونها لا ترتقى عن حد النفس وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء لأنها متأصلة فى الروح فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة

(فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكراهيته)

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة . الأول : خوف التبرم والأنس بالبيت فان ذلك ربما يؤثر فى تسكين حرقة القلب فى الاحترام وهكذا كان عمر رضى الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول ياأهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم ولذلك هم عمر رضى الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف وقال خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت . الثانى : تهييج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العود فان الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمنا أى يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطرا وقال بعضهم : تكون فى بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك فى بلد آخر وقال بعض السلف : كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به ويقال إن لله تعالى عبادا تطوف بهم الكعبة تقربا إلى الله عز وجل . الثالث : الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها فان ذلك محظور وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الموضع وروى عن وهيب بن الورد المكى قال كنت ذات ليلة فى الحجر أصلى فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار يقول إلى الله أشكو ثم إليك ياجبرائيل ماألقى من الطائفين حولى من تفكرهم فى الحديث ولغوهم ولهوهم لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه وقال ابن مسعود رضى الله عنه مامن بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى ـ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ـ أى أنه على مجرد الارادة ويقال إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم وقيل الكذب أيضا وقال ابن عباس لأن أذنب سبعين ذنبا بركية أحب إلىّ من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة وركية منزل بين مكة والطائف ولخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أنه لم يقض حاجته فى الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة وبعضهم أقام شهرا وماوضع جنبه على الأرض ، وللمنع من الاقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة ولا تظنن أن كراهة المقام يناقض فضل البقعة لأن هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع فمعنى قولنا إن ترك المقام به أفضل أى بالاضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم إما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال « إنك لخير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت[(١)] » وكيف لا والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه .

(فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد)

مابعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالأعمال فيها أيضا مضاعفة قال صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام[(٢)] » وكذلك كل عمل بالمدينة بألف وبعد مدينته الأرض المقدسة فان الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام وكذلك سائر الأعمال وروى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة[(٣)] »

(١) حديث إنك لخير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك ماخرجت ت وصححه و ن فى الكبرى و ه و حب من حديث عبدالله بن عدى بن الحمراء (٢) حديث صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه م من حديث ابن عمر (٣) حديث ابن عباس صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة غريب لم أجده بجملته هكذا و ه

فى أرض النفس فاذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشربها بالروح والقلب والنفس ويفسدها بكليته ويقول :

أشم منك نسيما لست أعرفه
أظن لمياء جرت فيك أردانا

فتعمه الكلمة وتشمله وتصير كل شعرة منه سمعا وكل ذرة منه بصرا فيسمع الكل بالكل ويبصر الكل بالكل ويقول :

إن تأملتكم فكلى عيون
أو تذكرتكم فكلى قلوب

قال الله تعالى ـ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ـ قال بعضهم اللب والعقل مائة جزء تسعة وتسعون فى النبى صلى الله عليه وسلم وجزء فى سائر المؤمنين والجزء الذى فى سائر

وقال

وقال صلى الله عليه وسلم «من صبر على شدتها ولأوائها كنت له شفيعا يوم القيامة (١)» وقال صلى الله عليه وسلم «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة (٢)» وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى (٣)» وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا (٤)» والحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام فالمنع من ذلك في غاية الإحالة فإذا جوز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد هذا في الرحلة أما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له قال ﷺ «البلاد بلاد الله عز وجل والخلق عباده فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم واحمد الله تعالى (٥)» وفي الخبر «من بورك له في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه (٦)» وقال أبو نعيم رأيت سفيان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعليه بيده فقلت إلى أين يا أبا عبد الله قال إلى بلد أملأ فيه جرابي بدرهم وفي حكاية أخرى بلغني عن قرية فيها رخص أقيم فيها قال فقلت وتفعل هذا يا أبا عبد الله فقال نعم إذا سمعت برخص في بلد فاقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف بالمشهورين هذا زمان تنقل يتنقل الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن ويحكى عنه أنه قال والله ما أدري أي البلاد أسكن فقيل له خراسان فقال مذاهب مختلفة وآراء فاسدة قيل فالشام قال يشار إليك بالأصابع أراد الشهرة قيل فالعراق قال بلد الجبابرة قيل مكة قال مكة تذيب الكيس والبدن وقال له رجل غريب عزمت على المجاورة بمكة فأوصني قال أوصيك بثلاث لا تصلين في الصف الأول ولا تصحبن قرشيا ولا تظهرن صدقة وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع .

من حديث ميمونة بإسناد جيد في بيت المقدس ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره وله من حديث أنس صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة وليس في إسناده من ضعف وقال الذهبي إنه منكر (١) حديث لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد (٢) حديث من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها الحديث ت ه من حديث ابن عمر قال ت حسن صحيح (٣) حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٤) حديث كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها م من حديث بريدة بن الحصيب (٥) حديث البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف (٦) حديث من رزق في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه ه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ إذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له .

المؤمنين أحد وعشرون سهما فسهم يتساوى المؤمنين كلهم فيه وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وعشرون جزءا يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم قيل في هذه الآية إظهار فضيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأحسن ما يأتي به لأنه لما وقعت له صحبة التمكين ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون [illegible]ت عليه الأنوار في الأحوال كلها وكان معه أحسن الخطاب وله السبق في جميع المقامات الآراء صلى الله عليه وسلم يقول نحن الآخرون السابقون يعني الآخرون وجودا السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم - قال الجنيد تنسموا روح ما دعاهم إليه

فأسرعوا إلى محو العلائق الشغلة وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر وتجرعوا مرارة المكابدة وصدقوا الله فى المعاملة وأحسنوا الأدب فيا توجهوا إليه وهانت عليهم المصائب وعرفوا قدر مايطلبون وسجنوا هممهم عن التلفت إلى مذكور سوى وليهم لحيوا حياة الأبد بالحى الذى لم يزل ولا يزال . وقال الواسطى رحمه الله تعالى حياتها تصفيتها عن كل معلول لفظا وفعلا وقال بعضهم استجيبوا لله بسرائركم وللرسول بظواهركم فحياة النفوس بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة القلوب بمشاهدة الغيوب وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير وقال ابن عطاء فى هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه : أولها إجابة التوحيد . والثانى إجابة التحقيق . والثالث إجابة التسليم

(الفصل الثانى فى شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته)

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان الوقت والاسلام فيصح حج الصبى ويحرم بنفسه إن كان مميزا ويحرم عنه وليه إن كان صغيرا ويفعل به مايفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر فمن أحرم بالحج فى غير هذه المدة فهى عمرة وجميع السنة وقت العمرة ولكن من كان معكوفا على النسك أيام منى فلا ينبغى أن يحرم بالعمرة لأنه لايتمكن من الاشتغال عقيبه لاشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الاسلام فخمسة : الاسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت فان أحرم الصبى أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبى بعرفة أو بمزدلفة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزاهما عن حجة الاسلام لأن الحج عرفة وليس عليهما دم إلا شاة وتشترط هذه الشرائط فى وقوع العمرة عن فرض الاسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج نفلا عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الاسلام فحج الاسلام متقدم ثم القضاء لمن أفسده فى حالة الوقوف(*) ثم النذر ثم النيابة ثم النفل وهذا الترتيب مستحق وكذلك يقع وإن نوى خلافه . وأما شروط لزوم الحج فخمسة : البلوغ والاسلام والعقل والحرية والاستطاعة ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطابا لزمه الاحرام على قول ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج . وأما الاستطاعة فنوعان : أحدهما المباشرة وذلك له أسباب ، أما فى نفسه فبالصحة ، وأما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر ، وأما فى المال فبأن يجد نفقته ذهابه وإيابه إلى وطنه كان له أهل أو لم يكن لأن مفارقة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة وأن يملك مايقضى به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كرائها محمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة . وأما النوع الثانى فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الاسلام لنفسه ويكفى نفقة الذهاب بزاملة فى هذا النوع والابن إذا عرض طاعته على الأب الزمن صار به مستطيعا ولو عرض ماله لم يصر به مستطيعا لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد وبذل المال فيه منة على الوالد ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فان تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه وإن مات قبل الحج لقى الله عز وجل عاصيا بترك الحج وكان الحج فى تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه وإن استطاع فى سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله فى تلك السنة قبل حج الناس ثم مات لقى الله عز وجل ولا حج عليه ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى قال عمر رضى الله عنه لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاوس لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ماصليت عليه وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه وكان ابن عباس يقول من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل ـ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ـ قال: الحج. وأما الأركان التى لايصح الحج بدونها فخمسة: الإحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف . والواجبات المجبورة بالدم ست الاحرام من الميقات فمن تركه وجاوز الميقات محلا فعليه شاة والرمى فيه الدم قولا واحدا وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والبيت بمزدلفة والمبيت بمنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين وفى القول الثانى فيها دم على وجه الاستحباب . وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة

(*) قوله فى حالة الوقوف هكذا بالنسخ وفى نسخة الشارح الرق وهى أظهر فان الرقيق إذا أفسد حجه وهو رقيق ثم عتق ثم حج انصرف حجه للقضاء ولا يجزيه عن حجة الاسلام تأمل .

الأول الافراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فاذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر وأفضل الحل لاحرام العمرة الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع . الثانى القران وهو أن يجمع فيقول لبيك بحجة وعمرة معا فيصير محرما بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين وأما طوافه فغير محسوب لأن شرط الطواف الفرض فى الحج أن يقع بعد الوقوف وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكيا فلا شىء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة . الثالث التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعا إلا بخمس شرائط : أحدها أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثانى أن يقدم العمرة على الحج . الثالث أن تكون عمرته فى أشهر الحج . الرابع أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد فاذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعا ولزمه دم شاة فان لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعا أو متفرقا وبدل دم القران والتمتع سواء والأفضل الافراد ثم التمتع ثم القران . وأما محظورات الحج والعمرة فستة : الأول اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة بل ينبغى أن يلبس إزارا ورداء ونعلين فان لم يجد نعلين فمكعبين فان لم يجد إزارا فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستظلال فى المحمل ولكن لا ينبغى أن يغطى رأسه فان إحرامه فى الرأس وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فان إحرامها فى وجهها . الثانى الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيبا فان تطيب أو لبس فعليه دم شاة . الثالث الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر . الرابع الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه . الخامس مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التى تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا فى الاستمناء ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد . السادس قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فان قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب فى الخلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

(الباب الثانى فى ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهى عشرة جمل)

الجملة الأولى فى السير من أول الخروج إلى الاحرام وهى ثمانية

الأولى فى المال : فينبغى أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء ويتصدق بشىء قبل خروجه ويشترى لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف أو يكتريها فان اكترى فليظهر للمكارى كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه . الثانية فى الرفيق : ينبغى أن يلتمس رفيقا صالحا محبا للخير معينا عليه إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قواه وإن ضاق صدره صبره ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويلتمس أدعيتهم فان الله تعالى جاعل فى أدعيتهم خيرا ، والسنة فى الوداع أن يقول : استودع الله دينك

والرابع إجابة التقريب فالاستجابة على قدر السماع والسماع من حيث الفهم والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلم ووجوه الفهم لاتنحصر [illegible] وجوه الكلام [illegible]صر قال الله تعالى ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ـ فلله تعالى فى كل كلمة من القرآن كلماته التى ينفد البحر دون نفادها فكل الكلام كلمة نظرا إلى ذات التوحيد وكل كلمة كلمات نظرا لسعة العلم الأزلى . حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال : أنبأنا الرئيس أبو على بن نبهان قال أنا الحسن بن شاذان قال أنا دعلج بن أحمد قال أنا أبو الحسن ابن عبد العزيز البغوى قال أنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام قال حدثنا حجاج عن حماد بن

وأماناتك وخواتيم عملك (١) وكان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد السفر « فى حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت (٢) » . الثالثة فى الخروج من الدار : ينبغى إذا هم بالخروج أن يصلى ركعتين أولا يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون وفى الثانية الاخلاص فاذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال اللهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة اللهم إنا نسألك فى مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض وتهون علينا السفر وأن ترزقنا فى سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد والأصحاب اللهم اجعلنا وإياهم فى جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك . الرابعة : إذا حصل على باب الدار قال بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على اللهم إنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقا إلى لقائك فاذا مشى قال اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى فاكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به منى عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت ويدعو بهذا الدعاء فى كل منزل يدخل عليه . الخامسة فى الركوب : فاذا ركب الراحلة يقول بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم إنى وجهت وجهى إليك وفوضت أمرى كله إليك وتوكلت فى جميع أمورى عليك أنت حسبى ونعم الوكيل فاذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبع مرات وقال الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور . السادسة فى النزول : والسنة أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر سيره بالليل قال ﷺ « عليكم بالدلجة فان الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار (٣) » وليقلل نومه بالليل حتى يكون عونا على السير ومهما أشرف على المنزل فليقل اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وماذرين ورب البحار وماجرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر مافيه اصرف عنى شر شرارهم فاذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق فاذا جن عليه الليل يقول ياأرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر مافيك وشر مادب عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وماولد وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . السابعة فى الحراسة : ينبغى أن يحتاط بالنهار فلا

(١) حديث أستودع الله دينك وأماناتك وخواتيم عملك د ت وصححه و ن من حديث ابن عمر أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرا ادن منى حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا (٢) حديث كان ﷺ يقول لمن أراد سفرا فى حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس وهو عند ت وحسنه دون قوله فى حفظ الله وكنفه (٣) حديث عليكم بالدلجة فان الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار د من حديث أنس دون قوله مالا تطوى بالنهار وهذه الزيادة فى الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلا .

سلمة عن على بن زيد عن الحسن يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع » قال فقلت ياأبا سعيد ما المطلع قال يطلع قوم يعملون به قال أبو عبيد أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود قال أبو عبيد حدثنى حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : مامن حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم أولها قوم سيعملون بها فالمطلع المصعد يصعد إليه من معرفة علمه فيكون المطلع الفهم بفتح الله تعالى عن كل قلب بما يرزق من النور واختلف الناس فى معنى الظهر والبطن قال قوم الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله وقيل الظهر صورة القصة

يمشى

يمشى منفردا خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظا عنـد النوم فان نام فى ابتداء الليل افترش ذراعه وإن نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه فى كفه هكذا كان ينام رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى سفره (١) لأنه ربما استثقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يدرى فيكون مايفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والأحب فى الليل أن يتناوب الرفيقان فى الحراسة فاذا نام أحدهما حرس الآخر (٢) فهو السنة فان قصده عدو أوسبع فى ليل أو نهار فليقرأ آية الـكرسى وشهد الله والاخلاص والمعوذتين وليقل بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله حسبى الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتى بالخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبى الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ ـ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ـ تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحى الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين . الثامنة : مهما علا نشزا من الأرض فى الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثا ثم يقول اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة فى سفره قال : سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت.

(الجملة الثانية فى آداب الاحرام من الميقات إلى دخول مكة وهى خمسة)

الأول : أن يغتسل وينوى به غسل الاحرام أعنى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه ويتمم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها فى الطهارة . الثانى : أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الاحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ويتطيب فى ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الإحرام ، فقد رؤى بعض المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الاحرام مما كان استعمله قبل الاحرام (٣) . الثالث : أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكبا أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فعند ذلك ينوى الإحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو إفرادا كما أراد ويكفى مجرد النية لانعقاد الاحرام ولـكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك وإن زاد قال لبيك وسعديك والخير كله بيديك والرغباء إليك لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . الرابع : إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول اللهم إنى أريد الحج فيسره لى وأعنى على أداء فرضه وتقبله منى اللهم إنى نويت أداء فريضتك فى الحج فاجعلنى من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلنى من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم اللهم

---

(١) حديث كان إذا نام فى أول الليل افترش ذراعه وإذا نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل ذراعه فى كفه أحمد و ت فى الشمائل من حديث أبى قتادة باسناد صحيح وعزاه أبومسعود الدمشقى والحميدى إلى م ولم أره فيه (٢) حديث تناوب الرفيقين فى الحراسة فاذا نام أحدهما حرس الآخر هق من طريق ابن إسحق من حديث جابر فى حديث فيه فقال الأنصارى للمهاجرى أى الليل أحب إليك أن أكفيكه أوله أو آخره فقال بل اكفنى أوله فاضطجع المهاجرى الحديث والحديث عند أبى داود ولـكن ليس فيه قول الأنصارى للمهاجرى (٣) حديث رؤية وبيص المسك على مفرق رسول الله صـلى الله عليه وسلم بعد الاحرام متفق عليه من حديث عائشة قالت : كأنما أنظر إلى وبيص المسك الحديث .

مما أخـبر الله تعالى عن غضـبه على قوم وعقابه إياهم فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الأمة وقيـل ظاهره تنزيله الذى يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به وقيل ظهره تلاوته كما أنزل قال الله تعالى ـ ورتل القرآن ترتيلا ـ وبطنه التدبر والتفكر فيـه قال الله تعالى ـ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ـ وقيـل قوله لـكل حرف حـد أى فى التـلاوة لايجاوز المصحف الذى هو الإمام وفى التفسـير لا يجاوز المسموع المنقول وفـرق بين التفسير والتأويل فالتفسير علم نزول الآية وشأنهـا وقصتها والأسباب التى نزلت فيها وهذا محظور على الناس كافة القول فيه إلا بالسماع والأثر وأما التأويل فصرف الآية

فيسر لى أداء مانويت من الحج اللهم قد أحرم لك لحمى وشعرى ودمى وعصبى ومخى وعظامى وحرمت على نفسى النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، ومن وقت الاحرام حرم عليه المحظورات الستة التى ذكرناها من قبل فليجتنبها . الخامس : يستحب تجديد التلبية فى دوام الاحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعا بها صوته بحيث لا يبح حلقه ولا ينبهر فانه لا ينادى أصم ولا غائبا(١) كما ورد فى الخبر ولا بأس برفع الصوت بالتلبية فى المساجد الثلاثة فانها مظنة المناسك : أعنى المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شىء قال « لبيك إن العيش عيش الآخرة(٢) » .

(الجملة الثالثة فى آداب دخول مكة إلى الطواف وهى ستة)

الأول أن يغتسل بذى طوى لدخول مكة . والاغتسالات المستحبة المسنونة فى الحج تسعة . الأول : للاحرام من الميقات ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم ثلاثة أغسال لرمى الجمار الثلاث ولا غسل لرمى جمرة العقبة ثم لطواف الوداع ولم ير الشافعى رضى الله عنه فى الجديد الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة . الثانى : أن يقول عند الدخول فى أول الحرم وهو خارج مكة اللهم هذا حرمك وأمنك فحرّم لحمى ودمى وشعرى وبشرى على النار وآمنى من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلنى من أوليائك وأهل طاعتك . الثالث : أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو من ثنية كداء بفتح الكاف عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادة الطريق إليها(٣) فالتأسى به أولى وإذا خرج خرج من ثنية كدى بضم الكاف وهى الثنية السفلى والأولى هى العليا . الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت فليقل : لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته اللهم فزده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجه برا وكرامة اللهم افتح لى أبواب رحمتك وأدخلنى جنتك وأعذنى من الشيطان الرجيم . الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بنى شيبة وليقل : بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك وليرفع يديه وليقل اللهم إنى أسألك فى مقامى هذا فى أول مناسكى أن تتقبل توبتى وأن تتجاوز عن خطيئتى وتضع عنى وزرى الحمد لله الذى بلغنى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركا وهدى للعالمين اللهم إنى عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك جئتك أطلب رحمتك وأسألك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك الراجى لرحمتك الطالب مرضاتك . السادس : أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول : اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وفيته

(١) حديث إنكم لا تنادون أصم ولا غائبا متفق عليه من حديث أبى موسى (٢) حديث كان إذا أعجبه شىء قال : لبيك إن العيش عيش الآخرة الشافعى فى المسند من حديث مجاهد مرسلا بنحوه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال لبيك اللهم لبيك قال إنما الخير خير الآخرة (٣) حديث دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء بفتح الكاف متفق عليه من حديث ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التى بالبطحاء الحديث .

إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذى يراه يوافق الكتاب والسنة فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ماذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة فما أعجب قول عبد الله ابن مسعود مامن آية إلا ولها قوم سيعملون بها وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصفى موارد الكلام ويفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه فالصوفى بكمال الزهد فى الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد وله بكل فهم عمل جديد فهمهم يدعو إلى العمل وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر فى معانى الخطاب فمن

اشهدلى بالموافاة فان لم يستطع التقبيل وقف فى مقابلته ويقول ذلك ثم لايعرّج على شئ دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف .

(الجملة الرابعة فى الطواف)

فاذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغى أن يراعى أمورا ستة . الأول : أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخى طرفا وراء ظهره وطرفا على صدره ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالأدعية التى سنذكرها . الثانى : إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتنح عنه قليلا ليكون الحجر قدامه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريبا من البيت فانه أفضل ولكيلا يكون طائفا على الشاذروان فانه من البيت وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذروان بالأرض ويلتبس به والطائف عليه لايصح طوافه لأنه طائف فى البيت والشاذروان هو الذى فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار ثم من هذا الموقف يبتدئ الطواف . الثالث : أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف بسم الله والله أكبر اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ويطوف فأول مايجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول : اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام : اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذنى من النار ومن الشيطان الرجيم وحرم لحمى ودمى على النار وآمنى من أهوال يوم القيامة واكفنى مؤنة الدنيا والآخرة ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقى فعنده يقول اللهم إنى أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء النظر فى الأهل والمال والولد فاذا بلغ الميزاب قال اللهم أظلنا تحت عرشك يوم لاظل إلا ظلك اللهم اسقنى بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لاأظمأ بعدها أبدا فاذا بلغ الركن الشامى قال اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور ياعزيز ياغفور رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم فاذا بلغ الركن اليمانى قال اللهم إنى أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من الخزى فى الدنيا والآخرة ويقول بين الركن اليمانى والحجر الأسود اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار فاذا بلغ الحجر الأسود قال اللهم اغفرلى برحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية فى كل شوط . الرابع : أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشى فى الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة ومعنى الرمل الاسراع فى المشى مع تقارب الخطا وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة هكذا كان القصد أولا قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة (١) والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فان لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل

(١) حديث مشروعية الرمل والاضطباع قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة أما الرمل فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة الحديث وأما الاضطباع

الفهم علم ومن العلم عمل والعلم والعمل يتناوبان فيه وهذا العمل آنفا إنما هو عمل القلوب وعمل القلوب غير عمل القالب وأعمال القلوب للطفها وصداقتها مشاكلة للعلوم لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية وتأدّبات قلبية ومسامرات سرية وكلا أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم وطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد ويخالج سرّى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر فى الآية ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها لأنها مستودع وصف من أوصافه ونعت من نعوته فتتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها ويصير له مراء منبئة عن عظيم الجلال ولقد نقل عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال لقد

فليخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثا ثم ليقرب إلى البيت فى المزدحم وليمش أربعا وإن أمكنه استلام الحجر فى كل شوط فهو الأحب وإن منعه الزحمة أشار باليد وقبل يده وكذلك استلام الركن اليمانى يستحب من سائر الأركان وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الركن اليمانى(١) ويقبله(٢) ويضع خده عليه(٣) » ومن أراد تخصيص الحجر بالتقبيل واقتصر فى الركن اليمانى على الاستلام أعنى عن اللمس باليد فهو أولى : الخامس إذا تم الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة وليلتزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه وليقل: اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار وأعذنى من الشيطان الرجيم وأعذنى من كل سوء وقنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيما آتيتنى اللهم إن هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلنى من أكرم وفدك عليك ثم ليحمد الله كثيرا فى هذا الموضع وليصل على رسوله ﷺ وعلى جميع الرسل كثيرا وليدع بحوائجه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف فى هذا الموضع يقول لمواليه تنحوا عنى حتى أقر لربى بذنوبى . السادس : إذا فرغ من ذلك ينبغى أن يصلى خلف المقام ركعتين يقرأ فى الأولى قل ياأيها الكافرون وفى الثانية الاخلاص وهما ركعتا الطواف. قال الزهرى مضت السنة أن يصلى لكل أسبوع ركعتين(٤) وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز(٥) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف وليدع بعد ركعتى الطواف وليقل اللهم يسرلى اليسرى وجنبنى العسرى واغفرلى فى الآخرة والأولى واعصمنى بألطافك حتى لاأعصيك وأعنى على طاعتك بتوفيقك وجنبنى معاصيك واجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين اللهم حببنى إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم فكما هديتنى إلى الاسلام فثبتنى عليه بألطافك وولايتك واستعملنى لطاعتك وطاعة رسولك وأجرنى من مضلات الفتن ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف

تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لايبصرون فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه فالحد حد الكلام والمطلع الترقى عن حد الكلام إلى شهود المتكلم . وقد نقل عن جعفر الصادق أيضا أنه خر مغشيا ... وهو فى الصلاة فسئل عن ذلك فقال ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها فالصوفى لمالاح له نور ... التوحيد وألقى ... عند سماع الوعد والوعيد وقلبه التخلص عما سوى الله تعالى صار بين يدى الله حاضرا شهيدا يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بإنى أنا الله فاذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله صار سمعه بصره وبصره سمعه وعلمه عمله وعمله علمه وعاد آخره أوله وأوله آخره ومعنى ذلك أن الله تعالى

فروى د ه ك وصححه من حديث عمر قال فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب وقد أظهر الله الاسلام ونفى الكفر وأهله ومع ذلك لاندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث استلامه صلى الله عليه وسلم للركن اليمانى متفق عليه من حديث ابن عمر قال رأيت رسول الله ﷺ حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود الحديث ولهما من حديثه لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس من الأركان إلا اليمانيين ولمسلم من حديث ابن عباس لم أره يستلم غير الركنين اليمانيين وله من حديث جابر الطويل حتى إذا أتيت البيت معه استلم الركن (٢) حديث تقبيله صلى الله عليه وسلم له متفق عليه من حديث عمر أنه قبل الحجر وقال لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ماقبلتك والبخارى من حديث ابن عمر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله وله فى التاريخ من حديث ابن عباس كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن اليمانى قبله (٣) حديث وضع الخد عليه قط ك من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الركن اليمانى الحديث قال ك صحيح الاسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز ضعفه الجمهور (٤) حديث الزهرى مضت السنة أن يصلى لكل أسبوع ركعتين ذكره خ تعليقا السنة أفضل لم يطف النبى صلى الله عليه وسلم أسبوعا إلا صلى ركعتين وفى الصحيحين من حديث ابن عمر قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين (٥) حديث قرانه صلى الله عليه وسلم بين أسابيع ابن أبى حاتم من حديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة ورواه عق فى الضعفاء وابن شاهين فى أماليه من حديث أبى هريرة

قال

قال صلى الله عليه وسلم « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة(١) » وهذه كيفية الطواف والواجب من جملته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت وأن يبتدىء بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لا على الشاذروان ولا في الحجر وأن يوالي بين الأشواط ولا يفرقها تفريقا خارجا عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيئات .

(الجملة الخامسة في السعي)

فاذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو في محاذاة الضلع الذي بين الركن اليماني والحجر فاذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت له الكعبة(٢) وابتداء السعي من أصل الجبل كاف وهذه الزيادة مستحبة ولكن بعض تلك الدرج مستحدثة فينبغي أن لا يخلفها وراء ظهره فلا يكون متمما للسعي وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات وعند رقيه في الصفا ينبغي أن يستقبل البيت ويقول الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ـ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ـ اللهم إني أسألك إيمانا دائما ويقينا صادقا وعلما نافعا وقلبا خاشعا ولسانا ذاكرا وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة ويصلي على محمد صلى الله عليه وسلم ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء ثم ينزل ويبتدىء السعي وهو يقول . رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ويمشي على هينة حتى ينتهي إلى الميل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا وهو على زاوية المسجد الحرام فاذا بقي بينه وبين محاذاة الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين ثم يعود إلى الهينة فاذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء وقد حصل السعي مرة واحدة فاذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان يفعل ذلك سبعا ويرمل في موضع الرمل في كل مرة ويسكن في موضع السكون كما سبق وفي كل نوبة يصعد الصفا والمروة فاذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعي وهما سنتان والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة بخلاف الطواف وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد السعي بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركنا فانه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن نعم شرط كل سعي أن يقع بعد طواف أي طواف كان

خاطب الذر بقوله ـ ألست بربكم ـ فسمعت النداء على غاية الصفاء ثم لم تزل الذرات تتقلب في الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام قال الله تعالى ـ الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ـ يعني تقلب ذرتك في أصلاب أهل السجود من آبائك الأنبياء فما زالت تنتقل الذرات حتى برزت بين أجسادها فاحتجبت بالحكمة عن القدرة وبعالم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلمتها بالتقلب في الأطوار فاذا أراد الله تعالى بالعبد حسن الاستماع بأن يصيره صوفيا صافيا لا يزال يرقيه في رتب التزكية والتحلية حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى فضاء القدرة ويزال عن بصيرته النافذة سجف الحكمة فيصير سماعه ـ ألست بربكم ـ كشفا وعيانا وتوحيده وعرفانه تبيانا وبرهانا وتندرج له ظلم الأطوار في لوامع الأنوار . قال

وزاد ثم صلى لكل أسبوع ركعتين وفي إسنادهما عبد السلام بن أبي الجنوب منكر الحديث

(١) حديث من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة ت وحسنه ون ه من حديث ابن عمر من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة لفظ ه . وقال الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة وللبيهقي في الشعب من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتاق رقبة (٢) حديث أنه رقي على الصفا حتى بدت له الكعبة م من حديث جابر فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت وله من حديث أبي هريرة أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت

(الجملة السادسة فى الوقوف وماقبله)

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات فلا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرما إلى اليوم السابع من ذى الحجة فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والبيت بها وبالغدو منها إلى عرفة الإقامة فرض الوقوف بعدالزوال إذوقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر فينبغى أن يخرج إلى منى ملبيا ويستحب له المشى من مكة فى المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه والمشى من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وآكد فاذا انتهى إلى منى قال اللهم هذه منى فامنن على بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك وليمكث هذه الليلة بمنى وهو مبيت منزل لايتعلق به نسك فاذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فاذاطلعت الشمس على ثبير سار إلىعرفات ويقول : اللهم اجعلهاخير غدوة غدوتها قط وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك اللهم إليك غدوت وإليك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلنى ممن تباهى به اليوم من هو خيرمنى وأفضل فاذا أتى عرفات فليضرب خباءه بنمرة قريبا من المسجد فثم ضرب رسول الله ﷺ قبته(١) ونمرة هى بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة وليغتسل للوقوف فاذازالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد وأخذ المؤذن فى الأذان والإمام فى الخطبة الثانية ووصل الاقامة بالأذان وفرغ الامام مع تمام إقامة المؤذن ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين وقصر الصلاة وراح إلى الموقف فليقف بعرفة ولايقفن فى وادى عرفة وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدره فى الوادى وأخرياته من عرفة فمن وقف فى صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الامام مستقبلا للقبلة راكبا وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة ولا يصوم فى هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبى تارة ويكب على الدعاء أخرى وينبغى أن لاينفصل من طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع فى عرفة بين الليل والنهار وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الغلط فى الهلال فهو الحزم وبه الأمن من الفوات ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دما لأجل الفوات ثم يقضى العام الآتى وليكن أهم اشتغاله فى هذا اليوم الدعاء ففى مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات والدعاء المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) إلا وعن السلف فى يوم عرفة أولى مايدعو به فليقل لا إله إلا الله وحده لاشريك له

بعضهم أنا أذكر خطاب ألست بربكم إشارة منه إلى هذا الحال فاذا تحقق الصوفى بهذا الوصف صار وقته سرمدا وشهوده مؤبدا وسماعه متواليا متجددا يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع . قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر . وقال بعضهم تعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام وقيل من حسن الاستماع امهال المتكلم حتى يقضى حديثه وقلة التلفت إلى الجوانب والاقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعى قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقال لاتحرك به لسانك لتعجل به هذا تعليم من الله تعالى لرسوله عليه السلام حسن الاستماع قيل معناه لاتمله على الصحابة حتى تدبر

(١) حديث ضربه صلى الله عليه وسلم قبته بنمرة مسلم من حديث جابر الطويل فأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة الحديث (٢) حديث الدعاء المأثور فى يوم عرفة لاإله إلاالله وحده لاشريك له الحديث من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ماقلت أنا والنبيون من قبلى لاإله إلاالله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير وقال حسن غريب وله من حديث على قال أكثر مادعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة فى الموقف اللهم لك الحمد كالذى تقول وخيرا مما نقول لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى وإليك مآبى ولك رب تراثى اللهم إنى أعوذ بك من شر ماتجىء به الريح وقال ليس بالقوى إسناده وروى المستغفرى فى الدعوات من حديثه ياعلى إن أكثر دعاء من قبلى يوم عرفة أن أقول لاإله إلاالله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم اجعل فى بصرى نورا وفى سمعى نورا وفى قلبى نورا اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى

له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في قلبي نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا وفي لساني نورا اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري وليقل اللهم رب الحمد لك الحمد كما نقول وخيرا مما نقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي وإليك ثوابي اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدور وشتات الأمر وعذاب القبر اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما تهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر اللهم إني أعوذ بك من تحوّل عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك اللهم اهدني بالهدى واغفر لي في الآخرة والأولى ياخير مقصود وأسنى منزول به وأكرم مسئول ما لديه أعطني العشية أفضل ما أعطيت أحدا من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين اللهم يا رفيع الدرجات ومنزل البركات ويا فاطر الأرضين والسموات ضجت إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن لا تنساني في دار البلاء إذا نسيني أهل الدنيا اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبه أسألك مسئلة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رءوفا رحيما ياخير المسئولين وأكرم المعطين إلهي من مدح لك نفسه فإني لائم نفسي إلهي أخرست المعاصي لساني فما لي وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل إلهي إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاها ولا للاعتذار وجها ولكنك أكرم الأكرمين إلهي إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظاما ولكنها صغار في جنب عفوك فاغفرها لي يا كريم إلهي أنت أنت وأنا أنا ، أنا العوّاد إلى الذنوب وأنت العوّاد إلى المغفرة إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون إلهي تجنبت عن طاعتك عمدا وتوجهت إلى معصيتك قصدا فسبحانك ما أعظم حجتك عليّ وأكرم عفوك عني فبوجوب حجتك عليّ وانقطاع حجتي عنك وفقري إليك وغناك عني إلا غفرت لي ياخير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج بحرمة الاسلام وبذمة محمد عليه السلام أتوسل إليك فاغفر لي جميع ذنوبي واصرفني من موقفي هذا مقضيّ الحوائج وهب لي ما سألت وحقق رجائي فيما تمنيت إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه فلا تحرمني الرجاء الذي عرفتنيه إلهي ما أنت صانع العشية بعبد مقر لك بذنبه خاشع لك بذلته مستكين بجرمه متضرّع إليك من عمله تائب إليك من اقترافه مستغفر لك من ظلمه مبتهل إليك في العفو عنه طالب إليك نجاح حوائجه راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه فيا ملجأ كل حي وولي كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنخنا وإياك أملنا وما عندك طلبنا ولإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأثقال الذنوب هربنا ولبيتك الحرام حججنا يامن يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين يامن ليس معه رب يدعى ويامن ليس فوقه خالق يخشى ويامن ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى يامن لا يزداد على كثرة السؤال

اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار وشر ما تهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر وإسناده ضعيف وروى الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال كان مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة اللهم إنك ترى مكاني وتسمع كلامي وتعلم سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير فذكر الحديث إلى قوله ياخير المسئولين وياخير المعطين وإسناده ضعيف وباقي الدعاء من دعاء بعض السلف وفي بعضه ما هو مرفوع ولكن ليس مقيدا بموقف عرفة .

معانيه حتى تكون أنت أوّل من يخلص بغرائبه وعجائبه وقيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل عليه السلام وأوحى إليه لا يفتر من قراءة القرآن مخافة الانفلات والنسيان فنهاه الله تعالى عن ذلك أي لا تعجل بقراءته قبل أن يفرغ جبرائيل من إلقائه إليك وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى السماع ويحتاج المطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التي فيها نجاة من عذاب الآخرة أن يكون في ذلك كله متأدبا بآداب حسن الاستماع لأنه نوع من ذلك وكما أن القلب استعد بحسن الاستماع بالزهادة والتقوى حتى أخذ من كل ما سمعه أحسنه فيكون آخذا بالمطالعة من كل شيء أحسنه ومن الأدب

إلا جودا وكرما وعلى كثرة الحوائج إلا تفضلا وإحسانا اللهمّ إنك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة اللهم إن لكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية ولكل راج ثوابا ولكل ملتمس لما عندك جزاء ولكل مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك زلفى ولكل متوسل إليك عفوا وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا إلهنا تابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بحجتك وظاهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك وأظهرت الآيات حتى أفصحت السموات والأرضون بأدلتك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك إذا أساءت عبادك حلمت وأمهلت وان أحسنوا تفضلت وقبلت وان عصوا سترت وان أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دعونا أجبت وإذا نادينا سمعت وإذا أقبلنا إليك قربت وإذا ولينا عنك دعوت إلهنا إنك قلت فى كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ــ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ــ فأرضاك عنهم الاقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نشهد لك بالتوحيد مخبتين ولمحمد بالرسالة مخلصين فاغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الأجرام ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل فى الاسلام إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعتق ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فاعتقنا وانك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار . وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول يامن لايشغله شأن عن شأن ولا سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الأصوات يامن لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات يامن لا يبرمه إلحاح الملحين ولا تضجره مسئلة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك وليدع بما بدا له وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليلح فى الدعاء وليعظم المسئلة فان الله لايتعاظمه شيء وقال مطرف بن عبد الله وهو بعرفة اللهم لاترد الجميع من أجلى وقال بكر المزنى قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أنى كنت فيهم .

(الجملة السابعة فى بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف)

فاذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغى أن يكون على السكينة والوقار وليجتنب وجيف الخيل وإيضاع الابل كما يعتاده بعض الناس فان رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الابل وقال : اتقوا الله وسيروا سيرا جميلا لا تطئوا ضعيفا ولا تؤذوا مسلما [1] » فاذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرام فليدخله بغسل وإن قدر على دخوله ماشيا فهو أفضل وأقرب إلى توقير الحرم ويكون فى الطريق رافعا صوته بالتلبية فاذا بلغ المزدلفة قال اللهم إن هذه مزدلفة جمعت فيها ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتنفة فاجعلنى ممن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيته ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة فى وقت العشاء قاصرا لها بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما فى الفريضتين فان ترك النوافل فى السفر خسران ظاهر وتكليف إيقاعها فى الأوقات إضرار وقطع للتبعية بينهما وبين الفرائض فاذا جاز أن يؤدى النوافل مع الفرائض بتيمم واحد بحكم التبعية فبأن يجوز أداؤها على حكم الجمع بالتبعية أولى ولا يمنع من

(١) حديث نهى النبى عن وجيف الخيل وإيضاع الابل ن ك وصححه من حديث أسامة بن زيد عليكم بالسكينة والوقار فان البرّ ليس فى إيضاع الابل وقال ك ليس البر بايجاف الخيل والإبل وللبخارى من حديث ابن عباس فان البر ليس بالايضاع .

فى المطالعة أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئا من الحديث والعلم يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل فتستروح بالمطالعة كما تتروح بمجالسة الناس ومكالمتهم فليتفقد التفطن نفسه فى ذلك ولا يستحلى مطالعة الكتب إلى حد يأخذ ذلك من وقته ويراعى الافراط فيه فاذا أراد مطالعة كتاب أو شيء من العلم لا يبادر إليه إلا بعد التثبت والانابة والرجوع إلى الله تعالى وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه فانه قد يرزق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسنا فان الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبة من الله زيادة على ما يتبين من صورة العلم فللعلم صورة ظاهرة وسرّ باطن وهو الفهم والله تعالى نبه على

هذا مفارقة النفل للفرض في جواز أدائه على الراحلة لما أومأنا إليه من التبعية والحاجة ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة وهو مبيت نسك ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبت فعليه دم وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم إذا انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها ففيها أحجار رخوة فليأخذ سبعين حصاة فانها قدر الحاجة ولا بأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها ولتكن الحصى خفافا بحيث يحتوي عليه أطراف البراجم ثم ليغلس بصلاة الصبح وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الاسفار ويقول اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام ياذا الجلال والاكرام ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي وان كان راجلا أسرع في المشي ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبي تارة ويكبر أخرى فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهي ثلاثة فيتجاوز الاولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جمرة العقبة وهي على يمين مستقبل القبلة في الجادة والمرمى مرتفع قليلا في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات ويرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح وكيفيته أن يقف مستقبلا القبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ويرمي سبع حصيات رافعا يده ويبدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان اللهم تصديقا بكتابك واتباعا لسنة نبيك فاذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في منزله وصفة التكبير أن يقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده لاشريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر ثم ليذبح الهدي إن كان معه والأولى أن يذبح بنفسه وليقل بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك وإليك تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقرة ثم بالشاة والشاة أفضل من مشاركة ستة في البدنة والبقرة والضأن أفضل من المعز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الأضحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء[1]» وقال أبو هريرة البيضاء أفضل في الأضحى من دم سوداوين وليأكل منه إن كانت من هدي التطوع ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء والجدع في الأنف والأذن للقطع منهما والعضب في القرن وفي نقصان القوائم والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق والخرقاء من أسفل والمقابلة المخروقة الأذن من قدام والمدابرة من خلف والعجفاء المهزولة التي لا تنقي أي لا مخ فيها من الهزال ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدئ بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقي ويقول اللهم أثبت لي بكل شعرة حسنة وامح عني بها سيئة وارفع لي بها عندك درجة والمرأة تقصر الشعر والأصلع يستحب له إمرار الموسى على رأسه ومهما حلق بعد رمي الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات إلا النساء والصيد ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أي وقت شاء ولكن يبقى مقيدا بعلقة الاحرام فلا تحل له النساء إلى أن يطوف فاذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الاحرام بالكلية ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج وكيفية هذا الطواف

(١) حديث خير الأضحية الكبش د من حديث عبادة بن الصامت و ت من حديث أبي أمامة قال ت

شرف الفهم بقوله - ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما - أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتميز عن الحكم والعلم قال الله تعالى - إن الله يسمع من يشاء - فاذا كان المسمع هو الله تعالى يسمع تارة بواسطة اللسان وتارة بما يرزق بمطالعة الكتب من التبيان فصار مايفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى مايرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع ليتفقد العبد حاله في ذلك ويتعلم علمه وأدبه فانه باب كبير من أبواب الخير وعمل صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع سلوك الآخرة

[الباب الثالث في بيان فضيلة علوم الصوفية والاشارة إلى أنموذج منها]

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب

مع الركعتين كما سبق فى طواف القدوم فاذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم وان كان قد سعى فقد وقع ذلك ركنا فلا ينبغى أن يعيد السعى . وأسباب التحلل ثلاثة الرمى والحلق والطواف الذى هو ركن ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ولا حرج عليه فى التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف والسنة للامام فى هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهى خطبة وداع رسول الله ﷺ ففى الحج أربع خطب: خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر (١) وخطبة يوم النفر الأول وكلها عقيب الزوال وكلها إفراد إلا خطبة يوم عرفة فانها خطبتان بينهما جلسة ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمى فيبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القر لأن الناس فى غد يقرون بمنى ولا ينفرون فاذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصد الجمرة الأولى التى تلى عرفة وهى على يمين الجادة ويرمى إليها بسبع حصيات فاذا تعداها انحرف قليلا عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلا على الدعاء ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمى كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمى سبعا ولا يعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ويصبح فاذا صلى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق رمى فى هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذى قبله ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شىء عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى فى يوم النفر الثانى أحدا وعشرين حجرا كما سبق وفى ترك المبيت والرمى إراقة دم وليتصدق باللحم وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك (٢) ولا يتركن حضور الفرائض مع الامام فى مسجد الخيف فان فضله عظيم فاذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلى العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة (٣) فهو السنة رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم فان لم يفعل ذلك فلا شىء عليه .

(الجملة الثامنة فى صفة العمرة ومابعدها إلى طواف الوداع)

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الاحرام كما سبق فى الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية وينوى العمرة ويلبى ويقصد مسجد عائشة رضى الله عنها ويصلى ركعتين ويدعو بما شاء ثم يعود إلى مكة وهو يلبى حتى يدخل المسجد الحرام فاذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا فاذا فرغ حلق رأسه وقد

غريب وعفير يضعف فى الحديث (١) حديث الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم خ من حديث أبى بكرة خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر وله من حديث ابن عباس خطب الناس يوم النحر وفى حديث علقه خ ووصله ه من حديث ابن عمر وقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال أى يوم هذا الحديث وفيه ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع (٢) حديث زيارة البيت فى ليالى منى والمبيت بمنى د فى المراسيل من حديث طاوس قال أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفيض كل ليلة من ليالى منى قال د وقد أسند قلت وصله ابن عدى عن طاوس عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يزور البيت أيام منى وفيه عمرو بن رباح ضعيف والمرسل صحيح الإسناد ولأبى داود من حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم مكث بمنى ليالى أيام التشريق (٣) حديث نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والرقود به رقدة خ من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجعة الحديث .

السهروردى رحمه الله قال أنبأنا أبو عبد الرحمن الصوفى قال أنا عبد الرحمن ابن محمد" أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسى قال أنا أبو عمران السمرقندى قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال حدثنا نعيم بن حماد قال حدثنا بقية عن الأحوص ابن حكيم عن أبيه قال سأل رجل النبى عليه السلام عن الشر فقال «لا تسألونى عن الشر وسلونى عن الخير» يقولها ثلاثا ثم قال «إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء» فالعلماء أدلاء الأمة وعمد الدين وسرج ظلمات الجهالات الجبلية ونقباء ديوان الإسلام ومعادن حكم الكتاب والسنة وأمناء الله تعالى فى خلقه وأطباء العباد وجهابذة الملة الحنيفية وحملة عظيم الأمانة فهم أحق الخلق بحقائق التقوى وأحوج

تحت

تمت عمرته والمقيم بمكة ينبغى أن يكثر الاعتمار والطواف وليكثر النظر إلى البيت فاذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافيا موقرا قيل لبعضهم هل دخلت بيت ربك اليوم فقال والله ماأرى هاتين القدمين أهلا للطواف حول بيت ربى فكيف أراهما أهلا لأن أطأ بهما بيت ربى وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع وليقل اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقنى الاخلاص واليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له (١) » أى يشفى ماقصد به .

(الجملة التاسعة فى طواف الوداع)

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولا أشغاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت ووداعه بأن يطوف به سبعا كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع فاذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ثم يأتى الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتنى على ماسخرت لى من خلقك حتى سيرتنى فى بلادك وبلغتنى بنعمتك حتى أعنتنى على قضاء مناسكك فان كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا وإلا فمن الآن قبل تباعدى عن بيتك هذا أوان انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك اللهم أصحبنى العافية فى بدنى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى وارزقنى طاعتك أبدا ما أبقيتنى واجمع لى خير الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير اللهم لاتجعل هذا آخر عهدى ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدى فعوضنى عنه الجنة والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه .

(الجملة العاشرة فى زيارة المدينة وآدابها)

قال صلى الله عليه وسلم « من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى (٢) » وقال ﷺ « من وجد سعة ولم يفد إلى فقد جفانى (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من جاءنى زائرا لا يهمه إلا زيارتى كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعا (٤) » فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه كثيرا فاذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لى وقاية من النار وأمانا من العذاب وسوء الحساب وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه فاذا دخلها فليدخلها متواضعا معظما وليقل بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلى بجنب المنبر ركعتين ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد وليجتهد أن يصلى فى المسجد

(١) حديث ماء زمزم لما شرب له ه من حديث جابر بسند ضعيف ورواه قط و ك فى المستدرك من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الاسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجارودى قال ابن القطان سلم منه فان الخطيب قال فيه كان صدوقا قال ابن القطان لكن الراوى عنه مجهول وهو محمد ابن هشام المروزى (٢) حديث من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى الطبرانى والدارقطنى من حديث ابن عمر (٣) حديث من وجد سعة ولم يفد إلى فقد جفانى ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وابن حبان فى الضعفاء والخطيب فى الرواة عن مالك من حديث ابن عمر من حج ولم يزرنى فقد جفانى وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات وروى ابن النجار فى تاريخ المدينة من حديث أنس مامن أحد من أمتى له سعة ثم لم يزرنى فليس له عذر (٤) حديث من جاءنى زائرا لا تهمه إلا زيارتى كان حقا على الله أن أكون له شفيعا الطبرانى من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن .

العباد إلى الزهد فى الدنيا لأنهم يحتاجون إليها لنفسهم ولغيرهم ففسادهم فساد متعد وصلاحهم صلاح متعد . قال سفيان ابن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم وأعلم الناس من عمل بما يعلم وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم فلا يغرنك تشدقه واستطالته وحذاقته وقوته فى المناظرة والمجادلة فانه جاهل وليس بعالم إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم فان العلم فى الاسلام لا يضيع أهله ويرجى عود العالم ببركة العلم والعلم فريضة وفضيلة فالفريضة ما لا بد للانسان من معرفته ليقوم بواجب حق الدين والفضيلة مازاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيلة فى النفس موافقة الكتاب والسنة وكل علم

الأول قبل أن يزاد فيه ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام فيقف ويقول السلام عليك يارسول الله السلام عليك يانبي الله السلام عليك ياأمين الله السلام عليك ياحبيب الله السلام عليك ياصفوة الله السلام عليك ياخيرة الله السلام عليك يا أحمد السلام عليك يامحمد السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك ياماحي السلام عليك ياعاقب السلام عليك ياحاشر السلام عليك يابشير السلام عليك يانذير السلام عليك ياطهر السلام عليك ياطاهر السلام عليك يا أكرم ولد آدم السلام عليك ياسيد المرسلين السلام عليك ياخاتم النبيين السلام عليك يارسول رب العالمين السلام عليك ياقائد الخير السلام عليك يافاتح البر السلام عليك يانبي الرحمة السلام عليك يا هادي الأمة السلام عليك ياقائد الغر المحجلين السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ماجزى نبيا عن قومه ورسولا عن أمته وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنك الغافلون وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ماصلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول السلام عليك من فلان السلام عليك من فلان ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول السلام عليكما يا وزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حيا والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته فجزاكما الله خير ما جزى وزيري نبي عن دينه ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبر والاسطوانة اليوم ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ثم يقول اللهم إنك قد قلت وقولك الحق ـ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ـ اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان اللهم لاتجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك ياأرحم الراحمين ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله ﷺ « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي (١) » ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة (٢) ويستحب له

لا يوافق الكتاب والسنة وما هو مستفاد منهما أو معين على فهمهما أو مستند إليهما كائنا ما كان فهو رذيلة وليس بفضيلة يزداد الانسان به هوانا ورذيلة في الدنيا والآخرة فالعلم الذي هو فريضة لايسع الانسان جهله على ماحدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب قال أنا الحافظ أبو القاسم المستملي قال أنا الشيخ العالم أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري قال أنا أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأصفهاني قال أنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن عامر العسكري قال حدثنا الحسن بن عطية قال حدثنا أبو عاتكة عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

(١) حديث ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله بن زيد (٢) حديث وضعه صلى الله عليه وسلم يده عند الخطبة على رمانة المنبر لم أقف له على أصل وذكر محمد بن الحسن بن زبالة في تاريخ المدينة أن طول رمانتي المنبر اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم بيديه الكريمتين إذا جلس شبر وأصبعان .

أن يأتى أحدا يوم الخميس ويزور قبور الشهداء فيصلى الغداة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة فى الجماعة فى المسجد ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزور قبر عثمان رضى الله عنه وقبر الحسن بن على رضى الله عنهما وفيه أيضا قبر على بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم ويصلى فى مسجد فاطمة رضى الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمة رسول الله ﷺ فذلك كله بالبقيع ويستحب له أن يأتى مسجد قباء فى كل سبت ويصلى فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال من خرج من بيته حتى يأتى مسجد قباء ويصلى فيه كان له عدل عمرة[(١)] » ويأتى بئر أريس يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فيها وهى عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها[(٢)] ويأتى مسجد الفتح وهو على الخندق وكذا يأتى سائر المساجد والمشاهد ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد فيقصد ماقدر عليه وكذلك يقصد الآبار التى كان رسول الله ﷺ يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها[(٣)] وهى سبع آبار طلبا للشفاء وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الاقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم

(١) حديث من خرج من بيته حتى يأتى مسجد قباء ويصلى فيه كان عدل عمرة النسائى وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف باسناد صحيح (٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فى بئر أريس لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه تفل فى بئر البصة وبئر غرس كما سيأتى عند ذكرها (٣) حديث الآبار التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها وهى سبعة آبار . قلت وهى بئر أريس وبئر حا وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو العهن أو بئر جمل . فحديث بئر أريس رواه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى فى حديث فيه حتى دخل بئر أريس قال فجلست عند بابها وبابها من حديد حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ الحديث . وحديث بئر حا متفق عليه من حديث أنس قال كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلا وكان أحب أمواله إليه بئر حا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب الحديث . وحديث بئر رومة رواه ت ن من حديث عثمان أنه قال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى بئر رومة ويجعل دلوه مع دلاء المسلمين الحديث قال ت حديث حسن ، وفى رواية لهما هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن فابتعتها فجعلتها للغنى والفقير وابن السبيل الحديث وقال حسن صحيح وروى البغوى والطبرانى من حديث بشير الأسلمى قال لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكانت لرجل من بنى غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بمد الحديث . وحديث بئر غرس رواه ابن حبان فى الثقات من حديث أنس أنه قال ائتونى بماء من بئر غرس فانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ ولابن ماجه باسناد جيد مرفوعا إذا أنا مت فاغسلونى بسبع قرب من بئرى بئر غرس وروينا فى تاريخ المدينة لابن النجار باسناد ضعيف مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ منها وبزق فيها وغسل منها حين توفى . وحديث بئر بضاعة رواه أصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتتوضأ من بئر بضاعة وفى رواية أنه يستقى لك من بئر بضاعة الحديث قال يحيى بن معين إسناده جيد وقال ت حسن وللطبرانى من حديث أبى أسيد بصق النبى صلى الله عليه وسلم فى بئر بضاعة ورويناه أيضا فى تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد وحديث بئر البصة

واختلف العلماء فى العلم الذى هو فريضة قال بعضهم هو طلب علم الاخلاص ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال لأن الاخلاص مأمور به كما أن العمل مأمور به قال الله تعالى ــ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ــ فالاخلاص مأمور به وخدع النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تخرب مبانى الاخلاص المأمور به فصار علم ذلك فرضا حيث كان الاخلاص فرضا وما لا يصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضا وقال بعضهم معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة لأن الخواطر هى أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان فلا يصح الفعل إلا بصحتها فصار علم ذلك فرضا حتى يصح الفعل من العبد لله . وقال بعضهم هو طلب علم الوقت . وقال سهل ابن عبدالله هو طلب

قال صلى الله عليه وسلم «لايصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة[1]» وقال صلى الله عليه وسلم «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فانه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعا أوشهيدا يوم القيامة[2]» ثم إذافرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتى القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة كما سبق ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة فى سفره . ثم يصلى ركعتين فى الروضة الصغيرة وهى موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة فى المسجد فاذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ثم اليمنى وليقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزارى بزيارته وأصحبنى فى سفرى السلامة ويسر رجوعى إلى أهلى ووطنى سالما ياأرحم الراحمين وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدرعليه وليتتبع المساجد التى بين المدينة ومكة فيصلى فيها وهى عشرون موضعا .

(فصل فى سنن الرجوع من السفر)

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده[3] » وفى بعض الروايات « وكل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبغى أن يستعمل هذه السنة فى رجوعه وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كى لايقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة[4] ولا ينبغى أن يطرق أهله ليلا فاذا دخل البلد فليقصد المسجد أولا وليصل ركعتين فهو السنة[5] كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا دخل بيته قال توبا توبا لربنا أوبا لايغادر علينا حوبا فاذا استقر فى منزله فلا

رواه ابن عدى من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه يوما فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسى فان اليوم الجمعة قال نعم فأخرج له سدرا وخرج معه إلى البصة فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وصب غسالة رأسه ومراق شعره فى البصة وفيه محمد بن الحسن بن زبالة ضعيف وحديث بئر السقيا رواه د من حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستعذب له من بيوت السقيا زاد البزار فى مسنده أومن بئر السقيا ولأحمد من حديث على خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالسقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتونى بوضوء فلما توضأ قام الحديث . وأما بئر جمل ففى الصحيحين من حديث أبى الجهم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بئر جمل الحديث وصله خ وعلقه م والمشهور أن الآبار بالمدينة سبعة وقد روى الدارمى من حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه صبوا على سبع قرب من آبار شتى الحديث وهو عند خ دون قوله من آبار شتى (١) حديث لايصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة تقدم فى الباب قبله (٢) حديث من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها الحديث تقدم فى الباب قبله (٣) حديث كان النبى ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر ومازاده فى آخره فى بعض الروايات من قوله وكل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون رواه المحاملى فى الدعاء باسناد جيد (٤) حديث إرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة لم أجد فيه ذكر الإرسال وفى الصحيحين من حديث جابر كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال أمهلوا حتى ندخل ليلا أى عشاء كى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة (٥) حديث صلاة ركعتين فى المسجد عند القدوم من السفر تقدم فى الصلاة.

علم الحال يعنى حكم حاله الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته وقيل هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة وقد ورد «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة» فصار علمه فريضة من حيث إنه فريضة وقيل هو طلب علم الباطن وهو مايزداد به العبد يقينا وهذا العلم هو الذى يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين والزهاد المقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده يسوق الطالبين إليهم ويقويهم بطريقهم ويرشدهم بهم فهم ورّاث علم النبى عليه السلام ومنهم يتعلم علم اليقين . وقال بعضهم هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فى شىء من ذلك يجب عليه طلب علمه وقال بعضهم هو أن يكون العبد يريد عملا يجهل ما لله عليه فى ذلك فلا يجوز له أن يعمل برأيه

ينبغى أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخوض فى المعاصى فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامته أن يعود زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة متأهبا للقاء رب البيت بعد لقاء البيت .

(الباب الثالث فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة)

(بيان دقائق الآداب وهى عشرة)

الأول : أن تكون النفقة حلالا وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم حتى يكون الهم مجردا لله تعالى والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره وقد روى فى خبر من طريق أهل البيت « إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للمسئلة وقراؤهم للسمعة (١) » وفى الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التى يتصور أن تتصل بالحج فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص لاسيما إذا كان متجردا بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين فعند ذلك ينبغى أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعاونة أخيه المسلم باسقاط الفرض عنه وفى مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه (٢) » ولست أقول لا تحل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الاسلام عن نفسه ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فان الله عز وجل يعطى الدنيا بالدين ولا يعطى الدين بالدنيا وفى الخبر « مثل الذى يغزو فى سبيل الله عز وجل ويأخذ أجرا مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرها (٣) » فمن كان مثاله فى أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فانه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الارضاع بتلبيس حالها عليهم . الثانى : أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين فى الطريق فان تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالاعانة بالنفس فليتلطف فى حيلة الخلاص فان لم يقدر فقد قال بعض العلماء ولا بأس بما قاله إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة فان هذه بدعة أحدثت وفى الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ منى وأنا مضطر فانه لو قعد فى البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شىء بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان فى زى الفقراء لم يطالب فهو الذى ساق نفسه إلى حالة الاضطرار . الثالث التوسع فى الزاد وطيب النفس بالبذل والانفاق من غير تقتير ولا إسراف

إذ هو جاهل فيما له وعليه فى ذلك فيراجع عالما يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه وهذا علم يجب طلبه حيث جهل . وقال بعضهم طلب علم التوحيد فرض فمن قائل يقول طريقه النظر والاستدلال ومن قائل يقول إن طريقه النقل . وقال بعضهم إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد فى الاسلام ولا يحيك فى صدره شىء فهو سالم فان حاك فى صدره شىء أو توسوس بشىء يقدح فى العقيدة أو ابتلى بشبهة لا تؤمن غائلتها أن تجره إلى بدعة أو ضلالة فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب . وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها الاسلام لأنها افترضت على المسلمين

(الباب الثالث فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة)

(١) حديث إذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة الخطيب من حديث أنس باسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ورواه أبو عثمان الصابونى فى كتاب المائتين فقال تحج أغنياء أمتى للنزهة وأوساطهم للتجارة وقراؤهم للرياء والسمعة (٢) حديث يدخل الله بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه هق من حديث جابر بسند ضعيف (٣) حديث مثل الذى يغزو ويأخذ أجرا مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها ابن عدى من حديث معاذ وقال مستقيم الاسناد منكر المتن.

بل على الاقتصاد وأعنى بالاسراف التنعم بأطايب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين فأما كثرة البذل فلاسرف فيه إذ لاخير فى السرف ولاسرف فى الخير كما قيل وبذل الزاد فى طريق الحج نفقة فى سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعمائة درهم قال ابن عمر رضى الله عنهما من كرم الرجل طيب زاده فى سفره وكان يقول أفضل الحجاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقينا وقال صلى الله عليه وسلم « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له يارسول الله ما بر الحج ؟ فقال طيب الكلام وإطعام الطعام (١) » الرابع : ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن والرفث اسم جامع لكل لغو وخنى وفحش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته فان ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعى إلى المحظور محظور والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل والجدال هو المبالغة فى الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق فى الحال الهمة ويناقض حسن الخلق وقد قال سفيان من رفث فسد حجه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من برّ الحج والمماراة تناقض طيب الكلام فلاينبغى أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى وقيل سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال ولذلك قال عمر رضى الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق قال لا فقال ماأراك تعرفه . الخامس : أن يحج ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما بنيه عند موته فقال يابنىّ حجوا مشاة فان للحاج الماشى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل وماحسنات الحرم ؟ قال الحسنة بمائة ألف والاستحباب فى المشى فى المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى آكد منه فى الطريق وإن أضاف إلى المشى الاحرام من دويرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم فى معنى قوله عز وجل ــ وأتموا الحج والعمرة لله وقال بعض العلماء الركوب أفضل لمافيه من الانفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب إلى سلامته وتمام حجه وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغى أن يفصل ويقال من سهل عليه المشى فهو أفضل فان كان يضعف ويؤدى به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل كما أن الصوم للمسافر أفضل وللمريض مالم يفض إلى ضعف وسوء خلق . وسئل بعض العلماء عن العمرة أيمشى فيها أو يكترى حمارا بدرهم فقال إن كان وزن الدرهم أشدّ عليه فالكراء أفضل من المشى وإن كان المشى أشد عليه كالأغنياء فالمشى له أفضل فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه ولكن الأفضل له أن يمشى ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكارى عوضا عن ابتذال الدابة فاذا كانت لاتتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه . السادس : أن لايركب إلا زاملة أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف من الزاملة أن لايستمسك عليها لعذر وفيه معنيان أحدهما التخفيف على البعير فان المحمل يؤذيه والثانى اجتناب زى المترفين والمتكبرين « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم » (٢)

وإذا كان عملها فرضا صار علم العمل بها فرضا وذكر أن علم التوحيد داخل فى ذلك لأنّ أولها الشهادتان والاخلاص داخل فى ذلك لأن ذلك من ضرورة الاسلام وعلم الاخلاص داخل فى صحة الاسلام وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كلّ مسلم يقتضى أن لايسع مسلما جهله وكلّ ماتقدّم من الأقاويل أكثرها مايسع المسلم جهله لأنه قد لايعلم علم الخواطر وعلم الحال وعلم الحلال بجميع وجوهه وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء ولوكانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ماشاء الله وميلى فى هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبى طالب أكثر وإلى قول من قال يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح

(١) حديث الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، فقيل مابرّ الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام أحمد من حديث جابر باسناد لين ورواه الحاكم مختصرا وقال صحيح الاسناد (٢) حديث حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وكان تحته رحل رثّ وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم الترمذى فى الشمائل وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف .

وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشمائله [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « خذوا عنى مناسككم [٢] » وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء فى وقته ينكرونها فروى سفيان الثورى عن أبيه أنه قال برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل ومارأيت فى جميعهم إلا محملين وكان ابن عمر إذا نظر إلى ماأحدث الحجاج من الزى والمحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال هذا نعم من الحجاج.

السابع أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب فى ديوان المتكبرين المترفهين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشعث والاحتفاء [٣] ونهى عن التنعم والرفاهية [٤] فى حديث فضالة بن عبيد وفى الحديث « إنما الحاج الشعث التفث [٥] ويقول الله تعالى انظروا إلى زوار بيتى قد جاءونى شعثا غبرا من كل فج عميق [٦] » وقال تعالى ـ ثم ليقضوا تفثهم ـ والتفث الشعث والاغبرار وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والأظفار وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد اخلولقوا واخشوشنوا أى البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة فى الأشياء وقد قيل زين الحجيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف فينبغى أن يجتنب الحمرة فى زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم فقد روى « أنه ﷺ كان فى سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الابل فنظر إلى أكسية حمر على الاقتاب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم [٧] قالوا فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الابل » . الثامن أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق والمحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان أهل الورع لاينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لايقفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى [٨] » ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة [٩] وفيه آثار عن السلف. وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لاينزل ويوفى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة فيكون فى حسناته ويوضع فى ميزانه لافى ميزان المكارى وكل من آذى بهيمة وحملها

(١) حديث طوافه صلى الله عليه وسلم على راحلته تقدم (٢) حديث خذوا عنى مناسككم م ن واللفظ له من حديث جابر (٣) حديث الأمر بالشعث والاحتفاء البغوى والطبرانى من حديث عبد الله بن أبى حدرد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حفاة وفيه اختلاف ورواه ابن عدى من حديث أبى هريرة وكلاهما ضعيف (٤) حديث فضالة بن عبيد فى النهى عن التنعم والرفاهية وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن كثير من الإرفاه ولأحمد من حديث معاذ إياك والتنعم الحديث (٥) إنما الحاج الشعث التفث ت ه من حديث ابن عمر وقال غريب (٦) حديث يقول الله تعالى انظروا إلى زوار بيتى قد جاءوا شعثا غبرا من كل فج عميق الحاكم وصححه من حديث أبى هريرة دون قوله من كل فج عميق وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله ابن عمرو (٧) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الابل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم الحديث د من حديث رافع ابن خديج وفيه رجل لم يسم (٨) حديث لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى أحمد من حديث سهل ابن معاذ بسند ضعيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه (٩) حديث النزول عن الدابة غدوة وعشية يريحها بذلك الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس باسناد جيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الفجر فى السفر مشى ورواه البيهقى فى الأدب وقال مشى قليلا وناقته تقاد.

والطلاق إذا أراد الدخول فيه وهذا لعمرى فرض على المسلم علمه وهذا الذى قاله الشيخ أبو طالب وعندى فى ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض والله أعلم . فأقول : العلم الذى طلبه فريضة على كل مسلم علم الأمر والنهى والمأمور ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه والنهى مايعاقب على فعله ويثاب على تركه وللأمورات والمنهيات منها ماهو مستمر لازم للعبد بحكم الاسلام ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الاسلام علمه به واجب من ضرورة الاسلام وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهى فيه فعلمه عند تجدده فرض لايسع مسلما على الاطلاق أن يجهله وهذا الحد أعم من الوجوه الذى سبقت والله أعلم . ثم إن

مالاتطيق طولب به يوم القيامة . قال أبو الدرداء لبعير له عند الموت يا أيها البعير لا تخاصمنى إلى ربك فانى لم أكن أحملك فوق طاقتك وعلى الجملة فى كل كبد حرى أجر فليراع حق الدابة وحق المكارى جميعا وفى نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكارى. قال رجل لابن المبارك احمل لى هذا الكتاب معك لتوصله فقال حتى أستأمر الجمال فانى قد اكتريت فانظر كيف تورع من استصحاب كتاب لاوزن له وهو طريق الحزم فى الورع فانه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرا يسيرا . التاسع أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه وليأكل منه إن كان تطوعا ولا يأكل منه إن كان واجبا قيل فى تفسير قوله تعالى ـ ذلك ومن يعظم شعائر الله ـ إنه تحسينه وتسمينه وسوق الهدى من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده وليترك المكاس فى شرائه فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون المكاس فيهن الهدى والأضحية والرقبة فان أفضل ذلك أغلاه ثمنا وأنفسه عند أهله وروى ابن عمر « أن عمر رضى الله عنهما أهدى بختية فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها (١) » وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون وفى ثلثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وذلك يحصل بمراعاة النفاسة فى القيمة كثر العدد أو قل « وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بر الحج فقال العج والثج (٢) » والعج هو رفع الصوت بالتلبية والثج هو نحر البدن وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهراقه دما وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإن الدم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيبوا بها نفسا (٣) » وفى الخبر « لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع فى الميزان فابشروا » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « استجيدوا هداياكم فانها مطاياكم يوم القيامة » [١] . العاشر أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة فى مال أو بدن إن أصابه ذلك فان ذلك من دلائل قبول حجه فان المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله عز وجل الدرهم بسبعمائة درهم وهو بمثابة الشدائد فى طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب

(١) حديث ابن عمر أن عمر أهدى نجيبة فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها أخرجه د وقال انحرها (٢) حديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بر الحج فقال العج والثج ت واستغربه و ه و ك وصححه والبزار واللفظ له من حديث أبى بكر وقال الباقولى أى الحج أفضل (٣) حديث عائشة ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دما الحديث ت وحسنه ابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال خ إنه مرسل ووصله ابن خزيمة (٤) حديث لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع فى الميزان فأبشروا ه ك وصححه البيهقى من حديث زيد بن أرقم فى حديث فيه بكل شعرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شعرة من الصوف حسنة وفى رواية للبيهقى بكل قطرة حسنة قال خ لايصح وروى أبو الشيخ فى كتاب الضحايا من حديث على أما إنها يجاء بها يوم القيامة بلحومها ودمائها حتى توضع فى ميزانك يقولها لفاطمة .

[١] (قوله استجيدوا الخ) هذا الحديث لم يخرجه العراقى وهو ليس فى نسخة الشرح فلعله لم يكن فى نسخته .

الشامخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا شمروا عن ساق الجد فى طلب العلم المفترض حتى عرفوه وأقاموا الأمر والنهى وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى فلما استقاموا فى ذلك متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى ـ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ـ فتح الله عليهم أبواب العلوم التى سبق ذكرها . قال بعضهم من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية والأنوار البينة والآثار الصادقة بالتثبيت ببرهان عظيم كما قال تعالى ـ ولولا أن ثبتناك ـ ثم حفظ فى وقت المشاهدة ومشافهة الخطاب وهو المزين بمقام القرب والمخاطب على بساط الأنس محمد صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك خوطب بقوله ـ فاستقم

فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل ويقال إن من علامة قبول الحج أيضا ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يتبدل باخوانه البطالين إخوانا صالحين وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

(بيان الأعمال الباطنة ووجه الاخلاص فى النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره)

اعلم أن أول الحج الفهم أعنى فهم موقع الحج فى الدين ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الاحرام ثم شراء الزاد ثم اكتراء الراحلة ثم الخروج ثم المسير فى البادية ثم الاحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق وفى كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر وتنبيه للمريد الصادق وتعريف وإشارة للفطن فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشف لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه . أما الفهم : فاعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات ولأجل هذا انفرد الرهبانيون فى الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل فتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعا فى الآخرة وأثنى الله عز وجل عليهم فى كتابه فقال ـ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ـ فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمدا ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين فى سلوكها فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة فى دينه فقال صلى الله عليه وسلم : « أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف (١) » يعنى الحج « وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال هم الصائمون (٢) » فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالاضافة إلى نفسه تعالى ونصبه مقصدا لعباده وجعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم وأتم فى إذعانهم وانقيادهم ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية فان الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل والصوم كسر للشهوة التى هى آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل والركوع والسجود فى الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هى هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل فأما ترددات السعى

(١) حديث سئل عن الرهبانية والسياحة فقال بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف أبو داود من حديث أبى أمامة أن رجلا قال يارسول الله ائذن لى فى السياحة فقال إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله رواه الطبرانى بلفظ إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الرباط فى نحر العدو وللبيهقى فى الشعب من حديث أنس رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله وكلاهما ضعيف وللترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبى هريرة أن رجلا قال يارسول الله إنى أريد أن أسافر فأوصنى قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف (٢) حديث سئل عن السائحين فقال هم الصائمون البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة وقال المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا .

كما أمرت ـ ولولا هذه المقامات ما أطاق الاستقامة التى أمر بها . قيل لأبى حفص أى الأعمال أفضل قال الاستقامة لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول « استقيموا ولن تحصوا » وقال جعفر الصادق فى قوله تعالى ـ فاستقم كما أمرت ـ أى افتقر إلى الله بصحة العزم ورأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام . قال قلت يارسول الله روى عنك أنك قلت شيبتنى سورة هود وأخواتها فقال نعم قال فقلت له ما الذى شيبك منها قصص الأنبياء وهلاك الأمم فقال لا ولكن قوله فاستقم كما أمرت فكما أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد مقدمات الشاهدات خوطب بهذا الخطاب وطولب بحقائق الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون منحهم الله تعالى من

ورمى الجمار وأمثال هذه الأعمال فلاحظ للنفوس ولا أنس للطبع فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلايكون فى الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فان كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى الحج على الخصوص « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا (١) » ولم يقل ذلك فى صلاة ولا غيرها وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون فى أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد وكان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات فى تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات وهذا القدر كاف فى تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى . وأما الشوق : فانما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له وأن من قصد البيت فى الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة فى ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم فى دار القرار من حيث إن العين القاصرة الفانية فى دار الدنيا لا تتهيأ لقبول نور النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها وأنها إن أمدت فى الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لامحالة هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الاضافة فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل . وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجها إلى زيارة بيت الله عز وجل وليعظم فى نفسه قدر البيت وقدر رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وان من طلب عظيما خاطر بعظيم وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص وان من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والقصود غيره فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه باخلاصه واخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة فليحذر أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير . وأما قطع العلائق : فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادى عليه ويقول له إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره فى منزلك هذا ومستهين به ومهمل له أو لا تستحى أن تقدم عليه قدوم العبد العاصى فيردك ولا يقبلك فان كنت راغبا فى قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولا من جميع المعاصى واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجها إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك فان لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولا إلا النصب والشقاء وآخرا إلا الطرد والرد وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدر أن لا يعود إليه وليكتب وصيته لأولاده وأهله فان المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فان ذلك بين يديه على القرب وما يتقدمه من هذا السفر طمع فى تيسير ذلك السفر فهو المستقر

(١) حديث لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا تقدم فى الزكاة .

ذلك بقسط ونصيب ثم ألهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور . قال أبو على الجورجانى كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة فان نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة وهذا الذى ذكره أصل كبير فى الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدا نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئا من ذلك ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه فى صحة عمله حيث لم يكشف بشىء من ذلك ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد

وإليه المصير فلا ينبغى أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر . وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال وإذا أحسّ من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر وأن زاده التقوى وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه كالطعام الرطب الذى يفسد فى أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيرا محتاجا لا حيلة له فليحذر أن تكون أعماله التى هى زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير . وأما الراحلة : إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة وليتذكر عنده المركب الذى يركبه إلى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها فان أمر الحج من وجه يوازى أمر السفر إلى الآخرة ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب فما أقرب ذلك منه وما يدريه لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للجمل وركوب الجنازة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط فى أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر فى زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن . وأما شراء ثوبى الإحرام : فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه فانه سيرتدى ويتزر بثوبى الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجلّ وربما لا يتم سفره إليه وأنه سيلقى الله عز وجلّ ملفوفا فى ثياب الكفن لا محالة فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفا عادته فى الزىّ والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا فى زى مخالف لزى الدنيا وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما فى الكفن .
وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجها إلى الله عز وجل فى سفر لا يضاهى أسفار الدنيا فليحضر فى قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد وأنه متوجه إلى ملك الملوك فى زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاشتاقوا واستنهضوا فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذى فخم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسليا بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم وليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالا بأعماله فى الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية فى الطريق لقى الله عز وجل وافدا إليه إذ قال جل جلاله ـ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ـ . وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعى والحيات ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته وليكن فى هذه المخاوف فى أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر . وأما الإحرام والتلبية من الميقات : فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل فارج أن تكون مقبولا واخش أن يقال لك لا لبيك ولا سعديك فكن بين الرجاء والخوف مترددا وعن حولك وقوتك متبرئا وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلا فان وقت التلبية هو بداية الأمر وهى محل الخطر قال سفيان بن عيينة حج على بن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرّ لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبى فقيل له لم لا تلبى فقال أخشى أن يقال لى لا لبيك ولا سعديك فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه . وقال أحمد ابن أبى الحوارى كنت مع أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا

يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك بابا والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد فى الدنيا والخروج من دواعى الهوى وقد يكون بعض عباده يكاشف بصرف اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين فلو كوشف هذا المرزوق صرف اليقين بشىء من ذلك ما ازداد يقينا فلا تقتضى الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الوضع لاستغنائه وتقتضى الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته فكان هذا الثانى يكون أتم استعدادا وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو

فأخذته الغشية ثم أفاق وقال يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فانى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة ويحك يا أحمد بلغنى أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد مافى يديك فما تأمن أن يقال لنا ذلك وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية فى الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال وأذن فى الناس بالحج ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم فى عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه منقسمين إلى مقربين وممقوتين ومقبولين ومردودين ومترددين فى أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج فى الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا . وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل وليخش أن لا يكون أهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم خائبا ومستحقا للمقت وليكن رجاؤه فى جميع الأوقات غالبا فالكرم عميم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وذمام المستجير اللائذ غير مضيع . وأما وقوع البصر على البيت : فينبغى أن يحضر عنده عظمة البيت فى القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه واذكر عند ذلك انصباب الناس فى القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين فى الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة فى شىء مما تراه فان كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة . وأما الطواف بالبيت فاعلم أنه صلاة فأحضر فى قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه فى كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدئ الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدئ الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية وأن البيت مثال ظاهر فى عالم الملك لتلك الحضرة التى لا تشاهد بالبصر وهى عالم الملكوت كما أن البدن مثال ظاهر فى عالم الشهادة للقلب الذى لا يشاهد بالبصر وهو فى عالم الغيب وأن عالم الملك والشهادة مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور فى السموات بإزاء الكعبة فان طواف الملائكة به كطواف الانس بهذا البيت ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الامكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم(١) والذى يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذى يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى . وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر فى المبايعة استحق المقت وقد روى ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « الحجر الأسود يمين الله عز وجل فى الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه(٢) » . وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم: فلتكن نيتك فى الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار فى كل جزء من بدنك لا فى البيت ولتكن نيتك فى التعلق بالستر الإلحاح فى طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه فى عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا

(١) حديث من تشبه بقوم فهو منهم أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح (٢) حديث ابن عباس الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها خلقه الحديث تقدم فى العلم من حديث عبد الله بن عمرو .

صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة فان فيه آفة وهو العجب فأغنى عن رؤية شىء من ذلك فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهى كل الكرامة ثم إذا وقع فى طريقه شىء من ذلك جاز وحسن وإن لم يقع فلا يبالى ولا ينقص بذلك وإنما ينقص بالاخلال بواجب حق الاستقامة فليعلم هذا لأنه أصل كبير للطالبين فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة رزقوا سائر العلوم التى أشار إليها المتقدمون كما ذكرنا وزعموا أنها فرض فمن ذلك علم الحال وعلم القيام وعلم الخواطر وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها فى باب إن شاء الله تعالى وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها وعلم النفس

إليه

إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن فى المستقبل . وأما السعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت : فانه يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى إظهارا للخلوص فى الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة كالذى دخل على الملك وخرج وهو لا يدرى ما الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول أورد فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم فى الثانية إن لم يرحم فى الأولى وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات وليتذكر تردده بين الكفتين ناظرا إلى الرجحان والنقصان مترددا بين العذاب والغفران . وأما الوقوف بعرفة : فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم فى الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيرا بسيرهم عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم فى شفاعتهم وتحيرهم فى ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل فتحشر فى زمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالاجابة فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب فاذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إليه أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم ولذلك قيل إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب فى وقت واحد على صعيد واحد . وأما رمى الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر إظهارا للرق والعبودية وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ثم اقصد به التشبه بابراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأمله فان خطر لك أن الشيطان عرض له فشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه فى قلبك ليفتر عزمك فى الرمى ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه وأنه يضاهى اللعب فلم تشتغل به فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير فى الرمى فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه . وأما ذبح الهدى : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكمل الهدى وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءا منك من النار (1) فهكذا ورد الوعد فكلما كان الهدى أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم . وأما زيارة المدينة : فاذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها هجرته وأنها داره التى شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عز وجل ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما ثم مثل فى نفسك مواقع

(1) حديث أنه يعتق بكل جزء من الأضحية جزءا من المضحى من النار لم أقف له على أصل وفى كتاب الضحايا لأبى الشيخ من حديث أبى سعيد فان لك بأول قطرة تقطر من دمها أن يغفر لك ما تقدم من ذنوبك يقوله لفاطمة وإسناده ضعيف .

ومعرفتها من أعز علوم القوم وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشرهها وشرها وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة قولا وفعلا ولبسا وخلعا وأكلا ونوما ومعرفة حقائق التوبة وعلم خفى الذنوب ومعرفة سيئات هى حسنات الأبرار ومطالبة النفس بترك مالا يعنى ومطالبة الباطن بحصر خواطر المعصية ثم بحصر خواطر الفضول ثم علم المراقبة وعلم ما يقدح فى المراقبة وعلم المحاسبة والرعاية وعلم حقائق التوكل وذنوب المتوكل فى توكله وما يقدح فى التوكل وما لا يقدح والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان وعلم الرضا وذنوب

أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيها وأنه مامن موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل وتذكر مشيه وتخطيه فى سككها وتصور خشوعه وسكينته فى المشى وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته ثم تذكر مامن الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه وأعظم تأسفك على مافاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضى الله عنهم ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته فى الدنيا وأنك من رؤيته فى الآخرة على خطر وأنك ربما لاتراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبينه قبوله إياك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وسلم « يرفع الله إلىّ أقواما فيقولون يامحمد يامحمد فأقول يارب أصحابى فيقول إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقا[1] » فان تركت حرمة شريعته ولو فى دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محجته وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لايحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولاحظ فى دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة فاذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التى اختارها الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة وأن فرائض الله سبحانه أول ماأقيمت فى تلك العرصة وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا فليعظم أملك فى الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعا معظما وماأجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن كما حكى عن أبى سليمان أنه قال حج أويس القرنى رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له هذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم فغشى عليه فلما أفاق قال أخرجونى فليس يلذلى بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون . وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغى أن تقف بين يديه كما وصفناه وتزوره ميتا كما تزوره حيا ولاتقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لوكان حيا وكما كنت ترى الحرمة فى أن لاتمس شخصه ولاتقبله بل تقف من بعد ماثلا بين يديه فكذلك فافعل فان المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك فمثل صورته الكريمة فى خيالك موضوعا فى اللحد بازائك وأحضر عظيم رتبته فى قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته[2] » هذا فى حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادى شوقا إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريمة وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى علىّ مرة واحدة صلى الله عليه عشرا[3] » فهذا جزاؤه فى الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ثم ائت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوهم صعود النبى صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل فى قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته وسل الله عز وجل أن لايفرق

(١) حديث يرفع إلىّ أقوام فيقولون يامحمد يامحمد فأقول يارب أصحابى فيقول إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقا متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله يامحمد يامحمد (٢) حديث إن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته ن حب ك من حديث ابن مسعود بلفظ إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام (٣) حديث من صلى علىّ واحدة صلى الله عليه عشرا م من حديث أبى هريرة وعبد الله بن عمرو .

مقام الرضا وعلم الزهد وتحديده بما يلزم من ضرورته ومالا يقدح فى حقيقته ومعرفة الزهد فى الزهد ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد فى الزهد وعلم الانابة والالتجاء ومعرفة أوقات الدعاء ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء وعلم المحبة والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامتثال الأمر والمحبة الخالصة وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة كما أنكروا الرضا وقالوا ليس إلا الصبر وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة الذات وإلى محبة الصفات والفرق بين محبة القلب ومحبة الروح ومحبة العقل ومحبة النفس والفرق بين مقام المحب والمحبوب والمريد والمراد ثم علوم المشاهدات كعلم الهيبة والأنس والقبض والبسط والفرق بين القبض والهمم والبسط والنشاط وعلم الفناء والبقاء وتفاوت أحوال

فى القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب فى أعمال الحج فاذا فرغ منها كلها فينبغى أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدرى أقبل منه حجه وأثبت فى زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فان صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأنس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول فان الله تعالى لايقبل إلا من أحبه ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله فاذا ظهر ذلك عليه دل على القبول وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره العناء والتعب نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك .

تم كتاب أسرار الحج يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن .

(كتاب آداب تلاوة القرآن)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل الذى ـ لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ـ حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فيه من الأحكام وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما فى الصدور من خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير لاتنقضى عجائبه ولاتتناهى غرائبه لايحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولايخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد هو الذى أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين ـ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ـ فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى ـ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ـ ومن أسباب حفظه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على مافيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة وذلك لابد من بيانه وتفصيله وتنكشف مقاصده فى أربعة أبواب . الباب الأول : فى فضل القرآن وأهله . الباب الثانى : فى آداب التلاوة فى الظاهر . الباب الثالث : فى الأعمال الباطنة عند التلاوة . الباب الرابع : فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى وغيره .

(الباب الأول فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته)

(فضيلة القرآن)

قال ﷺ « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ماعظمه الله تعالى (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لانبى ولا ملك ولاغيره (٢) »

الفناء والاستتار والتجلى والجمع والفرق واللوامع والطوالع والبوادى والصحو والسكر إلى غير ذلك لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها فى مجلدات ولكن العمر قصير والوقت عزيز ولولا سهم الغفلة لضاق الوقت عن هذا القدر أيضا وهذا المختصر المؤلف يحتوى من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويجعله حجة لنا لا حجة علينا وهذه كلها علوم من ورائها علوم عمل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون وهى علوم ذوقية لايكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف فمن ذاقه عرفه وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهادالعلماء أن العلوم كلها لايتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والاخلال

(كتاب آداب تلاوة القرآن)

(الباب الأول فى فضل القرآن وأهله)

(١) من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ماعظمه الله طب من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف (٢) حديث مامن شفيع أعظم منزلة عند الله من القرآن لانبى ولاملك ولاغيره رواه عبدالملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا وللطبرانى من حديث ابن مسعود القرآن شافع مشفع ولمسلم من حديث أبى أمامة اقرءوا القرآن فانه يجئ يوم القيامة شفيعا لصاحبه .

وقال صلى الله عليه وسلم « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل ورجل أم به قوما وهم به راضون (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « أهل القرآن أهل الله وخاصته (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يا رسول الله وما جلاؤها فقال تلاوة القرآن وذكر الموت (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا إلى قارىء القرآن من صاحب القينة إلى قينته (٩) » الآثار : قال أبو أمامة الباهلي اقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلبا هو وعاء القرآن . وقال ابن مسعود إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين وقال أيضا اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول الحرف الم ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف وقال أيضا : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وقال عمرو بن العاص كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم وقال أيضا من قرأ القرآن أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه وقال أبو هريرة إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين وقال أحمد بن حنبل رأيت الله عز وجل في المنام فقلت يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك قال بكلامي يا أحمد قال فقلت يا رب بفهم أو بغير فهم قال بفهم وبغير فهم وقال محمد بن كعب القرظي إذا سمع

(١) حديث لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل ابن سعد ولأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك بإسناد ضعيف (٢) حديث أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس وإسنادهما ضعيف (٣) حديث إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام الحديث الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٤) حديث خيركم من تعلم القرآن وعلمه خ من حديث عثمان ابن عفان (٥) حديث يقول الله من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته ثواب الشاكرين ت من حديث أبي سعيد من شغله القرآن عن ذكري أو مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وقال حسن غريب ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف (٦) حديث ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك الحديث تقدم في الصلاة (٧) حديث أهل القرآن أهل الله وخاصته ن في الكبرى و ه ك من حديث أنس بإسناد حسن (٨) حديث إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل ما جلاؤها قال تلاوة القرآن وذكر الموت البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٩) حديث لله أشد أذنا إلى قارىء القرآن من صاحب القينة إلى قينته . حب ك وصححه من حديث فضالة بن عبيد .

بحقائق التقوى وربما كان محبة الدنيا عونا على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعذر الملاذ والشهوات وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال الله تعالى ـ واتقوا الله ويعلمكم الله ـ جعل العلم ميراث التقوى وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك فعلم فضل علم علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولي الألباب وأولو الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا قال بعض الفقهاء إذا أوصى رجل بماله لأعقل الناس يصرف إلى

الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قط وقال الفضيل بن عياض ينبغي لحامل القرآن أن لايكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه وقال أيضا حامل القرآن حامل راية الاسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن وقال سفيان الثوري إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه وقال عمرو بن ميمون من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا وروى « أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال اقرأ عليّ القرآن فقرأ عليه ـ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ـ الآية فقال له أعد فأعاد فقال والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر ومايقول هذا بشر[1] » وقال الحسن والله مادون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة وقال الفضيل من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليلته ختم له بطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الرحمن قلت لبعض النساك ماههنا أحد نستأنس به فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال هذا وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم السواك والصيام وقراءة القرآن .

(في ذم تلاوة الغافلين)

قال أنس بن مالك رب تال للقرآن والقرآن يلعنه وقال ميسرة الغريب هو القرآن في جوف الفاجر وقال أبو سليمان الداراني الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن . وقال بعض العلماء إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له مالك ولكلامي وقال ابن الرماح ندمت على استظهاري القرآن لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يسئلون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة وقال ابن مسعود ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفرطون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا ولا ينبغي له أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « اقرإ القرآن مانهاك فان لم ينهك فلست تقرؤه [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه [4] » وقال بعض السلف إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها فقيل له وكيف ذلك فقال إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه

(١) حديث أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ علي فقرأ عليه ـ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ـ فقال أعد فأعاد فقال إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ومايقول هذا بشر ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال الوليد بن المغيرة بدل خالد بن عقبة وكذا ذكره ابن إسحق في السيرة بنحوه (٢) حديث أكثر منافقي أمتي قراؤها أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيهما ابن لهيعة (٣) حديث اقرإ القرآن مانهاك فان لم ينهك فلست تقرؤه طب من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٤) حديث ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ت من حديث صهيب وقال ليس إسناده بالقوي .

الزهاد لأنهم أعقل الخلق . قال سهل بن عبد الله التستري للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا . حدثنا : الشيخ الصالح أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال حدثنا محمد بن أحمد بن محمد قال حدثنا العباس ابن أحمد الشاشي قال حدثنا أبو عقيل الوصافي قال أنا عبد الله الخواص وكان من أصحاب حاتم قال دخلت مع أبي عبد الرحمن حاتم الأصم الري ومعه ثلاثمائة وعشرون رجلا يريدون الحج وعليهم الصوف والزرمانقات ليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا الري على رجل من التجار متنسك يحب المتقشفين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم يا أبا عبد الرحمن ألك حاجة فاني أريد أن

وهو لايعلم يقول ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم نفسه ألا لعنة الله على الكاذبين وهو منهم وقال الحسن إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملا فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله وان من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الايمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الايمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لايدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل (١) وقد ورد في التوراة ياعبدي أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لايفوتك شيء منه وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ياعبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فان تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك .

(الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة)

الأول في حال القارىء وهو أن يكون على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكىء ولا جالس على هيئة التكبر ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال فان قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك قال الله تعالى ـ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ـ فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا قال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل . الثاني في مقدار القراءة ، وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم في الشهر مرة وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه (٢) » وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل وقد قالت عائشة رضي الله عنها لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع (٣) وكذلك

(١) حديث ابن عمر وحديث جندب لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن الحديث تقدما في العلم (الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة)

(٢) حديث من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه ت (٣) حديث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يختم القرآن في كل أسبوع متفق عليه من حديثه

أعود فقيها وهو عليل فقال حاتم إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة فأنا أيضا أجيء معك وكان العليل محمد بن مقاتل قاضي الري فقال سر بنا ياأبا عبد الرحمن فجاءوا إلى الباب فاذا باب مشرف حسن فبقي حاتم متفكرا يقول باب عالم على هذا الحال ثم أذن لهم فدخلوا فاذا دار قوراء واذا بزة ومتعة وستور وجمع فبقي حاتم متفكرا ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه فاذا بفرش وطيئة وإذا هو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مذبة فقعد الرازي يسائله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اقعد فقال لا أقعد فقال له ابن مقاتل لعل لك حاجة قال نعم قال وما هي قال مسئلة أسألك عنها قال سلني قال فقم فاستو جالسا حتى أسألكها فأمر غلمانه فأسندوه فقال له حاتم علمك

كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يختمون القرآن في كل جمعة كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم ففي الختم أربع درجات الختم في يوم وليلة وقد كرهه جماعة والختم في كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا وكأنه مبالغة في الاقتصار كما أن الأول مبالغة في الاستكثار وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث . والأحب أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ويجعل ختمه بالنهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمته فإن الملائكة عليهم السلام تصلي عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح وإن كان نهارا حتى يمسي فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل . الثالث في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزابا (١) فروي أن عثمان رضي الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختم ليلة الخميس وابن مسعود كان يقسمه أقساما لا على هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع المفصل من ق إلى آخره فهكذا حزبه الصحابة رضي الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء فما سوى هذا محدث . الرابع في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء وروى عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجرة على ذلك وكانوا يقولون جردوا القرآن والظن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدي إلى إحداث زيادات وحسما للباب وتشوقا إلى حراسة القرآن عما يطرق إليه تغييرا وإذا لم يؤد إلى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فكم من محدث حسن كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر رضي الله عنه وإنها بدعة حسنة إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها وبعضهم كان يقول أقرأ في المصحف المنقوط ولا أنقطه بنفسي وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير كان القرآن مجردا في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا لا بأس به فإنه نور له ثم أحدثوا بعده نقطا كبارا عند منتهى الآي فقالوا لا بأس به يعرف به رأس الآية ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح قال أبو بكر الهذلي سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال وما تنقيطها قلت يعربون الكلمة بالعربية قال أما إعراب القرآن فلا بأس به وقال خالد الحذاء دخلت على ابن سيرين فرأيته

(١) حديث تحزيب القرآن على سبعة أجزاء د ه من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه طرأ على حزبي من القرآن قال أوس فسألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل وفي رواية الطبراني فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزئ القرآن فقالوا كان يجزئه ثلاثا فذكره مرفوعا وإسناده حسن .

هذا من أين جئت به قال الثقات حدثوني به قال عمن قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ورسول الله من أين جاء به قال عن جبرائيل قال حاتم ففيما أداه جبرائيل عن الله وأداه رسول الله إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت في العلم من في داره أمير أو منعته أكثر كانت له المنزلة عند الله أكثر قال لا قال فكيف سمعت قال من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كان له عند الله المنزلة أكثر قال حاتم فأنت بمن اقتديت بالنبي وأصحابه والصالحين أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب

يقرأ فى مصحف منقوط وقدكان يكره النقط وقيل إن الحجاج هو الذى أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءا وإلى أقسام أخر. الخامس الترتيل : هو المستحب فى هيئة القرآن لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه ولذلك نعتت أم سلمة رضى الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا (١) وقال ابن عباس رضى الله عنه لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة ، وقال أيضا لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى الصلاة فكان قيامهما واحدا إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال هما فى الأجر سواء واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر فان العجمى الذى لا يفهم معنى القرآن يستحب له فى القراءة أيضا الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا فى القلب من الهذرمة والاستعجال. السادس البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا (٢) » وقال ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن (٣) » وقال صالح المرى قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النام فقال لى ياصالح هذه القراءة فأين البكاء وقال ابن عباس رضى الله عنهما إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء قال صلى الله عليه وسلم « إن القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا (٤) » ووجه إحضار الحزن أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لامحالة ويبكى فان لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فان ذلك أعظم المصائب. السابع أن يراعى حق الآيات : فاذا مر بآية سجدة سجد وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالى ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة وفى القرآن أربع عشرة سجدة وفى الحج سجدتان وليس فى ص سجدة وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو فى سجوده بما يليق بالآية التى قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى ـ خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون ـ فيقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك وإذا قرأ قوله تعالى ـ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ـ فيقول اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك وكذلك كل سجدة ويشترط فى هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث ومن لم يكن على طهارة عند السماع فاذا تطهر يسجد وقد قيل فى كمالها أن يكبر رافعا يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم وزاد زائدون التشهد ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فانه ورد الأمر فى السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد

(١) حديث نعتت أم سلمة قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فاذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا د ن ت وقال حسن صحيح (٢) حديث اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا ه من حديث سعد بن أبى وقاص باسناد جيد (٣) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن خ من حديث أبى هريرة (٤) حديث إن القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنو أبو يعلى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

للدنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شرا منه وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا فبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له ياأباعبد الرحمن بقزوين عالم أكبر شأنا من هذا وأشاروا به إلى الطنافسى قال فسار إليه متعمدا فدخل عليه فقال رحمك الله أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى أول مبتدإ دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة قال نعم وكرامة ياغلام هات إناء فيه ماء فأتى باناء فيه ماء فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثم قال هكذا فتوضأ فقعد فتوضأ حاتم ثلاثا ثلاثا حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعا فقال له الطنافسى يا هذا أسرفت فقال له حاتم فيما ذا قال غسلت ذراعيك أربعا قال حاتم ياسبحان الله أنا فى كف ماء أسرفت وأنت

ثم

ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموما . الثامن أن يقول في مبتدإ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ـ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ـ وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من القراءة صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحي القيوم وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر وإن مر بمرجو سأل وإن مر بمخوف استعاذ يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح[1] ، فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلوات الله وسلامه عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماما ونورا وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يارب العالمين[2] . التاسع في الجهر بالقراءة : ولا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر ويدل على استحباب الإسرار ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » وفي لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة[3] » وفي الخبر العام « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفا[4] » وكذلك قوله ﷺ « خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي[5] » وفي الخبر « لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء[6] » وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب فرفع سعيد صوته وقال يا أيها المصلي إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة ويدل على استحباب الجهر

(١) حديث حذيفة كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح م مع اختلاف لفظ (٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماما وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يارب العالمين رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجاني في فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك في الشمائل كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داود بن قيس معضلا (٣) حديث فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية قال وفي لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة د ن ت وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثاني (٤) حديث يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا البيهقي في الشعب من حديث عائشة (٥) حديث خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص (٦) حديث لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء رواه أبو داود من حديث البياضي دون قوله بين المغرب والعشاء والبيهقي في الشعب من حديث علي قبل العشاء وبعدها وفيه الحرث الأعور وهو ضعيف

في هذا الجمع كله لم تسرف فعلم الطنافسي أنه أراده بذلك ولم يرد منه التعلم فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوما وكتب تجار الري وقزوين ما جرى بينه وبين ابن مقاتل والطنافسي فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا له يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمي ليس يكلمك أحد إلا وقطعته قال معي ثلاث خصال بهن أظهر على خصمي قالوا أي شيء هي قال أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فجاء إليه وقال سبحان الله ما أعقله فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا قال حاتم يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال قال أي شيء هي يا أبا عبد الرحمن قال تغفر للقوم جهلهم وتمنع جهلك عنهم

ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك (١) وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بالقراءة فان الملائكة وعمارة الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته (٢) » ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضي الله عنهم مختلفي الأحوال فمر على أبي بكر رضي الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال إن الذي أناجيه هو يسمعني ومر على عمر رضي الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ومر على بلال وهو يقرأ آيا من هذه السورة وآيا من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب فقال صلى الله عليه وسلم : كلكم قد أحسن وأصاب (٣) . فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه فان لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته أيضا تتعلق بغيره فالخير المتعدى أفضل من اللازم ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم فان كان في العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور ولهذا نقول قراءة القرآن في المصاحف أفضل اذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه وقد قيل الختمة في المصحف بسبع لأن النظر في المصحف أيضا عبادة وخرق عثمان رضي الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون في المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعي رضي الله عنه في السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعي شغلكم الفقه عن القرآن إني لأصلي العتمة وأضع المصحف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح . العاشر تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة قال ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم (٤) » وقال عليه السلام « ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عائشة رضي الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم

وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم آيسا فاذا كان هذا سلمت ثم سار إلى المدينة . قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ذكر بكلمة إنما فينتفي العلم عمن لا يخشى الله كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادي ينتفي دخول غير البغدادي الدار فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أقضية العارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى . قال أبو يزيد رحمه الله لأصحابه بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لا إله إلا الله ماقدرت عليه قيل ولم ذلك قال ذكرت كلمة قلتها في صباي فجاءتني وحشة تلك الكلمة فمنعتني عن ذلك وأعجب ممن يذكر الله تعالى وهو متصف بشيء من صفاته فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخا في العلم . قال الواسطي : الراسخون في العلم هم

(١) حديث أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون في صلاة الليل فصوّب ذلك في الصحيحين من حديث عائشة أن رجلا قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله فلانا الحديث ومن حديث أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك البارحة الحديث ومن حديثه أيضا إنما أعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن الحديث (٢) حديث إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بقراءته فان الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته رواه بنحوه بزيادة فيه أبو بكر البزار ونصر المقدسي في المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع (٣) حديث مروره صلى الله عليه وسلم بأبي بكر وهو يخافت وبعمر وهو يجهر وبلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة الحديث تقدم في الصلاة (٤) حديث زينوا القرآن بأصواتكم د ن ه حب ك وصححه من حديث البراء بن عازب (٥) حديث ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن زاد م لنبي حسن الصوت وفي رواية له كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن .

ماحبسك قالت يارسول الله كنت أستمع قراءة رجل ماسمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله (١) » واستمع صلى الله عليه وسلم أيضا ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فوقفوا طويلا ثم قال ﷺ «من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ علىّ فقال يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أحب أن أسمعه من غيرى فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان (٣) » واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا من مزامير آل داود فبلغ ذلك أباموسى فقال يارسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا (٤) ورأى هيثم القارئ رسول الله ﷺ فى النام قال فقال لى أنت الهيثم الذى تزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا وفى الخبر : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن . وقد كان عمر يقول لأبى موسى رضى الله عنهما ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال ياأمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أولسنا فى صلاة إشارة إلى قوله عز وجل ـ ولذكر الله أكبر ـ وقال صلى الله عليه وسلم «من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة (٥) » وفى الخبر كتب له عشر حسنات ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالى هو السبب فيه كان شريكا فى الأجر إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع .

(الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة وهى عشرة)

فهم أصل الكلام ثم التعظيم ثم حضور القلب ثم التدبر ثم التفهم ثم التخلى عن موانع الفهم ثم التخصيص ثم التأثر ثم الترقى ثم التبرى . فالأول : فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه فلينظر كيف لطف بخلقه فى إيصال معانى كلامه الذى هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه وكيف تجلت لهم تلك الصفة فى طى حروف وأصوات هى صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره ولولا تثبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل

(١) حديث كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ماحبسك قالت يارسول الله كنت أسمع قراءة رجل ماسمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله » من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات (٢) حديث استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد. أحمد ن فى الكبرى من حديث عمر و ت ه من حديث ابن مسعود أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله ﷺ قال من أحب أن يقرأ القرآن الحديث قال ت حسن صحيح (٣) حديث أنه قال لابن مسعود اقرأ فقال يارسول الله أقرأ وعليك أنزل فقال إنى أحب أن أسمعه من غيرى الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث استمع إلى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا من مزامير آل داود متفق عليه من حديث أبى موسى (٥) حديث من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة وفى الخبر كتب له عشر حسنات أحمد من حديث أبى هريرة من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة وفيه ضعف وانقطاع .

(الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة)

الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب فى سر السر فعرفهم ماعرفهم وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن ما تحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم وقال بعضهم الراسخ من اطلع على محل المراد من الخطاب وقال الخراز : هم الذين كانوا فى جميع العلوم وعرفوها واطلعوا على همم الخلائق كلهم أجمعين وهذا القول من أبى سعيد لايعنى به أن الراسخ فى العلم ينبغى أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان من الراسخين فى العلم ووقف فى معنى قوله تعالى ـ وفاكهة وأبا ـ وقال ما الأدب ثم قال إن هذا إلا تكلف ونقل أن هذا الوقوف فى معنى الأبّ كان من أبى بكر رضى الله تعالى عنه وإنما عنى بذلك أبو سعيد ما يفسر أول

مبادى تجليه حيث صار دكا ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال إن كل حرف من كلام الله عز وجل فى اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتى إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله بإذن الله عز وجل ورحمته لا بقوته وطاقته ولكن الله عز وجل طوقه ذلك واستعمله به ولقد تأنق بعض الحكماء فى التعبير عن وجه اللطف فى إيصال معانى الكلام مع علو درجته إلى فهم الانسان وتثبيته مع قصور رتبته وضرب له مثلا لم يقصر فيه وذلك أنه دعا بعض الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه فقال الملك أرأيت ما تأتى به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطيق الناس حمله فقال الحكيم إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وتزيينه وبديع نظمه فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكى يطيقوا حملها وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكمال صفاته فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذى سمعت به الدواب من الناس ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة فى تلك الصفات من أن شرف الكلام أى الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا والحكمة للصوت نفسا وروحا فكما أن أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التى فيها والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم فى الحق والباطل وهو القاضى العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهى ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس العزيزة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الظاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقف على سيرها فهو مفتاح الخزائن النفيسة وشراب الحياة الذى من شرب منه لم يمت ودواء الأسقام الذى من سقى منه لم يسقم فهذا الذى ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغى أن يقتصر عليه . الثانى : التعظيم للمتكلم فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغى أن يحضر فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن فى تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فانه تعالى قال ـ لا يمسه إلا المطهرون ـ وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبى جهل إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول هو كلام ربى هو كلام ربى فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر فى صفاته وجلاله وأفعاله فاذا حضر بباله العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما من الجن والانس والدواب والأشجار وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد وأن الكل فى قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله وأنه الذى يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار

كلامه بآخره وهو قوله اطلعوا على همم الخلائق كلهم لأن التقى حق التقوى والزاهد حق الزهادة فى الدنيا صفا باطنه وانجلت مرآة قلبه ووقعت له محاذاة بشىء من اللوح المحفوظ فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها فيعلم منتهى أقدام العلماء فى علومهم وفائدة كل عالم والعلوم الجزئية متجزئة فى النفوس بالتعليم والممارسة فلا يغنيه علمه الكلى أن يراجع فى الجزئى أهله الذين هم أوعيته فنفوس هؤلاء امتلأت من الجزئى واشتغلت به وانقطعت بالجزئى عن الكلى ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ مما لابد لهم منه فى أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنوارا تهيأت بها قلوبهم لإدراك

ولا أبالى وهذا غاية العظمة والتعالى فبالتفكر فى أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس قيل فى تفسير ـ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ـ أى بجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره وقيل لبعضهم إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشئ؟ فقال أو شئ أحب إلىّ من القرآن حتى أحدث به نفسى وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فان المعظم للكلام الذى يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففى القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالى أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر فى غيره وهو فى متنزه ومتفرج والذى يتفرج فى المتنزهات لا يتفكر فى غيرها فقد قيل إن فى القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات فالميمات ميادين القرآن والراءات بساتين القرآن والحاءات مقاصيره والمسبحات عرائس القرآن والحاميات ديابيج القرآن والمفصل رياضه والخانات ماسوى ذلك فاذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه فى الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره . الرابع : التدبر وهو وراء حضور القلب فانه قد لا يتفكر فى غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره والمقصود من القراءة التدبر ولذلك سنّ فيه الترتيل لأن الترتيل فى الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن قال علىّ رضى الله عنه : لا خير فى عبادة لا فقه فيها ولا فى قراءة لا تدبر فيها وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردّد إلا أن يكون خلف إمام فانه لو بقى فى تدبر آية وقد اشتغل الامام بآية أخرى كان مسيئا مثل من يشتغل بالتعجب من كلة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه وكذلك إن كان فى تسبيح الركوع وهو متفكر فى آية قرأها إمامه فهذا وسواس فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال الوسواس يعترينى فى الصلاة فقيل فى أمر الدنيا فقال لأن تختلف فىّ الأسنة أحب إلى من ذلك ولكن يشتغل قلبى بموقفى بين يدى ربى عز وجل وأنى كيف أنصرف فعد ذلك وسواسا وهو كذلك فانه يشغله عن فهم ماهو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهمّ دينى ولكن يمنعه به عن الأفضل ولما ذكر ذلك للحسن قال إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فردده عشرين مرة (١) وإنما ردّدها صلى الله عليه وسلم لتدبره فى معانيها وعن أبى ذر قال « قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهى ـ إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم (٢) ـ الآية » وقام تميم الدارى ليلة بهذه الآية ـ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ـ الآية وقام سعد بن جبير ليلة يردد هذه الآية ـ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ـ وقال بعضهم إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر وكان بعضهم يقول آية لا أتفهمها ولا يكون قلبى فيها لا أعد لها ثوابا . وحكى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أنى أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها وعن بعض السلف أنه بقى فى سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها وقال بعض العارفين لى فى كل جمعة ختمة وفى كل شهر ختمة وفى كل سنة ختمة ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه وكان هذا أيضا يقول أقمت نفسى مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة

العلوم فأرواحهم ارتقت عن حد إدراك العلوم بعكوفها على العالم الأزلى وتجرّدت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم وقلوبهم بنسبة وجهها الذى يلى النفوس صارت أوعية وجودية تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية فتألفت العلوم وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ والمعنى بالانفصال انتقاشها فى اللوح لا غير وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألف فحصلت العلوم لذلك وصار العالم الربانى راسخا فى العلم أوحى الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة يا بنى إسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به ولا فى تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر فيأتى به العلم مجعول فى قلوبكم

(١) حديث أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة رواه أبو ذر الهروى فى معجمه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث أبى ذر قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ليلة بآية يرددها وهى ـ إن تعذبهم فانهم عبادك ـ ن ه بسند صحيح .

الخامس التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنة والنار . أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى ـ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ وكقوله تعالى ـ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ـ فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ما أسر إلى رسول الله ﷺ شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبدا فهما فى كتابه فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم (١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها . وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل فمن عرف الحق رآه فى كل شيء إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق ومن لا يراه فى كل ما يراه فكأنه ما عرفه ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه لا لأنه سيبطل فى ثانى الحال بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض وهذا مبدأ من مبادى علم المكاشفة ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله عز وجل ـ أفرأيتم ما تحرثون ، أفرأيتم ما تمنون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون أفرأيتم النار التى تورون ـ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى ـ أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ـ فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع . وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فاذا سمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئا وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق . وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب

(١) حديث على ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه ن من رواية أبى جحيفة قال سألنا عليا فقلنا هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن فقال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبدا فهما فى كتابه الحديث وهو عند البخارى بلفظ هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس فى القرآن وفى رواية وقال مرة ما ليس عند الناس ولأبى داود والنسائى فقلنا هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس قال لا إلا ما فى كتابى هذا الحديث ولم يذكر الفهم فى القرآن .

تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين ظهور العلم من قلوبكم حق يغطيكم أو يغمركم فالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضى جبلاتها وقمعها بصريح العلم فى كل قول وفعل ولا يصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدى الله تعالى فيتحفظ بالحق للحق أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السهروردى إجازة قال أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن الروزى قال أنا عبد الله بن المبارك قال أنا الأوزاعى عن حسان بن عطية بلغنى أن شداد بن أوس رضى الله عنه نزل منزلا فقال ائتونا

مبين ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ـ ولذلك قال على رضى الله عنه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه ومن لم يكن له فهم ما فى القرآن ولو فى أدنى الدرجات دخل فى قوله تعالى ـ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ـ والطابع هى الموانع التى سنذكرها فى موانع الفهم وقد قيل : لا يكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان من المزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد . السادس : التخلى عن موانع الفهم فان أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال ﷺ « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت⁽¹⁾ » ومعانى القرآن من جملة الملكوت وكل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت. وحجب الفهم أربعة : أولها أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعانى وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعا لمثل هذا التلبيس . ثانيها: أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه فان لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله ولمثل هذا قالت الصوفية إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم فأما العلم الحقيقى الذى هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجابا وهو منتهى المطلب وهذا التقليد قد يكون باطلا فيكون مانعا كمن يعتقد فى الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فان خطر له مثلا فى القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك فى نفسه ولو استقر فى نفسه لانجر إلى كشف ثان وثالث ولتواصل ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل وقد يكون حقا ويكون أيضا مانعا من الفهم والكشف لأن الحق الذى كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن كما ذكرناه فى الفرق بين العلم الظاهر والباطن فى كتاب قواعد العقائد . ثالثها: أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع فان ذلك سبب ظلمة القلب وصداه وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب القلب وبه حجب الأكثرون وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معانى الكلام أشد احتجابا وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه فالقلب مثل المرآة والشهوة مثل الصدإ ومعانى القرآن مثل الصور تتراءى فى المرآة والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرموا بركة الوحى⁽²⁾ » قال الفضيل يعنى حرموا فهم القرآن

بالسفرة نعيث بها فأنكر منه ذلك فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على فمثل هذا يكون التأدب بآداب الروحانيين مكتوب فى الإنجيل لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم وقد ورد فى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم قلنا يا رسول الله كيف يسوفنا بالعلم قال يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال العبد فى العلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية وقال الحسن إن الله تعالى لا يعبأ بذى علم ورواية إنما يعبأ بذى فهم ودراية فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت تقدم فى الصلاة .
(٢) حديث إذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا

وقد شرط الله عز وجل الإنابة فى الفهم والتذكير فقال تعالى ـ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ـ وقال عز وجل ـ وما يتذكر إلا من ينيب ـ وقال تعالى ـ إنما يتذكر أولو الألباب ـ فالذى آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوى الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب . رابعا: أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضا من الحجب العظيمة وسنبين معنى التفسير بالرأى فى الباب الرابع وأن ذلك يناقض قول على رضى الله عنه إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه . السابع التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فان سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه فما من قصة فى القرآن إلا وسياقها لفائدة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وأمته ولذلك قال تعالى ـ ما نثبت به فؤادك ـ فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم فى الدين لانتظار نصر الله تعالى وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى ـ واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ـ وقال عز وجل ـ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ـ وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارئ الواحد مقصود فما له ولسائر الناس فليقدر أنه المقصود قال تعالى ـ وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ـ قال محمد بن كعب القرظى من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذى كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه ولذلك قال بعض العلماء هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده نتدبرها فى الصلوات ونقف عليها فى الخلوات وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات وكان مالك بن دينار يقول ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض وقال قتادة لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى ـ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ـ الثامن : التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فان التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل ـ وإنى لغفار ـ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط ـ لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ـ وقوله تعالى ـ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ـ ذكر أربعة شروط وحيث اقتصر ذكر شرطا جامعا فقال تعالى ـ إن رحمة الله قريب من المحسنين ـ فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن ولذلك قال الحسن والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نصبه وشغله

بركة الوحى رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأمر بالمعروف معضلا من حديث الفضيل بن عياض قال ذكر عن نبى الله صلى الله عليه وسلم .

وقلت

ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن والمائية فى اللبن جسم قام به روح الدهنية والمائية بها القوام قال الله تعالى ـ وجعلنا من الماء كل شىء حى ـ وقال تعالى ـ أو من كان ميتا فأحييناه ـ أى كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإسلام فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول وللإسلام علوم وهى علوم مبانى الإسلام والإسلام بعد الإيمان نظر إلى مجرد التصديق ولكن للإيمان فروع بعد التحقق بالإسلام وهى مراتب كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين فقد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة . وللإيمان فى كل فرع من فروعه علوم فعلوم الإسلام علوم اللسان وعلوم الإيمان علوم القلوب ثم علوم القلوب لما وصف خاص ووصف

وقلت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد نظرنا فى هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئا أرق للقلوب ولا أشد استجلابا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته وعند ذكر الكفار مايستحيل على الله عز وجل كذكرهم لله عز وجل ولدا وصاحبة يغض صوته وينكسر فى باطنه حياء من قبح مقالتهم وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها « ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ علىّ (١) قال فافتتحت سورة النساء فلما بلغت ـ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ـ رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لى حسبك الآن » وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية ولقد كان فى الخائفين من خر مغشيا عليه عند آيات الوعيد ومنهم من مات فى سماع الآيات فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيا فى كلامه فاذا قال ـ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ـ ولم يكن خائفا كان حاكيا وإذا قال ـ عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ـ ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيا وإذا قال ـ ولنصبرن على ما آذيتمونا ـ فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة فان لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه فى قوله تعالى ـ ألا لعنة الله على الظالمين ـ وفى قوله تعالى ـ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ـ وفى قوله عز وجل ـ وهم فى غفلة معرضون ـ وفى قوله ـ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ـ وفى قوله تعالى ـ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ـ إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلا فى معنى قوله عز وجل ـ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانىّ ـ يعنى التلاوة المجردة وقوله عز وجل ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ـ لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات فى السموات والأرض ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضا عنها ولذلك قيل إن من لم يكن متصفا بأخلاق القرآن فاذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى مالك ولكلامى وأنت معرض عنى دع عنك كلامى إن لم تتب إلىّ ومثال العاصى إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك فى كل يوم مرات وقد كتب إليه فى عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت ولذلك قال يوسف بن أسباط إنى لأهمّ بقراءة القرآن فاذا ذكرت مافيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل ـ فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون ـ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فاذا اختلفتم فلستم تقرءونه وفى بعضها فاذا اختلفتم فقوموا عنه(٢) » قال الله تعالى ـ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ـ وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى(٣) »

عام فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة وهى السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الايمان بوصفه الخاص ولايشملها بوصفه العام فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الايمان وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الايمان والمشاهدة وصف خاص فى اليقين وهو عين اليقين وفى عين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين فحق اليقين إذن فوق المشاهدة وحق اليقين موطنه ومستقره فى الآخرة وفى الدنيا منه لمح يسير لأهله وهو من أعز مايوجد من أقسام العلم بالله لأنه وجدان فصار علم الصوفية وزهاد العلماء

(١) حديث أنه قال لابن مسعود اقرأ على الحديث تقدم فى الباب قبله (٢) حديث اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فاذا اختلفتم فلستم تقرءونه وفى بعضها فاذا اختلفتم فقوموا عنه متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلى فى اللفظ الثانى دون قوله ولانت جلودكم (٣) حديث إن أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى . بسند صحيح

وقال صلى الله عليه وسلم « لايسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله عز وجل (١) » فالقرآن يراد الاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به وإلا فالمؤنة فى تحريك اللسان بحروفه خفيفة ولذلك قال بعض القراء قرأت القرآن على شيخ لى ثم رجعت لأقرأ ثانيا فانتهرنى وقال جعلت القرآن على عملا اذهب فاقرأ على الله عز وجل فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك وبهذا كان شغل الصحابة رضى الله عنهم فى الأحوال والأعمال فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف فى اثنين منهم وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم (٢) ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عز وجل ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ـ (٣) قال يكفى هذا وانصرف فقال صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه . وإنما العزيز مثل تلك الحالة التى منّ الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى بل التالى باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى ـ ومن أعرض عن ذكرى فانّ له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ـ وبقوله عز وجل ـ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ـ أى تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فان المقصر فى الأمر يقال إنه نسى الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل

نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ماذكرناه من علم الوراثة والدراسة علمهم بمثابة اللبن لأنه اليقين والايمان الذى هو الاساس وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة الشاهدة وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن فضيلة الانسان بفضيلة العلم ورزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم وقد ورد فى الخبر « فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى » والاشارة فى هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق وإنما الاشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين وقد يكون العبد عالما بالله تعالى ذا يقين كامل وليس عنده علم من فروض الكفايات وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة وقد كان علماء

(١) حديث لايسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الغافقى فى كتاب فضائل القرآن (٢) حديث مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف منهم فى اثنين وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم قلت قوله مات عن عشرين ألفا لعله أراد بالمدينة وإلا فقد روينا عن أبى زرعة الرازى أنه قال قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى وأما من حفظ القرآن فى عهده ففى الصحيحين من حديث أنس قال جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار أبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد وأبوزيد قلت ومن أبوزيد قال أحد عمومتى وزاد بن أبى شيبة كالمصنف من رواية الشعبى مرسلا وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وفى الصحيحين من حديث عبد الله ابن عمرو استقرئوا القرآن من أربعة من عبدالله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وروى ابن الأنبارى بسنده إلى عمر قال كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة من يحفظ من القرآن السورة ونحوها الحديث وسنده ضعيف وللترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال مامعك يافلان ؟ قال معى كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال اذهب فأنت أميرهم الحديث (٣) حديث الرجل الذى جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ـ فقال يكفينى هذا وانصرف فقال النبى صلى الله عليه وسلم انصرف الرجل وهو فقيه د ن فى الكبرى وحب ك وصححه من حديث عبدالله بن عمرو قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرئنى يارسول الله الحديث وفيه فأقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل والذى بعثك بالحق لاأزيد عليها أبدا ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلح الرويجل أفلح الرويجل ولأحمد ون فى الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال حسبى لاأبالى أن لاأسمع غيرها

بالترتيل وحظ العقل تفسير المعانى وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ . التاسع الترقى ، وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه فدرجات القراءة ثلاث أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال . الثانية أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والاصغاء والفهم . الثالثة أن يرى فى الكلام المتكلم وفى الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الانعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصورا الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره وهذه درجة المقربين وماقبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكنهم لا يبصرون وقال أيضا وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه فلما سرى عنه قيل له فى ذلك فقال مازلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته ففى مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة ولذلك قال بعض الحكماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه وقال عثمان وحذيفة رضى الله عنهما لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم فى الكلام ولذلك قال ثابت البنانى كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة وبمشاهدة المتكلم دون ماسواه يكون العبد ممتثلا لقوله عز وجل ـ ففروا إلى الله ـ ولقوله تعالى ـ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ـ فمن لم يره فى كل شىء فقد رأى غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئا من الشرك الخفى بل التوحيد الخالص أن لا يرى فى كل شىء إلا الله عز وجل . العاشر التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية فاذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا ولذلك كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول اللهم إنى أستغفرك لظلمى وكفرى وقيل له هذا الظلم فما بال الكفر فتلا قوله عز وجل ـ إن الانسان لظلوم كفار ـ وقيل ليوسف بن أسباط إذا قرأت القرآن بماذا تدعو فقال بماذا أدعو أستغفر الله عز وجل من تقصيرى سبعين مرة فاذا رأى نفسه بصورة التقصير فى القراءة كان رؤيته سبب قربه فان من شهد البعد فى القرب لطف به فى الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى فى القرب وراءها ومن شهد القرب فى البعد مكر به بالأمن الذى يفضيه إلى درجة أخرى فى البعد أسفل مما هو فيه ومهما كان مشاهدا نفسه بعين الرضا صار محجوبا بنفسه فاذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى فى قراءته كشف له سر الملكوت قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد فقال له وعدتنى أنك تفطر عندى فأخلفت فقال لولا ميعادى معك ما أخبرتك بالذى حبسنى عنك إنى لما صليت العتمة قلت أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن مايحدث من الموت فلما كنت فى الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم

التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم . روى أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شىء يقول سلوا سعيد ابن المسيب وكان عبد الله بن عباس يقول سلوا جابر بن عبد الله لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم وكان أنس بن مالك يقول سلوا مولانا الحسن فانه قد حفظ ونسينا فكانوا يردون الناس إليهم فى علم الفتوى والأحكام ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين صادقتهم طراوة الوحى المنزل وغمرهم غزير العلم المجمل والمفصل فتلقى منهم طائفة مجملة ومفصلة وطائفة مفصلة دون مجملة والمجمل أصل العلم ومفصله المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد وهو خاص بالخواص قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

الالتفات إليها وإلى هو اهاثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تتكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا وان غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والرجو والخوف وذلك بحسب أوصافه إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القلب فى اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لايبالى وكلام حنان متعطف لايهمل .

(الباب الرابع فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل)

لعلك تقول عظمت الأمر فيما سبق فى فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار (١) » وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين إلى التصوف فى تأويل كلمات فى القرآن على خلاف مانقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فان صح ماقاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره وان لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » فاعلم أن من زعم أن لامعنى للقرآن إلا ماترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب فى الاخبار عن نفسه ولكنه مخطىء فى الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التى هى حده ومحطه بل الأخبار والآثار تدل على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم (٢) قال على رضى الله عنه إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم وقال ﷺ « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا (٣) » ويروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع وقال على كرم الله وجهه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب فما معناه وتفسير ظاهرها فى غاية الاقتصار وقال أبو الدرداء لايفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها وقد قال بعض العلماء لكل آية ستون ألف فهم وما بقى من فهمها أكثر وقال آخرون القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم إذ كل كلمة علم ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة (٤) لا يكون إلا لتدبر باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لايحتاج مثله إلى تكرير وقال ابن مسعود رضى الله عنه من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن وذلك لايحصل بمجرد تفسيره الظاهر وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لانهاية لها وفى القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات فى التعمق فى تفصيله راجع إلى فهم القرآن ومجرد ظاهر التفسير لايشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ففى القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها فكيف يفى بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

(الباب الرابع فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل)

(١) حديث من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار تقدم فى الباب الثالث من العلم (٢) حديث الأخبار والآثار الدالة على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم تقدم قول على فى الباب قبله إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه (٣) حديث إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث تكرير النبى صلى الله عليه وسلم البسملة عشرين مرة تقدم فى الباب قبله .

- ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن - وقال تعالى - قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة - فلهذه السبل سابلة ولهذه الدعوات قلوب قابلة فمنها نفوس مستعصية جامدة باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها فلينها بنار الإنذار والموعظة والحذار ومنها نفوس زكية من تربة طيبة موافقة للقلوب قريبة منها فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالموعظة ومن كان قلبه ظاهرا على نفسه دعاه بالحكمة فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار وهى الدعوة بذكر الجنة والنار والدعوة بالحكمة أجاب بها المقربون وهى الدعوة بتلويح منح القرب وصفو المعرفة وإشارة التوحيد فلما وجدوا التلويحات الحقانية والتعريفات الربانية أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم

« اقرءوا

« اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه[1] » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث على كرم الله وجهه « والذى بعثنى بالحق نبيا لتفترقن أمتى عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فاذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فان فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ ما يأتى بعدكم وحكم ما بينكم من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله عز وجل وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوّم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضى عجائبه ولا يخلقه كثرة الترديد[2] » الحديث وفى حديث حذيفة « لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال فقلت يا رسول الله فماذا تأمرنى إن أدركت ذلك فقال تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك قال فأعدت عليه ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه ففيه النجاة[3] » وقال علىّ كرم الله وجهه من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ـ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ـ يعنى الفهم فى القرآن . وقال عز وجل ـ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ـ سمى ما آتاهما علما وحكما وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدما على الحكم والعلم فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه فأما قوله صلى الله عليه وسلم : من فسر القرآن برأيه ونهيه عنه[4] صلى الله عليه وسلم وقول أبى بكر رضى الله عنه أىّ أرض تقلنى وأىّ سماء تظلنى إذا قلت فى القرآن برأيى إلى غير ذلك مما ورد فى الأخبار والآثار فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم أو المراد به أمرا آخر ، وباطل قطعا أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه لوجوه : أحدها أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسندا إليه وذلك مما لا يصادف إلا فى بعض القرآن فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغى أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم . والثانى أن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقى فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل إن الر هى حروف من الرحمن وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون

---

(١) حديث اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه ، ابن أبى شيبة فى المصنف وأبو يعلى الموصلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بلفظ أعربوا وسنده ضعيف (٢) حديث علىّ والذى بعثنى بالحق لتفترقن أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فاذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فان فيه نبأ من كان قبلكم الحديث بطوله هو عند ت دون ذكر افتراق الأمة بلفظ ألا إنها ستكون فتنة مضلة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول (٣) حديث حذيفة فى الاختلاف والفرقة بعده فقلت ما تأمرنى إن أدركت ذلك قال تعلم كتاب الله واعمل بما فيه الحديث د ن فى الكبرى وفيه تعلم كتاب الله واتبع ما فيه ثلاث مرات (٤) حديث النهى عن تفسير القرآن بالرأى غريب .

فصارت متابعة الأقوال إجابتهم نفسا ومتابعة الأعمال إجابتهم قلبا والتحقق بالأحوال إجابتهم روحا فإجابة الصوفية بالكل وإجابة غيرهم بالبعض . قال عمر رضى الله عنه : رحم الله تعالى صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه يعنى لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية أداء لما عرف من حق العظمة فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة المحبّ للمحبوب على اللذاذة وذهاب العسر وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة وهذه الإجابة يظهر مع الساعات أثرها فى القيام بحقائق الاستقامة والعبودية قال الله تعالى ـ فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى ـ قال بعضهم أعطى الدارين ولم يرد شيئا واتقى اللغو والسيئآت وصدق

الكل مسموعا . والثالث أنه صلى الله عليه وسلم « دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل(١) » فان كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك . والرابع أنه قال عز وجل ـ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ـ فأثبت لأهل العلم استنباطا ومعلوم أنه وراء السماع . وجملة مانقلناه من الآثار فى فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع فى التأويل وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله . وأما النهى فانه ينزل على أحد وجهين : أحدهما أن يكون له فى الشىء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لايلوح له من القرآن ذلك المعنى وهـذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر برأيه أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فان فى السحور بركة(٢) » ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل ـ اذهب إلى فرعون إنه طغى ـ ويشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى . والوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى فالنقل والسماع لابد منه فى ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط . والغرائب التى لاتفهم إلا بالسماع كثيرة ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لايجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لايفهم لغة الترك فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لابد منها للفهم وما لابد فيه من السماع فنون كثيرة منها الايجاز بالحذف والاضمار كقوله تعالى ـ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ـ معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ولم يدر أنهم بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم وقوله تعالى ـ وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ـ أى حب العجل فحذف الحب وقوله عز وجل ـ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ـ أى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى فحذف العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز فى فصيح

بالحسنى أقام على طلب الزلفى والآية قيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ويلوح فى الآية وجه آخر أعطى بالمواظبة على الأعمال واتقى الوساوس والهواجس وصدق بالحسنى لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود فسنيسره لليسرى نفتح عليه باب السهولة فى العمل والعيش والأنس وأما من بخل بالأعمال واستغنى امتلاء بالأحوال وكذب بالحسنى لم يكن فى الملكوت بنفوذ بصيرته بالجولان فسنيسره للعسرى نسد عليه باب اليسر فى الأعمال قال بعضهم إذا أراد الله بعبد سوءا سد عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهرا وباطنا كان حظهم من العلم أوفر ونصيبهم من المعرفة أكمل فكانت أعمالهم أزكى وأفضل جاء رجل

(١) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل تقدم فى الباب الثانى من العلم
(٢) حديث تسحروا فان فى السحور بركة تقدم فى الباب الثالث من العلم .

اللغة وقوله تعالى ـ واسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ـ أي أهل القرية وأهل العير فالأهل فيهما محذوف مضمر وقوله عز وجل ـ ثقلت في السموات والأرض ـ معناه خفيت على أهل السموات والأرض والشيء إذا خفي ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم في مقام على وأضمر الأهل وحذف وقوله تعالى ـ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ـ أي شكر رزقكم وقوله عزوجل ـ آتنا ماوعدتنا على رسلك ـ أي على ألسنة رسلك فحذف الألسنة وقوله تعالى ـ إنا أنزلناه في ليلة القدر ـ أراد القرآن وماسبق له ذكر وقال عزوجل ـ حتى توارت بالحجاب ـ أراد الشمس وماسبق لها ذكره وقوله تعالى ـ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ـ أي يقولون مانعبدهم وقوله عزوجل ـ فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ـ معناه لايفقهون حديثا يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فان لم يرد هذا كان مناقضا لقوله ـ قل كل من عند الله ـ وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية ومنها المنقول المنقلب كقوله تعالى ـ وطور سينين ـ أي طور سيناء ـ سلام على آل ياسين ـ أي على إلياس وقيل إدريس لأن في حرف ابن مسعود سلام على إدراسين ومنها المكرر القاطع لوصل الكلام في الظاهر كقوله عزوجل ـ ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ـ معناه ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن وقوله عزوجل ـ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ـ معناه الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقدم والمؤخر وهو مظنة الغلط كقوله عزوجل ـ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ـ معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولاه لكان نصبا كاللزام وقوله تعالى ـ يسألونك كأنك حفي عنها ـ أي يسألونك عنها كأنك حفي بها وقوله عز وجل ـ لهم مغفرة ورزق كريم . كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ـ فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق ـ قل الأنفال لله والرسول . كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ـ أي فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل ـ حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه ـ الآية . ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف أما الكلمة فكالشيء والقرين والأمة والروح ونظائرها قال الله تعالى ـ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شيء ـ أراد به النفقة مما رزق وقوله عزوجل ـ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء ـ أي الأمر بالعدل والاستقامة وقوله عزوجل ـ فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء ـ أراد به من صفات الربوبية وهو العلوم التي لايحل السؤال عنها حتى يبتدىء بها العارف في أوان الاستحقاق وقوله عز وجل ـ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ـ أي من غير خالق فربما يتوهم به أنه يدل على أنه لايخلق شيء إلا من شيء . وأما القرين فكقوله عزوجل ـ وقال قرينه هذا مالدي عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار ـ أراد به الملك الموكل به وقوله تعالى ـ قال قرينه ربنا ماأطغيته ولكن كان ـ أراد به الشيطان . وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه الأمة الجماعة كقوله تعالى ـ وجد عليه أمة من الناس يسقون ـ وأتباع الأنبياء كقولك نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى ـ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ـ والأمة الدين كقوله عز وجل ـ إنا وجدنا آباءنا على أمة ـ والأمة الحين والزمان كقوله عزوجل ـ إلى أمة معدودة ـ وقوله عز وجل ـ وادكر بعد أمة ـ والأمة القامة يقال فلان حسن الأمة أي القامة ، وأمة رجل منفرد بدين لايشركه فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم « يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده(١) » والأمة الأم يقال هذه أمة زيد أي أم زيد.

إلى معاذ قال أخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتوره الشك قال معاذ ليحبطن شكه عمله قال فأخبرني عن رجل قليل العمل إلا أنه قوي اليقين وهو في ذلك كثير الذنوب فسكت معاذ فقال الرجل والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها قال فأخذ معاذ بيده وقال ما رأيت الذي هو أفقه من هذا . وفي وصية لقمان لابنه يابني لايستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه فكان اليقين أفضل العلم لأنه أدعى إلى العمل وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله الصوفية والعلماء

(١) حديث يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده ن في الكبرى من حديث زيد بن حارثة وأسماء

والروح أيضا ورد في القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها وكذلك قد يقع الإبهام في الحروف مثل قوله عز وجل ـ فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا ـ فالهاء الأولى كناية عن الحوافر وهي الموريات أي أثرن بالحوافر نقعا. والثانية كناية عن الإغارة وهي المغيرات صبحا فوسطن به جمعا جمع المشركين فأغاروا بجمعهم وقوله تعالى ـ فأنزلنا به الماء ـ يعني السحاب ـ فأخرجنا به من كل الثمرات ـ يعني الماء وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر. ومنها التدريج في البيان كقوله عز وجل ـ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ـ إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار وبان بقوله عز وجل ـ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ـ ولم يظهر به أي ليلة فظهر بقوله تعالى ـ إنا أنزلناه في ليلة القدر ـ وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات فهذا وأمثاله مما لا يغني فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير ليكون ذلك مفحما لهم ومعجزا في حقهم فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه فإذا سمعه في موضع آخر مال برأيه إلى ما سمعه من مشهور معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منهيا عنه دون التفهم لأسرار المعاني كما سبق فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ ولا يكفي ذلك في فهم حقائق المعاني ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال وهو أن الله عز وجل قال ـ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ـ فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامض فإنه إثبات للرمي ونفي له وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله عز وجل وكذلك قال تعالى ـ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ـ فإذا كانوا هم القاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال فحقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة صدق قوله عز وجل ـ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ـ ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء جميع لواحقه وما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك(١)» أنه قيل له اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض فإن الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقي إلى الذات فقال أعوذ بك منك ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله لا أحصي ثناء عليك ثم علم أن ذلك قصور فقال أنت كما أثنيت على نفسك فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب ثم لها أغوار وراء هذا

بنت أبي بكر بإسنادين جيدين (١) حديث قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك الحديث مسلم من حديث عائشة.

الزاهدين فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم. ثم إني أصور مسئلة يستبين بها المعتبر فضل العالم الزاهد العارف بصفات نفسه على غيره عالم دخل مجلسا وقعد وميز لنفسه مجلسا يجلس فيه كما في نفسه من اعتقاده في نفسه لمحله وعلمه فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد فوقه فانعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا ولو أمكنه لبطش بالداخل فهذا عارض عرض له ومرض اعتراه وهو لا يفطن أن هذه علة غامضة ومرض يحتاج إلى المداواة ولا يتفكر في منشأ هذا المرض ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها وجهلها لوجود كبرها وكبرها برؤية نفسها خيرا من غيرها فعلم الانسان أنه أكبر من غيره كبر وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر فحيث القصر صار فعلا به تكبر الزاهد لا يميز نفسه بشيء دون

وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به وأسرار ذلك كثيرة ولا يدل تفسير ظاهر اللفظ عليه وليس هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم . تم كتاب آداب التلاوة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأذكار والدعوات والله المستعان لا رب سواه .

(كتاب الأذكار والدعوات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رأفته العامة رحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكره فقال تعالى ـ فاذكروني أذكركم ـ ورغبهم في السؤال والدعاء بأمره فقال ـ ادعوني أستجب لكم ـ فأطمع المطيع والعاصي والداني والقاصي في الانبساط إلى حضرة جلاله برفع الحاجات والأماني بقوله ـ فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ـ والصلاة على محمد سيد أنبيائه وآله وأصحابه خيرة أصفيائه وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى فلا بد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها ويتحرر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة . الباب الأول : في فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا . الباب الثاني : في فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الباب الثالث : في أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها . الباب الرابع : في أدعية منتخبة محذوفة الاسناد من الأدعية المأثورة . الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث .

(الباب الأول : في فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار)

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات قوله سبحانه وتعالى ـ فاذكروني أذكركم ـ قال ثابت البناني رحمه الله إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجل ففزعوا منه وقالوا كيف تعلم ذلك فقال إذا ذكرته ذكرني وقال تعالى ـ اذكروا الله ذكرا كثيرا ـ وقال تعالى ـ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم ـ وقال عز وجل ـ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ـ وقال تعالى ـ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ـ وقال تعالى ـ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية وقال تعالى في ذم المنافقين ـ ولا يذكرون الله إلا قليلا ـ وقال عز وجل ـ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ـ وقال تعالى ـ ولذكر الله أكبر ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما : له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه والآخر أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه إلى غير ذلك من الآيات . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين »

المسلمين ولا يرى نفسه في مقام تميز يميزها بمجلس فالصوفي في العالم مخصوص مميز ولو قدر له أن يبتلي بمثل هذه الواقعة وينحصر من تقدم غيره عليه وترفعه يرى النفس وظهورها ويروى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانتصارها صار ذلك ذنب حاله فيرفع في الحال داءه إلى الله تعالى ويشكو إليه ظهور نفسه ويحسن الإنابة ويقطع دابر ظهور النفس ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغيثا من النفس فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس في طلب دوائها من الفكر فيمن قعد فوقه وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع والانكسار تكفيرا للذنب الوجود وتداويا لدائه الحاصل . فتبين بهذا الفرق بين الرجلين فإذا اعتبر المعتبر وتفقد حال نفسه في هذا المقام يرى

(كتاب الأذكار والدعوات)

الباب الأول في فضيلة الذكر

(١) حديث ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من

وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل قالوا يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله قال ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع[2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل[3] » . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل فقال « أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل[4] » وقال ﷺ « أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « لذكر الله عز وجل بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحا[6] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه وإذا تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وإذا مشى إلىّ هرولت إليه[7] » يعنى بالهرولة سرعة الإجابة وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله من جملتهم رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله[8] » وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم قالوا وماذاك يا رسول الله ؟ قال ذكر الله عز وجل دائما[9] » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين[10] » .

حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال فى وسط الشجر الحديث (١) حديث يقول الله تعالى أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه هـ حب من حديث أبى هريرة وك من حديث أبى الدرداء وقال صحيح الإسناد (٢) حديث ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يا رسول ولا الجهاد فى سبيل الله قال ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضربه بسيفك حتى ينقطع ثلاث مرات ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بإسناد حسن (٣) حديث من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس وهو عند ت بلفظ إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم (٤) حديث سئل أى الأعمال أفضل قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى حب وطب فى الدعاء والبيهقى فى الشعب من حديث معاذ (٥) حديث أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة أبو القاسم الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من حديث أنس من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسى ويصبح وليس عليه خطيئة وفيه من لا يعرف (٦) حديث لذكر الله بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحا رويناه من حديث أنس بسند ضعيف فى الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٧) حديث قال الله عز وجل إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٨) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله من جملتهم رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه متفق عليه من حديث أبى هريرة أيضا (٩) حديث ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم الحديث ت هـ ك وصحح إسناده من حديث أبى الدرداء (١٠) حديث قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين خ فى التاريخ والبزار فى المسند والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن

نفسه كنفوس عوام الخلق وطالبى المناصب الدنيوية فأى فرق بينه وبين غيره ممن لا علم له ولو أكثرنا تصوير المسائل لتبرهن فضيلة الزاهدين ونقصان الراغبين لأورث الملال وهذه من أوائل علوم الصوفية فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم والله الموفق للصواب .

[الباب الرابع فى شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم]

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن على قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى قال أنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقى قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى قال حدثنا مسلمة بن حاتم

وأما الآثار : فقد قال الفضيل بلغنا أن الله عز وجل قال ياعبدى اذكرنى بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك مابينهما وقال بعض العلماء إن الله عز وجل يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه وقال الحسن الذكر ذكران : ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ماأحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ماحرم الله عز وجل وروى « إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه ليس يتحسر أهل الجنة على شئ إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

(فضيلة مجالس الذكر)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماجلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لايريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات [2] » وقال أيضا ﷺ « ماقعد قوم مقعدا لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة [3] » وقال داود صلى الله عليه وسلم : إلهى إذا رأيتنى أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلى دونهم فانها نعمة تنعم بها على . وقال صلى الله عليه وسلم « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفى ألف مجلس من مجالس السوء [4] » وقال أبو هريرة رضى الله عنه إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التى يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم وقال سفيان بن عيينة رحمه الله إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا ألاترين مايصنعون فتقول الدنيا دعهم فانهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثا فقالوا ياأباهريرة مارأينا ميراثا يقسم فى المسجد قال فماذا رأيتم قالوا رأينا قوما يذكرون الله عز وجل ويقرءون القرآن قال فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم [5] وروى الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله عز وجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس فاذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء

الخطاب وفيه صفوان بن أبى الصفا ذكره حب فى الضعفاء وفى الثقات أيضا (١) حديث ماجلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى إلاحفت بهم الملائكة وغشيتهم رحمة وذكرهم الله فيمن عنده م من حديث أبى هريرة (٢) حديث مامن قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لايريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم منادمن السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات أحمد وأبويعلى والطبرانى بسندضعيف من حديث أنس (٣) حديث ماقعد قوم مقعدا لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبى ﷺ فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة ت وحسنه من حديث أبى هريرة (٤) حديث المجلس الصالح يكفرعن المؤمن ألفى ألف مجلس من مجالس السوء ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهومرسل ولم يخرجه ولده وكذلك لم أجد له إسنادا (٥) حديث أبى هريرة أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق الحديث الطبرانى فى المعجم الصغير باسناد فيه جهالة أو انقطاع .

الأنصارى قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضى الله عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يابنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ثم قال يابنى وذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة » وهذا أتم شرف وأكمل فضل أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى حق من أحيا سنته فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السنة وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم وإنما قدروا على إحياء هذه السنة ونهضوا بواجب حقها لزهدهم فى الدنيا وتركها لأربابها وطلابها لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا ومحبة الرفعة والمنزلة عند الناس والصوفية

فيقول الله تبارك وتعالى وأى شئ تركتم عبادى يصنعونه فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك فيقول الله تبارك وتعالى وهل رأونى فيقولون لافيقول جل جلاله كيف لو رأونى فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيدا فيقول لهم من أى شئ يتعوذون فيقولون من النار فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لافيقول الله عزوجل فكيف لورأوها فيقولون لورأوها لكانوا أشد هربا منها وأشد نفورا فيقول الله عز وجل وأى شئ يطلبون فيقولون الجنة فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لافيقول تعالى فكيف لورأوها فيقولون لورأوها لكانوا أشد عليها حرصا فيقول جل جلاله إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم فيقولون كان فيهم فلان لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول الله عز وجل هم القوم لايشقى جليسهم (١)» .

(فضيلة التهليل)

قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لاشريك له (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك (٣) » وقال ﷺ « مامن عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم كأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور (٥)» وقال صلى الله عليه وسلم أيضا لأبى هريرة «ياأباهريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فانها لاتوضع فى ميزان لأنها لو وضعت فى ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع ومافيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك (٦)»

(١) حديث الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أوأبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إن لله عزوجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس الحديث رواه ت من هذا الوجه والحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وحده وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم (٢) حديث أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله الحديث تقدم فى الباب الثانى من الحج (٣) حديث من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير مائة مرة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث مامن عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله الحديث د من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم فى الطهارة (٥) حديث ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى النشور الحديث أبويعلى والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٦) حديث ياأباهريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فانها لاتوضع فى ميزان لأنها لو وضعت فى ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك ، قلت وصية أبى هريرة هذه موضوعة وآخر الحديث رواه المستغفرى فى الدعوات ولوجعلت لا إله إلا الله وهو معروف من حديث أبى سعيد مرفوعا لو أن السموات السبع وعمارهن غيرى والأرضين السبع فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله رواه ن فى اليوم والليلة وحب و ك وصححه .

زهدوا فى ذلك كله كما قال بعضهم طريقنا هذا لايصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة أصبحوا وأمسوا وليس فى قلوبهم غش لأحد فقول القائل كنست بأرواحهم المزابل إشارة منه إلى غاية التواضع وأن لايرى نفسه تتميز عن أحد من المسلمين لحقارته عند نفسه وعند هذا ينسد باب الغش والغل وجرت هذه الحكاية وقال بعض الفقراء من أصحابنا وقع لى أن معنى كنست بأرواحهم المزابل أن الاشارة بالمزابل إلى النفوس لأنها مأوى كل رجس ونجس كالمزبلة وكنسها بنور الروح الواصل إليها لأن الصوفية أرواحهم فى عالم القرب ونورها يسرى إلى النفوس وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس ويذهب عنها الذموم

وقال صلى الله عليه وسلم « لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لغفر الله له ذلك(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدما قلت يارسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء قال صلى الله عليه وسلم : هي أهدم وأهدم(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله فقيل يارسول الله من الذي يأبى ويشرد عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله(٤) ، فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وهي كلمة الإخلاص وهي كلمة التقوى وهي الكلمة الطيبة وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى وهي ثمن الجنة » وقال عز وجل ـ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ـ فقيل الإحسان في الدنيا قول لا إله إلا الله وفي الآخرة الجنة وكذا قوله تعالى ـ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ـ وروى البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كانت له عدل رقبة أو قال نسمة(٥) » وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال في يوم مائتي مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لم يسبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد كان بعده إلا من عمل بأفضل من عمله(٦) »

---

(١) حديث لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لغفر الله له غريب بهذا اللفظ . وللترمذي في حديث لأنس يقول الله يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة . ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أنس يارب ما جزاء من هلل مخلصا من قلبه قال جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب وفيه انقطاع (٢) حديث يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق ابن المقرى من حديث أبي هريرة وفيه موسى بن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين من حديث الحسن مرسلا (٣) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف (٤) حديث لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على الله شرود البعير على أهله البخاري من حديث أبي هريرة كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى . زاد ك وصححها وشرد على الله شرود البعير على أهله قال البخاري قالوا يارسول الله ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى ولابن عدى وأبي يعلى والطبراني في الدعاء من حديثه أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها وفيه ابن وردان أيضا ولأبي الشيخ في الثواب من حديث الحكم بن عمير الثمالي مرسلا إذا قلت لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد الحديث والحكم ضعيف ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل من حديث ابن مسعود في إجابة المؤذن اللهم رب هذه الدعوة المجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص ولابن عدى من حديث ابن عمر في إجابة المؤذن دعوة الحق وللطبراني في الدعاء عن عبد الله بن عمرو كلمة الإخلاص لا إله إلا الله الحديث وللطبراني من حديث سلمة بن الأكوع وألزمهم كلمة التقوى قال لا إله إلا الله وللطبراني في الدعاء عن ابن عباس كلمة طيبة قال شهادة أن لا إله إلا الله وله عنه في قوله دعوة الحق قال شهادة أن لا إله إلا الله وله عنه فقد استمسك بالعروة الوثقى قال لا إله إلا الله ولابن عدى والمستغفري من حديث أنس ثمن الجنة لا إله إلا الله ولا يصح شيء منها (٥) حديث البراء من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحديث الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو في مسند أحمد دون قوله عشر مرات (٦) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال في كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده

من الغل والغش والحقد والحسد فكأنها تكنس بنور الروح وهذا المعنى صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك . قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ـ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ـ قال أبو حفص كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانا فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وحالا وصفات نفوسهم فإذا تبدلت نعوت النفس ارتفع الحجاب وصحت المتابعة ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك قال الله تعالى ـ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم

وقال صلى الله عليه وسلم « من قال فى سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا فى الجنة» ويروى « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها(١) » وفى الصحيح عن أبى أيوب عن النبى ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد اسمعيل صلى الله عليه وسلم(٢) » وفى الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تعارّ من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال اللهم اغفر لى غفر له أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته(٣) » .

(فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار)

قال صلى الله عليه وسلم « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر(٤) » وقال ﷺ « من قال سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر(٥) » وروى « أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال رسول الله ﷺ فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون قال فقلت وماذا يارسول الله قال قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة مابين طلوع الفجر إلى أن تصلى الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عزوجل من كل كلمة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قال العبد الحمد لله ملأت مابين السماء والأرض فاذا قال الحمد لله الثانية ملأت مابين السماء السابعة إلى الأرض السفلى فاذا قال الحمد لله الثالثة قال الله عز وجل سل تعط(٧) » قال رفاعة الزرقى « كنا يوما نصلى وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده

لاشريك له الحديث أحمد بلفظ مائة وكذا رواه ك فى المستدرك وإسناده جيد وهكذا هو فى بعض نسخ الإحياء (١) حديث إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إليها أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث أبى أيوب من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد اسماعيل متفق عليه (٣) حديث عبادة بن الصامت من تعارّ من الليل فقال لا إله إلا الله الحديث رواه خ (٤) حديث من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين الحديث م من حديث أبى هريرة (٥) حديث من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر متفق عليه من حديث أبى هريرة (٦) حديث أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت عن صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون الحديث المستغفرى فى الدعوات من حديث ابن عمر وقال غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلا فى حديث مالك ولأحمد من حديث عبد الله بن عمرو أن نوحا قال لابنه آمرك بلا إله إلا الله الحديث ثم قال وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شىء وبها يرزق الخلق واسناده صحيح (٧) حديث إذا قال العبد الحمد لله ملأت مابين السماء والأرض وإذا قال الحمد لله الثانية ملأت مابين السماء السابعة إلى الأرض وإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله تعالى سل تعطه غريب بهذا اللفظ لم أجده

الله ـ جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة العبد ربه وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه فأوفر الناس حظا من متابعة الرسول أوفرهم حظا من محبة الله تعالى والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم قال الله تعالى ـ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ـ ثم اتبعوه فى أعمالهم من الجد والاجتهاد فى العبادة والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ورزقوا ببركة المتابعة فى الأقوال والأفعال والتخلق بأخلاقه من الحياء والحلم والصفح والعفو والرأفة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع ورزقوا قسطا من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والصبر

قال رجل وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته قال من المتكلم آنفاً قال أنا يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولا(١)» وقال رسول الله ﷺ «الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر(٣)» رواه ابن عمر وروى النعمان بن بشير عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتكبيره وتحميده ينعطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل يذكرون بصاحبهن أولا يحب أحدكم أن لا يزال عند الله ما يذكر به(٤)» وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس(٥)» وفي رواية أخرى زاد لا حول ولا قوة إلا بالله وقال هي خير من الدنيا وما فيها وقال صلى الله عليه وسلم «أحب الكلام إلى الله تعالى أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت(٦)» رواه سمرة بن جندب وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر يملآن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو مشتر نفسه فمعتقها(٧)» وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم(٨)» وقال أبو ذر رضي الله عنه «قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الكلام أحب إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم ما اصطفى الله سبحانه للملائكة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم(٩)» وقال

---

(١) حديث رفاعة الزرقي كنا يوماً نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه الحديث رواه خ.
(٢) حديث الباقيات الصالحات هنّ لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله ن في اليوم والليلة وحب ك وصححه من حديث أبي سعيد و ن ك من حديث أبي هريرة دون قوله ولا حول ولا قوة إلا بالله (٣) حديث ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ك من حديث عبد الله ابن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند ت وحسنه ون في اليوم والليلة مختصراً دون قوله سبحان الله والحمد لله (٤) حديث النعمان بن بشير الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتمجيده وتهليله وتحميده ينعطف حول العرش له دوي كدوي النحل يذكر بصاحبه الحديث هـ و ك وصححه على شرط م (٥) حديث أبي هريرة لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس وزاد في رواية ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال خير من الدنيا وما فيها م باللفظ الأول والمستغفري في الدعوات من رواية مالك بن دينار أن أبا أمامة قال النبي صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها قال أنت أغنم القوم وهو مرسل جيد الاسناد (٦) حديث سمرة بن جندب أحب الكلام إلى الله أربع الحديث رواه م (٧) حديث أبي مالك الأشعري الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان الحديث رواه م وقد تقدم في الطهارة (٨) حديث أبي هريرة كلمتان خفيفتان على اللسان الحديث متفق عليه (٩) حديث أبي ذر أي الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله للملائكة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم رواه م دون

والزهد والتوكل فاستوفوا جميع أقسام المتابعات وأحيوا سنته بأقصى الغايات. قيل لعبد الواحد بن زيد من الصوفية عندك؟ قال القائمون بعقولهم على فهم السنة والعاكفون عليها بقلوبهم والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية وهذا وصف تام وصفهم به فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول لا تكلني إلى نفسي طرفة عين اكلأني كلاءة الوليد ومن أشرف ما ظفر به الصوفي من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا عبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة وأشرق صدره بنور اليقين وخلص قلبه إلى بساط القرب وخلا سره بلذاذة المسامرة فبقيت نفسه

أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (١) » فإذا قال العبد سبحان الله كتبت له عشرون حسنة وتحط عنه عشرون سيئة وإذا قال الله أكبر فمثل ذلك وذكر إلى آخر الكلمات وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة (٢) » وعن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال قال الفقراء لرسول الله ﷺ « ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به إن لكم بكل تسبيحة صدقة وتحميدة وتهليلة صدقة وتكبيرة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة ويضع أحدكم اللقمة فى فى أهله فهى له صدقة وفى بضع أحدكم صدقة قالوا يارسول الله يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال صلى الله عليه وسلم أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر قالوا نعم قال كذلك إن وضعها فى الحلال كان له فيها أجر (٣) » وقال أبو ذر رضى الله عنه قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق فقال رسول الله ﷺ أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبلك وفقت من بعدك إلا من قال مثل قولك تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمد ثلاثا وثلاثين وتكبر أربعا وثلاثين (٤) » وروت بسرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكنّ بالتسبيح والتهليل والتقديس فلا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات (٥) » يعنى بالشهادة فى القيامة وقال ابن عمر رأيته صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح (٦) وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدى لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدى لا إله إلا أنا وحدى لا شريك لى وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدى لا حول ولا قوة إلا بى ومن قالهن عند الموت لم تمسه النار (٧) » وروى مصعب بن سعد عن أبيه عنه ﷺ أنه قال « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فقيل كيف ذلك يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة (٨) »

بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر وهى بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالما وهى وشيكة الرجوع سريعة الانفلات والانقلاب فالله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفى وكشفها له على شىء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها وكأنها جعلت سوطا للعبد تسوقه لمعرفته بشرها مع اللحظات إلى جناب الالتجاء وصدق الافتقار والدعاء فلا يخلو الصوفى عن مطالعتها أدنى ساعة كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة وربط معرفة الله تعالى فيما ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه كربط معرفة الليل بمعرفة النهار ومن الذى يقوم باحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفى العالم بالله الزاهد فى الدنيا المتمسك من

قوله سبحان الله العظيم (١) حديث إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله الحديث ن فى اليوم والليلة و ك وقال صحيح على شرط م وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد إلا أنهما قالا فى ثواب الحمد لله كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة (٢) حديث جابر من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة ت وقال حسن و ن فى اليوم والليلة وحب و ك وقال صحيح على شرط م وصححه (٣) حديث أبى ذر قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى الحديث رواه م (٤) حديث أبى ذر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق الحديث رواه ه إلا أنه قال قال سفيان لا أدرى أيتهنّ أربع ولأحمد فى هذا الحديث وتحمد أربعا وثلاثين واسنادها جيد ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث أبى الدرداء وتكبر أربعا وثلاثين كما ذكر المصنف (٥) حديث بسرة عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات د ت ك باسناد جيد (٦) حديث ابن عمر رأيته ﷺ يعقد التسبيح قلت إنما هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه د ن ت وحسنه و ك (٧) حديث أبى هريرة وأبى سعيد إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله صدق عبدى الحديث ت وقال حسن و ن فى اليوم والليلة و ه ك وصححه (٨) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة الحديث م إلا أنه قال أو يحط كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح

وقال

وقال صلى الله عليه وسلم « ياعبدالله بن قيس أويا أباموسى أولا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال قل لاحول ولا قوة إلابالله (١) » وفى رواية أخرى « ألاأعلمك كلمة من كنز تحت العرش لاحول ولاقوة إلابالله » وقال أبوهريرة قال رسول الله ﷺ « ألاأدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لاحول ولاقوة إلابالله يقول الله تعالى أسلم عبدى واستسلم (٢) » وقال ﷺ « من قال حين يصبح رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة (٣) وفى رواية من قال ذلك رضى الله عنه . وقال مجاهد إذاخرج الرجل من بيته فقال باسم الله قال الملك هديت فاذاقال توكلت على الله قال الملك كفيت وإذاقال لاحول ولاقوة إلا بالله قال الملك وقيت فتتفرق عنه الشياطين فيقولون ماتريدون من رجل قدهدى وكفى ووقى لاسبيل لكم إليه .

فان قلت : فمابال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها . فاعلم أن تحقيق هذا لايليق إلابعلم المكاشفة والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى وفى الأخبار مايدل عليه أيضا (٤) وحضور القلب فى لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أوفى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية وللذكر أول وآخر فأوله يوجب الأنس والحب وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه والمطلوب ذلك الأنس والحب فان المريد فى بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل فان وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور ولا ينبغى أن يتعجب من هذا فان من الشاهد فى العادات أن تذكر غائبا غير مشاهد بين يدى شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولا صار مضطرا إلى كثرة الذكر آخرا بحيث لايصبر عنه فان من أحب شيئا أكثر من ذكره ومن أكثر ذكر شىء وإن كان تكلفا أحبه فكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجبا والثمر مثمرا وهذا معنى قول بعضهم كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة ولا يصدر التنعم إلا من الأنس والحب ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعا فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولا ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقا لطبعه حتى لايصبر عنه فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف * هى النفس ماعودتها تتعود * أى ما كلفتها أولا يصيرلها طبعا آخرا ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع من غير ذكر الله وماسوى الله

التقوى بأوثق العرى ومن الذى يهتدى إلى فائدة هذه الحال غير الصوفى فدوام افتقار إلى ربه تمسك بجناب الحق ولياذبه وفى هذا الليا ذاستغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء وفى انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه نبوّ النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة ونزولها إليها فى مدارج العلم محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة الغائلة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات فهذا حال الصوفى. ويجمع جمل حال الصوفية شيئآن : هما وصف الصوفية وإليهما الإشارة بقوله تعالى ـ الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ـ فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف وقوم منهم خصوا

(١) حديث ياعبد الله بن قيس أويا أباموسى ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لاحول ولا قوة إلا بالله متفق عليه (٢) حديث أبى هريرة عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لاحول ولاقوة إلا بالله يقول الله أسلم عبدى واستسلم ن فى اليوم والليلة وك من قال سبحان والحمد لله ولا إله إلاالله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلابالله قال أسلم عبدى واستسلم وقال صحيح الاسناد (٣) حديث من قال حين يصبح رضيت بالله ربا الحديث د ن فى اليوم والليلة و ك وقال صحيح الاسناد من حديث خادم النبى صلى الله عليه وسلم ورواه ت من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر ففيه سعد ابن المرزبان ضعيف جدا (٤) حديث الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى ت وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الاسناد من حديث ابى هريرة واعلموا أن الله لايقبل الدعاء من قلب لاه .

عز وجل هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات في الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ولا يبقى بعد الموت عائق فكأنه خلي بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه عما به أنسه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحبب ما أحببت فإنك مفارقه[1] » أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك يفنى في حقه بالموت فكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام وإنما تفنى الدنيا بالموت في حقه إلى أن تفنى في نفسها عند بلوغ الكتاب أجله وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله عز وجل ويترقى من الذكر إلى اللقاء وذلك بعد أن يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ولا ينكر بقاء ذكر الله عز وجل معه بعد الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل فإنه لم يعدم عدما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت وإلى ما ذكرناه الإشارة بقوله ﷺ « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة[2] » وبقوله ﷺ « أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر[3] » وبقوله صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين « يا فلان يا فلان وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا[4] فسمع عمر رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ فقال ﷺ : والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لكلامي منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » والحديث في الصحيح هذا قوله عليه السلام في المشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال ﷺ « أرواحهم في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش[5] » وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا ينافي ذكر الله عز وجل وقال تعالى ـ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ـ الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب الخاتمة ونعني بالخاتمة وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منقطع العلائق عن غيره فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقا بالله عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريدها لحياته وقد هون على قلبه حياته في حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك ولذلك عظم

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه تقدم في الكتاب السابع من العلم (٢) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ت من حديث أبي سعيد بتقديم وتأخير وقال غريب قلت فيه عبيد الله بن الوليد الوصافي ضعيف (٣) حديث أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر من حديث ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية ـ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ـ الآية قال أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم في جوف طير خضر فلم يسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية ت أما إنا سألنا عن ذلك فأخبرنا وذكر صاحب مسند الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه في مسنده (٤) حديث ندائه لقتلى بدر من المشركين يا فلان يا فلان وقد سماهم إني قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا م من حديث أنس (٥) حديث أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش هـ من حديث كعب بن مالك إن أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة وروى ن بلفظ إنما نسمة المؤمن طائر ورواه ت بلفظ أرواح الشهداء وقال حسن صحيح .

بالهداية بشرط مقدمة الإنابة فالاجتباء المحض غير معلل بكسب العبد وهذا حال المحبوب المراد يبادئه الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوفه اجتهاده وفي هذا أخذ بطائفة من الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم وبادرهم سطوع نور اليقين فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قرة أعينهم فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون لذاذة النازل بهم من صفو العرفان تحمل وعيد فرعون فقالوا ـ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ـ قال جعفر الصادق رضي الله عنه وجدوا أرياح العناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا آمنا برب العالمين . أخبرنا أبو زرعة طاهر بن

أمر

أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل مالايحصى فمن ذلك أنه لما استشهد عبدالله بن عمرو الأنصارى يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك ياجابر قال بلى بشرك الله بالخير قال إن الله عزوجل أحيا أباك فأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمنّ علىّ ياعبدى ماشئت أعطيكه فقال يارب أن تردنى إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفى نبيك مرة أخرى فقال عزوجل سبق القضاء منى بأنهم إليها لايرجعون (١) » ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فانه لو لم يقتل وبقى مدة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على مااستولى على قلبه من ذكر الله عزوجل ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة فانّ القلب وإن ألزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لايخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه فاذا تمثل فى آخر الحال فى قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحنّ بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا وذلك لقلة حظه فى الآخرة إذ يموت المرء على ماعاش عليه ويحشر على مامات عليه فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أوغير ذلك (٢) » كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذه الحالة هى التى عبر عنها بـ ـ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ـ ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة وحالة الشهيد توافق معنى قولك لاإله إلا الله فانه لامقصود له سوى الله عزوجل وكل مقصود معبود وكل معبود إله فهذا الشهيد قائل بلسان حاله لاإله إلا الله إذ لامقصود له سواه ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره فى مشيئة الله عزوجل ولايؤمن فى حقه الخطر ولذلك فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم قول لاإله إلا الله على سائر الأذكار (٣) وذكر ذلك مطلقا فى مواضع الترغيب ثم ذكر فى بعض المواضع الصدق والاخلاص فقال مرة من قال لاإله إلا الله مخلصا ومعنى الاخلاص مساعدة الحال للمقال . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا فى الخاتمة من أهل لاإله إلا الله حالا ومقالا ظاهرا وباطنا حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل متبرمين بها ومحبين للقاء الله فان من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فهذه مرامز إلى معانى الذكر التى لايمكن الزيادة عليها فى علم المعاملة .

(الباب الثانى فى آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم)

(فضيلة الدعاء)

قال الله تعالى ـ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى ـ وقال تعالى ـ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين ـ وقال تعالى ـ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ـ وقال عز وجل

(١) حديث ألا أبشرك ياجابر قال بلى بشرك الله بالخير قال إن الله أحيا أباك وأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمنّ علىّ الحديث ت وقال حسن و ه ك وصحح إسناده من حديث جابر (٢) حديث الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك متفق عليه من حديث أبو موسى قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله (٣) حديث تفضيل لاإله إلاالله على سائر الأذكار ت وقال حسن و ن فى اليوم والليلة و ه من حديث جابر

(الباب الثانى فى آداب الدعاء وفضله)

أبى الفضل إجازة قال أنا أبوبكر أحمد ابن على بن خلف إجازة قال أنا عبد الرحمن السلمى قال سمعت منصورا يقول سمعت أباموسى الزقاق يقول سمعت أبا سعيد الخراز يقول أهل الخالصة الذين هم المرادون اجتباهم مولاهم وأكمل لهم النعمة وهيأ لهم الكرامة فأسقط عنهم حركات الطلب فصارت حركاتهم فى العمل والخدمة على الألفة والذكر والتنعم بمناجاته والانفراد بقربه وبهذا الاسناد إلى أبى عبد الرحمن السلمى قال سمعت على ابن سعيد يقول سمعت أحمد بن الحسن الحمصى يقول سمعت فاطمة المعروفة بجويرية تلميذة أبى سعيد تقول سمعت الخراز يقول المراد محمول فى حاله معان على حركاته وسعيه فى الخدمة مكفى مصون عن الشواهد والنواظر وهذا الذى قاله الشيخ أبو سعيد هو الذى

ـ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعوا فله الأسماء الحسنى ـ وروى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ـ ادعونى أستجب لكم (١) » ـ الآية وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة (٢) » وروى أبوهريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال « ليس شئ أكرم على الله عز وجل من الدعاء (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد لايخطئه من الدعاء إحدى ثلاث إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له (٤) » وقال أبوذر رضى الله عنه يكفي من الدعاء مع البر مايكفي الطعام من الملح وقال صلى الله عليه وسلم « سلوا الله تعالى من فضله فان الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج (٥) » .

(آداب الدعاء وهى عشرة)

الأول : أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى ـ وبالأسحارهم يستغفرون ـ وقال صلى الله عليه وسلم «ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له (٦)» وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال سوف أستغفر لكم ربي ليدعو فى وقت السحر فقيل إنه قام فى وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عز وجل إليه إنى قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء . الثانى : أن يغتنم الأحوال الشريفة قال أبو هريرة رضى الله عنه إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها . وقال مجاهد إن الصلاة جعلت فى خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء بين الأذان والإقامة لايرد (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا « الصائم لاترد دعوته (٨) » وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضا إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى مافيها من أسرار لايطلع البشر عليها وحالة السجود أيضا أجدر بالإجابة قال أبوهريرة رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث النعمان بن بشير إن الدعاء هو العبادة أصحاب السنن و ك وقال صحيح الاسناد وقال ت حسن صحيح (٢) حديث الدعاء مخ العبادة ت من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث ابن لهيعة (٣) حديث أبي هريرة ليس شئ أكرم عند الله من الدعاء ت وقال غريب و ه حب ك وقال صحيح الاسناد (٤) حديث إن العبد لايخطئه من الدعاء إحدى ثلاث إماذنب يغفر له وإماخير يعجل له وإماخير يدخر له الديلمى فى الفردوس من حديث أنس وفيه روح ابن مسافر عن أبان بن أبي عياش وكلاهما ضعيف ولأحمد و خ فى الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخر له فى الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها (٥) حديث سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج ت من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت وضعفه ابن معين وغيره (٦) حديث ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث الدعاء بين الأذان والإقامة لايرد د ن فى اليوم والليلة و ت وحسنه من حديث أنس وضعفه ابن عدى وابن القطان ورواه فى اليوم والليلة باسناد آخر جيد وحب و ك وصححه (٨) حديث الصائم لاترد دعوته ت وقال حسن و ه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه .

اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل وقد رأوا جمعا من المشايخ قلت نوافلهم فظنوا أن ذلك حال مستمر على الاطلاق ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض كانت بداياتهم بدايات المريدين فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلأوا بالحال فطرحوا نوافل الأعمال فاما الزادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرة أعينهم وهذا أتم وأكمل من الأول فهذا الذى أوضحناه أحد طريق الصوفية فأما الطريق الآخر طريق المريدين وهم الذين شرطوا لهم الانابة فقال الله تعالى ـ ويهدى إليه من ينيب ـ فطولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف قال الله تعالى ـ والذين جاهدوا

« أقرب ما يكون العبد من ربه عزوجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء[1] » وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا فأما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فانه قمن أن يستجاب لكم[2] » . الثالث : أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه وروى جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس[3] » وقال سلمان قال رسول الله ﷺ « إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرا[4] » وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء ولا يشير بإصبعه[5] » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على إنسان يدعو ويشير باصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد[6] أى اقتصر على الواحدة وقال أبو الدرداء رضى الله عنه ارفعوا هذه الأيدى قبل أن تغل بالأغلال ثم ينبغى أن يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء قال عمر رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه[7] وقال ابن عباس كان ﷺ إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه[8] فهذه هيئات اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم[9] » الرابع : خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعرى قال قدمنا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي ﷺ « يا أيها الناس إن الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم[10] » وقالت عائشة رضى الله عنها فى قوله عز وجل ـ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها[11] ـ أى بدعائك وقد أثنى الله عزوجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال ـ إذ نادى ربه نداء خفيا ـ وقال عزوجل ـ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ـ . الخامس : أن لا يتكلف السجع فى الدعاء فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال متضرع

فينا لنهدينهم سبلنا ـ يدرجهم الله تعالى فى مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجر وظمأ الهواجر وتأجج فيهم نيران الطلب وتحجب دونهم لوامع الأرب يتقلبون فى رمضاء الإرادة وينخلعون عن كل مألوف وعادة وهى الإنابة التى شرطها الحقّ سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية مقرونة بها وهذه الهداية آنفا هداية خاصة لأنها هداية إليه غير الهداية العامة التى هى الهدى إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى وهذا حال السالك المحبّ المريد فكانت الإنابة غير الهداية العامة فأثمرت هداية خاصة واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات فخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال فسبق اجتهادهم كشوفهم وللمرادون سبق

(١) حديث أبى هريرة أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء رواه م (٢) حديث ابن عباس إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا الحديث م أيضا (٣) حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس م دون قوله يدعو فقال مكانها واقفا و ن من حديث أسامة بن زيد كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو ورجاله ثقات (٤) حديث سلمان إن ربكم حيي كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا د ت وحسنه و ه ك وقال إسناده صحيح على شرطهما (٥) حديث أنس كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعه م دون قوله ولا يشير بأصبعه والحديث متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء (٦) حديث أبى هريرة مرّ علىّ إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد ن وقال حسن و ه ك وقال صحيح الاسناد (٧) حديث عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه ت وقال غريب و ك فى المستدرك وسكت عليه وهو ضعيف (٨) حديث ابن عباس كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه الطبرانى فى الكبير بسند ضعيف (٩) حديث لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم م من حديث أبى هريرة وقال عند الدعاء فى الصلاة (١٠) حديث أبى موسى الأشعرى يا أيها الناس إن الذى تدعون ليس بأصمّ ولا غائب متفق عليه مع اختلاف واللفظ الذى ذكره المصنف لأبى داود (١١) حديث عائشة فى قوله تعالى ـ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ـ أى بدعائك متفق عليه .

والتكلف لايناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يعتدون في الدعاء[1] وقدقال عز وجل ـ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ـ » قيل معناه التكلف للأسجاع والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فانه قد يعتدي في دعائه فيسأل مالاتقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضي الله عنه إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء وقد قال ﷺ « إياكم والسجع في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وماقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل[2] » وفي الخبر سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطهور ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له أعلى الله تبالغ أشهد لقد رأيت حبيبا العجمي يدعو ومايزيد على قوله اللهم اجعلنا جيدين اللهم لاتفضحنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه وقال بعضهم ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق ويقال إن العلماء والأبدال لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها ويشهد له آخر سورة البقرة فان الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك . واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام فان ذلك لايلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ماتريد[3] » وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل . السادس : التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى ـ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ـ وقال عز وجل ـ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ـ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه[4] » . السابع : أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه قال صلى الله عليه وسلم « لايقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسئلة فانه لامكره له[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فان الله لا يتعاظمه شيء[6] » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث سيكون قوم يعتدون في الدعاء وفي رواية والطهور د ه حب ك من حديث عبدالله بن مغفل

(٢) حديث إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وماقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب إليها من قول وعمل غريب بهذا السياق وللبخاري عن ابن عباس وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فاني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لايفعلون إلا ذلك و ه ك واللفظ له وقال صحيح الاسناد من حديث عائشة عليك بالكوامل وفيه وأسألك الجنة إلى آخره

(٣) حديث أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركوع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ماتريد ت من حديث ابن عباس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته فذكر حديثا طويلا من جملته هذا وقال حديث غريب انتهى وفيه محمد ابن عبدالرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ (٤) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا الحديث وفيه دعه فاني أحب أن أسمع صوته وللطبراني من حديث أبي أمامة إن الله يقول للملائكة انطلقوا إلى عبدي فصبوا عليه البلاء الحديث وفيه فاني أحب أن أسمع صوته وسندهما ضعيف (٥) حديث لايقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسئلة فانه لامكره له متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٦) حديث إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فان الله لا يتعاظمه شيء حب من حديث أبي هريرة .

كشوفهم اجتهادهم أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال ثنا محمد بن الحسين بن موسى قال سمعت محمد ابن عبد الله الرازي يقول سمعت أبا محمد الجريري يقول سمعت الجنيد رحمة الله عليه يقول ماأخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات قال محمد بن خفيف الإرادة سمو القلب لطلب المراد وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة وقال أبوعثمان المريد الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله تعالى فيريد الله وحده ويريد قربه ويشتاق إليه حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة

«وادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا أن الله عزوجل لايستجيب دعاء من قلب غافل[١]» وقال سفيان بن عيينة لايمنعن أحدكم من الدعاء مايعلم من نفسه فان الله عزوجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال ـ رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين ـ. الثامن : أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا[٢] وينبغى أن لا يستبطىء الاجابة لقوله صلى الله عليه وسلم «يستجاب لأحدكم مالم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى فاذا دعوت فاسأل الله كثيرا فانك تدعو كريما[٣]» وقال بعضهم إنى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابنى وأنا أرجو الاجابة سألت الله تعالى أن يوفقنى لترك مالايعنينى وقال صلى الله عليه وسلم «إذا سأل أحدكم ربه مسئلة فتعرف الاجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال[٤]». التاسع : أن يفتتح الدعاء بذكر الله عزوجل فلايبدأ بالسؤال قال سلمة بن الأكوع ماسمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب[٥] وقال أبو سليمان الدارنى رحمه الله من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فان الله عزوجل يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع مابينهما وروى فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا سألتم الله عز وجل حاجة فابتدءوا بالصلاة علىّ فان الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى[٦]» رواه أبو طالب المكى. العاشر : وهو الأدب الباطن وهو الأصل فى الاجابة التوبة ورد المظالم والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة فذلك هو السبب القريب فى الاجابة فيروى عن كعب الأحبار أنه قال أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى ببنى إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا فأوحى الله عزوجل إلى موسى عليه السلام إنى لا أستجيب لك ولالمن معك وفيكم نمام فقال موسى يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عز وجل إليه ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فقال موسى لبنى إسرائيل توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل تعالى عليهم الغيث. وقال سعيد بن جبير قحط الناس فى زمن ملك من ملوك بنى إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبنى إسرائيل ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو فى السماء فقال أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء وقال سفيان الثورى بلغنى أن بنى إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من

شوقه إلى ربه وقال أيضا عقوبة قلب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف. أحدهما مجذوب أبقى على جذبته مارد إلى الاجتهاد بعد الكشف والثانى مجتهد متعبد ماخلص إلى الكشف بعد الاجتهاد وللصوفية فى طريقهما باب مزيدهم وصحة طريقهم بحسن التابعة ومن ظن أن يبلغ غرضا أو يظفر بمراد لامن طريق المتابعة فهو مخذول مغرور. أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أنا أبو بكر أحمد بن على ابن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت

---

(١) حديث ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا أن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل ت من حديث أبى هريرة وقال غريب و ك وقال مستقيم الاسناد تفرد به صالح المرى وهو أحد زهاد البصرة قلت لكنه ضعيف فى الحديث (٢) حديث ابن مسعود كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا رواه مسلم وأصله متفق عليه (٣) حديث يستجاب لأحدكم مالم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الاجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال البيهقى فى الدعوات من حديث أبى هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصرا باسناد ضعيف (٥) حديث سلمة بن الأكوع ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه وقال سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب أحمد وك وقال صحيح الاسناد قلت فيه عمر بن راشد اليمانى ضعفه الجمهور (٦) حديث إذا سألتم الله حاجة فابدءوا بالصلاة علىّ فان الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطى إحداهما ويرد الأخرى لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبى الدرداء.

المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لومشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فانى لاأجيب لكم داعيا ولاأرحم لكم باكيا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فمطروا من يومهم . وقال مالك بن دينار أصاب الناس فى بنى إسرائيل قحط فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام الآن قداشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا منى إلا بعدا . وقال أبو الصديق الناجى خرج سليمان عليه السلام يستسقى فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول اللهم إنا خلق من خلقك ولاغنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا فقال سليمان عليه السلام ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم . وقال الأوزاعى خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال يامعشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة فقالوا اللهم نعم فقال اللهم إنا قد سمعناك تقول - ما على المحسنين من سبيل - وقد أقررنا بالاساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا اللهم فاغفرلنا وارحمنا واسقنا فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا وقيل لمالك بن دينار ادع لنا ربك فقال إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجارة وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقى فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه فى المفازة إلا واحد فقال له عيسى عليه السلام أمالك من ذنب فقال والله ما علمت من شئ غير أنى كنت ذات يوم أصلى فمرت بى امرأة فنظرت إليها بعينى هذه فلما جاوزتنى أدخلت أصبعى فى عينى فانتزعتها وأتبعت المرأة بها فقال له عيسى عليه السلام فادع الله حتى أؤمن على دعائك قال فدعا فتجللت السماء سحابا ثم صبت فسقوا . وقال يحيى الغسانى أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم اللهم إنك أنزلت فى توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا . وقال الثانى اللهم إنك أنزلت فى توراتك أن نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا وقال الثالث اللهم إنك أنزلت فى توراتك أن لاترد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا وقال عطاء السلمى منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فاذا نحن بسعدون المجنون فى المقابر فنظر إلى فقال ياعطاء أهذا يوم النشور أوبعثر مافى القبور فقلت لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فقال ياعطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية فقلت بل بقلوب سماوية فقال هيهات ياعطاء قل للمتبهرجين لاتتبهرجوا فان الناقد بصير ثم رمق السماء بطرفه وقال إلهى وسيدى ومولاى لاتهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك وماوارت الحجب من آلائك إلاماسقيتنا ماء غدقا فراتا تحيى به العباد وتروى به البلاد يامن هو على كل شئ قدير قال عطاء فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك قدمت المدينة فى عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر باحداها وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جانبى فسمعته يقول إلهى أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوى الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك ياحليما ذا أناة يامن لايعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعة فلم يزل يقول الساعة

الساعة

نصر بن أبى نصر يقول سمعت قسيما غلام الزقاق يقول سمعت أباسعيد السكرى يقول سمعت أباسعيد الخراز يقول كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل وكان يقول الجنيد رحمه الله علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة . حكى أن أبا يزيد البسطامى رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية وكان الرجل فى ناحيته مقصودا ومشهورا بالزهد والعبادة فمضينا إليه فلما خرج من بيته بقصد المسجد رمى بزاقة نحو القبلة فقال أبو يزيد انصرفوا فانصرف

الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب قال ابن المبارك فجئت إلى الفضيل فقال مالي أراك كئيبا فقلت أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخرّ مغشيا عليه ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تضع الكسير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

(فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم)

قال الله تعالى ـ إن الله وملائكته يصلون على النبيّ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ـ وروى أنه صلى الله عليه وسلم « جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال ﷺ إنه جاءني جبريل عليه السلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا(1) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى عليّ صلت عليه الملائكة ما صلى عليّ فليقلل عند ذلك أو ليكثر(2) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أولى الناس بي أكثرهم علي صلاة(3) » وقال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي عليّ(4) » وقال ﷺ « أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة(5) » وقال ﷺ « من صلى عليّ من أمتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيآت(6) » وقال ﷺ « من قال حين يسمع الأذان والاقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي(7) » وقال رسول الله ﷺ « من صلى عليّ

(1) حديث أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقال إنه جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا ن وحب من حديث أبي طلحة باسناد جيد (2) حديث من صلى عليّ صلت عليه الملائكة ما صلى فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر هـ من حديث عامر بن ربيعة باسناد ضعيف والطبراني في الأوسط باسناد حسن (3) حديث إن أولى الناس بي أكثرهم علي صلاة ت من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وحب (4) حديث بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي علي قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن علي هكذا و ن وحب من حديث أخيه الحسن: البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليّ ورواه ت من رواية الحسين بن عليّ عن أبيه وقال حسن صحيح (5) حديث أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة د ن هـ حب ك وقال صحيح على شرط خ من حديث أوس بن أوس وذكره ابن أبي حاتم في العلل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر (6) حديث من صلى عليّ من أمتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات ن في اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات ، وله في السير ولابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله مخلصا من قلبه ودون ذكر محو السيئات ولم يذكر ابن حبان أيضا رفع الدرجات (7) حديث من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي البخاري من حديث جابر دون ذكر الاقامة والشفاعة والصلاة على النبي ﷺ وقال النداء

ولم يسلم عليه وقال هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين وسئل خادم الشبلي رحمه الله ماذا رأيت منه عند موته فقال لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إليّ أن وضئني للصلاة فوضأته فنسيت تخليل لحيته فقبض على يدي وأدخل أصابعي في لحيته يخللها . وقال سهل بن عبد الله كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل هذا حال الصوفية وطريقهم وكلّ من يدعي حالا على غير هذا الوجه فمدع مفتون كذاب .

[الباب الخامس في ماهية التصوف]

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل في كتابه قال أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف

فى كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له مادام اسمى فى ذلك الكتاب[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام[2] » وقال ﷺ « ليس أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام[3] » و « قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك فقال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد[4] » وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ويقول بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم فحنّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل ـ من يطع الرسول فقد أطاع الله ـ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب فقال تعالى ـ عفا الله عنك لم أذنت لهم ـ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال عز وجل ـ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم ـ الآية ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع لا تأكلنى فإنى مسمومة بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا قليل بأبى أنت وأمى يارسول الله لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالستنا ولو لم تنكح

والمستغفرى فى الدعوات حين يسمع الدعاء للصلاة وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة من حديث أبى الدرداء ذكر الصلاة فيه وله والمستغفرى فى الدعوات بسند ضعيف من حديث أبى رافع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان فذكر حديثا فيه وإذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة الحديث وزاد وتقبل شفاعته فى أمته ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ ثم سلوا الله لى الوسيلة وفيه فمن سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة (١) حديث من صلى علىّ فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمى فى ذلك الكتاب الطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٢) حديث إن فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام تقدم فى آخر الحج (٣) حديث ليس أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام د من حديث أبى هريرة بسند جيد (٤) حديث قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته الحديث متفق

الشيرازى إجازة قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال أنا إبراهيم ابن أحمد بن محمد ابن رجاء قال ثنا عبد الله بن أحمد البغدادى قال ثنا عثمان ابن سعد قال ثنا عمر ابن أسد عن مالك ابن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة » فالفقر كائن فى ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه . قال رويم التصوف مبنى على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار وقال الجنيد وقد سئل عن التصوف فقال أن تكون مع الله بلا علاقة . وقال :

إلا كفؤا لك مانكحت إلينا ولولم تؤاكل إلا كفؤا لك ماواكلتنا فلقدوالله جالستنا ونكحت إلينا ووا كلتناولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم (١) . وقال بعضهم كنت أكتب الحديث وأصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النام فقال لى أماتتم الصلاة على في كتابك فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه وروى عن أبى الحسن قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النام فقلت يارسول الله بم جوزى الشافعى عنك حيث يقول فى كتابه الرسالة وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون فقال ﷺ جوزى عنى أنه لايوقف للحساب .

(فضيلة الاستغفار)

قال الله عزوجل ـ والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ وقال علقمة والأسود قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم فى كتاب الله عز وجل آيتان ماأذنب عبدذنبا فقرأهما واستغفرالله عز وجل إلاغفر الله تعالى له ـ والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ـ الآية وقوله عزوجل ـ ومن يعمل سوءا أويظلم نفسه ثم يستغفرالله يجد الله غفورا رحيما ـ وقال عز وجل ـ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ـ وقال تعالى ـ والمستغفرين بالأسحار ـ وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفرلى إنك أنت التواب الرحيم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم «من أكثر من الاستغفار جعل الله عزوجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم

عليه من حديث أبى حميد الساعدى (١) حديث عمر فى حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والاسراء به على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح وكلام الشاة المسمومة وأنه دمى وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولعق أصابعه وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى فحديث حنين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وغيره وحديث الاسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح وحديث كلام الشاة المسمومة رواه د من حديث جابر وفيه انقطاع وحديث أنه دمى وجهه وكسر رباعيته متفق عليه من حديث سهل بن سعد فى غزوة أحد وحديث اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون رواه البيهقى فى دلائل النبوة والحديث فى الصحيح من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبى من الأنبياء ضربه قومه وحديث لبس الصوف رواه الطيالسى من حديث سهل بن سعد وحديث ركوبه الحمار وإردافه خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد فى الزهد من حديث الحسن مرسلا وللبخارى من حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك (٢) حديث كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفرلى إنك أنت التواب الرحيم الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح إن كان أبوعبيدة سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة أنه كان يكثر أن يقول ذلك فى ركوعه وسجوده دون قوله إنك أنت التواب الرحيم (٣) حديث من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل غم مخرجا ورزقه من حيث لايحتسب د ن فى اليوم والليلة و ه ك وقال صحيح الاسناد من حديث ابن عباس وصححه ابن حبان .

معروف الكرخى التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف . وسئل الشبلى : عن حقيقة الفقر فقال أن لايستغنى بشىء دون الحق . وقال أبو الحسين النورى نعت الفقير السكون عند العدم والبذل والايثار عند الوجود . وقال بعضهم إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذر أن يدخل عليه الغنى فيفسد فقره كما أن الغنى يحترز من الفقير حذر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه . وبالاسناد الذى سبق إلى أبى عبد الرحمن قال سمعت أبا عبد الرحمن الرازى يقول سمعت مظفرا القرميسينى يقول الفقير الذى لايكون له إلى الله حاجة قال

سبعين مرة (١) » هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر أو عدد رمل عالج أو عدد ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا (٣) » وقال ﷺ في حديث آخر « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف (٤) » وقال حذيفة كنت ذرب اللسان على أهلي فقلت « يارسول الله لقد خشيت أن يدخلني لساني النار فقال النبي صلى الله عليه وسلم فأين أنت من الاستغفار فاني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة (٥) » وقالت عائشة رضي الله عنها قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فان التوبة من الذنب الندم والاستغفار (٦) » وكان صلى الله عليه وسلم يقول في الاستغفار « اللهم اغفرلي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفرلي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفرلي ماقدمت وماأخرت وماأسررت وماأعلنت وماأنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير (٧) » وقال علي رضي الله عنه كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته فاذا حلف صدقته قال وحدثني أبوبكر وصدق أبوبكر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن عبد يذنب ذنب فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له ثم تلا قوله عز وجل ـ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ـ (٨) » الآية . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه فان تاب

وسمعته يقول سألت أبا بكر المصري عن الفقير فقال الذي لايملك ولايملك (قوله لايكون له إلى الله حاجة) معناه أنه مشغول بوظائف عبوديته تام الثقة بربه عالم بحسن كلاءته به لايحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه بعلم الله بحاله فيرى السؤال في البين زيادة ، وأقوال المشايخ تتنوع معانيها لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال في أوقات دون أوقات وتحتاج في تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط فقد تذكر أشياء في معنى التصوف ذكر مثلها في معنى الفقر وتذكر أشياء في معنى الفقر ذكر مثلها في معنى التصوف وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل فقد تشتبه الاشارات في الفقر بمعاني الزهد تارة وبمعاني التصوف

---

(١) حديث إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة خ من حديث أبي هريرة إلا أنه قال أكثر من سبعين وهو في الدعاء للطبراني كما ذكره المصنف (٢) حديث إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة م من حديث الأغر (٣) حديث من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر الحديث ت من حديث أبي سعيد وقال غريب لانعرفه إلا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافي . قلت الوصافي وإن كان ضعيفا فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة رواه خ في التاريخ دون قوله حين يأوي إلى فراشه وقوله ثلاث مرات (٤) حديث من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف د ت من حديث زيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت ورجاله موثقون ورواه ابن مسعود و ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين (٥) حديث حذيفة كنت ذرب اللسان على أهلي الحديث وفيه أين أنت عن الاستغفار ن في اليوم والليلة و ه ك وقال صحيح على شرط الشيخين (٦) حديث عائشة إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله فان التوبة من الذنب الندم والاستغفار متفق عليه دون قوله فان التوبة الخ وزاد وتوبي إليه فان العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه وللطبراني في الدعاء فان العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له (٧) حديث كان يقول اللهم اغفرلي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وماأنت أعلم به مني اللهم اغفرلي جدي وهزلي متفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم (٨) حديث علي عن أبي بكر مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له أصحاب السنن وحسنه ت .

ونزع واستغفر صقل قلبه منها فان زاد زادت حتى تغلف قلبه [1] فذلك الران الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه ـ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ـ » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الله سبحانه ثيرفع الدرجة للعبد فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه فيقول عز وجل باستغفار ولدك لك [2] » وروت عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أذنب العبد ذنبا فقال اللهم اغفرلى فيقول الله عز وجل أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب، عبدى اعمل ماشئت فقد غفرت لك [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماأصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة [5] » وقال ﷺ « إن رجلا لم يعمل خيرا قط نظر إلى السماء فقال إن لى ربا يارب فاغفرلى فقال الله عز وجل قد غفرت لك [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه غفرله وإن لم يستغفر [7] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفرله غفرت له ولا أبالى [8] » وقال ﷺ « من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفرلى فانه لايغفر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه ولو كانت كمدب النمل [9] » وروى « إن أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك خلقتنى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذبك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء على نفسى بذنبى فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفرلى ذنوبى ماقدمت منها وماأخرت فانه لايغفر الذنوب جميعها إلا أنت [10] » الآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلىّ المتحابون بحبى والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت

نارة ولا يتبين لمسترشد بعضها من البعض . فنقول التصوف غير الفقر والزهد غير الفقر والتصوف غير الزهد فالتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد أوصاف وإضافات لايكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهدا وفقيرا . قال أبو حفص التصوف كله آداب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول . وقال أيضا حسن أداب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» . أخبرنا الشيخ رضى الدين أحمد بن إسماعيل إجازة

---

(١) حديث أبى هريرة إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه الحديث ت وصححه و ن فى اليوم والليلة و ه حب ك (٢) حديث أبى هريرة إن الله ليرفع العبد الدرجة فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه فيقول باستغفار ولدك لك رواه أحمد باسناد حسن (٣) حديث عائشة اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا ه وفيه على ابن زيد بن جدعان مختلف فيه (٤) حديث إذا أذنب العبد فقال اللهم اغفرلى يقول الله أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٥) حديث ماأصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة د ت من حديث أبى بكر وقال غريب وليس إسناده بالقوىّ (٦) حديث إن رجلا لم يعمل خيرا قط نظر إلى السماء فقال إن لى ربا يارب اغفرلى فقال الله تعالى قد غفرت لك لم أقف له على أصل (٧) حديث من أذنب فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٨) حديث يقول الله ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالى ت ه من حديث أبى ذر وقال ت حسن وأصله عند م بلفظ آخر (٩) حديث من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفرلى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه وإن كانت كمدبّ النمل البيهقى فى الدعوات من حديث على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كان عليك كعدد النمل أو كعدد الذر ذنوبا غفرها الله لك فذكره بزيادة لاإله إلا أنت فى أوله وفيه ابن لهيعة (١٠) حديث أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت الحديث خ من حديث شداد بن أوس دون قوله وقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ودون قوله ذنوبى ماقدمت منها وأخرت ودون قوله جميعا .

أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما داؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار . وقال على كرم الله وجه العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل وماهى قال الاستغفار وكان يقول ماألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه وقال الفضيل قول العبد أستغفر الله تفسيرها أقلنى وقال بعض العلماء العبد بين ذنب ونعمة لايصلحهما إلا الحمد والاستغفار وقال الربيع بن خيثم رحمه الله لايقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ولكن ليقل اللهم اغفرلى وتب على وقال الفضيل رحمه الله الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية رحمها الله استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير وقال بعض الحكماء من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا بالله عزوجل وهو لايعلم وسمع أعرابى وهو متعلق بأستار الكعبة يقول اللهم إن استغفارى مع إصرارى للؤم وإن تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز فكم تتحبب إلى بالنعم مع غناك عنى وكم أتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك يامن إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك ياأرحم الراحمين وقال أبو عبد الله الوراق لوكان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوبا لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصا إن شاء الله تعالى . اللهم إنى استغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ماوعدتك به من نفسى ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك وأستغفرك ياعالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته فى ضياء النهار وسواد الليل فى ملأ أوخلاء وسر وعلانية ياحليم ويقال إنه استغفار آدم عليه السلام وقيل الخضر عليه الصلاة السلام .

(الباب الثالث فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها المرء صباحا ومساء وبعقب كل صلاة)

فمنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثنى العباس إلى رسول الله ﷺ فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة فقام يصلى من الليل فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء اللهم أعطنى إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى وقلت حيلتى وقصر عملى وافتقرت إلى رحمتك فأسألك ياكافى الأمور وياشافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أوخير أنت معطيه أحدا من خلقك فانى أرغب إليك فيه وأسألكه يارب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولامضلين حربا لأعدائك وسلما لأوليائك نحب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وإنا لله وإنا إليه راجعون ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ماتريد سبحان الذى

قال أنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم قال أخبرنى والدى أبو القاسم القشيرى قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفى يقول سمعت عبد الله بن على يقول سئل أبو محمد الجريرى عن التصوف فقال الدخول فى كل خلق سنى والخروج عن كل خلق دنى فاذا عرف هذا المعنى فى التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر وقيل نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف وأهل الشام لايفرقون بين التصوف والفقر يقولون قال الله تعالى للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله هذا وصف الصوفية والله تعالى سماهم فقراء وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر تقول الفقير فى فقره

ليس

لبس العز وقال به سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذى لاينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى العزة والكرم سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدىّ ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا(١) » .

(دعاء عائشة رضى الله عنها)

قال رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل قولى اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم وأسألك الجنة وماقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ماسألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وأسألك ماقضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك ياأرحم الراحمين(٢) » .

(دعاء فاطمة رضى الله عنها)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يافاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله(٣) » .

(دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه)

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول « اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك وروحك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد ﷺ وعليهم أجمعين وبكل وحى أوحيته أو قضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم وأسألك باسمك الذى بثثت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذى وضعته على السموات فاستقلت وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فرست وأسألك باسمك الذى استقلّ به عرشك وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فإنه لاحول ولاقوة إلا بك ياأرحم الراحمين(٤) » .

متمسك به متحقق بفضله يؤثره على الغنى متطلع إلى ما تحقق من العوض عند الله حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام » فكلما لاحظ العوض الباقى أمسك عن الحاصل الفانى وعانق الفقر والقلة وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها والصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة فانه ابن وقته وأيضا ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة والاختيار والإرادة علة فى حال الصوفى لأن الصوفى صار قائما فى الأشياء

---

(١) حديث ابن عباس اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلمّ بها شعثى الحديث ت وقال غريب ولم يذكر فى أوله بعث العباس لابنه عبدالله ولا نومه فى بيت ميمونة وهو بهذه الزيادة فى الدعاء للطبرانى (٢) حديث قوله لعائشة عليك بالجوامع الكوامل قولى اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم الحديث ه و ك وصححه من حديثها (٣) حديث يافاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله ن فى اليوم والليلة و ك من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين (٤) حديث علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك الحديث فى الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من رواية

(دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه)

روى أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ثم لم ينسهن إياه أبدا قال فقلت بلى يارسول الله قال قل : اللهم إنى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى وخذ إلى الخير بناصيتى واجعل الاسلام منتهى رضاى اللهم إنى ضعيف فقونى وإنى ذليل فأعزنى وإنى فقير فأغننى يا أرحم الراحمين (١) » .

(دعاء قبيصة بن المخارق)

إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « علمنى كلمات ينفعنى الله عز وجل بها فقد كبر سنى وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام أما لدنياك فاذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فانك إذا قلتهن أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج وأما لآخرتك فقل اللهم اهدنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأنزل على من بركاتك ثم قال صلى الله عليه وسلم أما إنه إذا وفى بهن عبد يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء (٢) » .

(دعاء أبى الدرداء رضى الله عنه)

« قيل لأبى الدرداء رضى الله عنه قد احترقت دارك وكانت النار قد وقعت فى محلته فقال ما كان الله ليفعل ذلك فقيل له ذلك ثلاثا وهو يقول ما كان الله ليفعل من ذلك ثم أتاه آت فقال يا أبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت قال قد علمت ذلك فقيل له ماندرى أى قوليك أعجب قال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شىء وقد قلتهن وهى اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم (٣) » .

(دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام)

كان يقول إذا أصبح اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها لى وماعملت فيه من سيئة فاغفرها لى إنك غفور رحيم ودود كريم قال ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

(دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم)

كان يقول اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ماأكره ولا أملك نفع ماأرجو وأصبح الأمر بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير أفقر منى اللهم لاتشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا تسلط على من لا يرحمنى ياحى ياقيوم .

بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ولا فى صورة غنى وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيــه ويدخله عليه ويعلم الاذن من الله تعـالى فى الدخول فى الشىء وقد يدخل فى صورة سعة مباينة للفقر باذن من الله تعـالى ويرى الفضيلة حينئذ فى السعة لمكان الاذن من الله فيه ولا يفسح فى السعة والدخول فيها للصادقين إلا بعــد إحكامهم علم الاذن وفى هـذا مزلة للأقدام وباب دعوى للمدعين وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المحال ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة فاذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف وعلم أن الفـــقر أساس التصوف وبه قوامــه على معنى أن الوصول

عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه أن أبا بكر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنى أتعلم القرآن ويتفلت منى فذكره وعبد الملك وأبوه ضعيفان وهو منقطع بين هارون وأبى بكر .

(١) حديث يابريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه الحديث ك من حديث بريدة وقال صحيح الاسناد (٢) حديث إن قبيصة بن المخارق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى كلمات ينفعنى الله بها فقد كبرت سنى وعجزت الحديث ابن السنى فى اليوم والليلة من حديث ابن عباس وهو عند أحمد فى المسند مختصرا من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم (٣) حديث قيل لأبى الدرداء أحرقت دارك فقال ما كان الله ليفعل ذلك الحديث الطبرانى فى الدعاء من حديث أبى الدرداء ضعيف

(دعاء الخضر عليه السلام)

يقال إن الخضر والياس عليهما السلام إذا التقيا فى كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات : باسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى .

(دعاء معروف الكرخى رضى الله عنه)

قال محمد بن حسان قال لى معروف الكرخى رحمه الله ألا أعلمك عشر كلمات خمس للدنيا وخمس للآخرة من دعاء الله عزوجل بهن وجد الله تعالى عندهن قلت اكتبها لى قال لا ولكن أرددها عليك كما ردها على بكر بن خنيس رحمه الله : حسبى الله لدينى حسبى الله لدنياى حسبى الله الكريم لما أهمنى حسبى الله الحليم القوى لمن بغى على حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء حسبى الله الرحيم عند الموت حسبى الله الرءوف عند المسألة فى القبر حسبى الله الكريم عند الحساب حسبى الله اللطيف عند الميزان حسبى الله القدير عند الصراط حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وقد روى عن أبى الدرداء أنه قال : من قال فى كل يوم سبع مرات ـ فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ـ كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا .

(دعاء عتبة الغلام)

وقد رؤى فى المنام بعد موته فقال دخلت الجنة بهذه الكلمات : اللهم ياهادى الضلين ويا راحم المذنبين ويامقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين .

(دعاء آدم عليه الصلاة والسلام)

قالت عائشة رضى الله عنها لما أراد الله عزوجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعا وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والإكرام فأوحى الله عز وجل إليه إنى قد غفرت لك ولم يأتنى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها .

(دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه)

رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله تعالى يمجد نفسه كل يوم ويقول إنى أنا الله رب العالمين إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلى العظيم إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدئ كل شئ وإلى يعود العزيز الحكيم الرحمن الرحيم مالك يوم الدين خالق الخير والشر خالق الجنة والنار الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا الفرد الوتر عالم الغيب والشهادة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الكبير المتعال المقتدر القهار الحليم الكريم أهل الثناء والمجد أعلم السر وأخفى القادر الرزاق فوق الخلق والخليقة (١) » وذكر قبل كل كلمة إنى أنا الله لا إله إلا أنا كما أوردناه

(١) حديث على إن الله تعالى يمجد نفسه كل يوم فيقول إنى أنا الله رب العالمين إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

إلى رتب التصوف طريقه الفقر لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر . قال الجنيد رحمة الله عليه : التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به وهذا المعنى هو الذى ذكرناه من كونه قائما فى الأشياء بالله لا بنفسه والفقير والزاهد مكونان فى الأشياء بنفسهما واقفان مع إرادتهما مجتهدان مبلغ علمهما والصوفى متهم لنفسه مستقل لعلمه غير راكن إلى معلومه قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه . قال ذو النون المصرى رحمة الله عليه الصوفى من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب وقال أيضا الصوفية آثروا الله تعالى على كل شئ فآثرهم الله على كل شئ فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم

فى الأول فمن دعا بهذه الأسماء فليقل إنك أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا فمن دعا بهن كتب من الساجدين المجتبين الذين يجاورون محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم فى دار الجلال وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(دعاء المعتمر وهو وسليمان التيمى وتسبيحاته رضى الله عنه)

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا فى المنام ممن قتل شهيدا ببلاد الروم فقال ماأفضل مارأيت ثم من الأعمال ؟ قال رأيت تسبيحات ابن المعتمر من الله عز وجل بمكان وهى هذه : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عدد ماخلق وعدد ماهو خالق وزنة ماخلق وزنة ماهو خالق وملء ماخلق وملء ماهو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمته ومداد كلماته ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ماذكره به خلقه فى جميع مامضى وعدد ماهم ذاكروه فيما بقى فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم وتفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لاينقطع أوله ولا ينفد آخره .

(دعاء إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه)

روى إبراهيم بن بشار خادمه أنه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى : مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب والشهيد يومنا هذا يوم عيد اكتب لنا فيه مانقول بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال فى خلقه مايريد أصبحت بالله مؤمنا وبلقائه مصدقا وبحجته معترفا ومن ذنبى مستغفرا ولربوبية الله خاضعا ولسوى الله فى الآلهة جاحدا وإلى الله فقيرا وعلى الله متكلا وإلى الله منيبا أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذى لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكرا ونكيرا حق ووعدك حق ووعيدك حق ولقاءك حق والساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك مااستطعت أعوذ بك اللهم من شر ماصنعت ومن شر كل ذى شر اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى فانه لايغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فانه لايهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فانه لايصرف سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله بيديك وأنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك آمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد النبى الأمى وعلى آله وسلم تسليما كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يارب العالمين اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشربا رويا سائغا هنيا لانظمأ بعده أبدا واحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين اللهم اعصمنى من فتن الدنيا ووفقنى لما تحب وترضى وأصلح لى شأنى كله وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولا تضلنى وإن كنت ظالما سبحانك ياعلى ياعظيم يابارئ يارحيم ياعزيز ياجبار سبحان من سبحت له السموات بأكنافها وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن سبحان من سبح له كل شئ من مخلوقاته تباركت وتعاليت سبحانك ،

وإرادة الله على إرادة نفوسهم . قيل لبعضهم من أصحب من الطوائف قال الصوفية فان للقبيح عندهم وجها من المعاذير وليس للكبير من العمل عندهم وقع يرفعونك به فتعجبك نفسك وهذا علم لايوجد عند الفقير والزاهد لأن الزاهد يستعظم الترك ويستقبح الأخذ وهكذا الفقير وذلك لضيق وعائهم ووقوفهم على حد علمهم . وقال بعضهم الصوفى من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن والفقير والزاهد لايميزان كل التميز بين الخلقين الحسنين بل يختاران من الأخلاق أيضا ماهو أدعى إلى الترك والخروج عن شواغل الدنيا حا كان فى ذلك بطلهما والصوفى هو للستبين الأحسن من

سبحانك

سبحانك ياحيّ ياقيوم ياعليم ياحليم سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيي وتميت وأنت حيّ لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير .

(الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله)

يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء كما سيأتي ذكره في كتاب الأوراد فإن كنت من المريدين لحرث الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فما دعا به فقل في مفتتح دعواتك(١) أعقاب صلواتك(٢) سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وقل رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا (٣) ثلاث مرات وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ربّ كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه (٤) وقل اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي وأقل عثراتي واحفظني من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي(٥) اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين (٦) وقل اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٧) ثلاث مرات وقل اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت(٨) ثلاث مرات وقل اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يعتدى علي أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره(٩)

(الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث افتتاح الدعاء بسبحان ربي العلي الأعلى الوهاب تقدم في الباب الثاني في الدعاء (٢) حديث القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة (٣) حديث رضيت بالله ربا الحديث تقدم في الباب الأول من الأذكار (٤) حديث اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه د ت وصححه وحب و ك وصححه من حديث أبي هريرة أن أبا بكر الصديق قال يارسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت قال قل اللهم فذكره (٥) حديث اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتي وآمن روعتي وأقل عثرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي د ن ه ك من حديث ابن عمر قال لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح (٦) حديث اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله ولا تولني غيرك وإسناده ضعيف (٧) حديث اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت خ من حديث شداد بن أوس وقد تقدم (٨) حديث اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت ثلاث مرات د ن في اليوم والليلة من حديث أبي بكرة وقال ن جعفر بن ميمون ليس بالقوي (٩) حديث اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء الحديث

عند الله بصدق التجائه وحسن إنابته وحظ قربه ولطيف ولوجه وخروجه إلى الله تعالى لعلمه بربه وحظه من محادثته ومكالمته قال رويم التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد وقال عمرو بن عثمان المكي التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى في الوقت وقال بعضهم التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى وقيل التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع وقيل التصوف ترك التكلف وبذل الروح وقال سهل بن عبد الله الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر وسئل بعضهم عن التصوف

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا خاشعا سليما وخلقا مستقيما ولسانا صادقا وعملا متقبلا وأسألك من خير ماتعلم وأعوذ بك من شر ماتعلم وأستغفرك لماتعلم فانك تعلم ولاأعلم وأنت علام الغيوب (١) اللهم اغفرلي ماقدمت وماأخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فانك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد (٢) اللهم إني أسألك إيمانا لايرتد ونعيما لاينفد وقرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد (٣) اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب علي وتغفرلي وترحمني وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون (٤) اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ماكانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين (٥) اللهم اقسم لنا من خشيتك ماتحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة (٦) اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقا وأسكن في نفوسنا من عظمتك ماتذلل به جوارحنا لخدمتك . واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك (٧) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة ومغفرة (٨)

إلى قوله أوذنبا لايغفر أحمد و ك من حديث زيد بن ثابت في أثناء حديث وقال صحيح الاسناد (١) حديث اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد الحديث إلى قوله وأنت علام الغيوب ت ن ك وصححه من حديث شداد بن أوس قلت بل هو منقطع وضعيف (٢) حديث اللهم اغفرلي ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت الحديث إلى قوله وعلى كل غيب شهيد متفق عليه من حديث أبي موسى دون قوله وعلى كل غيب شهيد وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب (٣) حديث اللهم إني أسألك إيمانا لايرتد ونعيما لاينفد وقرة عين الأبد الحديث ن في اليوم والليلة و ك من حديث عبد الله بن مسعود دون قوله وقرة عين الأبد وقال صحيح الإسناد و ن من حديث عمار بن ياسر باسناد جيد وأسألك نعيما لايبيد وقرة عين لاتنقطع (٤) حديث اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات الحديث إلى قوله غير مفتون ت من حديث معاذ اللهم إني أسألك فعل الخيرات الحديث . وقال حسن صحيح ولم يذكر الطيبات وهي في الدعاء للطبراني من حديث عبد الرحمن بن عايش وقال أبو حاتم ليست له صحبة (٥) حديث اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي الحديث إلى قوله واجعلنا هداة مهتدين ن ك وقال صحيح الاسناد من حديث عمار بن ياسر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به (٦) حديث اللهم اقسم لنا من خشيتك ماتحول به بيننا وبين معصيتك الحديث ت وقال حسن و ن في اليوم والليلة و ك وقال صحيح على شرط خ من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختم مجلسه بذلك (٧) حديث اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحا الحديث إلى قوله واجعلنا أخشى لك من سواك لم أقف له على أصل (٨) حديث اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة عبد بن حميد في المنتخب والطبراني من حديث ابن أوفى بالشطر الأول فقط إلى قوله نجاحا وإسناده ضعيف .

فقال تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة . قال ذوالنون المصري رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت من أين أقبلت قالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع فقلت وأين تريدين قالت إلى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فقلت صفيهم لي فأنشأت :

قوم همومهم بالله قد علقت
فما لهم همم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم
ياحسن مطلبهم للواحد الصمد

الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء لملكه واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه (١) اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد (٢) اللهم صلى على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذي وعدته يوم الدين (٣) اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضاتك عنا ووفقنا لمحابك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا (٤) نسألك جوامع الخير وفاتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه (٥) اللهم بقدرتك عليّ تب عليّ إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك عني اعف عني إنك أنت الغفار الحليم وبعلمك بي ارفق بي إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لي ملكني نفسي ولا تسلطها عليّ إنك أنت الملك الجبار (٦) سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفرلي ذنبي إنك أنت ربي ولا يغفر الذنوب إلا أنت (٧) اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي (٨) اللهم ارزقني حلالا لا تعاقبني عليه وقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحا تقبله مني (٩) أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة (١٠) يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه

---

(١) حديث الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته الحديث إلى قوله وتصاغر كل شيء لكبريائه الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته إلى آخره وكذلك رواه في الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضا (٢) حديث اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته الحديث إلى قوله حميد مجيد تقدم في الباب الثاني (٣) حديث اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسول الأمين وأعطه المقام المحمود يوم الدين لم أجده بهذا اللفظ مجموعا و خ من حديث أبي سعيد اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وحب قط ك هق من حديث ابن مسعود. اللهم صل على محمد النبي الأمي و ن من حديث جابر وابعثه المقام المحمود الذي وعدته وهو عند خ بلفظ وابعثه مقاما محمودا قال قط إسناده حسن وقال ك صحيح وقال هق في المعرفة اسناده صحيح (٤) حديث اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين الحديث إلى قوله صرفنا بحسن اختيارك لنا لم أقف له على أصل (٥) حديث نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه طب من حديث أم سلمة أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات فذكر منها اللهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روي عنه إلا موسى بن عقبة (٦) حديث اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك على اعف عنى الحديث إلى قوله إنك الملك الجبار لم أقف له على أصل (٧) حديث سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفرلي ذنبي أنت ربي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت هق في الدعوات من حديث علي دون قوله ذنبي إنك أنت ربي وقد تقدم في الباب الثاني (٨) حديث اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي ت من حديث عمران ابن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه لحصين وقال حسن غريب ورواه في اليوم والليلة و ك من حديث حصين والد عمران وقال صحيح على شرط الشيخين (٩) حديث اللهم ارزقني حلالا لا تعاقبني فيه وأقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحا تقبله مني ك من حديث ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف على كل غائبة لي بخير وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه (١٠) حديث اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة ن

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف من المطاعم واللذات والولد ولا لبس ثياب فائق أنق ولا لروح سرور حل في بلد إلا مسارعة في إثر منزلة قد قارب الخطو فيها باعد الأبد فهم رهائن غدران وأودية وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد.

وقال الجنيد: الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح وقال أيضا هو كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شيء وكالقطر يسقي كل شيء وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول ويطول نقلها ونذكر ضابطا يجمع جمل معانيها فإن الألفاظ

المغفرة هب لي مالايضرك وأعطني مالاينقصك ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين أنت ولينا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ربنا اغفرلنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان إلى قوله عز وجل إنك لاتخلف الميعاد ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا إلى آخر السورة (١) رب اغفرلي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات (٢) رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا (٣). أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر (٤). اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع ومن طمع في غير مطمع ومن طمع حيث لامطمع (٥)

وان اختلفت متقاربة المعاني. فنقول الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لايزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه فبدوام الافتقار ينقى من الكدر وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفر منها إلى ربه فبدوام تصفيته جمعيته وبحركة نفسه تفرقته وكدره فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعالى — كونوا قوامين لله شهداء بالقسط — وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف قال بعضهم التصوف كله اضطراب فاذا وقع السكون فلا تصوف والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى

من حديث أبي بكر الصديق بلفظ سلوا الله المعافاة فانه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة وفي رواية للبيهقي سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فانه ما أوتي العبد بعد اليقين خيرا من العافية وفي رواية لأحمد أسأل الله العفو والعافية (١) حديث يامن لاتضره الذنوب ولاتنقصه المغفرة هب لي مالايضرك وأعطني مالاينقصك أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف (٢) حديث رب اغفرلي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ده باسناد حسن من حديث أبي أسيد الساعدي قال رجل من بني سلمة هل بقي علي من بر أبوي شيء قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما الحديث ولأبي الشيخ حب في الثواب والمستغفري في الدعوات من حديث أنس من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مضى من أول الدهر أوهو كائن إلى يوم القيامة وسنده ضعيف وفي صحيح حب من حديث أبي سعيد أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل في دعائه اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فانها زكاة (٣) حديث رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين أحمد من حديث أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول رب اغفر وارحم واهدني السبيل الأقوم وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه وللطبراني في الدعاء من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا سعى في بطن المسيل اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه ورواه موقوفا عليه بسند صحيح (٤) حديث اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر خ من حديث سعد بن أبي وقاص (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع وطمع في غير مطمع ومن طمع حيث لامطمع أحمد ك من حديث معاذ وقال مستقيم الاسناد.

اللهم إني أعوذ بك من علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لايسمع ونفس لاتشبع وأعوذ بك من الجوع فانه بئس الضجيع ومن الخيانة فانها بئست البطانة ومن الكسل والبخل والجبن والهرم ومن أن أردّ إلى أرذل العمر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات اللهم إنا نسألك قلوبا أوّاهة مخبتة منيبة في سبيلك اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار (١) . اللهم إني أعوذ بك من التردي وأعوذ بك من الغم والغرق والهدم وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبرا وأعوذ بك من أن أموت في تطلب الدنيا (٢) . اللهم إني أعوذ بك من شر ماعلمت ومن شر مالم أعلم (٣). اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء (٤). اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء (٥) . اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال (٦) اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر لساني وقلبي وشر مني (٧) اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فان جار البادية يتحول (٨) . اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام (٩)

(١) حديث اللهم إني أعوذ بك من علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لايسمع الحديث إلى قوله والنجاة من النار ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح الاسناد وليس كما قال إلا أنه ورد مفرقا في أحاديث جيدة الأسانيد (٢) حديث اللهم إني أعوذ بك من التردي وأعوذ بك من الغم الحديث إلى قوله وأعوذ بك أن أموت في تطلب الدنيا د ن ك وصحح إسناده من حديث أبي اليسر واسمه كعب ابن عمر بزيادة فيه دون قوله وأعوذ بك أن أموت في تطلب دنيا وتقدم من عند البخاري الاستعاذة من فتنة الدنيا (٣) حديث اللهم إني أعوذ بك من شر ماعلمت ومن شر مالم أعلم قلت هكذا في غير نسخة علمت وإنما هو عملت وأعمل كذا رواه م من حديث عائشة ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل في الاستعاذة وفيه وشر مالم أعمل وشر مالم أعلم (٤) حديث اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء ت وحسنه و ك وصححه واللفظ له من حديث قطبة ابن مالك (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال ن ك وقال صحيح الاسناد من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول من الكفر والدين وفي رواية للنسائي من الكفر والفقر ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال وللشيخين من حديث عائشة في حديث قال فيه ومن شر فتنة المسيح الدجال (٧) حديث اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وقلبي وشر مني د ن ت وحسنه ك وصحح إسناده من حديث سهل بن حميد (٨) حديث اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فان جار البادية يتحول ن ك من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط م (٩) حديث اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام د ن مقتصرين على الأربعة الأخيرة و ك بتمامه من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

الحضرة الإلهية يعني أن روح الصوفي متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب والنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها ولابد للصوفي من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى الصوفي جميع التفرق في الاشارات [الباب السادس في ذكر تسميتهم بهذا الاسم] أخبرنا الشيخ أبوذرعة طاهر بن محمد بن طاهر قال أخبرني والدي قال أنا أبوعلي الشافعي بمكة حرسها الله تعالى قال أنا أحمد بن إبراهيم قال أنا أبوجعفر محمد ابن إبراهيم قال أنا أبوعبد الله المخزومي قال ثنا سفيان عن مسلم عن أنس بن مالك قال كان رسول

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك(١). اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من المغرم والمأثم(٢). اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر(٣). اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء(٤) وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين.

(الباب الخامس في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث)

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة فإذا خرجت إلى المسجد فقل: اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً اللهم أعطني(٥) نوراً وقل أيضاً اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك(٦) فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل باسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي(٧) بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم باسم الله التكلان على الله(٨) فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك(٩)

---

(١) حديث اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك ومن جميع سخطك م من حديث ابن عمر (٢) حديث اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر م من حديث زيد بن أرقم في أثناء حديث اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ونفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع وشك أبو المعتمر في سماعه من أنس وللنسائي بإسناد جيد من حديث عمر في أثناء حديث وأعوذ بك و د من حديث أنس اللهم إني أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر (٤) حديث اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء ن ك من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم.

(الباب الخامس في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث)

(٥) حديث القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس (٦) حديث اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك الحديث من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن (٧) حديث القول عند الخروج من المنزل لحاجته باسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال ت حسن صحيح (٨) حديث بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله ه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزله قال باسم الله فذكره إلا أنه لم يقل الرحمن الرحيم وفيه ضعف (٩) حديث القول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ت ه من حديث فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ت حسن وليس إسناده بمتصل ولمسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وزاد د في أوله فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم.

لله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام. روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «مرّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام» وقيل إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى. وقال الحسن البصري رضي الله عنه لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا كانوا يخرون من الجوع حتى يحسبهم

وقدم

وقدم رجلك اليمنى فى الدخول فاذا رأيت فى المسجد من يبيع أو يبتاع فقل لاأربح الله تجارتك (١) وإذا رأيت من ينشد ضالة فى المسجد فقل لاردها الله عليك أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فاذا صليت ركعتى الصبح فقل باسم الله اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى الدعاء إلى آخره (٣) كما أوردناه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ فاذا ركعت فقل فى ركوعك : اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى خشع سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين (٤) وإن أحببت فقل سبحان ربى العظيم ثلاث مرات (٥) أو سبوح قدوس رب الملائكة والروح (٦) فاذا رفعت رأسك من الركوع فقل سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد وكلنا لك عبد لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد (٧) وإذا سجدت فقل اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى وهذا ماجنيت على نفسى فاغفر لى فانه لايغفر الذنوب إلا أنت (٨) أو تقول سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات (٩) فاذا فرغت من الصلاة فقل اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام (١٠) وتدعو بسائر الأدعية التى ذكرناها فاذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى فانه لايغفر الذنوب إلا أنت (١١) فاذا دخلت السوق فقل لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير (١٢) باسم الله اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير مافيها اللهم إنى أعوذ بك من شرها وشر مافيها اللهم إنى أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا

(١) حديث القول إذا رأى من يبيع أو يبتاع فى المسجد لاأربح الله تجارتك ت وقال حسن غريب و ن فى اليوم والليلة من حديث أبى هريرة (٢) حديث القول إذا رأى من ينشد ضالة فى المسجد لاردها الله عليك م من حديث أبى هريرة (٣) حديث ابن عباس فى القول بعد ركعتى الصبح اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى الخ قد تقدم فى الدعاء (٤) حديث ابن عباس فى القول فى الركوع اللهم لك ركعت ولك أسلمت الحديث م من حديث على (٥) حديث القول فيه سبحان ربى العظيم ثلاثا د ت هـ من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع (٦) حديث القول فيه سبوح قدوس رب الملائكة والروح م من حديث عائشة (٧) حديث القول عند الرفع من الركوع سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد الحديث م من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس دون قوله سمع الله لمن حمده فهى فى اليوم والليلة للحسن بن على العمرى وهى عند م من حديث ابن أبى أوفى وعند خ من حديث أبى هريرة (٨) حديث القول فى السجود اللهم لك سجدت الحديث م من حديث على اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى وهذا ماجنيت على نفسى فاغفر لى فانه لايغفر الذنوب إلا أنت ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح الاسناد وليس كما قال بل هو ضعيف (٩) حديث سبحان ربى الأعلى ثلاثا د ت هـ من حديث ابن مسعود وهو منقطع (١٠) حديث القول إذا فرغ من الصلاة اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام م من حديث ثوبان (١١) حديث كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لاإله إلا أنت ن فى اليوم والليلة من حديث رافع بن خديج باسناد حسن (١٢) حديث القول عند دخول السوق لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير من حديث عمر وقال غريب و ك وقال صحيح على شرط الشيخين .

الأعراب مجانين وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق فى ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث وقال بعضهم إنه ليؤذينى ريح هؤلاء أمايؤذيك ريحهم يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة واستغراقهم فى أمر الآخرة فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها لشدة شغلهم بخدمة مولاهم وانصراف همهم إلى أمر الآخرة وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم فى الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه

فاجرة أو صفقة خاسرة[١] فان كان عليك دين فقل اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك [٢] فإذا لبست ثوبا جديدا فقل اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ماصنع له وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له[٣] وإذا رأيت شيئا من الطيرة تكرهه فقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لاحول ولاقوة إلا بالله [٤] وإذا رأيت الهلال فقل اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عمن تسخط ربي وربك الله[٥] ويقول هلال رشد وخير آمنت بخالقك[٦] اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر[٧] وتكبر قبله أولا ثلاثا وإذا هبت الريح فقل اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير مافيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر مافيها ومن شر ما أرسلت به[٨] وإذا بلغك وفاة أحد فقل إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله [٩]

(١) حديث باسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير مافيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر مافيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة ك من حديث بريدة وقال أقربها لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة . قلت فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدي مختلف فيه (٢) حديث دعاء الدين اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك ت وقال حسن غريب و ك وقال صحيح الاسناد من حديث علي بن أبي طالب (٣) حديث الدعاء إذا لبس ثوبا جديدا اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ماصنع له وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له د ت وقال حسن و ن في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري ورواه ابن السني بلفظ المصنف (٤) حديث القول إذا رأى شيئا من الطيرة يكرهه اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لاحول ولاقوة إلا بالله ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة وهو في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلا ورجاله ثقات وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبة بن عامر فجعله مسندا (٥) حديث التكبير عند رؤية الهلال ثلاثا ثم يقول اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والاسلام ربي وربك الله الدارمي من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل ثلاثا ورواه ت وحسنه من حديث طلحة بن عبيدالله دون ذكر التكبير وللبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال كبر ثلاثا (٦) حديث هلال خير ورشد آمنت بخالقك د مرسلا من حديث قتادة أنه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذي خلقك ثلاث مرات وأسنده الدارقطني في الإفراد والطبراني في الأوسط من حديث أنس وقال د وليس في هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث مسند صحيح (٧) حديث اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر ابن أبي شيبة وأحمد في مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوي عنه حدثني من لا أتهم (٨) حديث القول إذا هبت الريح اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير مافيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر مافيها وشر ما أرسلت به ت وقال حسن صحيح و ن في اليوم والليلة من حديث أبي بن كعب (٩) حديث القول إذا بلغه وفاة أحد إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه من المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله ابن السني في اليوم والليلة وحب من حديث أم سلمة إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون ولمسلم من حديثها اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين

لا يقيدهم وصف ولا يحبسهم نعت وأبواب المزيد علما وحالا عليهم مفتوحة بواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم فلما تعذر تقيدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم نسبوا إلى ظاهر اللبسة وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم وأدعى إلى حصر وصفهم لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم وأيضا لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره ولما كان الاعتزاء إلى القرب وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يعز كشفه والإشارة إليه وقعت الإشارة إلى زيهم سترا لحالهم وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة فكان هذا أقرب إلى الأدب والأدب في الظاهر والباطن والقول والفعل

ويقول

وتقول عند التصدق ـ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ـ وتقول عند الخسران ـ عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ـ وتقول عند ابتداء الأمور ـ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ـ رب اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى ـ وتقول عند النظر إلى السماء ـ ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ـ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ـ وإذا سمعت صوت الرعد فقل سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خفيته (١) فان رأيت الصواعق فقل اللهم لاتقتلنا بغضبك ولاتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك (٢) قاله كعب فاذا أمطرت السماء فقل اللهم سقيا هنيئا وصيبا نافعا (٣) اللهم اجعله صيب رحمة ولاتجعله صيب عذاب (٤) فاذا غضبت فقل اللهم اغفرلى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من الشيطان الرجيم (٥) فاذا خفت قوما فقل اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم (٦) فاذا غزوت فقل اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل (٧) وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل ذكر الله من ذكرنى بخير (٨) فاذا رأيت استجابة دعائك فقل الحمد لله الذى بعزته وجلاله تتم الصالحات وإذا أبطأت فقل الحمد لله على كل حال (٩) وإذا سمعت أذان المغرب فقل اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفرلى (١٠) وإذا أصابك هم فقل اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضائك أسألك بكل اسم هولك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أوعلمته أحدا من خلقك أواستأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونورصدرى وجلاء غمى وذهاب حزنى وهمى (١١)

عما دأمر الصوفية وفيه معنى آخر وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن تقللهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم حتى إن المبتدئ المريد الذى يؤثر طريقهم ويحب الدخول فى أمرهم يوطن نفسه على التقشف والتقلل ويعلم أن المأكول أيضا من جنس الملبوس فيدخل فى طريقهم على بصيرة وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدئ والاشارة إلى شئ من حالهم فى تسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات فكان تسميتهم بهذا أنفع وأولى وأيضا غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى وكل ماكان أبعد من

واخلفه فى عقبه فى الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له فى قبره ونور له فيه (١) حديث القول إذا سمع صوت الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته مالك فى الموطأ عن عبدالله بن الزبير موقوفا ولم أجده مرفوعا (٢) حديث القول عند الصواعق اللهم لاتقتلنا بغضبك وتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك ت وقال غريب و ن فى اليوم والليلة من حديث ابن عمر وابن السنى باسناد حسن (٣) حديث القول عند المطر اللهم سقيا هنيئا وصيبا نافعا خ من حديث عائشة كان إذا رأى المطر قال اللهم اجعله صيبا نافعا و ه سيبا بالسين أوله و ن فى اليوم والليلة اللهم اجعله صيبا هنيئا وإسنادها صحيح (٤) حديث اللهم اجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب ن فى اليوم والليلة من حديث سعيد بن المسيب مرسلا (٥) حديث القول إذا غضب اللهم اغفر ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من الشيطان الرجيم ابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف (٦) حديث القول إذا خاف قوما اللهم إنى أجعلك فى نحورهم وأعوذ بك من شرورهم د ن فى اليوم والليلة من حديث أبى موسى بسند صحيح (٧) حديث القول إذا غزا اللهم أنت عضدى ونصيرى بك أقاتل د ت ن من حديث أنس قال ت حسن غريب (٨) حديث القول عند طنين الأذن اللهم صل على محمد ذكر الله بخير من ذكرنى الطبرانى وابن عدى وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث أبى رافع بسند ضعيف (٩) حديث القول إذا رأى استجابة دعائه الحمدلله الذى بنعمته تتم الصالحات تقدم فى الدعاء (١٠) حديث القول إذا سمع أذان المغرب اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفرلى ت د وقال غريب و ك من حديث أم سلمة دون قوله وحضور صلواتك فانها عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحسن بن على العمرى فى اليوم والليلة (١١) حديث القول إذا أصابه هم اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك الحديث أحمد وحب ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط م إن سلم من إرسال عبد الرحمن

قال صلى الله عليه وسلم « ماأصاب أحدا حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحا فقيل له يارسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » وإذا وجدت وجعا فى جسدك أوجسد غيرك فارقه برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى الانسان قرحة أوجرحا وضع سبابته على الأرض ثم رفعها وقال باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا باذن ربنا (١) » وإذا وجدت وجعا فى جسدك فضع يدك على الذى يتألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ماأجد وأحاذر (٢) » فاذا أصابك كرب فقل لاإله إلا الله العلى الحليم لاإله إلا الله رب العرش العظيم لاإله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم (٣) فان أردت النوم فتوضأ أولا ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ثم كبر الله تعالى أربعا وثلاثين وسبحه ثلاثة وثلاثين واحمده ثلاثا وثلاثين (٤) ثم قل اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم إنى لاأستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولوحرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك (٥) اللهم باسمك أحيا وأموت (٦) اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شىء ومليكه فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والانجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء اقض عنى الدين وأغننى من الفقر (٧) اللهم إنك خلقت نفسى وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها اللهم إن أمتها فاغفر لها وإن أحييتها فاحفظها اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة (٨) باسمك ربى وضعت جنبى فاغفر لى ذنبى (٩) اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك (١٠) اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك

عن أبيه فانه مختلف فى سماعه من أبيه (١) حديث رقية رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا باذن ربنا متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث وضع يده على الذى يألم من جسده ويقول باسم الله ثلاثا ويقول أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ماأجد وأحاذر سبع مرات م من حديث عثمان بن أبى العاص (٣) حديث دعاء الكرب لاإله إلا الله العلى الحليم الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس (٤) حديث التكبير عند النوم أربعا وثلاثين والتسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد ثلاثا وثلاثين متفق عليه من حديث على (٥) حديث القول عند إرادة النوم اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لاأستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك النسائى فى اليوم والليلة من حديث علىّ وفيه انقطاع (٦) حديث اللهم باسمك أحيا وأموت خ من حديث حذيفة و م من حديث البراء (٧) حديث اللهم رب السموات والأرض رب كل شىء ومليكه فالق الحب والنوى الحديث إلى قوله وأغننا من الفقر م من حديث أبى هريرة (٨) حديث اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها الحديث إلى قوله إنى أسألك العافية م من حديث ابن عمر (٩) حديث باسمك ربى وضعت جنبى فاغفرلى ذنبى ن فى اليوم والليلة من حديث عبد الله بن عمرو بسند جيد وللشيخين من حديث أبى هريرة باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فاغفرلها وقال خ فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين (١٠) حديث اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك ت فى الشمائل من حديث ابن مسعود وهو عند د من حديث حفصة بلفظ تبعث وكذا رواه ت من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه .

الدعوى كان أليق بحالهم وأيضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن والحكم بالظاهر أوفق وأولى فالقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ويقرب أن يقال لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفى والتوارى كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التى لايرغب فيها ولايلتفت إليها فيقال صوفى نسبة إلى الصوفة كما يقال كوفى نسبة إلى الكوفة وهذا ماذكره بعض أهل العلم والمعنى المقصود به قريب يلائم الاشتقاق ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد أخبرنا أبو زرعة طاهر عن

وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لاملجأ ولا منجا منك إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت (١) ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وليقل قبل ذلك اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى بأحب الأعمال إليك تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعدا أسألك فتعطينى وأستغفرك فتغفرلى وأدعوك فتستجيب لى (٢) فاذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور (٣) أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله (٤) أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (٥) اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير (٦) اللهم إنى أسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أو نجره إلى مسلم فإنك قلت ـ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ـ (٧) اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا أسألك خير هذا اليوم وخير مافيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه (٨)

---

(١) حديث اللهم إنى أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك الحديث متفق عليه من حديث البراء

(٢) حديث اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى فى أحب الأعمال إليك تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعدا أسألك فتعطينى وأستغفرك فتغفرلى وأدعوك فتستجيب لى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس اللهم ابعثنا فى أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفرلنا وإسناده ضعيف وهو معروف من قول حبيب الطائى كما رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء (٣) حديث القول إذا استيقظ من منامه الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور خ من حديث حذيفة و م من حديث البراء (٤) حديث أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة أصبحنا وأصبح الملك والحمد والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شىء لله رب العالمين وله فى الدعاء من حديث ابن أبى أوفى أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وماسكن فيهما لله وإسنادهما ضعيف ولمسلم من حديث ابن مسعود أصبحنا وأصبح الملك لله (٥) حديث أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ن فى اليوم والليلة من حديث عبد الرحمن بن أبزى بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبزى عن أبى بن كعب مرفوعا (٦) حديث اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير أصحاب السنن وحب وحسنه ت إلا أنهم قالوا وإليك النشور ولابن السنى وإليك المصير (٧) حديث اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أو نجره إلى مسلم الحديث لم أجد أوله و ت من حديث أبى بكر فى حديث له أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن نقترف على أنفسنا سوءا أو نجره إلى مسلم رواه د من حديث أبى مالك الأشعرى باسناد جيد (٨) حديث اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا أسألك خير هذا اليوم وخير مافيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه قلت هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا اقض عنى الدين وأغننى من الفقر وقونى على الجهاد فى سبيلك ، وللدارقطنى فى الإفراد من حديث البراء نسألك خير هذا اليوم وخير ما بعده ونعوذ بك من شر

أبيه قال أنا عبد الرزاق ابن عبد الكريم قال أنا أبو الحسن محمد بن محمد قال ثنا أبو على اسمعيل بن محمد قال ثنا الحسن بن عرفة قال ثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبد الله بن الحرث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمه من صوف ونعلاه من جلد حمار غير مذكى . وقيل سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عزوجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه وقيل كان هذا الاسم فى الأصل صفوى فاستثقل ذلك وجعل صوفيا وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة

باسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله (١) رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا – ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير – (٢) وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول أمسينا ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ماذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم (٣) وإذا نظر فى المرآة قال الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهى وحسنها وجعلنى من المسلمين (٤) وإذا اشتريت خادما أوغلاما أودابة فخذ بناصيته وقل اللهم إنى أسألك خيره وخير ماجبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ماجبل عليه (٥) وإذا هنأت بالنكاح فقل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير (٦) وإذا قضيت الدين فقل للمقضى له بارك الله لك فى أهلك ومالك إذقال صلى الله عليه وسلم « إنما جزاء السلف الحمد والأداء (٧) »

هذا اليوم وشر مابعده د من حديث أبى مالك الأشعرى اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته أعوذ بك من شر مافيه وشر مابعده وسنده جيد وللحسن بن على العمرى فى اليوم والليلة من حديث ابن مسعود اللهم إنى أسألك خيرمافى هذا اليوم وخير مابعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر مابعده والحديث عند م فى المساء خير مافى هذه الليلة الحديث ثم قال وإذا أصبح قال ذلك أيضا (١) حديث باسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة فمن الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله عد فى الكامل من حديث ابن عباس ولاأعلمه إلامرفوعا إلى النبى ﷺ قال يلتقى الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم بمنى فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات فذكره ولم يقل الخير كله بيد الله قال موضعها لايسوق الخير إلا الله قال ابن عباس من قالهن حين يصبح وحين يمسى أمنه الله من الغرق والحرق وأحسبه قال ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب أورده فى ترجمة الحسين بن رزين قال ليس بالمعروف وهو بهذا الاسناد منكر (٢) حديث رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا تقدم فى الباب الأول (٣) حديث القول عند المساء مثل الصباح إلاأنك تقول أمسينا وتقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ماذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث عبد الرحمن بن عوف من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شر ماخلق وبرأ وذرأ أعتصم من شر الثقلين الحديث وفيه وإن قالهن حين يمسى كن له كذلك حتى يصبح وفيه ابن لهيعة ولأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسن فى حديث إن جبريل قال يامحمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ ومن شر ماينزل من السماء الحديث وإسناده جيد ولمسلم من حديث أبى هريرة فى الدعاء عند النوم أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها والطبرانى فى الدعاء من حديث أبى الدرداء اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة الخ الحديث وقدتقدم فى الباب الثانى (٤) حديث القول إذا نظر فى المرآة الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهى وحسنها وجعلنى من المسلمين الطبرانى فى الأوسط وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث القول إذا اشترى خادما أودابة اللهم إنى أسألك خيره وخير ماجبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ماجبل عليه د ه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد (٦) حديث التهنئة بالنكاح بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير د ت ه من حديث أبى هريرة قال ت حسن صحيح (٧) حديث الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه بارك الله لك فى أهلك ومالك

التى كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قال الله تعالى فيهم – للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض – الآية وهذا وإن كان لايستقيم من حيث الاشتقاق اللغوى ولكن صحيح من حيث المعنى لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفى الله كأصحاب الصفة وكانوا نحوا من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر جمعوا أنفسهم فى المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا فى الزوايا والربط وكانوا لايرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار وبالليل يشتغلون

فهذه أدعية لايستغني المريد عن حفظها وماسوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها في كتاب الحج والصلاة والطهارة . فان قلت فمافائدة الدعاء والقضاء لامرد له . فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة كماأن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لايحمل السلاح وقد قال تعالى ـ خذوا حذركم ـ وأن لايسقي الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب والذي قدر الشر قدر لدفعه سببا فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته ثم في الدعاء من الفائدة ماذكرناه في الذكر فانه يستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة [1] » والغالب على الخلق أنه لاتنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمة فان الانسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض فالحاجة تحوج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات ولذلك صار البلاء موكلا بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه وأما الغنى فسبب للبطر في غالب الأمور فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فهذا ماأردنا أن نورده من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير وأما بقية الدعوات في الأكل والسفر وعيادة المريض وغيرها فستأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان . تم كتاب الأذكار والدعوات بكماله ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأوراد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل)

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه حمدا كثيرا ونذكره ذكرا لايغادر في القلب استكبارا ولانفورا ونشكره إذ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ونصلي على نبيه الذي بعثه بالحق بشيرا ونذيرا وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله غدوة وعشيا وبكرة وأصيلا حتى أصبح كل واحد منهم نجما في الدين هاديا وسراجا منيرا .

[أما بعد] فان الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده لاليستقروا في مناكبها بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها زادا يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم ويكتنزون منها تحفا لنفوسهم عملا وفضلا محترزين من مصايدها ومعاطبها ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها فالناس في هذا العالم سفر وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار والعمر مسافة السفر فسنوه مراحله وشهوره فراسخه

إنما جزاء السلف الحمد والأداء ن من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال استقرض مني النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألفا فجاءه مال فدفعه إلي قال فذكره وإسناده حسن (١) حديث الدعاء مخ العبادة تقدم في الباب الأول .

(كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل)

بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم وفيهم نزل قوله تعالى ـ ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ـ وقوله تعالى ـ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ـ ونزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى ـ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ـ وكان من أهل الصفة فعوتب النبي صلى الله عليه وسلم لأجله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صافحهم لاينزع يده من أيديهم وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم . وقال أبو هريرة رضي الله

وأيامه أمياله وأنفاسه خطواته وطاعته بضاعته وأوقاته رءوس أمواله وشهواته وأغراضه قطاع طريقه وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقربه إلى الله زلفى متعرض في يوم التغابن لغبينة وحسرة مالها منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجد وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا العمر ورتبوا بحسب تكرر الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار والسعي إلى دار القرار فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات ويتضح هذا الفهم بذكر بابين: الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار. الباب الثاني: في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به. الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها.

(فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى)

اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبا لله تعالى وعارفا بالله سبحانه وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه وان المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار والنفس لما جبلت عليه من السآمة والملال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر بل إذا ردت إلى نمط واحد أظهرت الملال والاستثقال وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا فمن ضرورة اللطف بها أن تروح بالتنقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها وتعظم باللذة رغبتها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها فان النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا فان صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساويا فأنى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو في طلبها القلب ويتجرد. وأما الرد إلى العبادات فمتكلف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته فان خلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره مخطر ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة فان لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الايمان فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه - إن لك في النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا - وقال تعالى - واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا - وقال تعالى - وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود - وقال سبحانه - وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم - وقال تعالى - إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا - وقال تعالى - ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى - وقال عز وجل - وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات

عنه لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد منهم من لا يبلغ ركبتيه فاذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته. وقال بعض أهل الصفة جئنا جماعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلنا يارسول الله أحرق بطوننا التمر فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم قال ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به والذى نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخان للخبز وليس لهم إلا الأسودان الماء والتمر. أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي في كتابه قال أنا الشيخ أبو بكر

يذهبن السيئات ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وعماذا وصفهم فقال تعالى ـ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ـ وقال تعالى ـ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ـ وقال عز وجل ـ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ـ وقال عز وجل ـ كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ـ وقال عز وجل ـ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ـ وقال تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ـ فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى(١)» وقد قال تعالى ـ الشمس والقمر بحسبان ـ وقال تعالى ـ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ـ وقال تعالى ـ والقمر قدرناه منازل ـ وقال تعالى ـ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ـ فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة يدلك عليه قوله تعالى ـ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ـ أى يخلف أحدهما الآخر ليتدارك فى أحدهما مافات فى الآخر وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير وقال تعالى ـ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ـ وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

(بيان أعداد الأوراد وترتيبها)

اعلم أن أوراد النهار سبعة فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وردان وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان وما بين العصر إلى المغرب وردان والليل ينقسم إلى أربعة أوراد وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر ، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته ومايتعلق به . فالورد الأول : مابين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس وهو وقت شريف ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال ـ والصبح إذا تنفس ـ وتمدحه به إذ قال ـ فالق الإصباح ـ وقال تعالى ـ قل أعوذ برب الفلق ـ وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى ـ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ـ وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس وإرشاده الناس إلى التسبيح فيه بقوله تعالى ـ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ـ وبقوله تعالى ـ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ـ وقوله عز وجل ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ـ وقوله تعالى ـ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ـ . فأما ترتيبه فليأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فينبغى أن يبتدئ بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الأدعية والآيات التى ذكرناها فى دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات وليلبس ثوبه وهو فى الدعاء وينوى به ستر عورته امتثالا لأمر الله تعالى واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل أولا رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التى ذكرناها فيه فى كتاب الطهارة عند الدخول والخروج

(١) حديث أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله الطبرانى و ك وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبى أوفى بلفظ خيار عباد الله .

ابن زكريا الطريثيثى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال حدثنا محمد بن محمد بن سعيد الأنماطى قال حدثنا الحسن بن يحيى ابن سلام قال حدثنا محمد بن على الترمذى قال حدثنى سعيد بن حاتم البلخى قال حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبى عبد الرحمن السكرى عن زيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : «وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فانه من رفقائى يوم القيامة » وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى

ثم يستاك على السنة كما سبق ويتوضأ مراعيا لجميع السنن والأدعية التى ذكرناها فى الطهارة فانا إنما قدمنا آحاد العبادات لكى تذكر فى هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط فاذا فرغ من الوضوء صلى ركعتى الفجر أعنى السنة فى منزله (١) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ بعد الركعتين سواء أداها فى البيت أو المسجد الدعاء الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما ويقول : اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى إلى آخر الدعاء (٢) ثم يخرج من البيت متوجها إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعيا بل يمشى وعليه السكينة والوقار (٣) كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد (٤) ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد متسعا ولا يتخطى رقاب الناس ولا يزاحم كما سبق ذكره فى كتاب الجمعة ثم يصلى ركعتى الفجر إن لم يكن صلاها فى البيت ويشتغل بالدعاء المذكور بعدهما وإن كان قد صلى ركعتى الفجر صلى ركعتى التحية وجلس منتظرا للجماعة والأحب التغليس بالجماعة فقد كان صلى الله عليه وسلم يغلس بالصبح (٥) ولا ينبغى أن يدع الجماعة فى الصلاة عامة وفى الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل ، فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى صلاة الصبح « من توضأ ثم توجه إلى المسجد ليصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها ، فاذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فان جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بعمرة مبرورة (٦) » وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر قال رجل من التابعين دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أبا هريرة قد سبقنى فقال لى يا ابن أخى لأى شىء خرجت من منزلك فى هذه الساعة فقلت لصلاة الغداة فقال أبشر فانا كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المسجد فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله تعالى (٧) أو قال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة رضى الله عنهما وهما نائمان فقال « ألا تصليان قال على فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء أن يبعثها بعثها فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول وكان الإنسان أكثر شىء جدلا (٨) » ثم ينبغى أن يشتغل بعد ركعتى الفجر ودعائه بالاستغفار

والدن يسمونهم فى خراسان شكفتية لأن شكفت اسم الغار ينسبونهم إلى المأوى والمستقر وأهل الشام يسمونهم جوعية والله تعالى ذكر فى القرآن طوائف الخير والصلاح فسمى قوما أبرارا وآخرين مقربين ومنهم الصابرون والصادقون والذاكرون والمحبون واسم الصوفى مشتمل على جميع المتفرق فى هذه الأسماء المذكورة وهذا الاسم لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان فى زمن التابعين . ونقل عن الحسن البصرى رحمة الله عليه أنه قال رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال معى أربع دوانيق يكفينى مامعى ويشيد هذا ماروى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ماعرفت دقيق الرياء

(١) حديث صلاة ركعتى الصبح فى المنزل متفق عليه من حديث حفصة (٢) حديث الدعاء بعد ركعتى الصبح اللهم إنى أسألك رحمة من عندك الحديث تقدم (٣) حديث المشى إلى الصلاة وعليه السكينة متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث الدعاء المأثور لدخول المسجد تقدم فى الباب الخامس من الأذكار (٥) حديث التغليس فى الصبح متفق عليه من حديث عائشة (٦) حديث أنس فى صلاة الصبح من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فان جلس حتى يركع كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة لم أجد له أصلا بهذا السياق وفى شعب الإيمان للبيهقى من حديث أنس بسند ضعيف ومن صلى المغرب فى جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة متقبلة (٧) حديث أبى هريرة كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المجلس فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله لم أقف له على أصل (٨) حديث على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة وهما نائمان فقال ألا تصلون قال على فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله الحديث متفق عليه .

والتسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يصلى الفريضة مراعيا جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة فى الصلاة والقدوة فإذا فرغ منها قعد فى المسجد إلى طلوع الشمس فى ذكر الله تعالى كما سنرتبه فقد قال ﷺ « لأن أقعد فى مجلسى أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب (١) » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس ، وفى بعضها ويصلى ركعتين (٢) » أى بعد الطلوع وقد ورد فى فضل ذلك مالا يحصى وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : يا ابن آدم اذكرنى بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما (٣) » وإذا ظهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغى أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكررها فى سبحة وقراءة قرآن وتفكر أما الأدعية فكلما يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام ثم يفتتح الدعاء بما كان يفتتح به رسول الله ﷺ وهو قوله سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (٤) ثم يبدأ بالأدعية التى أوردناها فى الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها ما يراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه . وأما الأذكار المكررة فهى كلمات ورد فى تكرارها فضائل لم نطول بإيرادها وأقل ما ينبغى أن يكرر كل واحد منها ثلاثا أو سبعا وأكثره مائة أو سبعون وأوسطه عشر فليكررها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر والأوسط الأقصد أن يكررها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه وخير الأمور أدومها وإن قل وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيرا فى القلب من كثيرها مع الفترة ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالى فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة . الأولى : قوله لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير (٥) . الثانية : قوله سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية لأن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل صحابيا لشرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون الاشارة إليها أولى من كل إشارة وبعد انقراض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ منهم العلم سمى تابعيا ثم لما تقادم زمان الرسالة وبعد عهد النبوة وانقطع الوحى السماوى وتوارى النور المصطفوى واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء وتفرد كل ذى رأى برأيه وكدر شرب العلوم شوب الأهوية وتزعزعت أبنية المتقين واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت

(١) حديث لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب د من حديث أنس وتقدم فى الباب الثالث من العلم (٢) حديث كان إذ صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس وفى بعضها ويصلى ركعتين أى بعد الطلوع م من حديث جابر ابن سمرة دون ذكر الركعتين و ت من حديث أنس وحسنه من صلى الفجر فى جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة (٣) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال يا ابن آدم اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما ابن المبارك فى الزهد هكذا مرسلا (٤) حديث كان يفتتح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب تقدم (٥) حديث الفضل فى تكرار لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير تقدم من حديث أبى أيوب تكرارها عشرا دون

ولاحول ولاقوة إلا باللهالعلى العظيم (١) . الثالثة : قوله سبوح قدوس رب الملائكة والروح (٢) . الرابعة : قوله سبحان الله العظيم وبحمده (٣) . الخامسة : قوله أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة (٤) . السادسة : قوله اللهم لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد (٥) . السابعة : قوله لاإله إلا الله الملك الحق المبين (٦) الثامنة : قوله باسم الله الذى لايضر مع اسمه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (٧) التاسعة : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم (٨) .

قوله يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير فانها فى اليوم والليلة للنسائى من حديث أبى ذر دون قوله وهو حى لايموت وهى كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين وللطبرانى فى الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف .

(١) حديث الفضل فى تكرار سبحان الله والحمدلله ولاإله إلاالله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلابالله ن فى اليوم والليلة وحب ك وصححه من حديث أبى سعيد الخدرى استكثروا من الباقيات الصالحات فذكرها (٢) حديث تكرار سبوح قدوس رب الملائكه والروح لم أجد ذكرها مكررة لكن عند م من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم كان يقولها فى ركوعه وسجوده وقد تقدم ولأبى الشيخ فىالثواب منحديث البراء أكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح (٣) حديث تكرار سبحان الله وبحمده متفق عليه من حديث أبى هريرة من قال ذلك فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر (٤) حديث تكرار أستغفر الله الذى لاإله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة المستغفرى فى الدعوات من حديث معاذ أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ولفظه وأتوب إليه وفيه ضعف وهكذا رواه ت منحديث أبى سعيد فىقولها ثلاثا وللبخارى من حديث أبى هريرة إنىلأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر منسبعين مرة ولم يقل الطبرانى أكثر ولمسلممنحديث الأعرابى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة تقدمت هذه الأحاديث فى الباب الثانى من الأذكار (٥) حديث تكرار اللهم لامانعلما أعطيت ولامعطى لما منعتولاينفعذا الجد منكلم أجدتكرارها فىحديث وإنما وردت مطلقة عقبالصلوات وفى الرفع من الركوع (٦) حديث تكرار لاإله إلاالله الملك الحق المبين المستغفرى فىالدعوات والخطيب فى الرواة عن مالك من حديثعلىمن قالها فىيوم مائة مرة كان له أمان منالفقر وأمان منوحشة القبر واستجلب به الغنى واستقرع به بابالجنة وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولأبى نعيم فىالحلية منقال ذلك فى كل يوم وليلةمائتى مرة لم يسأل الله فيهما حاجة إلا قضاها وفيه سليم الخواص ضعيف وقال فيه أظنه عن على (٧) حديثتكرار باسمالله الذى لايضر معاسمه شئ فى الأرض ولافىالسماء وهو السميع العليم أصحابالسنن وابن حبان و ك وصححه من حديث عثمان منقالذلكثلاثمرات حينيمسىلم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومنقالها حين يصبح ثلاث مراتلميصبه فجأة بلاءحتىيمسىقال ت حسن صحيح غريب (٨) حديث تكرار اللهمصلعلى محمد عبدك ونبيك ورسولكالنبى الأمىوعلى آلمحمد ذكره أبوالقاسم محمد بنعبد الواحد الغافقى فىفضائل القرآن من حديث ابن أبىأوفى منأراد أن يموت فىالسماء الرابعة فليقل كليومثلاثمرات فذكره وهومنكرقلتورد التكرار عندالصباحوالمساء منغيرتعيينلهذه الصيغة رواه الطبرانىمنحديثأبى الدرداء بلفظ منصلىعلى حين يصبحعشرا وحينيمسىعشرا أدركته شفاعتىيومالقيامة وفيه انقطاع

الجهالات وكشف حجابها وكثرتالعادات وتملكت أربابها وتزخرفتالدنيا وكثر خطابها تفرد طائفة بأعمالصالحة وأحوال سنية وصدقفىالعزيمة وقوةفىالدين وزهدوا فى الدنيا ومحبتها واغتنموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصفة تاركين للأسباب متبتلين إلى رب الأرباب فأثمرلهم صالح الأعمالسنى الأحوال وتهيأ لهمصفاء الفهوم لقبول العلوموصارلهم بعد اللسان لسانوبعد العرفان عرفان وبعد الإيمان إيمان كما قال حارثة أصبحت مؤمنا حقا حيث كوشفت برتبة فى الايمان غير ماتعاهدها فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها وإشارات

العاشرة

العاشرة: قوله أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون(1) فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة فهو أفضل من أن يكرر ذكرا واحدا مائة مرة لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلا على حياله وللقلب بكل واحدة نوع تنبه وتلذذ وللنفس في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل فأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات وردت الأخبار بفضلها وهو أن يقرأ سورة الحمد (2) وآية الكرسي (3) وخاتمة البقرة (4) من قوله آمن الرسول وشهد الله (5) وقل اللهم مالك الملك الآيتين (6) وقوله تعالى ـ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ـ إلى آخرها (7)

---

(1) حديث تكرار أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ت من حديث معقل بن يسار من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك الحديث ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة وقال حسن غريب ولابن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله من قالها حين يصبح عشر مرات أجير من الشيطان إلى الصبح الحديث ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة ألا أعلمك ياخالد كلمات تقولها ثلاث مرات قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون والحديث عند أبي داود و ت وحسنه و ك وصححه فيما يقال عند الفزع دون تكرارها ثلاثا من حديث عبد الله ابن عمرو (2) حديث فضل سورة الحمد خ من حديث أبي سعيد بن المعلى أنها أعظم السور في القرآن و م من حديث ابن عباس في الملك الذي نزل إلى الأرض وقال للنبي ﷺ أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته (3) حديث فضل آية الكرسي م من حديث أبيّ بن كعب يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم قلت الله لا إله إلا هو الحي القيوم الحديث و خ من حديث أبي هريرة في توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجيء الشيطان إليه وقوله إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فانه لن يزال عليك من الله حافظ الحديث وفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقك وهو كذوب (4) حديث فضل خاتمة البقرة متفق عليه من حديث أبي مسعود من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث (5) حديث فضل شهد الله أبو الشيخ حب في كتاب الثواب من حديث ابن مسعود من قرأ شهد الله إلى قوله الإسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عنده وديعة جيء به يوم القيامة فقيل له عبدي هذا عهد إليّ عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة وفيه عمر بن المختار روى الأباطيل قاله ابن عدي وسيأتي حديث علي بعده (6) حديث فضل قل اللهم مالك الملك الآيتين المستغفري في الدعوات من حديث عليّ ان فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الإسلام وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله حجاب الحديث وفيه فقال الله لا يقرأ كن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه الحديث وفيه الحارث ابن عمير وفي ترجمته ذكره حب في الضعفاء وقال موضوع لا أصل له والحارث يروى عن الاثبات الموضوعات قلت وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم و ن وروى له خ تعليقا (7) حديث فضل لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها طب في الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد فذكر

يتعاهدونها فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها وتعرب عن أحوال يجدونها فأخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسما مستمرا وخبرا مستقرا في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به وسموا به فالاسم سمتهم والعلم بالله صفتهم والعبادة حليتهم والتقوى شعارهم وحقائق الحقيقة أسرارهم، نزاع القبائل وأصحاب الفضائل سكان قباب الغيرة وقطان ديار الحيرة لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ولهيب شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد اللهم احشرنا في زمرتهم وارزقنا حالاتهم والله أعلم.

[الباب السابع في ذكر المتصوف والمتشبه به]

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب

وقوله تعالى ـ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ـ إلى آخرها (١) وقوله سبحانه ـ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ـ (٢) الآية وخمس آيات من أول الحديد (٣) وثلاثا من آخر سورة الحشر (٤) وإن قرأ المسبعات العشر التى أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمى رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة فقد روى عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال أتانى أخ لى من أهل الشام فأهدى لى هدية وقال يا كرز اقبل منى هذه الهدية فإنها نعمت الهدية فقلت يا أخى ومن أهدى لك هذه الهدية قال أعطانيها إبراهيم التيمى قلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها قال بلى قال كنت جالسا فى فناء الكعبة وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد فجاءنى رجل فسلم على وجلس عن يمينى فلم أر فى زمانى أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحا منه فقلت يا عبد الله من أنت ومن أين جئت فقال أنا الخضر فقلت فى أى شىء جئتنى فقال جئتك للسلام عليك وحبا لك فى الله وعندى هدية أريد أن أهديها لك فقلت ما هى قال أن تقول قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسى كل واحدة سبع مرات وتقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعا وتصلى على النبى صلى الله عليه وسلم سبعا وتستغفر لنفسك ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبعا وتقول اللهم افعل بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حليم جواد كريم رءوف رحيم سبع مرات وانظر أن لا تدع ذلك غدوة وعشية فقلت أحب أن تخبرنى من أعطاك هذه العطية العظيمة فقال أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم (٥) فقلت أخبرنى بثواب ذلك فقال إذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك فذكر إبراهيم التيمى أنه رأى ذات يوم فى منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة فرأى ما فيها ووصف أمورا عظيمة مما رآه فى الجنة قال فسألت الملائكة

حديثا وفى آخره فقل حسبى الله إلى آخر السورة وذكر أبو القاسم الغافقى فى فضائل القرآن فى رغائب القرآن لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لزم قراءة لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة لم يمت هدما ولا غرقا ولا حرقا ولا ضربا بحديدة وهو ضعيف (١) حديث فضل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لم أجد فيه حديثا يخصها لكن فى فضل سورة الفتح مارواه أبو الشيخ فى كتاب من حديث أبى بن كعب من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبى ﷺ وهو حديث موضوع (٢) حديث فضل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية أحمد والطبرانى من حديث معاذ بن أنس آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية كلها وإسناده ضعيف (٣) حديث فضل خمس آيات من أول الحديد ذكر أبو القاسم الغافقى فى فضائل القرآن من حديث على إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرأ خمس آيات من أول سورة الحديد إلى قوله ـ عليم بذات الصدور ـ ومن آخر سورة الحشر من قوله ـ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ـ إلى آخر السورة ثم تقول يا من هو كذا افعل بى كذا وتدعو بما تريد (٤) حديث فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ت من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا بورقة وللبيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة بسند ضعيف من قرأ خواتيم سورة الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته فقد أوجب الله له الجنة (٥) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمى أن الخضر علمه المسبعات العشرة وقال فى آخرها أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم ليس له أصل ولم يصح فى حديث قط اجتماع الخضر بالنبى صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته .

السهروردى إجازة قال أنا الشيخ أبو منصور ابن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا محمد بن العباس بن زكريا قال أنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الأصفهانى قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا المعتمر بن سليمان قال أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال « جاء رجل إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال يا رسول الله متى قيام الساعة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة فلما قضى الصلاة قال أين السائل عن الساعة فقال الرجل أنا يا رسول الله قال ما أعددت لها قال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام أو قال ما أعددت لها كبير عمل إلا أنى

فقلت لمن هذا فقالوا للذى يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال فأتانى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب فسلم على وأخذ بيدى فقلت يارسول الله الخضر أخبرنى أنه سمع منك هذا الحديث فقال صدق الخضر صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى فى الأرض فقلت يارسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذى رأيت فى منامى هل يعطى شيئا مما أعطيته فقال والذى بعثنى بالحق نبيا إنه لا يعطى العامل بهذا وإن لم يرنى ولم ير الجنة إنه لا يغفر له جميع الكبائر التى عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة والذى بعثنى بالحق نبيا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا ولا يتركه إلا من خلقه الله شقيا وكان إبراهيم التيمى يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فلعله كان بعد هذه الرؤيا فهذه وظيفة القراءة فان أضاف إليها شيئا مما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن فان القرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه فى باب التلاوة . وأما الأفكار فليكن ذلك إحدى وظائفه وسيأتى تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته فى كتاب التفكر من ربع المنجيات ولكن مجامعه ترجع إلى فنين : أحدهما أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره ويرتب وظائفه فى يومه الذى بين يديه ويدبر فى دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه ويحضر فى قلبه النيات الصالحة من أعماله فى نفسه وفى معاملته للمسلمين . الفن الثانى فيما ينفعه فى علم المكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة فى نعم الله تعالى وتواتر آلائه الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أو فى عقوباته ونقماته لتزيد معرفته بقدرة الإله واستغنائه ويزيد خوفه منها ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكر فيها على بعض الخلق دون البعض وإنما نستقصى ذلك فى كتاب التفكر ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين : أحدهما زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف . والثانى زيادة المحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله فيحصل من الفكر المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة والذكر أيضا يورث الأنس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التى سببها المعرفة أقوى وأثبت وأعظم ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاكر من غير تمام الاستبصار كنسبة عشق من شاهد جمال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن فى الخلق والخلق مطلقا من غير تفصيل وجوه الحسن فيهما فليس محبته له كمحبة المشاهد وليس الخبر كالمعاينة فالعباد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالايمان التقليدى ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جملية اعتقدوها بتصديق من وصفها لهم والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التى هى أقوى من البصر الظاهر لأن أحدا لم يحط بكنه جلاله وجماله فان ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها وإنما عدد حجبها التى استحقت أن تسمى نورا وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا قال صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره (١) » وتلك الحجب أيضا مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة فى الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب ويبدو

أحب الله ورسوله قال النبي عليه الصلاة والسلام : « المرء مع من أحب أو أنت مع من أحببت » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الاسلام فرحهم بهذا فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذى رويناه فى المعنى روى عبادة بن الصامت عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يارسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم قال « أنت ياأباذر مع من أحببت » قال قلت فانى أحب الله ورسوله . قال « فانك مع من أحببت » قال

(١) حديث إن لله سبعين حجابا من نور الحديث تقدم فى قواعد العقائد .

فى الأولى أصغرها ثم ما يليه وعليه أول بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فى ترقيه وقال – فلما جن عليه الليل – أى أظلم عليه الأمر – رأى كوكبا – أى وصل إلى حجاب من حجب النور فعبر عنه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام المضيئة فإن آحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تليق بالأجسام بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليل عليه السلام والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى – الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح – الآية ولنتجاوز هذه المعانى فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافى وقل من ينفتح له بابه والمتيسر على جماهير الخلائق الفكر فيما يفيد فى علم المعاملة وذلك أيضا مما تغزر فائدته ويعظم نفعه فهذه الوظائف الأربعة أعنى الدعاء والذكر والقراءة والفكر ينبغى أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح بل فى كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجنته والصوم هو الجنة التى تضيق مجارى الشيطان المعادى الصارف له عن سبيل الرشاد وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتى الفجر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يشتغلون فى هذا الوقت بالأذكار (١) وهو الأولى إلا أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به . الورد الثانى : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار وأعنى بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمضى ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتى عشرة ساعة وهو الربع وفى هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان إحداهما صلاة الضحى وقد ذكرناها فى كتاب الصلاة وأن الأولى أن يصلى ركعتين عند الاشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رمح ويصلى أربعا أو ستا أو ثمانيا إذا رمضت الفصال وضحيت الأقدام بحر الشمس فوقت الركعتين هو الذى أراد الله تعالى بقوله – يسبحن بالعشى والإشراق – فإنه وقت إشراق الشمس وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن موازاة البخارات والغبارات التى على وجه الأرض فإنها تمنع إشراقها التام ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال – والضحى والليل إذا سجى – « وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الاشراق فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال (٢) » فلذلك نقول إذا كان يقتصر على مرة واحدة فى الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفى وقتى الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطلوع نصف رمح بالتقريب إلى ما قبل الزوال فى ساعة الاستواء واسم الضحى ينطلق على الكل وكأن ركعتى الاشراق تقع فى مبتدإ وقت الاذن فى الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها (٣) » فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا يراعى بالتقريب. الوظيفة الثانية فى هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التى جرت بها العادات بكرة من عيادة مريض وتشييع

فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله صلى الله عليه وسلم » لمحبة المتشبه إياهم لا تكون إلا لتنبه روحه لما تنبهت له أرواح الصوفية لأن محبة أمر الله وما يقرب إليه ومن يقرب منه تكون بجاذب الروح غير أن المتشبه تعوق بظلمة النفس والصوفى تخلص من ذلك والتصوف متطلع إلى حال الصوفى وهو مشارك يبقاء شىء من صفات نفسه عليه المتشبه وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق فالمتشبه صاحب إيمان والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير قال الجنيد رحمة الله عليه الإيمان بطريقنا هذا ولاية ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة وآثار مستغربة عند أكثر الخلق لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم

(١) حديث اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس تقدم حديث جابر بن سمرة عند م فى جلوسه صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر فى مجلسه حتى تطلع الشمس وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله عما تقدم من حديث أنس (٢) حديث خرج على أصحابه وهم يصلون عند الاشراق فنادى بأعلى صوته ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال طب من حديث زيد بن أرقم دون قوله فنادى بأعلى صوته وهو عند م دون ذكر الاشراق (٣) حديث إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها تقدم فى الصلاة .

وتشييع جنازة ومعاونة على برّ وتقوى وحضور مجلس علم وما يجرى مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها فان لم يكن شىء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع التى قدمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات التطوع بها إن شاء فانها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن فتصير الصلاة قسما خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أراده أما بعد فريضة الصبح فتكره كل صلاة لاسبب لها وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتى الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر . الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ونعنى بالضحوة المنتصف وماقبله بقليل وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فاذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضيها صلاة الضحى فاذا أمضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر فاذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر فاذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالمغرب ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة العصر بين الزوال والغروب إلا أن الضحى لم تفرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم فخفف عنهم . الوظيفة الرابعة : فى هذا الوقت الأقسام الأربعة وزيد أمران : أحدهما الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق فان كان تاجرا فينبغى أن يتجر بصدق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فبنصح وشفقة ولا ينسى ذكر الله تعالى فى جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب فى كل يوم لقوته فاذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزود لآخرته فان الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والتمتع به أدوم فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت ، فقد قيل لايوجد المؤمن إلا فى ثلاث مواطن مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لابد له منها وقلّ من يعرف القدر فيما لابد منه بل أكثر الناس يقدرون فيما عنه بدّ أنه لابد لهم منه وذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه ويجمعون مالا يأكلون خيفة الفقر والله يعدهم مغفرة منه وفضلا فيعرضون عنه ولايرغبون فيه . الأمر الثانى : القيلولة وهى سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن التسحر سنة يستعان به على صيام النهار فان كان لايقوم بالليل لكن لو لم ينم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم فالنوم أحب له إذا كان لاينبعث نشاطه للرجوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة إذ فى النوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم يأتى على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم وكم من عابد أحسن أحواله النوم وذلك إذا كان يرائى بعبادته ولايخلص فيها فكيف بالغافل الفاسق قال سفيان الثورى رحمه الله كان يعجبهم إذا تفرغوا أن يناموا طلبا للسلامة فاذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة ، ولكن ينبغى أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة فان ذلك من فضائل الأعمال وإن لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهموم الدنيا فالقلب التفرغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فان الليل وقت الغفلة بالنوم وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا وأحد معنى قوله تعالى ـ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ـ أى يخلف أحدهما الآخر فى الفضل والثانى أنه يخلفه فيتدارك فيه مافات فى أحدهما . الورد الرابع : مابين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر وراتبته وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها فاذا كان قد توضأ قبل الزوال وحضر المسجد فمهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقم إلى إحياء مابين الأذان والإقامة فهو وقت الاظهار الذى أراده الله تعالى بقوله ـ وحين تظهرون ـ

واشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه والإيمان بذلك إيمان بالقدرة وقد أنكر قوم من أهل الملة كرامات الأولياء والإيمان بذلك إيمان بالقدرة ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته فالمتشبه صاحب إيمان والتصوف صاحب علم لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرها والصوفى صاحب ذوق فللمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفى وللمتشبه نصيب من حال المتصوف وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لابد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه فيكون فى الحال الأول صاحب ذوق وفى الحال الذى كوشف به

وليصل في هذا الوقت أربع ركعات لايفصل بينهن بتسليمة واحدة (١) وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصليها بتسليمة واحدة ولكن طعن في تلك الرواية ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يصلي مثنى مثنى كسائر النوافل ويفصل بتسليمة (٢) وهو الذي صحت به الأخبار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه في باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المثين أو أربعا من المثاني فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع له فيها عمل ثم يصلي الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة كما سبق أو قصيرة لاينبغي أن يدعها ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعا فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها من غير فاصل ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة آية الكرسي وآخر سورة البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول ليكون ذلك جامعا له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت . الورد الخامس : ما بعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه العكوف في المسجد مشتغلا بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون في انتظار الصلاة معتكفا فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف وكان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويا كدوي النحل من التلاوة فان كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه فالبيت أفضل في حقه فإحياء هذا الورد وهو أيضا وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث في الفضل وفي هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالنهار قال بعض العلماء ثلاث يمقت الله عليها: الضحك بغير عجب والأكل من غير جوع والنوم بالنهار من غير سهر بالليل والحد في النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعا فان نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار وإن نقص منه مقدارا استوفاه بالنهار فحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وقدر الاعتدال هذا والنقصان منه ربما يفضي إلى اضطراب البدن إلا من يتعود السهر تدريجا فقد يمرن نفسه عليه من غير اضطراب وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد وهو أحد الآصال التي ذكرها الله تعالى إذ قال – ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال – وإذا سجد لله عز وجل الجمادات فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات . الورد السادس : إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى والعصر هذا أحد معنيي الآية وهو المراد بالآصال في أحد التفسيرين وهو العشي المذكور في قوله وعشيا وفي قوله بالعشي والإشراق وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة كما سبق في الظهر ثم يصلي الفرض ويشتغل بالأقسام الأربعة المذكورة في الورد الأول إلى أن ترتفع الشمس إلى رءوس الحيطان وتصفر والأفضل فيه إذ منع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتفهم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة . الورد السابع : إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطي نورها الغبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع

(١) حديث صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة وفيه أنها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحب أن يرفع لي فيها عمل صالح د ه من حديث أبي أيوب وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس (٢) حديث صلاة الليل والنهار مثنى مثنى د و حب من حديث ابن عمر .

صاحب علم وبحال فوق ذلك صاحب إيمان حق لايزال طريق الطلب مسلوكا فيكون في حال الذوق صاحب قدم وفي حال العلم صاحب نظر وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان قال الله تعالى – إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون – وصف الأبرار ووصف شرابهم ثم قال سبحانه وتعالى – ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون – فكان شراب الأبرار مزج من شراب المقربين وللمقربين ذلك صرفا فللصوفي شراب صرف وللمتصوف من ذلك مزج في شرابه وللمتشبه مزج من شراب المتصوف فالصوفي سبق إلى مقار الروح من بساط القرب والمتصوف بالنسبة إلى الصوفي كالمتزهد بالنسبة إلى الزاهد لأنه تفعل وتعمل وتسبب إشارة إلى مابقي

وهو المراد بقوله تعالى ـ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ـ وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى ـ فسبح وأطراف النهار ـ قال الحسن كانوا أشد تعظيما للعشي منهم لأول النهار وقال بعض السلف كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده مأخوذ من قوله تعالى ـ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ـ والاستغفار على الأسماء التي في القرآن أحب كقوله أستغفر الله إنه كان غفارا أستغفر الله إنه كان توابا رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها. والليل إذا يغشى. والمعوذتين . ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار فإذا سمع الأذان قال اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك كما سبق ثم يجيب المؤذن ويشتغل بصلاة المغرب وبالغروب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة فإن ساوى يومه أمسه فيكون مغبونا وإن كان شرا منه فيكون ملعونا فقد قال ﷺ « لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيرا (١) » فإن رأى نفسه متوفرا على الخير جميع نهاره مترفها عن التجشم كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى فالليل خلفة النهار فليعزم على تلافي ما سبق من تفريطه فإن الحسنات يذهبن السيئات وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره وليحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع وعند ذلك يغلق باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أياما معدودة تنقضي لا محالة جملتها بانقضاء آحادها

(بيان أوراد الليل وهي خمسة)

الأول : إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق أعني الحمرة التي بغيبوبتها يدخل وقت العتمة وقد أقسم الله تعالى به فقال ـ فلا أقسم بالشفق ـ والصلاة فيه هي ناشئة الليل لأنه أول نشوء ساعاته وهو آن من الآناء المذكورة في قوله تعالى ـ ومن آناء الليل فسبح ـ وهي صلاة الأوابين . وهي المراد بقوله تعالى ـ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ روى ذلك عن الحسن وأسنده ابن أبي زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه سئل عن هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة بين العشاءين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره (٢) » والملاغات جمع ملغاة من اللغو وسئل أنس رحمه الله عمن

---

(١) حديث لا بورك لي في يوم لا أزداد فيه خيرا تقدم في العلم في الباب الأول إلا أنه قال علما بدل خيرا

(٢) حديث سئل عن قوله تعالى ـ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره قال المصنف أسنده ابن أبي الزناد [١] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت إنما هو إسماعيل بن أبي زياد بالياء المثناة من تحت رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبي زياد الشامي عن الأعمش حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الدارقطني واسم أبي زياد مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش ولابن مردويه من حديث أنس أنها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء والحديث عند ت وحسنه بلفظ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة .

[١] قول العراقي ابن أبي الزناد هي نسخة وقعت له وإلا ففي النسخ الصحيحة ابن أبي زياد فليتأمل .

عليه من وصفه فهو مجتهد في طريقه سائر إلى ربه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سيروا سبق المفردون» قيل من المفردون يارسول الله ؟ قال المستهترون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا» فالصوفي في مقام المفردين والمتصوف في مقام السائرين واصل في سيره إلى مقر القلب من ذكر الله عزوجل ومراقبته بقلبه وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه فالصوفي في مقار الروح صاحب مشاهدة والمتصوف في مقار القلب صاحب مراقبة والمتشبه في مقاومة النفس صاحب مجاهدة وصاحب محاسبة فتلوين الصوفي بوجود قلبه وتلوين المتصوف بوجود نفسه والمتشبه لاتلوين له لأن التلوين لأرباب الأحوال والمتشبه مجتهد سالك

ينام بين العشاءين فقال لاتفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى ـ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ وسيأتى فضل إحياء مابين العشاءين فى الباب الثانى . وترتيب هذا الورد أن يصلى بعد المغرب ركعتين أولا يقرأ فيهما قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولاشغل ثم يصلى أربعا يطيلها ثم يصلى إلى غيبوبة الشفق ماتيسر له وإن كان المسجد قريبا من المنزل فلا بأس أن يصليها فى بيته إن لم يكن عزمه العكوف فى المسجد وان عزم على العكوف فى انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آمنا من التصنع والرياء . الورد الثانى : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى به إذ قال ـ والليل وماوسق ـ أى وماجمع من ظلمته وقال إلى غسق الليل فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور : الأول أن يصلى سوى فرض العشاء عشر ركعات أربعا قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين وستا بعد الفرض ركعتين ثم أربعا ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسى وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . والثانى أن يصلى ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر فانه أكثر ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى بها من الليل[1] والأكياس يأخذون أرتاهم من أول الليل والأقوياء من آخره والحزم التقديم فانه ربما لايستيقظ أو يثقل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل ثم ليقرأ فى هذه الصلاة قدر ثلثمائة آية من السور المخصوصة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها مثل يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة[2] فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السور أو بعضها قبل النوم فقد روى فى ثلاث أحاديث ماكان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ليلة أشهرها السجدة وتبارك الملك[3] والزمر والواقعة وفى رواية الزمر وبنى إسرائيل[4] وفى أخرى أنه كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية[5] وكان العلماء

لم يصل بعد إلى الأحوال والكل تجمعهم دائرة الاصطفاء قال الله تعالى ـ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ـ قال بعضهم الظالم الزاهد والمقتصد العارف والسابق المحب وقال بعضهم الظالم الذى يجزع من البلاء والمقتصد الذى يصبر عند البلاء والسابق الذى يتلذذ بالبلاء وقال بعضهم الظالم يعبد على الغفلة والعادة والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة والسابق يعبد على الهيبة والمنة وقال بعضهم الظالم يذكر الله بلسانه والمقتصد بقلبه والسابق لاينسى ربه وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى رحمه الله : الظالم صاحب الأقوال والمقتصد صاحب الأفعال والسابق صاحب الأحوال وكل هذه الأقوال قريبة التناسب

(١) حديث الوتر ثلاث عشرة ركعة يعنى بالليل وانه أكثر ماصلى به النبى صلى الله عليه وسلم من الليل د من حديث عائشة لم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة وخ من حديث ابن عباس كانت صلاته ثلاث عشرة ركعة يعنى بالليل و م كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة وفى رواية للشيخين منها ركعتا الفجر ولهما أيضا ماكان يزيد فى رمضان ولاغيره على إحدى عشرة ركعة (٢) حديث إكثاره صلى الله عليه وسلم من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة غريب لم أقف على ذكر الاكثار فيه وحب من حديث جندب من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له و ت من حديث جابر كان لاينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك وله من حديث عائشة كان لاينام حتى يقرأ بنى إسرائيل والزمر وقال حسن غريب وله من حديث أبى هريرة من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك قال غريب ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث عائشة من قرأ فى ليلة الم تنزيل ويس وتبارك الذى بيده الملك واقتربت كن له نورا الحديث ولأبى منصور المظفر بن الحسين الغزنوى فى فضائل القرآن من حديث على ياعلى أكثر من قراءة يس الحديث وهو منكر وللحارث بن أبى أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا و ت من حديث ابن عباس شيبتنى هود والواقعة الحديث وقال حسن غريب (٣) حديث كان يقرأ فى كل ليلة السجدة وتبارك الملك ت وتقدم فى الحديث قبله (٤) حديث كان يقرأ فى كل ليلة الزمر وبنى إسرائيل ت وتقدم أيضا (٥) حديث كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول فيهن آية أفضل من ألف آية د ت وقال حسن و ن فى الكبرى من حديث عرباض بن سارية .

يجعلونها

يجعلونها مثنا فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى إذفى الخبر « أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب سبح اسم ربك الأعلى ، وكان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبح اسم ربك الأعلى (١) وقل يا أيها الكافرون والإخلاص (٢) فاذا فرغ قال سبحان الملك القدوس ثلاث مرات » . الثالث الوتر وإوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضى الله عنه : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر (٣) وإن كان معتادا صلاة الليل فالتأخير أفضل قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة (٤) » وقالت عائشة رضى الله عنها أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر (٥) وقال على رضى الله عنه الوتر على ثلاثة أنحاء إن شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين يعنى أنه يصير وترا بما مضى وإن شئت أوترت بركعة فاذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وان شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك هذا ماروى عنه والطريق الأول والثالث لابأس به وأما نقض الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغى أن ينقض (٦) وروى أنه مطلقا أنه ﷺ قال « لا وتران فى ليلة (٧) » ولمن يتردد فى استيقاظه تلطف استحسنه بعض العلماء وهو أن يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا على فراشه عند النوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت والهاكم (٨) لما فيهما من التحذير والوعيد وفى رواية قل يا أيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى فقيل إن استيقظ قامتا مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة فى آخر صلاة الليل وكأنه صار مامضى شفعا بهما وحسن استئناف الوتر واستحسن هذا أبو طالب المكى وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل وهو كما ذكره لكن ربما يخطر أنهما لو شفعتا مامضى لكان كذلك وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شافعا إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه نظر إلا أن يصح من رسول الله ﷺ إيتاره قبلهما وإعادته الوتر فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتهما وتر بمعناها فيحسب وترا إن لم يستيقظ وشفعا إن استيقظ ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت وتعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت روى « أنه صلى الله عليه وسلم مامات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة (٩) » وقد قال « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد (١٠) » وذلك يدل على صحة النافلة نائما . الورد الثالث النوم ولا بأس أن بعد ذلك

(١) حديث كان يحب سبح اسم ربك الأعلى أحمد والبزار من حديث على بسند ضعيف (٢) حديث كان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والاخلاص د ن ه من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح وتقدم فى الصلاة من حديث أنس (٣) حديث أبى هريرة أوصانى رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر متفق عليه بلفظ أن أوتر قبل أن أنام (٤) حديث صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة متفق عليه من حديث ابن عمر (٥) حديث عائشة أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر متفق عليه (٦) حديث النهى عن نقض الوتر قال المصنف صح فيه نهى قلت وإنما صح من قول عابد بن عمرو وله صحبة كما رواه خ ومن قول ابن عباس كما رواه هق ولم يصرح بأنه مرفوع فالظاهر أنه إنما أراد ماذكرناه عن الصحابة (٧) حديث لا وتران فى ليلة د ت وحسنه و ن من حديث طلق بن على (٨) حديث الركعتين بعد الوتر جالسا تقدم فى الصلاة رواه مسلم من حديث عائشة (٩) حديث مامات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة متفق عليه من حديث عائشة لما بدن النبى صلى الله عليه وسلم وثقل كان أكثر صلاته جالسا (١٠) حديث للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد خ من حديث عمران بن حصين

من حال الصوفى والمتصوف والمتشبه وكلهم من أهل الفلاح والنجاح تجمعهم دائرة الاصطفاء وتؤلف بينهم نسبة التخصيص بالمنح والعطاء . أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد ابن اسماعيل القزوينى إجازة قال أنا أبو سعد محمد بن أبى العباس قال أنا القاضى محمد بن سعيد قال أنا أبو اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم قال أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه قال حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة قال حدثنا يوسف بن عاصم الرازى قال حدثنا أبو أيوب سليمان ابن داود قال حدثنا حصين بن نمير عن أبى ليلى عن أخيه عن أسامة بن زيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى قوله تعالى ـ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم

فى الأوراد فانه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة فقد قيل : إن العبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل فى شعاره ملك فان تحرك فى نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله[1] » وفى الخبر « إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش[2] » هذا فى العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية فانهم يكاشفون بالأسرار فى النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح[3] » وقال معاذ لأبى موسى كيف تصنع فى قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأتفوق القرآن فيه تفوقا قال معاذ لكن أنا أنام ثم أقوم وأحتسب فى نومتى ما أحتسب فى قومتى فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال معاذ أفقه منك[4] .

وآداب النوم عشرة : الأول الطهارة والسواك . قال ﷺ « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق[5] » وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعا وطهارة الباطن هى المؤثرة فى انكشاف حجب الغيب . الثانى أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره وينوى القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك كذلك كان يفعله بعض السلف وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها » [6] وإن لم تتيسر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء فان لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكر فى آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل وقال ﷺ « من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى[7] » . الثالث أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فانه لا يأمن القبض فى النوم فان من مات من غير وصية لم يؤذن له فى الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة يتزاوره الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات من غير وصية وذلك مستحب خوف موت الفجأة وموت الفجأة تخفيف إلا لمن ليس مستعدا للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم . الرابع أن ينام تائبا من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يعزم على معصية إن استيقظ قال صلى الله عليه وسلم

مقتصد ومنهم سابق بالخيرات كلهم فى الجنة قال ابن عطاء الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا والمقتصد الذى يحب الله من أجل العقبى والسابق هو الذى أسقط مراده بمراد الله فيه وهذا هو حال الصوفى فالمتشبه تعرض لشىء من أمر القوم ويوجب له ذلك القرب منهم والقرب منهم مقدمة كل خير . سمعت شيخنا يقول جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالى ونحن بأصبهان يريد منه الخرقة فقال له الشيخ اذهب إلى فلان يشير إلى حتى يكلمك فى معنى الخرقة ثم احضر حتى ألبسك الخرقة قال فجاء إلى فذكرت له حقوق الخرقة وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل للبسها فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن

(١) حديث قيل إنه إذا نام على طهارة ذاكرا الله تعالى يكتب مصليا ويدخل فى شعاره ملك الحديث حب من حديث ابن عمر من بات طاهرا بات فى شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك اللهم اغفر لعبدك فلان فانه بات طاهرا (٢) حديث إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش ابن المبارك فى الزهد موقوفا على أبى الدرداء وهق فى الشعب موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص وروى طب فى الأوسط من حديث على ما من عبد ولا أمة تنام فتثقل نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذى لا يستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التى تصدق والذى يستيقظ دون العرش فهى الرؤيا التى تكذب هو ضعيف (٣) حديث نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح قلت المعروف فيه الصائم دون العالم وقد تقدم فى الصوم (٤) حديث قال معاذ لأبى موسى كيف تصنع فى قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأتفوق القرآن تفوقا قال معاذ لكنى أنام ثم أقوم وأحتسب فى نومتى ما أحتسب فى قومتى فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال معاذ أفقه منك متفق عليه بنحوه من حديث أبى موسى وليس فيه أنهما ذكرا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ولا قوله معاذ أفقه منك وإنما زاد فيه طب فكان معاذ أفضل منه (٥) حديث إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة الحديث تقدم (٦) حديث أنه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها تقدم فى الطهارة (٧) حديث من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه

« من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم[١] » . الخامس أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك تكلفا وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا ويقولون منها خلقنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد . السادس أن لا ينام ما لم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام فى آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يدرى ما يقول فلينم حتى يعقل ما يقول وكان ابن عباس رضى الله عنه يكره النوم قاعدا وفى الخبر « لا تكابدوا الليل[٢] » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلانة تصلى بالليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى عن ذلك وقال ليصل أحدكم من الليل ما تيسر له فإذا غلبه النوم فليرقد[٣] » وقال ﷺ « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لن يمل حتى تملوا[٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « خير هذا الدين أيسره[٥] » وقيل له صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يصلى فلا ينام ويصوم فلا يفطر فقال لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتى فمن رغب عنها فليس منى[٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه فلا تبغض إلى نفسك عبادة الله[٧] » السابع أن ينام مستقبل القبلة والاستقبال على ضربين أحدهما استقبال المحتضر وهو المستلقى على قفاه فاستقباله أن يكون وجهه وأخمصاه إلى القبلة والثانى استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شقه الأيمن . الثامن الدعاء عند النوم فيقول باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه إلى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى كتاب الدعوات[٨] ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسى وآخر البقرة وغيرهما وقوله تعالى ـ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ـ إلى قوله ـ لقوم يعقلون ـ يقال إن من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية ـ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ـ إلى قوله ـ قريب من المحسنين ـ

---

(١) حديث من أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم ابن أبى الدنيا فى كتاب النية من حديث أنس من أصبح ولم يهم بظلم أحد غفر له ما اجترم وسنده ضعيف (٢) حديث لا تكابدوا الليل أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفى جامع سفيان الثورى موقوفا على ابن مسعود لا تغالبوا هذا الليل.

ن هـ من حديث أبى الدرداء بسند صحيح

(٣) حديث قيل له إن فلانة تصلى فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهاهن عن ذلك الحديث متفق عليه من حديث أنس (٤) حديث تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا متفق عليه من حديث عائشة بلفظ اكلفوا (٥) حديث خير هذا الدين أيسره أحمد من حديث محجن ابن الأدرع وتقدم فى العلم (٦) حديث قيل له إن فلانا يصلى ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتى فمن رغب عنها فليس منى ن من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله هذه سنتى الخ وهذه الزيادة لابن خزيمة من رغب عن سنتى فليس منى وهى متفق عليها من حديث أنس (٧) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله خ من حديث أبى هريرة لن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وللبيهقى من حديث جابر إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ولا يصح إسناده . (٨) حديث الدعاء المأثور عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبى الحديث إلى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات

أن يلبسها فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولى له فاستحضرنى وعاتبنى على قولى له ذلك وقال بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته فى الخرقة فكلمته بما فترت عزيمته ثم الذى ذكرته كله صحيح وهو الذى يجب من حقوق الخرقة ولكن إذا ألزمنا المبتدى بذلك نفر وعجز عن القيام به فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيى بزيهم فيقرب به ذلك من مجالسهم ومحافلهم وببركة مخالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يحب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شىء من أحوالهم ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالى ما أخبرنا شيخنا رحمه الله قال أنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أنا أبو بكر أحمد بن على بن

وآخر بني إسرائيل ـ قل ادعوا الله ـ الآيتين فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ويقرأ المعوذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده كذلك روى من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وليقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل وكان علي كرم الله وجهه يقول ما أرى أن رجلا مستكملا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل خمسا وعشرين مرة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة. التاسع أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بعث قال الله تعالى ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ـ وقال ـ وهو الذي يتوفاكم بالليل ـ فسماه توفيا وكما أن المستيقظ تنكشف له مشاهدات لا تناسب أحواله في النوم فكذلك المبعوث يرى ما لم يخطر قط بباله ولا شاهده حسه ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة. وقال لقمان لابنه يابني إن كنت تشك في الموت فلا تنم فكما أنك تنام كذلك تموت وإن كنت تشك في البعث فلا تنتبه فكما أنك تنتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك وقال كعب الأحبار إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت في ليلته تلك « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليكه (٢) » الدعاء إلى آخره كما ذكرناه في كتاب الدعوات فحق على العبد أن يفتش عن ثلاثة عند نومه أنه على ماذا ينام وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه أو حب الدنيا وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب. العاشر الدعاء عند التنبه فليقل في تيقظاته وتقلباته مهما تنبه ما كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار (٣) » وليجتهد أن يكون آخر ما يجري على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهو علامة الحب ولا يلازم القلب في هاتين الحالتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب قلبه به فهو علامة الحب فإنها علامة تكشف عن باطن القلب وإنما استحبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى فإذا استيقظ ليقوم قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ. الورد الرابع: يدخل بمضي النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد فاسم التهجد يختص بما بعد الهجود والهجوع وهو النوم وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذي بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال ـ والليل إذا سجى ـ أي إذا سكن وسكونه هدوه في هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وقيل إذا سجى إذا امتد وطال وقيل إذا أظلم وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أي الليل أسمع فقال جوف الليل (٤) » وقال داود صلى الله عليه وسلم إلهي

---

(١) حديث قراءة المعوذتين عند النوم ينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث عائشة كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم الحديث تقدم في الدعوات دون وضع الخد على اليد وتقدم من حديث حفصة (٣) حديث كان يقول عند تيقظه لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة (٤) حديث سئل أي الليل أسمع قال جوف الليل د ت وصححه من حديث عمرو بن عنبسة.

خلف قال أنا الشيخ عبد الرحمن السلمي قال سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفرا يقول سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدي الطالب وكل من كان منهم أكمل حالا وأوفر علما كان أكثر رفقا بالمبتدي الطالب. حكي عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدي إليه والتأدب بأدبه والاقتداء به في عمله وهذا هو الرفق الذي ما دخل في شيء إلا زانه فالمتشبه الحقيقي له إيمان بطريق القوم وعمل بمقتضاه وسلوك واجتهاد على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة

إلى

إني أحب أن أتعبد لك فأي وقت أفضل فأوحى الله تعالى إليه ياداود لاتقم أول الليل ولا آخره فإن من قام أوله نام آخره ومن قام آخره لم يقم أوله ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إلي حوائجك وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم «أي الليل أفضل فقال نصف الليل الغابر[1]» يعني الباقي وفي آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا[2] وغير ذلك من الأخبار وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التي للاستيقاظ يتوضأ وضوءا كما سبق بسننه وآدابه وأدعيته ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلا القبلة ويقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثم يسبح عشرا وليحمد الله عشرا ويهلل عشرا وليقل الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ماقدمت وماأخرت وماأسررت وماأعلنت وماأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت[3] اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها[4] اللهم اهدني لأحسن الأعمال لايهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لايصرف عني سيئها إلا أنت[5] أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رءوفا رحيما ياخير المسئولين وأكرم المعطين[6]

ومحاسبة . ثم يصير متصوفا صاحب مراقبة ثم يصير صوفيا صاحب مشاهدة فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوف بالتشبه ولا يقصد أوائل مقاصدهم بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة في الزي والصورة دون السيرة والصفة فليس بمتشبه بالصوفية لأنه غير محاك لهم بالدخول في بداياتهم فإذن هو متشبه بالمتشبه يعتزى إلى القوم بمجرد لبسه ومع ذلك هم القوم لايشقى بهم جليسهم وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » . أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال أنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال ثنا عمر بن أحمد بن أبي عاصم قال ثنا إبراهيم بن محمد

(١) حديث سئل أي الليل أفضل قال نصف الليل الغابر أحمد وحب من حديث أبي ذر دون قوله الغابر وهي في بعض طرق حديث عمرو بن عنبسة .

(٢) (الأخبار الواردة في اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن في آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا)

أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقي فهي آثار رواها محمد بن نصر في قيام الليل من رواية سعيد الجريري قال :قال داود ياجبريل أي الليل أفضل قال ماأدري غير أن العرش يهتز من السحر وفي رواية له عن الجريري عن سعيد بن أبي الحسن قال إذا كان من السحر ألا ترى كيف تفوح ريح كل شجرة وله من حديث أبي الدرداء مرفوعا إن الله تبارك وتعالى لينزل في ثلاث ساعات بقين من الليل يفتتح الذكر في الساعة الأولى وفيه ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن الحديث وهو مثله (٣) حديث القول في قيامه للتهجد اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض ودون قوله ومن عليهن ومنك الحق (٤) حديث اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها أحمد باسناد جيد من حديث عائشة أنها فقدت النبي صلى الله عليه وسلم من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسي تقواها الحديث (٥) حديث اللهم اهدني لأحسن الأعمال لايهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لايصرف عني سيئها إلا أنت م من حديث علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة فذكره بلفظ لأحسن الأخلاق وفيه زيادة في أوله (٦) حديث أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المضطر الذليل الحديث الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس أنه كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عشية عرفة تقدم في الحج .

وقالت عائشة رضى الله عنها «كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم (١)» ثم يفتتح الصلاة ويصلى ركعتين خفيفتين ثم يصلى مثنى مثنى ماتيسر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة وقد صح فى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل أنه صلى أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة (٢) وسئلت عائشة رضى الله عنها أكان رسول الله ﷺ يجهر فى قيام الليل أم يسر فقالت ربما جهر وربما أسر (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة (٤)» وقال «صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل (٥)» وأكثر ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل ثلاث عشرة ركعة (٦) ويقرأ فى هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ماخف عليه وهو فى حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل . الورد الخامس : السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فان الله تعالى قال - وبالأسحار هم يستغفرون - قيل يصلون لما فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبا الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره (٧) فى حديث طويل قال فى آخره فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان نم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له نم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان قم الآن فقاما فصليا فقال إن لنفسك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لاينام الليل قال فأتيا النبى ﷺ فذكرا ذلك له فقال صدق سلمان وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب السحور وذلك عند خوف طلوع الفجر والوظيفة فى هذين الوردين الصلاة فاذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلى ركعتى الفجر وهو المراد بقوله تعالى - ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم - ثم - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة - إلى آخرها ثم يقول وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله تعالى وديعة وأسأله حفظها حتى يتوفانى عليها اللهم احطط عنى بها وزرا واجعلها لى عندك ذخرا واحفظها على وتوفنى عليها حتى ألقاك بها غير مبدل تبديلا فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك فى كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلت وعيادة مريض وشهود جنازة ففى الخبر

(١) حديث عائشة كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض الحديث رواه م (٢) حديث أنه صلى بالليل أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة م من حديث زيد بن خالد الجهنى (٣) حديث سئلت عائشة أكان يجهر رسول الله ﷺ فى قيام الليل أم يسر فقالت ربما جهر وربما أسر د ن ه باسناد صحيح (٤) حديث صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة متفق عليه وقد تقدم (٥) حديث صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل أحمد من حديث ابن عمر باسناد صحيح (٦) حديث القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فانه أكثر ماصح عنه تقدم (٧) حديث زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان نم فنام الحديث وفى آخره فقال صدق سلمان خ من حديث أبى جحيفة .

الشافعى قال ثنا على بن أحمد قال ثنا على بن على القدسى قال ثنا محمد ابن عبد الله بن عامر قال ثنا إبراهيم بن الأشعث قال ثنا فضيل ابن عياض عن سليمان الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق ويتبعون مجالس الذكر فاذا رأوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى عنان السماء فيقول الله وهو أعلم مايقول عبادى ؟ قالوا يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك فيقول وهل رأونى فيقولون لا فيقول كيف لو رأونى قالوا لو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيدا فيقول

«من

« من جمع بين هذه الأربع في يوم غفر له[1] » وفي رواية دخل الجنة فان أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته وكانوا يكرهون أن ينقضي اليوم ولم يتصدقوا فيه بصدقة ولو بتمرة أو بصلة أو كسرة خبز لقوله صلى الله عليه وسلم « الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس[2] » ولقوله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة[3] » ودفعت عائشة رضي الله عنها إلى سائل عنبة واحدة فأخذها فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت مالكم إن فيها لمثاقيل ذر كثير وكانوا لا يستحبون رد السائل إذ كان من أخلاق رسول الله ﷺ ذلك ماسأله أحد شيئا فقال لا ولكنه إن لم يقدر عليه سكت[4] وفي الخبر « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة يعني المفصل وفي جسده ثلثمائة وستون مفصلا فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضعيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإماطتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتهليل ثم قال وركعتا الضحى تأتي على ذلك كله أو تجمعن لك ذلك كله[5] » .

(بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال)

اعلم أن المريد لحرث الآخرة السالك لطريقها لا يخلو عن ستة أحوال فانه إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره . الأول : العابد وهو المتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلا ولو ترك العبادة لجلس بطالا فترتيب أوراده ماذكرناه ، نعم لا يبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما في الصلاة أو في القراءة أو في التسبيحات فقد كان في الصحابة رضي الله عنهم من ورده في اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة وأقل ما نقل في أورادهم من الصلاة مائة ركعة في اليوم والليلة وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم وكان بعضهم يقضي اليوم أو الليلة في التفكر في آية واحدة يرددها وكان كرز بن وبرة مقيما بمكة فكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعا وفي كل ليلة سبعين أسبوعا وكان مع ذلك يختم القرآن في اليوم والليلة مرتين فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ فان قلت فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد . فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائما مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به فلينظر المريد إلى قلبه فما يراه أشد تأثيرا فيه فليواظب عليه فإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات كما سبق والانتقال فيها من نوع إلى نوع لأن الملال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد في ذلك أيضا تختلف ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى فان سمع تسبيحة مثلا وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعا وقد روى عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلي على شاطئ البحر فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم ير أحدا فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت

ما يسألونني ؟ قالوا يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها قالوا لا فيقول كيف لو رأوها قالوا لو رأوها كانوا أشد لها طلبا وعليها أكثر حرصا قالوا ويتعوذون من النار فيقول وهل رأوها قالوا لا فيقول كيف لو رأوها قالوا كانوا أشد منها تعوذا وأشد فرارا فيقول أشهدكم أني قد غفرت لهم فيقول الملك فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة فيقول تبارك وتعالى هم الجلساء لا يشقى جليسهم » فلا يشقى جليس الصوفية والتشبه بهم والمحب لهم .

[الباب الثامن في ذكر اللاحق وشرح حاله] قال بعضهم اللاحق هو الذي لا يظهر خيرا ولا يضمر شرا وشرح هذا هو أن اللاحق تشربت عروقه طعم الإخلاص وتحقق

---

(١) حديث من جمع بين صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة في يوم غفر له وفي رواية دخل الجنة م من حديث أبي هريرة ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة (٢) حديث الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس تقدم في الزكاة (٣) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة تقدم في الزكاة (٤) حديث ماسأله أحد شيئا فقال لا إن لم يقدر عليه سكت م من حديث جابر والبزار من حديث أنس أو سكت (٥) حديث يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة الحديث م من حديث أبي ذر .

قلت فما اسمك قال مهلهيائيل قلت فما ثواب من قاله قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له والتسبيح هو قوله سبحان الله العلى الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان فهذا وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له فى قلبه وقعا فيلازمه وأيا ما وجد القلب عنده وقتح له فيه خير فليواظب عليه . الثانى : العالم الذى ينفع الناس بعلمه فى فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد فانه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ويحتاج إلى مدة لها لا محالة فان أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه فى فضيلة التعليم والتعلم فى كتاب العلم وكيف لا يكون كذلك وفى العلم المواظبة على ذكر الله تعالى وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة ورب مسئلة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعا وإنما نعنى بالعلم المقدم على العبادة العلم الذى يرغب الناس فى الآخرة ويزهدهم فى الدنيا أو العلم الذى يعينهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك دون العلوم التى تزيد بها الرغبة فى المال والجاه وقبول الخلق والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضا فان استغراق الأوقات فى ترتيب العلم لا يحتمله الطبع فينبغى أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه فى الورد الأول وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار فى الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علما لأجل الآخرة وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين فان صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا فى وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس فى عمل اللسان ورده الثانى فى عمل القلب بالفكر إلى الضحوة وورده الثالث إلى العصر فى عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة وورده الرابع بعد العصر فى عمل السمع ليروح فيه العين واليد فان المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب فى الجميع وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعى رضى الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثا للصلاة وهو الوسط وثلثا للنوم وهو الأخير وهذا يتيسر فى ليالى الشتاء والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا ما نستحبه من ترتيب أوراد العلم . الثالث : المتعلم والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكمه حكم العالم فى ترتيب الأوراد ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالافادة وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف ويرتب أوقاته كما ذكرنا وكل ما ذكرناه فى فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل بل إن لم يكن متعلما على معنى أنه يعلق ويحصل ليصير عالما بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التى ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفى سائر الأوقات ففى حديث أبى ذر رضى الله عنه « أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها

(١) حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث تقدم فى العلم .

قيل

بالصدق فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله . أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر ابن أبى الفضل المقدسى إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الشيرازى إجازة قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو قال سمعت على ابن إبراهيم وسألته عن الإخلاص ما هو قال سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو قال سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن على الجهيمى عن الإخلاص ما هو قال سألت عبد الواحد ابن زيد عن

فقيل يارسول الله وما رياض الجنة قال حلق الذكر(١) » وقال كعب الأحبار رضى الله عنه لوأن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذى إمارة إمارته وكل ذى سوق سوقه . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فاذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء فان الله عزوجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل للحسن رحمه الله أشكو إليك قساوة قلبي فقال أدنه من مجالس الذكر ورأى عمار الزاهدى مسكينة الطفاوية فى النام وكانت من المواظبات على حلق الذكر فقال مرحبا يامسكينة فقالت هيهات هيهات ذهبت المسكنة وجاء الغنى فقال هيه فقالت ماتسأل عمن أبيح لها الجنة بحذافيرها قال وبم ذلك قالت بمجالسة أهل الذكر ، وعلى الجملة فما ينحل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام زكى السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حب الدنيا . الرابع : المحترف الذى يحتاج إلى الكسب لعياله فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات بل ورده فى وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ولكن ينبغى أن لاينسى ذكر الله تعالى فى صناعته بل يواظب على التسبيحات والأذكار وقراءة القرآن فان ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل وإنما لايتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظورا فانه لايعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه ثم مهما فرغ من كفايته ينبغى أن يعود إلى ترتيب الأوراد وإن دوام على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التى ذكرناها لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمة والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له فى نفسه تقربه إلى الله تعالى ثم يحصل به فائدة للغير وتنجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر . الخامس الوالى مثل الامام والقاضى والمتولى لينظر فى أمور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الاخلاص أفضل من الأوراد المذكورة فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهارا ويقتصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل كما كان عمر رضى الله عنه يفعله إذ قال مالى وللنوم فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين ولو نمت بالليل ضيعت نفسى وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدنية أمران أحدهما العلم والآخر الرفق بالمسلمين لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل فى نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدى فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدمين عليه . السادس : الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذى أصبح وهمومه هم واحد فلا يحب إلا الله تعالى ولايخاف إلا منه ولايتوقع الرزق من غيره ولاينظر فى شئ إلا ويرى الله تعالى فيه فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحدا وهو حضور القلب مع الله تعالى فى كل حال فلا يخطر بقلوبهم أمر ولايقرع سمعهم قارع ولايلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد فلا محرك لهم ولامسكن إلا الله تعالى فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لازديادهم فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عزوجل كما قال تعالى ـ لعلكم تذكرون ـ ففروا إلى الله وتحقق فيهم قوله تعالى ـ وإذا اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ـ وإليه الاشارة بقوله ـ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ـ وهذه منتهى درجات الصديقين ولاوصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهرا طويلا فلا ينبغى أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر

---

(١) حديث إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها الحديث تقدم فى العلم .

الاخلاص ماهو قال سألت الحسن عن الاخلاص ماهو قال سألت حذيفة عن الاخلاص ماهو قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاخلاص ماهو قال « سألت جبرائيل عن الاخلاص ماهو قال سألت رب العزة عن الاخلاص ماهو قال هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالاخلاص يرون كتم الأحوال والأعمال ويتلذذون بكتمها حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته فالملامتى عظم وقع الاخلاص وموضعه وتمسك به معتدا به والصوفى غاب فى

عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لايهجس فى قلبه وسواس ولا يخطر فى قلبه معصية ولا تزعجه هواجم الأهوال ولاتستفزه عظائم الأشغال وأنى ترزق هـذه الرتبة لكل أحد فيتعين على الـكافة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ماذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى ـ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ـ فـكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض وفى الخبر « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلثمائة طريقة من لقى الله تعـالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة (١) » وقال بعض العلماء الإيمـان ثلثمائة وثلاثة عشر خلقا بعدد الرسل فـكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله فإذن الناس وإن اختلفت طرقهم فى العبادة فـكلهم على الصـواب ـ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ـ وإنما يتفاوتون فى درجات القرب فى أصله وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به وأعرفهم به لابد وأن يكون أعبدهم له فمن عرفه لم يعبد غيره . والأصل فى الأوراد فى حق كل صنف من الناس المداومة فان المراد منه تغيير الصفات الباطنة وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لايحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع فإذا لم يعقب العمل الواحد أثرا محسوسا ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحى الأثر الأول وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فانه لايصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير فلو بالغ ليلة فى التكرار وترك شهرا أو أسبوعا ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر هذا فيه ولو وزع ذلك القدر على الليالى المتواصلة لأثر فيه ولهذا السر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الأعمـال إلى الله أدومها وان قل (٢) » . وسئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبته (٣) » . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقته الله (٤) » وهـذا كان السبب فى صلاته بعد العصر تداركا لما فاته من ركعتين شغله عنهما الوفد ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولـكن فى منزله لافى المسجد كيلا يقتدى به (٥) روته عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . فان قلت فهل لغيره أن يقتدى به فى ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ . فاعلم أن المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى الـكراهية من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذرا من الملال لايتحقق فى حقه فلا يقاس عليه فى ذلك غيره ويشهد لذلك فعله فى المنزل حتى لايقتدى به صلى الله عليه وسلم .

إخلاصه عن إخلاصه . قال أبو يعقوب السوسى متى شهدوا فى إخلاصهم الاخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص وقال ذوالنون ثلاث من علامات الاخلاص استواء الذم والمدح من العامة ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمـال وترك اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أباعثمان المغربى يقول: الاخلاص مالا يكون للنفس فيه حظ بحال وهذا إخلاص العوام وإخلاص الخواص مايجرى عليهم لابهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولايقع لهم عليها رؤية ولابها اعتداد فذلك إخلاص

---

(١) حديث الإيمان ثلاث وثلاثون وثلثمائة طريقة من لقى الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة ابن شاهين واللالكائى فى السنة والطبرانى والبيهقى فى الشعب من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جـده الإيمـان ثلثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهن دخل الجنة وقال الطبرانى والبيهقى ثلثمائة وثلاثون وفى إسناده جهالة (٢) حديث أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث سئلت عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عمـلا أثبته رواه م (٤) حـديث من عوده الله عبادة فتركها ملالا مقته الله تقدم فى الصلاة وهو موقوف على عائشة (٥) حديث شغله الوفد عن ركعتين فصلاها بعد العصر ثم لم يزل يصليها بعـد العصر فى منزله متفق عليه من حـديث أم سلمة أنه صـلى بعد العصر ركعتين وقال شغلنى ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر ولهما من حديث عائشة ماتركهما حتى لقى الله وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصليهما ولا يصليهما فى المسجد مخافة أن يثقل على أمته ، والله الموفق للصواب .

(الباب الثاني في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل)

(فضيلة إحياء ما بين العشاءين)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها «إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصرين في الجنة (١)» . قال الراوي لا أدري من ذهب أو فضة «ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة» وروت أم سلمة وأبو هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر (٢)» وعن سعيد بن جبير عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الدنيا لوسعهم (٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرا في الجنة فقال عمر رضي الله عنه إذا تكثر قصورنا يا رسول الله فقال الله أكثر وأفضل أو قال أطيب (٤)» وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض إلى آخر الآية وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام في الركعة الثانية قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين بعدها إلى قوله ـ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله لله ما في السموات وما في الأرض إلى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة (٥)» وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن الحصر . وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال قلت للخضر عليه السلام علمني شيئا أعمله في كل ليلة

(الباب الثاني في الأسباب الميسرة لقيام الليل)

(١) حديث عائشة إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم الحديث رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصفار في كتاب الصلاة رواه الطبراني في الأوسط مختصرا وإسناده ضعيف (٢) حديث أم سلمة عن أبي هريرة من صلى ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر ت ه بلفظ اثنتي عشرة سنة وضعفه ت وأما قوله كأنه صلى ليلة القدر فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الصفار ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحدا وضعت له في عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر في المسجد الأقصى وسنده ضعيف (٣) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة لم أجد له أصلا من هذا الوجه وقد تقدم في الصلاة من حديث ابن عمر (٤) حديث من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى له قصرا في الجنة فقال عمر إذن تكثر قصورنا يا رسول الله الحديث ابن المبارك في الزهد من حديث عبد الكريم بن الحرث مرسلا (٥) حديث أنس من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد الحديث أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف

الخواص وهذا الذي فصله الشيخ أبو عثمان المغربي يفرق بين الصوفي والملامتي لأن الملامتي أخرج الخلق عن عمله وحاله ولكن أثبت نفسه فهو مخلص والصوفي أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره فهو مخلص وشتان ما بين المخلص الخالص والمخلص قال أبو بكر الزقاق نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلصا لا مخلصا قال أبو سعيد الخراز رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين ومعنى قوله إن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص والعارف منزه عن الرياء الذي يبطل

فقال إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصليا من غير أن تكلم أحدا وأقبل على صلاتك التي أنت فيها وسلم من كل ركعتين واقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثا فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدا وصل ركعتين واقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله تعالى سبع مرات وقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالسا وارفع يديك وقل ياحي ياقيوم ياذا الجلال والإكرام ياإله الأولين والآخرين يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يارب يارب يارب ياألله ياألله ياألله ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك وصل على النبي صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم فقلت له أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا فقال إني حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحي إليه به فكنت عنده وكان ذلك بمحضر مني فتعلمته ممن علمه إياه[1] وقيل إن هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يقين وصدق نية رأى رسول الله ﷺ في منامه قبل أن يخرج من الدنيا وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه وعلمه وعلى الجملة ماورد في فضل إحياء مابين العشاءين كثير حتى قيل لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان رسول الله ﷺ يأمر بصلاة غير المكتوبة قال مابين المغرب والعشاء[2] وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى مابين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين[3] » وقال الأسود ما أتيت ابن مسعود رضي الله عنه في هذا الوقت إلا ورأيته يصلي فسألته فقال نعم هي ساعة الغفلة. وكان أنس رضي الله عنه يواظب عليها ويقول هي ناشئة الليل ويقول فيها نزل قوله تعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع - وقال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سليمان الداراني أصوم النهار وأتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحيي ما بينهما فقال اجمع بينهما فقلت إن لم يتيسر قال أفطر وصل ما بينهما.

(فضيلة قيام الليل)

أما من الآيات فقوله تعالى - إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل - الآية وقوله تعالى - إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا - وقوله سبحانه وتعالى - تتجافى جنوبهم عن المضاجع - وقوله تعالى - أمن هو قانت آناء الليل - الآية وقوله عز وجل - والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما - وقوله تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - قيل هي قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس. ومن الأخبار: قوله صلى الله عليه وسلم « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان[4] ».

العمل ولكن لعله يظهر شيئا من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد أو معاناة خلق من أخلاق النفس في إظهار الحال والعمل وللعارفين في ذلك علم دقيق لايعرفه غيرهم فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء إنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه. قال رويم: الإخلاص أن لايرضى صاحبه عليه عوضا في الدارين ولا حظا من الملكين. وقال بعضهم صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق واللامق يرى الخلق فيخفي عمله وحاله وكل ما ذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفي ولهذا قال الزقاق لابد لكل مخلص من رؤية

(١) حديث كرز بن وبرة أن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء وفيه أن كرزا سأل الخضر ممن سمعت هذا قال إني حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حين علم هذا الدعاء الحديث وهذا باطل لا أصل له (٢) حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة قال مابين المغرب والعشاء رواه أحمد وفيه رجل لم يسم (٣) حديث من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين تقدم في الصلاة (٤) حديث يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وفي الخبر « أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال ذاك رجل بال الشيطان في أذنه[1] » وفي الخبر « إن للشيطان سعوطا ولعوقا وذرورا فإذا أسعط العبد ساء خلقه وإذا ألعقه ذرب لسانه بالشر وإذا ذره نام الليل حتى يصبح[2] » وقال صلى الله عليه وسلم « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا ومافيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم[3] » وفي الصحيح عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه » وفي رواية « يسأل الله تعالى خيرا من الدنيا والآخرة وذلك في كل ليلة » وقال المغيرة بن شعبة قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له أما قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا[4] ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فان الشكر سبب المزيد قال تعالى ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ وقال صلى الله عليه وسلم « ياأباهريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا ومبعوثا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ياأباهريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجم عند أهل الدنيا[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم فان قيام الليل قربة إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الإثم[6] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن امرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه[7] » وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر « لو أردت سفرا أعددت له عدة قال نعم قال فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك ياأباذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بأبي أنت وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور وحج حجة لعظائم الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها[8] »

(١) حديث ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال ذاك بال الشيطان في أذنه متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث إن للشيطان سعوطا ولعوقا وذرورا الحديث طب من حديث أنس إن للشيطان لعوقا وكحلا فاذا لعق الانسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كحله من كحله نامت عيناه عن الذكر ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب وسندهما ضعيف (٣) حديث ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا ومافيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم ـ آدم بن أبي إياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلا ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح (٤) حديث المغيرة بن شعبة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه الحديث متفق عليه (٥) حديث ياأباهريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ياأباهريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا باطل لا أصل له (٦) حديث عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم الحديث ت من حديث بلال وقال غريب ولا يصح ورواه طب وهق من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال ت إنه أصح (٧) حديث مامن امرئ يكون له صلاة بالليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه د ن من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم سماه ن في رواية الأسود بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرازي قال ن ليس بالقوي ورواه ن ه من حديث أبي الدرداء نحوه بسند صحيح وتقدم في الباب قبله (٨) حديث إنه قال لأبي ذر لو أردت سفرا أعددت له عدة فكيف بسفر طريق القيامة ألا أنبئك ياأباذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بأبي وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب التهجد من رواية السري بن مخلد مرسلا والسري ضعفه الأزدي.

إخلاصه وهو نقصان عن كمال الإخلاص والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتي به على التمام. قال جعفر الخلدي سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله قلت أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال نعم الصدق أصل وهو الأول والاخلاص فرع وهو تابع وقال بينهما فرق لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل ثم قال إنما هو إخلاص ومخالصة الاخلاص ومخالصة كائنة في المخالصة فعلى هذا الاخلاص حال اللامتي ومخالصة الاخلاص حال الصوفي والخالصة الكائنة من المخالصة ثمرة مخالصة الاخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه بل غيبته عن رؤية

وروى « أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول يارب النار أجرني منها فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إذا كان ذلك فآذنوني فأتاه فاستمع فلما أصبح قال يافلان هلا سألت الله الجنة قال يارسول الله اني لست هناك ولايبلغ عملي ذاك فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال أخبر فلانا أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة(١) » وروى « أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل (٢) » قال نافع كان يصلي بالليل ثم يقول يانافع أسحرنا فأقول لا فيقوم لصلاته ثم يقول يانافع أسحرنا فأقول نعم فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر . وقال علي بن أبي طالب شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه يايحيى أوجدت دارا خيرا لك من داري أم وجدت جوارا خيرا لك من جواري فوعزتي وجلالي يايحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقا ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح . « وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال سينهاه مايعمل(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فان أبت نضح في وجهها الماء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى فان أبى نضحت في وجهه الماء » وقال صلى الله عليه وسلم « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل (٦) » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « من نام عن حزبه أو عن شيء منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل(٧) » . الآثار روى أن عمر رضي الله عنه كان يمر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح ، ويقال إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله فقام تلك الليلة حتى أصبح وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه تتقلى عليه كما تقلى الحبة على المقلاة ثم يثب ويصلي إلى الصباح ثم يقول طير ذكر جهنم نوم العابدين ، وقال الحسن رحمه الله مانعلم عملا أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال فقيل له مابال المتهجدين من أحسن الناس وجوها قال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وقدم بعض الصالحين من سفره فمهد له فراش فنام عليه

قيامه وهو الاستغراق في العين عن الآثار والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفي والملامتي مقيم في أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة خلاصه وهذا فرق واضح بين الملامتي والصوفي ولم يزل في خراسان منهم طائفة ولهم مشايخ يعهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتهر بهذا الاسم وقلما يتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم . حكي أن بعض الملامتية استدعي إلى سماع فامتنع فقيل له في ذلك فقال لأني إن حضرت يظهر علي وجد ولا أوثر أن يعلم أحد حالي . وقيل إن أحمد بن أبي الحواري

(١) حديث أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول يارب النار أجرني منها فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إذا كان ذلك فآذنوني الحديث لم أقف له على أصل (٢) حديث أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك وليس فيه ذكر لجبريل (٣) حديث قيل له إن فلانا يصلي بالليل فاذا أصبح سرق قال سينهاه مايقول ، ابن حبان من حديث أبي هريرة (٤) حديث رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت الحديث د حب من حديث أبي هريرة (٥) حديث من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات د ن من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح (٦) حديث أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل م من حديث أبي هريرة (٧) حديث عمر من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل رواه م .

حتى فاته ورده فحلف أن لاينام بعدها على فراش أبدا وكان عبد العزيز بن أبى روّاد إذاجنّ عليه الليل يأتى فراشه فيمر يده عليه ويقول إنك لين ووالله إن فى الجنة لألين منك ولا يزال يصلى الليل كله وقال الفضيل إنى لأستقبل الليل من أوله فيهولنى طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتى وقال الحسن إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وقال الفضيل إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلى الليل كله فإذا كان فى السحر قال إلهى ليس مثلى يطلب الجنة ولكن أجرنى برحمتك من النار وقال رجل لبعض الحكماء إنى لأضعف عن قيام الليل فقال له يا أخى لاتعص الله تعالى بالنهار ولاتقم بالليل وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان فى جوف الليل قامت الجارية فقالت ياأهل الدار الصلاة الصلاة فقالوا أصبحنا أطلع الفجر فقالت وما تصلون إلا المكتوبة قالوا نعم فرجعت إلى الحسن فقالت يامولاى بعتنى من قوم لايصلون إلا المكتوبة ردنى فردها وقال الربيع بت فى منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا وقال أبو الجويرية لقد صحبت أباحنيفة رضى الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل فمرّ بقوم فقالوا إن هذا يحيى الليل كله فقال إنى أستحى أن أوصف بما لا أفعل فكان بعد ذلك يحيى الليل كله ويروى أنه ماكان له فراش بالليل ويقال إن مالك بن دينار رضى الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح ـ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ الآية . وقال المغيرة بن حبيب رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة فجعل يقول اللهم حرم شيبة مالك على النار إلهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأى الرجلين مالك وأى الدارين دار مالك فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر وقال مالك بن دينار سهوت ليلة عن وردى ونمت فإذا أنا فى المنام بجارية كأحسن ما يكون وفى يدها رقعة فقالت لى أتحسن تقرأ فقلت نعم فدفعت إلىّ الرقعة فإذا فيها :

أألهتك اللذائذ والأمانى ... عن البيض الأوانس فى الجنان
تعيش مخلدا لاموت فيها ... وتلهو فى الجنان مع الحسان
تنبه من منامك إن خيرا ... من النوم التهجد بالقران

وقيل حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجدا ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال رأيت فى النام امرأة لاتشبه نساء أهل الدنيا فقلت لها من أنت قالت حوراء فقلت زوجينى نفسك فقالت اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى فقلت وما مهرك قالت طول التهجد . وقال يوسف بن مهران بلغنى أن تحت العرش ملكا فى صورة ديك براثنه من لؤلؤ وصئصئه من زبرجد أخضر فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقم المتهجدون فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقم المصلونَ فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم وقيل إن وهب بن منبه اليمانى ماوضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول لأن أرى فى بيتى شيطانا أحب إلىّ من أن أرى فى بيتى وسادة لأنها تدعو إلى النوم وكانت له مسورة من أدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع إلى الصلاة وقال بعضهم رأيت ربّ العزة فى النوم فسمعته يقول وعزتى وجلالى لأكرمن مثوى سليمان التيمى فإنه صلى لى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة ويقال كان مذهبه

قال لأبى سليمان الدارانى إنى إذا كنت فى الخلوة أجد لمعاملتى لذة لا أجدها بين الناس فقال له إنك إذا لضعيف فالملاحق وإن كان متمسكا بعروة الإخلاص مستفرشا بساط الصدق ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق والصوفى صفا من هذه البقية فى طرفى العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ورآهم بعين الفناء والزوال ولاح له ناصية التوحيد وعاين سر قوله ـ كل شىء هالك إلا وجهه ـ كما قال بعضهم فى بعض غلباته ليس فى الدارين غير الله وقد يكون إخفاء اللاحق الحال أعلى وجهين أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص

أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال إن عبدي الذي هو عبدي حقا الذي لا ينتظر بقيامه صياح الديكة .

(بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل)

اعلم ان قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا . فأما الظاهرة فأربعة أمور . الأول : أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتتحسروا عند الموت كثيرا وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام . الثاني أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فان ذلك أيضا مجلبة للنوم . الثالث : أن لا يترك القيلولة بالنهار فانها سنة للاستعانة على قيام الليل (١) . الرابع : أن لا يحتقب الأوزار بالنهار فان ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . قال رجل للحسن يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري فما بالي لا أقوم فقال ذنوبك قيدتك وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فانهم لا يقيلون وقال الثوري حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل وما ذاك الذنب قال رأيت رجلا يبكي فقلت في نفسي هذا مراء وقال بعضهم دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي فقلت أتاك نعي بعض أهلك فقال أشد فقلت وجع يؤلمك قال أشد قلت فما ذاك قال بابي مغلق وستري مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير ولذلك قال أبو سليمان الداراني لا تفوت أحدا صلاة الجماعة إلا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة بعد وقال بعض العلماء إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر وعلى أي شيء تفطر فان العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام . وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له ولذلك قال بعضهم كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة وان العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات وقال بعض السجانين كنت سجانا نيفا وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء في جماعة فكانوا يقولون لا وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطي الفحشاء والمنكر .

(وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور)

الأول : سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يجول إلا في وساوسه وفي مثل ذلك يقال :

يخبرني البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضا فنائم

الثاني : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل فانه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره كما قال طاوس إن ذكر جهنم طير نوم العابدين وكما حكي أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيدته إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار فقال إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال إذا ذكرت النار اشتد خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقي فلا أقدر أن أنام ، وقال ذو النون المصري رحمه الله :

(١) حديث الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل هـ من حديث ابن عباس وقد تقدم .

والصدق والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة فان من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه وهذا وإن علا ففي طريق الصوفي علة ونقص فعلى هذا يتقدم الملامتي على المتصوف ويتأخر عن الصوفي وقيل إن من أصول الملامتية أن

منع القرآن بوعده ووعيده مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليه تخضعا

وأنشدوا أيضا :

ياطويل الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحسرات
إن فى القبر إن نزلت إليه لرقادا يطول بعد الممات
ومهادا ممهدا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت البيات من ملك المو ت وكم نال آمنا بييات

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

الثالث : أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة فى درجات الجنان كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصلى حتى أصبح فقالت له زوجته كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح قال والله إنى كنت أتفكر فى حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتى شوقا إليها . الرابع وهو أشرف البواعث الحب لله وقوة الإيمان بأنه فى قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه فاذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام ولا ينبغى أن تستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل فأما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو الملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به فى الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله . فان قلت : إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وان الله تعالى لا يرى . فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان فى بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع فى أمر آخر سواه وكان يتنعم باظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه وان كان ذلك أيضا معلوما عنده . فان قلت : إنه ينتظر جوابه فيتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى . فاعلم أنه كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة فى عرض أحواله عليه ورفع سريرته إليه كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره فى أثناء مناجاته فيتلذذ به وكذا الذى يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته فى جنح الليل يتلذذ به فى رجاء إنعامه والرجاء فى حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه فى الخلوات . وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل فى تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم كيف أنت والليل قال ما راعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته بعد . وقال آخر أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقنى إلى الفجر ومرة يقطعنى عن الفكر . وقيل لبعضهم كيف الليل عليك فقال ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء وأغتم بفجره إذا طلع ما تم فرحى به قط . وقال على بن بكار منذ أربعين سنة ما أحزننى شىء سوى طلوع الفجر وقال الفضيل بن عياض إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتى بربى وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على وقال أبو سليمان أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا وقال أيضا لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم

الذكر على أربعة أقسام ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالسر وذكر بالروح فاذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر وذلك ذكر المشاهدة وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر وذلك ذكر الهيبة وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر وذلك ذكر الآلاء والنعماء وإذا غفل

مايجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم وقال بعض العلماء ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا مايجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة وقال بعضهم لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لايجدها سواهم . وقال ابن المنكدر : مابقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة ، وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين ، وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عبادا من عبادي أحبهم ويحبونني ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكرهم وينظرون إليّ وأنظر إليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وماعلاماتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليّ أقدامهم وافترشوا إليّ وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليّ بإنعامي فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، بعيني مايتحملون من أجلي وبسمعي مايشتكون من حبي أول ماأعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات السبع والأرضون السبع ومافيهما في موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ماأريد أن أعطيه ، وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عز وجل وكانوا يرون لايجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتحقيق سيأتي الإشارة إليه في كتاب المحبة ، وفي الأخبار عن الله عز وجل « أي عبدي أنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري » وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه يابني إن لله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطئ القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات فقال ياسيدي تركتني لاأنام بالليل ولا بالنهار .

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل ، وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن من الليل ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه (١) » وفي رواية أخرى « يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » ومطلوب القائمين تلك الساعة وهي مبهمة في جملة الليل كليلة القدر في شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة النفحات المذكورة والله أعلم .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل : اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب . الأولى : إحياء كل الليل وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى وتلذذوا بمناجاته وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردّوا المنام إلى النهار في وقت اشتغال الناس وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء . حكى أبو طالب المكي أن ذلك حكي على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واظب عليه أربعين سنة قال منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم المدنيان وفضيل بن عياض ووهيب بن الورد المكيان وطاوس ووهب بن منبه اليمانيان والربيع بن خيثم والحكم الكوفيان وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكار الشاميان وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العباديان وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلماني الفارسيان

(١) حديث جابر : إن من الليل ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة ، رواه م .

القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه أو طلب ثوابه أو ظن أنه يصل إلى شيء من المقامات وأقل الناس قيمة عندهم من يريد

ومالك

ومالك بن دينار وسليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء البصريون وكهمس بن المنهال وكان يختم في الشهر تسعين ختمة وما لم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى وأيضا من أهل المدينة أبو حازم ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم . المرتبة الثانية : أن يقوم نصف الليل وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل . المرتبة الثالثة : أن يقوم ثلث الليل فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب النعاس بالغداة وكانوا يكرهون ذلك ويقلل صفرة الوجه والشهرة به فلو قام أكثر الليل ونام سحرا قلت صفرة وجهه وقل نعاسه ، وقالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فان كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة(١) » وقالت أيضا رضي الله عنها « ما ألفيته بعد السحر إلا نائما (٢) » حتى قال بعض السلف هذه الضجعة قبل الصبح سنة منهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان نوم هذا الوقت سببا للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير ، ونوم السدس الأخير قيام داود صلى الله عليه وسلم . المرتبة الرابعة : أن يقوم سدس الليل أو خمسه وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه . المرتبة الخامسة : أن لا يراعي التقدير فان ذلك إنما يتيسر لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوقظه ثم ربما يضطرب في ليالي الغيم ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فاذا انتبه قام فاذا غلبه النوم عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدة الليل وأشد الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) ، وهو طريقة ابن عمر وأولي العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضي الله عنهم وكان بعض السلف يقول هي أول نومة فاذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لي عينا فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان

إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك وسر هذا الأصل الذي بنواعليه أن ذكر الروح ذكر الذات وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات وذكر النفس متعرض للعلات لمعنى قولهم اطلاع السر على الروح يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات وذكر الهيبة

---

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فان كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذن بالصلاة م من حديث عائشة كان ينام أول الليل ويحيي آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام وقال النسائي فاذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فاذا كان له حاجة ألم بأهله ، ولأبي داود كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فان كنت مستيقظة حدثني وإن كنت نائمة أيقظني وصلى الركعتين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاة الصبح فيصلي ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة وهو متفق عليه بلفظ : كان إذا صلى فان كنت مستيقظة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة ، وقال م إذا صلى ركعتي الفجر (٢) حديث عائشة ما ألفيته السحر الأعلى إلا نائما متفق عليه بلفظ ما ألفى رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر الأعلى في بيتي أو عندي إلا نائما لم يقل خ الأعلى وقال هـ ما كنت ألفى أو ألقى النبي صلى الله عليه وسلم من آخر الليل إلا وهو نائم عندي (٣) حديث قيامه أول الليل إلى أن يغلبه النوم فاذا انتبه قام فاذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان د ت وصححه و هـ من حديث أم سلمة كان يصلي وينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح ، وللبخاري من حديث ابن عباس صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام ثم قام وفيه فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمع غطيطه الحديث .

يقوم نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه أو سدسه (١) يختلف ذلك فى الليالى ودلّ عليه قوله تعالى فى الموضعين من سورة المزمل ـ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ـ فأدنى من ثلثى الليل كأنه نصفه ونصف سدسه فان كسر قوله ونصفه وثلثه كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائشة رضى الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ (٢) يعنى الديك وهذا يكون السدس فما دونه وروى غير واحد أنه قال راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال : ربنا ماخلقت هذا باطلا حتى بلغ إنك لاتخلف الميعاد ثم استل من فراشه سواكا فاستاك به وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل الذى نام ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ماصلى ثم استيقظ فقال ماقال أول مرة وفعل مافعل أول مرة (٣) . الرتبة السادسة : وهى الأقل أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين أو تتعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلا بالذكر والدعاء فيكتب فى جملة قوام الليل برحمة الله وفضله وقد جاء فى الأثر صلّ من الليل ولو قدر حلب شاة (٤) فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه مايراه أيسر عليه وحيث يتعذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل إحياء مابين العشاءين والورد الذى بعد العشاء ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح نائما ويقوم بطرفى الليل وهذه هى الرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره وأما فى الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما إلى القدر فليس يجرى أمرها فى التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ماذكرناه فى السادسة ولا الخامسة دون الرابعة .

(بيان الليالى والأيام الفاضلة)

اعلم أن الليالى المخصوصة بمزيد الفضل التى يتأكد فيها استحباب الاحياء فى السنة خمس عشرة ليلة

فى ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة وهو وجود الهيبة ووجود الهيبة يستدعى وجودا وبقية وذلك يناقض حال الفناء وهكذا ذكر السر وجودهيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب وذكر القلب الذى هوذكر الآلاء والنعماء مشعر يعدما لأنه اشتغال بذكر النعمة وذهول عن النعم والاشتغال

(١) حديث ربما كان يقوم نصف الليل أوثلثه أوثلثيه أو سدسه ، الشيخان من حديث ابن عباس قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل أوقبله بقليل أوبعده بقليل استيقظ الحديث وفى رواية للبخارى فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء الحديث ولأبى داود قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ الحديث لمسلم من حديث عائشة فيبعثه الله ماشاء أن يبعثه من الليل .
(٢) حديث عائشة كان يقوم إذا سمع الصارخ متفق عليه (٣) حديث غير واحد قال راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك حتى بلغ إنك لاتخلف الميعاد ثم استل من فراشه سواكا فاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل مانام الحديث ن من رواية حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال قلت وأنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأرقبن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن مغيث فى كتاب الصلاة من رواية اسحق بن عبدالله بن أبى طلحة أن رجلا قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث وفيه أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل وهذا يدل أنه أيضا كان فى سفر (٤) حديث صلّ من الليل ولو قدر حلب شاة أبو يعلى من حديث ابن عباس فى صلاة الليل مرفوعا نصفه ثلثه ربعه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة ولأبى الوليد بن مغيث من رواية إياس بن معاوية مرسلا لابد من صلاة الليل ولو حلبة ناقة أو حلبة شاة .

لا ينبغي أن يغفل المريد عنها فانها مواسم الخيرات ومظان التجارات ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح فستة من هذه الليالي فى شهر رمضان: خمس فى أوتار العشر الأخير إذ فيها تطلب ليلة القدر وليلة سبع عشرة من رمضان فهى ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فيه كانت وقعة بدر وقال ابن الزبير رحمه الله هى ليلة القدر . وأما التسع الأخر فأول ليلة من المحرم وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه وليلة سبع وعشرين منه وهى ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة فقد قال صلى الله عليه وسلم «للعامل من هذه الليلة حسنات مائة سنة [1]» فمن صلى فى هذه الليلة اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد فى كل ركعتين ويسلم فى آخرهن ثم يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يستغفر الله مائة مرة ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائما فان الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو فى معصية ، وليلة النصف من شعبان ففيها مائة ركعة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة الاخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها كما أوردناه فى صلاة التطوع وليلة عرفة وليلتا العيدين قال صلى الله عليه وسلم «من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب [2]» . وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة ويوم عاشوراء ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا [3]» وهو اليوم الذى أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ويوم سبعة عشر من رمضان وهو يوم وقعة بدر ويوم النصف من شعبان ويوم الجمعة ويوما العيدين . والأيام المعلومات وهى عشر من ذى الحجة والأيام المعدودات وهى أيام التشريق وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة [4]» وقال بعض العلماء من أخذ مهناة فى الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناة فى الآخرة وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء . ومن فواضل الأيام فى الأسبوع يوم الخميس والاثنين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام فى كتاب الصوم فلا حاجة إلى الاعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين .

رؤية العطاء عن رؤية المعطي ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس نظرا إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل وذلك عين الاعتدال حقيقة وهذه أقسام هذه الطائفة وبعضها أعلى من بعض ، والله أعلم .

---

(١) حديث الصلاة المأثورة فى ليلة السابع والعشرين من رجب ذكر أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل الأيام والليالى أن أبا محمد الجبارى رواه من طريق الحاكم أبى عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعا ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جدا والحديث منكر (٢) حديث من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب ـه باسناد ضعيف من حديث أبى أمامة (٣) حديث أبى هريرة من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذى هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم رواه أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل الليالى والأيام من رواية شهر بن حوشب عنه (٤) حديث أنس إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة تقدم فى الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد رواه بجملته ابن حبان فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .

(تم الجزء الأول من « كتاب إحياء علوم الدين » ويتلوه : الجزء الثانى)

فهرس

الجزء الأول

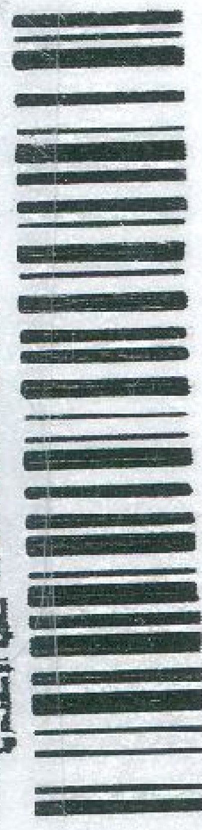
من كتاب إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الامام الغزالى

صفحة

صفحة

فهرس

مابهامش الجزء الأول من إحياء علوم الدين


Bibliotheca Alexandrina
0706129